

منشورات وزارة الثقافة (٢٢)

دي لاسي أوليري

جزيرة العرب قبل البعثة

ترجمه وعلق عليه

موسى علي الغول

المملكة الاردنية الهاشمية - عمان

١٩٩٠

اوليري ، دي لاسي **إيڤانس**

جزيرة العرب قبل البعثة / دي لاسي**إيڤانس** اوليري ، ترجمة وتعليق موسى علي الغول .ـ عمان : وزارة الثقافة ، **١٩٩٠** .
٢٨٤ص .ـ (منشورات وزارة الثقافة ؛ ٢٢)
ر . أ . (**١٩٩٠/٢/٧٥**)

١ . الجزيرة العربية ـ تاريخ ـ العصر الجاهلي ٢ . موسى علي الغول، مترجم ومعلق ب . العنوان جـ . السلسلة

DDC	LC	UDC
9A0.2	DS231 0512 1990	953.2

الطبعة الاولى

شباط ١٩٩٠

رسم الخرائط التوضيحية وتصميم الغلاف : الفنان مروان الغول .

الإهــداء ....

إلى روح المرحــوم أخي...
الدكتور محمـود علي الغـول...
رفيـق دربي مع هـذا الكتـاب .

فهرست الكتاب

الفصل الخامس : الممالك العربية الجنوبية

الفصل السادس : التجارة العربية في عهد جستنيان

الفصل السابع : النصرانية والعرب

الفصل الثامن : عرب الدول الحدودية

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، وبعد

فهذا تقديم لترجمة كتاب الباحث الدكتور دي لاسي أوليري **De Lacy O'leary** الذي سماه «بلاد العرب قبل محمد» **Arabia Before Muhammad** واخترت له اسم «جزيرة العرب قبل البعثة» ولهذا قصة بعيدة، فقد بدأت هذه الترجمة ليلة الجمعة في ١٩٤٥/٢/٨ في بلدتي سلوان. وأتممت ترجمة أكثر من نصف الكتاب بعد سنة. وتوقفت ٤١ سنة حتى التقيت بالاخ الاستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد في ساعة رضا، في نيسان ١٩٨٧م، فشجعني على إتمام الترجمة. فنشطت وأتممت الترجمة هذه وعلقت عليها بعقلية جديدة ووعي أوفر ورب ضارة نافعة.

يسير الكتاب كما سنرى على نسق واضح ومنهج مدروس يهدف إلى إثبات أن عرب الجزيرة قبل الإسلام لم يكونوا في جاهلية جهلاء كما يحاول الكثير أن يصفهم بذلك، بل يسايرهم أوليري في انطباق هذا الوصف على البدو من سكان تلك الرقعة الواسعة قبل أن تغزوهم الثقافة الأجنبية عبر عوامل ثلاثة تصدى المؤلف لابراز أثرها في فصول الكتاب. وهذه العوامل الثلاثة هي: الغزو الاجنبي والطرق التجارية والمستوطنات الحدودية أو الدينية.

وسيرى القارىء أني أوضحت كثيرا من هذه الآراء في الهوامش مع بيان المراجع حيث يلزم وجعلت ما ورد في الهوامش بمثابة تعليقات أولية قد تصلح مفتاحا لمن أراد تحقيق هذا الكتاب المترجم بشكل موسع مع المقارنة مع غيره من الكتب التي صدرت تحت عناوين وأسماء مشابهة أو مادة مماثلة مما قد يبدو أنها ترجمة لكثير من آراء أوليري التي قد تكون استهوتهم لأنها جديدة ومخالفة لواقع التاريخ العربي وكتبه، فظنوها وثائق مادامت صادرة عن مستشرق، دون محاكمتها أو مناقشتها. وأمثلة ذلك كثيرة مثل الخلط بين الأحابيش والأحباش وتفسير سورة الفيل وأصحاب الأخدود وأصل سبأ وغير ذلك مما هو مبين في مواضعه وكذلك أسباب تدخل القوى الاجنبية التي حادت عن كل منطق،وحسبان المستوطنات خصوصا المواقع اليهودية والنصرانية مراكز أجنبية مثل نجران والمدينة وخيبر وفدك ووادي القرى وتيماء. مع أن أهلها عرب تهودوا أو تنصروا دون أن ينسوا لغتهم وعاداتهم القبلية ومنهم الشعراء مثل السموأل الأزدي اليهودي ومحمد بن حمران الجعفي

النصراني (قبل الإسلام) ، وأن الذي بشر بهاتين الديانتين عرب مثل فيميون اليعقوبي السوري، وحبرّي أسعد تبان كرب اليثربيين اللذين استعان بهما في تعليم اليهوّدية لقومه.

ولا ننسى أن المؤلف من المستشرقين الذين وصفهم الدكتور حسين مؤنس بقوله «إنه (المستشرق) يكتب لبني جلدته، يعني من وجهة نظره هو ليخدم جماعته» . فلا يستغرب أن تصدر أحكام جائرة أو تمرر افتراضات سطحية من بعض الكتاب الأوروبيين في أمور أوقعهم فيها تشابه الكلمات لفظاً أو تركيباً أو معنى أحياناً دون مراعاة للزمن الذي وقع فيه الحادث كما سترى في ثنايا الكتاب وهوامشه.

في ضوء هذه الحقيقة حقيقة أن المستشرقين يكتبون لجماعتهم بالدرجة الأولى، يسهل فهم مواطن التشكيك دون فرضها على القارىء خصوصا ما يتعلق بأصل الأقوام الحالة في الجزيرة العربية أو النازحة منها على شكل هجرات للحبشة وشمالي افريقيا واسبانيا، وما يتعلق بالأمم السامية واللغات السامية وأمها العربية.

يصف هذا الكتاب وضع بلاد العرب في فترة الجاهلية العربية وبشكل خاص الفترة التي سبقت قيام النصرانية والتي تلت ذلك حيث بشر عيسى عليه السلام بنبي يأتي من بعده اسمه أحمد ـ فكانت تلك المسافة غير قصيرة سميت بالعصر الجاهلي الذي لم يظهر فيه النبي المنتظر والذي جاء في وقته وعلى فترة من الرسل. وقد ألفه مستشرق عالم بالعربية وأخواتها اللغات السامية الاخرى.

ويبدو من الكتاب أن المؤلف بذل جهداً مشكوراً في ربط أوضاع الجزيرة من حيث علاقتها بالعوامل الثلاثة التي صدر بها هذا الكتاب. والناظر في قائمة مراجعه التي زادت على ٣٠٠ كتاب لا يسعه الا أن يقدر الجهد الذي صرفه المؤلف في استخلاص خير ما فيها وتقديمه للقارىء بعد أن درسها بلغاتها الأصلية التي تشمل الانجليزية والفرنسية والألمانية واللاتينية والسريانية والعربية.

ولم ينس أن يراجع كتب التاريخ العربية أمثال:

سيرة ابن هشام، والأغاني والكامل في التاريخ لابن الأثير والهمذاني والمسعودي والطبري والدينوى وأبي الفداء وابن حوقل وياقوت الحموي والإدريسي وابن جبير والمقريزي وابن سعد والبغوي واليعقوبي وغيرهم.

ويلاحظ أن بين هذه المراجع ما يحمل نفس اسم الكتاب ولكن بالفرنسية أو الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر. وهذا الكتاب هو الوحيد الذي صدر بالانجليزية في موضوعه

وذلك في سنة ١٩٢٧ في لندن.

ولن يفوتني أن أنقل في هذا المدخل ما كتبه النقاد الأجانب على هذا الكتاب بعد صدوره سنة ١٩٢٧ في لندن مما لا يقلل من قيمة الكتاب.

جاء في فصلية «العالم الإسلامي» المجلد الثامن عشر ص٩٤ سنة ١٩٢٨ على لسان المستشرق الكبير صامويل زويمر محرر هذه الدورية... ما يلي:ـ «**بلاد العرب قبل محمد**»: تأليف دي لاسي أوليري لندن ١٩٢٧ في ٢٣٤ صفحة... يعتبر دكتور أوليري علامة في العربية. لذا فإن المرء يتوقع الذروة في مثل هذا الموضوع الذي لم يصدر بشأنه أي كتاب جيد باللغة الإنجليزية، خصوصاً وأن المصادر المتيسرة لمثل هذه المعالجة الشاملة متيسرة وبعضها حديث. وقد أصبح متيسرا لدارس الإسلام ومنابعه جميع الوسائل الاثارية واللغوية والمعلومات الجغرافية المتوافرة عن شبه جزيرة العرب مما يسهل عليه تقديم أبحاث متميزة. ولقد غاص الباحث في أكثر من ثلاثمائة مرجع من أمهات الكتب بعدة لغات تدل على سعة إطلاعه كما ورد في الكتاب وملحقاته. وقد شملت فصوله الاثنا عشر جغرافية جزيرة العرب وعلاقات أهلها بالمصريين وبلاد ما بين النهرين والهند، ثم ممالك الجنوب العربي والغزو النصراني واليهودي، ومكة تجارياً، وديانات الجاهلية في الحجاز بشكل خاص. ويختمها بفصل قصير عن مصادر حياة محمد: وللأسف فإن الفصلين الأخيرين هزيلان: فهما مختصران متداعيان وغير مترابطين. ويختم هذا الكتاب بالعبارة التالية التي يقول فيها:ـ «... لقد تبين لنا أن بلاد العرب قبل الإسلام لم تكن متقوقعة على نفسها أو منعزلة، وأن انعزالها المتأخر عائد في الحقيقة إلى أثر الإسلام في العصر العباسي والأزمان التي تلته، وأن الإسلام نتيجة لذلك، لم ينتشر بين القبائل البعيدة إلا بنسبة من اتصال، لا يكاد يبين، بالعالم الخارج عن دائرتهم وضمن المد العام لحضارة آسيا الغربية. كذلك لم تكن العربية لهجة محافظة على نقائها وصفائها نتيجة لبعد القبائل، بل تأثرت إلى حد لا بأس به بسبب الاحتكاك الدائم محتفظة بسمات حضارتها الأصلية المنتشرة من دجلة إلى شرقي افريقيا. أهـ.

ويستطرد ص. زويمر فيقول «أما الخرائط الثلاث فهي مبعث خيبة، فمعلوماتها زهيدة، وكان أولى أن يقوم مقامها كلها خريطة واحدة جيدة لبلاد العرب القديمة. ناهيك عن الأخطاء الغريبة التي لابد أن يكون بعضها أخطاء مطبعية مثل الوثن، والسعي، وأن رمي الجمار (الرجم) هو أصل تسمية ابليس بالشيطان الرجيم... ونقرأ في صفحة ٢١٤ قوله «لا تشكل حياة النبي أي جزء من دراسة العقيدة الإسلامية، وإنما تركت كلية لمن

يكتبون لغرض زيادة البركة والورع. وقد يقال أن ذلك يبين مزية حقيقية وهي أن الإسلام شديد الاهتمام بالرسالة التي جاء بها محمد دون شخص صاحبها». لا يوجد مطلع على مكانة **السنة النبوية** وقوتها المدونة والمسجلة في **الحديث** خلال ثلاثة عشر قرنا، ويدلي بمثل هذا الحكم المهزوز. انتهى تعليق زويمر.

وتسهيلاً للرجوع لملاحظات المؤلف وهوامش المترجم فقد ميزتها من بعضها بوضع ملاحظات المؤلف بالأرقام العادية (١) وهوامش المترجم بالأرقام العادية مضافاً لها إشارة (×١). وأرفقت ترجمة ملاحظات المؤلف لكل فصل بعد كل فصل منها، وابقيت قائمة مراجعه بالانجليزية.

وأني أتقدم بالشكر للأساتذة الدكتور ناصر الدين الأسد، والدكتور إحسان عباس، والدكتور عبد العزيز الدوري، والدكتور علي الفقير وجهاز مكتبة المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) اعترافا بمساعداتهم وتوجيهاتهم القيمة.

وانطلاقا من قول علي (كرم الله وجهه) «المال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الانفاق». فإنه يسمح بالاقتباس أو النقل من الكتاب بما يخدم العلم بمجرد الإعلام الخطي حفظا للقيود دون الحقوق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

موسى الغول

عمان في ٢ رجب/ ١٤٠٩هـ
الموافق ١٩٨٩/٢/٨م

المؤلف

دكتور دى لاسي اوليري

مستشرق وعالم باللغة العربية بالدرجة الأولى، جاء في الصفحة ٩٠ من الجزء الثاني من الطبعة الرابعة ١٩٨٠ من كتاب «المستشرقون» للاستاذ نجيب عقيقي عن المؤلف ما يلي :-

آثاره :

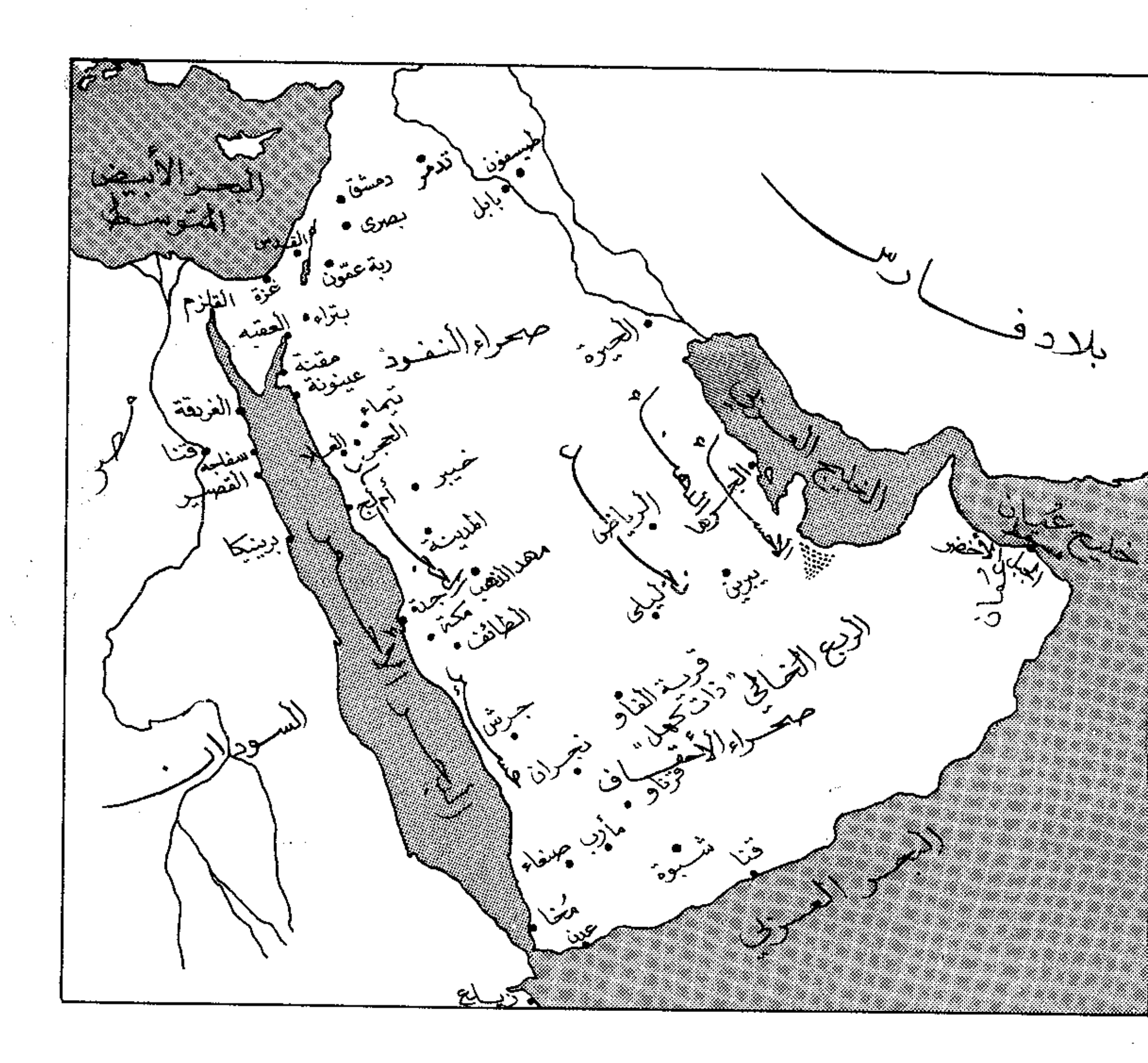
١ ـ «مختصر تاريخ الخلافة الفاطمية» لندن ١٩٢٣.
٢ ـ و «الجزيرة العربية قبل محمد» لندن ١٩٢٧ ـ موضوع بحثنا.
٣ ـ و «الفكر العربي ومكانه في التاريخ» لندن (١٩٢٢ـ٣٩ وقد نقله الى العربية الدكتور تمام حسان، وراجعه الدكتور محمد مصطفى حلمي ١٩٦٣، وكيف تسربت الثقافة اليونانية إلى العرب. (طبع في العراق بعنوان «انتقال الثقافة اليونانية الى العرب»). وفي مجلة «تاريخ الهند آثر جالينوس في الفلسفة العربية ١٩٢٢ـ١٩٢٣.
٤ ـ ومصادر الثقافة العربية (١٩٢٥).

وهناك كتاب آخر لم يذكره العقيقي مسجل ضمن آخر مطبوعات الناشر سنة ١٩٢٧ قبل اسم هذا الكتاب هو كتاب «القواعد المقابل بها للغات السامية: العربية، والحبشية، والعبرية والآرامية، والسريانية».



تصدير المؤلف

ان الغرض الرئيسي للصفحات التالية هو أن نبين أن بلاد العرب قبل مجيء الاسلام لم تكن بمعزل عن التأثيرات الحضارية لآسيا الغربية. أو أنها كانت غير متصلة بالحياة السياسية والاجتماعية لجيرانها في الشرق الأدنى. وقد أدى الطروء القديم على بلاد العرب، واتصال العرب بجيرانهم الى قيام الدين الاسلامي في وسط لا يمت بصلة الى قبائل الصحراء المنعزلة بل كان مرحلة طبيعية في تطور الحياة الدينية في غرب آسيا، وأن اللغة العربية التي تجاوزت كثيرا من التأثيرات الأجنبية التي طغت على اللهجات السامية الأخرى لم تسلم الى حد ظاهر من التأثر بالتداخل الأجنبي حتى في المراحل الأولى لظهور القيود الكتابية. (التدوين).


البحر الأبيض المتوسط
دمشق
تدمر
طيسفون
بابل
بصرى
القدس
ربة عمون
غزة
القلزم
بتراء
العقبه
صحراء النفود
مقنة
عيونة
الحيرة
تيماء
العريقة
قفط
سفاجة
القصير
خيبر
المدينة
برنيكا
مهد الذهب
جدة
مكة
الطائف
الرياض
يبرين
الربع الخالي
قرية الفاو
جرش
نجران
صحراء الأحقاف
مأرب
صنعاء
شبوة
قنا
مخا
عدن
زيلع
البحر العربي
السودان
مصر
بلاد فارس
الخليج العربي
الأحساء
هجر
الجبل الأخضر
عمان

الفصل الأول

ـ العرب وبلادهم ـ

أ ـ رقعة الوطن العربي:

يقول بيفان في وصف آسيا الغربية: «يوجد في كل مقاطعة منها جزء صغير هام. وما عدا ذلك فهو الصحراء المستوية القفراء أو الجبال الجرداء... وتعتبر المناطق التي بين الجبال والصحراء، وأحواض الأنهار الكبيرة والتلال القريبة من البحار حدوداً للحضارة (الفعلية أو الكامنة) في آسيا الغربية. ونتيجة لهذه العوامل نلحظ الفارق الدائم بين الزراع المتحضرين في السهول والتلال المنخفضة وبين بدو الجبال والصحراء. لذلك ندَرَ أن يتخطى تأثير الممالك الكبيرة التي نشأت هناك حدود تلك الحضارة لأن الجبال والصحراء دنيا ثانية لا تسمح لهم في أحسن الحالات بأكثر من موطىء قدم غير ثابت، مع بقاء سكان هذه الممالك تحت تهديد دائم من مجاوريهم سكان العالم غير المتحضر. فهي منطقة تدفع بحشود العثاة المفسدين كلما ضعف السد القائم في وجههم. وكانت على الاقل تقلق الدولة بما تقدمه من ملاجيء ومراكز إمداد لأعداء النظام. فالعداء متوارث بين الحكومات الملكية وبين القبائل الحرة الطليقة[1]»، ويعتبر هذاالوصف صورة صحيحة مع بعض التحفظات: ذلك لأن مدنية آسيا الغربية التي نحن بصددها هي «مدنية أودية الانهار» القائمة على الزراعة التوفرية التي تضع في اعتبارها وجود نظام مبتكر للري يعتمد على الفيضانات الموسمية للأنهار، تلك المدنيات وصلت وامتدت حدودها الى الأراضي والمستويات التي أمكن رفع مياه الأنهار اليها، وتعتبر تلك المستويات حداً اقليميا بين البلاد المستقرة وبين مواطن القبائل البدوية. وقد وصلتنا أقدم قيودنا التاريخية من أصحاب هذه المدنية النهرية الذين كانوا يعرفون الكتابة في كل من مصر والعراق. وقد لعبت تلك المدنية دوراً بارزاً في التاريخ وهي أيضا أصل الحضارة الغربية في الوقت الحاضر، أو أن هذه الحضارة الغربية تمثل في الحقيقة ناحية من نواحي المدنية المتعددة الأخرى التي لم يثبت بعد ردها جميعا إلى أصل واحد، على الرغم من ميل البحث الحديث بكل قوة نحو ذلك الاتجاه(×١).

(×١) د. محمد نجيب البهبيتي: «المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ» المجلد الأول ص٢٠ـ٢١.
«وقد ثبت لي... أنه لم تكن على الأرض الا حضارة واحدة تنبثق عن أصل واحد» يعني «حضارة بلاد ما بين النهرين ـ فهي الاصل والاستمرار».

إلى هنا فإن رأي «بيفان» يبقى صحيحاً حول آسيا الغربية فيما يتعلق باستمرار تاريخها الذي يعود إلى الوحدات الاجتماعية المتعلقة بمدنية الانهار القديمة، وعيب هذا الرأي يشير إلى وجود حد فاصل قاطع بين المتمدنين المستقرين في السهول وبين البدو سكان المرتفعات. فقد كان هؤلاء البدو يندفعون باستمرار إلى الأراضي العامرة اما بالغارات طمعاً في السلب والنهب، واما في احيان كثيرة، باقامة مستوطنات لهم وبيوت بجوار المزارعين الاصليين حيث يقتبسون عنهم المدنية بالتدريج. ومن أحسن الأمثلة على ذلك غزو قبائل الاسرائيليين المتحالفة، لأراضي كنعان حيث زاول بعضهم الزراعة وشكلوا محالفات جديدة مع سكانها أبناء عمومتهم الذين غزوها قبلهم، ومع السكان الاصليين على الرغم مما كان يأمرهم به أنبياؤهم محذرين وناصحين بعدم الاختلاط بالآخرين. ولكن هذه القبائل البدوية اضطرت بمرور الوقت إلى تقوية اتحادها أمام غزو الفلسطينيين، على الرغم من أن بعض هذه القبائل كالركابيين الكنعانيين آثروا حياة البداوة الى وقت متأخر ورفضوا حياة الاستقرار. (أرميا - ٣٥) ويمكن اعتبار مثل هذا الغزو مثالا جيدا لزحف العرب نحو الأراضي المأهولة، ذلك الزحف الذي كان قائما منذ فجر التاريخ المدون ولا يزال الى الوقت الحاضر في نطاق ضيق، أو في نطاق واسع. وليس من السهل تقدير نتائج مثل هذا الغزو فسيولوجيا، إلا أن الرأي السائد هو أن فلاحي فلسطين الحاليين هم من أصل قديم أقدم من الغزاة البدو من الاسرائيليين والساميين الذين قبلهم، لأن المفروض أن البدو الغزاة لن يناسبهم مناخ البلاد الرطب بالنسبة للمناخ الجاف الذي جاءوا منه، فيعتقد أن ذريتهم زالت بعد أن خلفوا وراءهم المعتقدات والتقاليد فقط.

يصف بيفان الصحراء بأنها تقدم مأوى.. لأعداء النظام القائم. فما مبلغ هذا القول من الصحة؟.

يندر أن نشاهد في الوقت الحديث جماعات مستقرة تعود إلى حياة البداوة - في حين كان بعض العرب المستقرين ينقلبون الى تلك الحياة التي كانوا عليها من أمد قريب نتيجة لتبرمهم بالحالة السياسية كما حدث مع بني بكر عندما استبدلت الحكومة الساسانية، الاسرة العربية الحاكمة في الحيرة بمرزبان فارسي فعادوا الى حياة البداوة الى بادية الشام - وقبل ذلك بكثير كان خروج سارة وابراهيم من أور الكلدانية ليصيروا رعاة كما كان أجدادهم. ونتيجة لمثل هذه التحولات انتقلت، دون ريب، صنوف من مدنية الجماعات المستقرة إلى البدو مواطني الصحراء. الا ان هذا لم يكن من القوة ليترك أثره العميق في تلك المجتمعات.

في ضوء ما تقدم فإننا نعتبر بلاد العرب هي تلك البلاد الواقعة في المنطقة الجنوبية من آسيا الغربية التي لم تدخلها المدنية النهرية والتي كان أهلها لا يزالون في مؤخرة الزحف البشري على طريق الحضارة. ولكن لما كان العرب يتميزون بالرابطة الاقتصادية والاجتماعية اكثر من ارتباطهم بالموقع الجغرافي صارت بلاد العرب تشمل أي منطقة يسكنها العرب عادة دون اعتبار لمستوى المنطقة مدنياً وحضارياً، ومثل هذا كان معيارا قائما عند المؤرخين القدامى، وإنا على آثارهم مقتدون.

ب ـ شبه الجزيرة العربية:

.. عرفنا أن البلاد العربية لا تنحصر في شبه الجزيرة وحدها، الا ان شبه الجزيرة تلك هي بؤرة المجتمع العربي. وهي في تضاريسها ذات سطح ينحدر من الغرب الى الشرق، فمعظم جبالها في الجهة الغربية باستثناء مجموعة من الصخور الناتئة في الجهة الجنوبية الشرقية لشبه الجزيرة هي جبال عُمان التي شذت من بين المنحدرات المنخفضة السائدة على شواطيء الخليج الفارسي(×١). أما الأنهار فليس في شبه الجزيرة شيء منها وكل ما على سطحها أودية تسيل في فصل الأمطار وتجفّ في بقية الفصول، ومنها الأودية السحيقة التي تشاهد في المرتفعات الغربية.

تغطي الصحراء قسما كبيرا من سطح شبه الجزيرة، وهي ثلاثة أنواع:

١ ـ **النفوذ**: وهي مساحات من الرمال تشكلها الرياح تلالا وكثبانا. وإذا زاد ارتفاعها وتكاثفت وتقاربت بحيث لا يبقى منها سوى ثغرات هنا وهناك تسمى عندئذ **احقافا**، وهي ليست أكثر من شكل من أشكال **النفوذ**.

٢ ـ **الدهناء**: وهي سهول تغطيها الحصباء الصلبة، وتطغى عليها العواصف الرملية من حين لاخر. ومن المألوف أن نحصل على الماء في الدهناء بحفر الآبار، على الرغم من أن السطح في معظمه قاحل.

٣ ـ **الحرة**: ويتكون سطحها من الحمم البركانية أو مخلفاتها.

تبدأ صحراء النفوذ في محاذاة البحر الأحمر دون أن تصل إلى ساحله وأعظم اتساع

(×١) المعروف أن تسمى البحار باسم البلد الذي توصل إليه. وهو دليل على أن الفينيقيين العرب ابحروا فيه قبل غيرهم ومن مدنهم هناك جبيل الموجودة حتى الآن. انظر تأكيد اسم بحر فارس وبحر العرب في كتاب تقويم البلدان للسلطان أبي الفداء ص: ٢٢ و ٣٠ط باريس ١٨٤٠.

لها في الشمال. ثم تضيق متجهة إلى الشرق على شكل عنق زجاجة حتى تتصل بالدّهناء التي تتجه بدورها الى الجنوب الشرقي على ساحل الخليج الفارسي.

يوجد في القسم الاوسط الجنوبي من شبه الجزيرة دهناء واسعة لا تزال مجهولة حتى الآن(×١) تعرف بالربع الخالي.

يبلغ امتداد صحراء **النفوذ** شمالاً وجنوبا حوالي ١٤٠ ميلا (٢٢٤ كيلو مترا) وعرضها في الشمال ١٨٠ ميلا (٢٨٨ كيلو مترا) من الشرق الى الغرب. وبطبيعة الحال لا يوجد في سطح النفوذ آبار جوفية وذلك لرخاوة الأرض الرملية، ولكنها تحوي درجة من الرطوبة كافية لانماء الأعشاب الصحراوية في بعض فصول السنة. وفي سطحها وهدة(×٢) وحيدة هي منخفض الجبة Jubba الذي يهبط عن مستوى السطح الرملي حوالي ٣٠٠ قدم بين تلال حجارة رملية صلبة، جعلته صالحا لأن يكون طريقا جيدة بين الجوف (الشمالي) وحائل. والسفر في هذه الطريق أو غيرها متعب وبطيء لكثرة المنخفضات، ورخاوة الأرض الرملية. ونباتات هذه الأراضي هي الأثل والطرفاء والكينا، وغيرها من صغار الأعشاب التي تظهر بعد نزول الامطار عادة، في تشرين الثاني، وبينها نباتات ذات جذور طويلة، مثل النباتات الجليدية، تمكينا لها من الوصول إلى الرطوبة في النباتات الصحراوية كما هي للبعد عن السطح المتجمد الصلب في النباتات الجليدية(×٣)، والصخرية. ويبدو سطح الصحراء في مواضع كثيرة متلألئا بالنباتات الصغيرة المزهرة وكأنها غبار فضي أو ذهبي، بينما يمتد العشب على سجيته في مواضع أخرى. ويعود الاثل الجاف الى الاخضرار والنمو من جديد. وهكذا وفي كل فصل شتاء جديد فإن تلك المناطق التي كانت مهجورة صيفا

(×١) كان ذلك الوضع في أوائل القرن الحالي. أما اليوم ومنذ ١٩٧٢ باشرت جامعة الرياض بقيادة الدكتور عبدالرحمن الانصاري بالتنقيب في جميع ارجاء المملكة العربية السعودية وتم اكتشاف مدينة الفاو عاصمة كندة في القرون الميلادية الأولى ـ وكان اسمها «قرية» في الشمال الغربي من الربع الخالي على بعد ٢٨٠كم من نجران في الجهة الشمالية الشرقية منها انظر كتاب قرية الفاو، دكتور عبدالرحمن الانصاري، ص١٦، وكان اسمها قرية ذات كهل. وكهل هذا الذي أشارت اليه الكتابات، موجودة آثاره في قرية الفاو رسما وكتابة على سفوح جبل طويق وعلى جدران سوقها ومنازل سكانها ومباخرهم. وقد ذكر نفس الاسم العلامة **A.F.L. BEESTON** في مجلة **BSOAS** المجلد ١٩٧٩/٤٢ ص١ وقال «إنها بالقرب من سليل الحالية وأن اسم كهل كان لأحد الهتها».

(×٢) الوهدة: (المنخفض).

(×٣) الغاية واحدة وهي المحافظة على البقاء ولكن باسلوبين مختلفين، «فتبارك الله أحسن الخالقين». المؤمنون ١٤.

تموج بالقبائل المجاورة التي تخترق رحابها الفسيحة وأوديتها تصحبها قطعانها ومواشيها التي يستعيضون بلبنها عن الماء النادر الوجود في تلك المناطق.

ويمتد جنوب صحراء النفوذ «جبل شمّر في شبه هلال واسع يتجه تحدّبه نحو الجنوب، وهو ذو مناخ صحي وهواء منعش عليل، تنزل فوقه كميات لا بأس بها من الأمطار الكافية لانبات الزرع والمراعي الواسعة الطيبة،وان يستقى من مخزونها بوساطة حفر الابار لأعماق طويلة في التربة. ويسكن أهل تلك المنطقة مدنا وقرى مع المحافظة على الطبيعة البدوية الرعوية، إذ يتركون منازلهم عند حلول الشتاء ويرحلون نحو صحراء النفوذ شمالا. وخلال هذه المنطقة تمر القوافل في سيرها في شبه الجزيرة من الشمال الشرقي إلى الشمال الغربي. وبعض طرق القوافل هذه قائمة منذ عهد سحيق(×١).

تقع الى الغرب من النفود و «جبل شمر» بلاد الحجاز التي تمتد من رأس خليج العقبة حتى اليمن، ويطلق على القسم الجنوبي منها (الآن) اسم «عسير» وهو اسم مستحدث والأفضل أن يدعى الحجاز الجنوبية، وفي الحجاز المدينتان المقدستان مكة والمدينة اللتان كانتا محطتين على طريق القوافل الممتدة من الشمال إلى الجنوب، وليس في ساحل الحجاز موانىء صالحة بالمعنى المقصود.

يرتفع في الحجاز وغربي شبه الجزيرة سلسلتان متوازيتان من الجبال تمتدان من الشمال إلى الجنوب أعلاها الجبال الشمالية ثم يقل الارتفاع تدريجيا حتى يصل إلى علو ٢٠٠٠ قدم في أقصى الجنوب. والسلسلة الداخلية أعلى من السلسلة القريبة من الساحل. وعلى منحدرات السلسلة الداخلية تكثر الحرَات، بينما تقع معظم المناطق المأهولة بينهما وفي الإجزاء الساحلية الغربية. وتمر بينهما كذلك الطريق التي كانت منذ القدم تصل اليمن بالشمال. وليس للأمطار موسم منتظم، ومعدل الحرارة السنوي لا يقل عن ٩٠°ف(×٢) على الرغم من وجود أماكن معتدلة المناخ مثل الطائف والأماكن المرتفعة وراء مكة شرقا والتي يظهر فيها الصقيع السطحي، على غير عادة، حتى في بعض ليالي الصيف. ويعتبر سدس السكان في الوقت الحاضر متحضرين بينما يحتفظ الباقون بأسلوب حياتهم البدوية(×٣). وترجع أهمية الحجاز لوجود طريق القوافل القديمة بين السلسلتين والتي كانت بين صنعاء والعلا أو العقبة، وهي اليوم طريق للحجاج الى مكة. وقبل ظهور

(×١) سحيق: بعيد.

(×٢) ٩٠° فهرنهيت تعادل ٣٢,٢٢° مئوية.

(×٣) كان هذا عند طبع الكتاب ١٩٢٧ أما اليوم فيمكن القول بأن النسبة معكوسة تماماً.

الاسلام بقليل تأسست مستوطنات يهودية في خيبر وبعض محطات الطريق الشمالية(×١). وقد طور اليهود طرق الزراعة ونجحوا في تحسين الواحات وزيادة امكاناتها. وقد زالت هذه المستوطنات عند ظهور الاسلام. أما أثر الزراعة فقد بقي، بل كان الأمويون يشجعون الزراعة، واستحضروا المهندسين اليونان لبناء الآبار والأحواض والخزانات الا انها أهملت زمن العباسيين فعادت الحجاز الى حالتها الأولى أراضي غامرة، بل زادت سوءا. لأن الأرض لا تنتج الا اذا تعهدها اصحابها بالاصلاح الجيد.

تقع بلاد اليمن، التي تحتل الزاوية الجنوبية الغربية من شبه جزيرة العرب، إلى الجنوب من بلاد الحجاز وعسير التي ألحقت بها حديثا. وتشبه اليمن في تضاريسها تضاريس الحجاز إجمالا. ففيها سلسلتان من الجبال خارجية قريبة من الساحل وداخلية بعيدة عن الساحل وبينهما عدد من السهول. ووراء السلسلة الخارجية الى البحر تقع تهامة أو الأراضي الساحلية المنخفضة، بينما تقع وراء السلسلة الداخلية هضبة تمتد حتى سفوح الجبال المتاخمة للصحراء الداخلية. وفي تهامة تشتد الحرارة نهارا وتنخفض ليلا مع رطوبة على طول الشاطيء.

تصلح الجبال الخارجية لزراعة البن(×٢). وسكان اليمن متحضرون مستقرون، يسكنون مدنا كثيرة، بعضها قديم العهد مثل صنعاء ونجران(×٣) وعدن. ويتجه العرب هنا بطبعهم نحو البحر شأنهم في ذلك شأن معظم أهل الجنوب. ونشأت منذ القدم اتصالات بحرية بين اليمن ومصر العليا(×٤)، وافريقيا الشرقية.

(×١) (ن) الفصل التاسع تجد المؤلف يقول أن قيام المستوطنات اليهودية كان في القرن الثالث الميلادي (أي قبل الاسلام بأربعة قرون) أو قبل ذلك، وهذا يناقض رأيه المذكور أعلاه من حيث الزمن. وأن كان هو الأقرب للصواب حيث ذكر اليعقوبي أن يهود شمال الحجاز بنو قريظة وبنو النضير عرب تهودوا (من قبيلة جذام) زمن عاديا الازدي والد السموأل صاحب امرىء القيس الكندي (صاحب الأدرع) وهو قريب جداً للاسلام زمناً.

(×٢) وذلك لأنها ممتدة من الجنوب إلى الشمال بحيث لا تتعامد منحدراتها مع الشمس اكثر من نصف النهار شرقاً أو غرباً وذلك ما يلائم طبيعة نبات البن.

(×٣) نجران اليوم سعودية (من عسير).

(×٤) مصر العليا جنوب مصر حيث يجري منها نهر النيل ليصب في البحر الابيض المتوسط والمياه تجري من المكان العالي.

تقع الى الشرق من اليمن وعدن، بلاد **حضرموت** التي تشمل الوادي الفسيح الذي يمتد من الشرق الى الغرب ثم ينحرف في أقصى امتداده الشرقي نحو الجنوب حتى يلتقي بالساحل، وربما كانت هذه هي حضرموت المذكورة في التوراة (سفر التكوين الاصحاح العاشر، ٢٦).

يتشكل سطح حضرموت من الأقسام التالية:

١ ـ شريط ساحلي ذى سهول قاحلة وكثبان رملية قليلة العلو.

٢ ـ هضبة جافة يتراوح ارتفاعها من ١٠٠٠ قدم إلى ٥٠٠٠ قدم تنهض قائمة في معظم جهاتها من طرف المنطقة الساحلية وعلى بعد ٣٠ ميلاً من البحر تقريباً.

٣ ـ أودية عميقة تجري نحو الوادي الرئيسي ذي الخصوبة الوافرة والمياه المتيسرة بحفر الآبار. وقد أثرت أعمال الري وسحب المياه في أعلى الوادي على المئة ميل الأخيرة من هذا الوادي فأصبحت شبه صحراوية لعدم وصول الماء اليها.

٤ ـ شريط جرفي شديد الانحدار يقع في الجانب الشمالي من الوادي يمثل حدا فاصلا بينه وبين الصحراء الوسطى الكبرى المتاخمة لظفار من الجهة الشرقية للصحراء. وتقع ظفار اليوم ضمن سلطنة عمان. وكانت ظفار قديماً موطن اللبّان والبخور والمصدر الرئيسي لتزويد العالم القديم بالتوابل والبهارات ولا يزال محصولها من البخور وافرا تصدره الى الهند، لأن العالم الغربي يفضل اليوم بضاعة الهند الأبعد مصدرا(×١).

أما **عمان** فتحتل الزاوية الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة العربية على مدخل الخليج الفارسي. ويلاحظ أن سطح عُمان يخالف جميع شبه الجزيرة التي ينحدر سطحها من الغرب الى الشرق، إذ أن سلسلة الجبال الشرقية في عمان تدور في منحنى مواز لساحل المحيط الهندي. وأعلى قمم هذه السلسلة هو الجبل الأخضر (١٠,٠٠٠ قدم) ثم يأخذ السطح في الانحدار والانخفاض على امتداد الخليج الفارسي. اما البلاد العربية الأخرى على الساحل الجنوبي للخليج فهي شبه جزيرة **قطر** وإلى الشمال الغربي منها توجد **الحسا** وجزر البحرين والكويت. وكانت هذه كلها تسمى قديماً البحرين، وتمتد حتى شط العرب ملتقى النهرين (البحرين.. دجلة والفرات(×٢). ويقع وراء الحسا

(×١) بالنسبة لبلاد البخور ـ انظر الفصل الخامس فيما بعد.

(×٢) ربما أخذت البحرين اسمها من وقوع مصب (بحري) دجلة والفرات في المنطقة التي كانت تسمى باسمهما كما ذكر. وقيل لأنها بين البحرين (خليج فارس) وبحيرة كانت في الاحساء أ.هـ. تقويم البلدان للسلطان أبي الفداء وصاحب حماة ص٩٩ ط باريس ١٨٤٠م.

والكويت الدهناء ويليها جبل شمّر المتاخم لدولة نجد الحديثة التي تعد مع حاكمها (الملك عبدالعزيز آل سعود) القوة الأولى في الجزيرة العربية.

من هذا نرى أن شبه الجزيرة تشمل الحجاز واليمن على ساحل البحر الأحمر، وعُمان والمشيخات الصغيرة على الساحل الشرقي المقابل، وبين هذه وتلك تقع في الشمال النفوذ وجبل شمر ونجد، وفي الجنوب الصحراء الكبرى وجزء من اليمن، وحضرموت وظفار وجزء من عمان الجنوبية.

أما الحجاز فتمتد شمالاً حتى العقبة ومعان. وتقع إلى الشمال الغربي من العقبة شبه جزيرة سيناء التي تعد جزءا أساسيا من شبه جزيرة العرب على الرغم من الحاقها سياسيا بالقطر المصري. وأهم ما تمتاز به شبه جزيرة سيناء هو مجموعة الجبال التي كانت في تاريخ مصر وبابل القديمين مصدرا لمعدن النحاس(١×).

وتمتد الصحراء شمال النفوذ على محاذاة وادي الاردن وسوريا مشكلة منطقة فاصلة سوريا وفلسطين عن وادي الفرات، وتعرف هذه الصحراء ببادية الشام، وهي أيضا قسم من شبه جزيرة العرب. وكانت في كثير من الأحيان مركزا تتجمع فيه القبائل البدوية العربية، ثم تتدفق منه عبر سوريا والعراق.

وعلى جانبي «بلاد العرب» كانت تقوم «الحضارة النهرية» التي طورتها شعوب من غير الساميين، ثم أخذ العرب ينتشرون بينهم منذ أمد بعيد جدا(٢×).

(١×) سيناء: اكتشف فيها حديثاً وأعلن عنه في ١٩٨٨/٩/١٩ معدن اليورانيوم بكميات تفوق ما لدى الدولتين العظميين معاً وذلك حول مدينة الطور. الدستور الأردنية العدد ٧٥٧٢ بتاريخ ١٩ أيلول ١٩٨٨ الاثنين.

(٢×) هم الكلدانيون (الاكديون) في ما بين النهرين شرقاً وهم الذين غزوا السومريين الذين لم يكونوا قد طوروا الزراعة والصناعة وكان ظهورهم حوالي ٢٧٥٠ق.م. ومن جاء بعدهم كانوا من البابليين والاشوريين وكلهم ساميون عرب. وكذلك الفينيقيون والكنعانيون ولم يكن من كانوا قبلهم قد طوروا أية حضارة. وكذلك حضارة وادي النيل وهي سامية تماماً وقامت في الألف الرابعة قبل الميلاد وقويت عند قدوم الهكسوس حوالي ١٧٨٥ ق.م. بعد أن أدخلوا الحديد والخيل والتحنيط المحسن والكتابة الهيروغليفية. والهكسوس أنفسهم ساميون عرب جاءوا إلى مصر من الشرق والجنوب الشرقي ومن سيناء العربية (السامية). د. سوسة «العرب واليهود في التاريخ» طبعة رابعة ص(١٢٧) عن ماسبيرو، ود. محمد عزت دروزة.

يجب أن نضيف الصحراء المصرية الشرقية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر الى بلاد العرب. وهي متصلة حاليا بشبه جزيرة العرب عن طريق السويس وبلاد سيناء ولكن اليمن كانت الى فترة جيولوجية غير بعيدة متصلة بافريقيا حين كان البحر الأحمر بحيرة داخلية كبيرة كما بين ذلك (ج.دي مورجان) في كتابه (الشرق قبل التاريخ، جزء أول فصل ٤). فقد كان النيل يجري بعيدا إلى الغرب من مجراه الحالي ويشق طريقه عبر الحاجز الكبير في اسوان وجبال السلسلة. فكانت الصحراء المصرية الشرقية في الحقيقة جزءا من شبه جزيرة العرب وكذلك كانت سيناء التي لا تزال تربطها بشبه الجزيرة العربية، وتسهل تدفق القبائل العربية في كل عصور التاريخ على مصر من جهة، وتسمح لعبور الافريقيين إلى بلاد العرب شرقا خصوصا بعد أن نقل ديوقليتيان قبائل البشاري الى تلك الصحراء الشرقية.

ج ـ الجنس السامي:

ان ما جاء به «بيفان» من وصف لحالة آسيا الغربية يوحي بأن سكان الصحراء فيها هم بقايا من الأيام الخوالي تخلفوا عن اخوانهم في ركب الحضارة إلى أن احتضنتهم (تدريجيا) المجتمعات الأكثر حضارة في واديي الفرات والنيل حيث لا جبال هناك تعوقهم ولا بحار، وهذا الاتصال السهل يجعل هذه الفرضية مقبولة اجمالا. اذ يمكن أن نتصور مجتمعا واحدا كبيرا ممتدا عبر آسيا الغربية وشمال افريقيا ينشطر عند انتشار الحضارة إلى قسمين أحدهما الجماعات المستقرة في وادي النيل ووادي الفرات، والثاني الذي كان مفككا ومنعزلا، فقد بقي متأخرا في تطوره الاجتماعي. ولعله استمرأ حياة البداوة القديمة، فظل بعيدا عن الاسهام في تقدم الحضارة السريع الذي قامت به الجماعات المستقرة. ولا يعني ذلك جمودا تاما في التقدم نحو الحضارة، بل بُطأً في معدل سرعة التقدم، إذ على الرغم من هذا الانعزال فإن هذا القسم تطبّع بالخصائص التي نسميها الآن المميزات السامية.

يقول (سير فلايندرز بتري)[1]: ان العرق Race لا يعني أكثر من مجموعة من الناس يزيد مقدار التشابه بينهم على مقدار الاختلاف الناتج عن أسباب خارجية. فإذا فرضنا أن العرب (أي ساميي الصحراء) هم أحفاد جماعة قديمة كانت واسعة الانتشار موجودة بين حضارتين، وسلمنا جدلا أن هاتين الحضارتين ترجعان الى زمن بعيد قبل تدوين التاريخ كان علينا أن نحدد أن انعزالهم حصل في فترة متأخرة نسبياً في تاريخ الجنس البشري، وأنه حدث في عصرأسبق من طروء موجات البشرية على شمال افريقيا أو آسيا الغربية، بحيث أن مقولة شبه الجزيرة العربية هي مهد الساميين لا تعني أكثر من أنها كانت منطقة

انعزلت فيها عناصر من أصل واحد مجهول، وتطبعت في عزلتها بالمميزات التي نسميها اصطلاحاً سامية. أما علاقة هذه المميزات بالحضارة فإنها في معظمها ترجع، بلا ريب، الى أوضاع خاصة لشعب بدوي وليس لجماعات مستقرة، ولها ما يشبهها بين شعوب الدنيا الأخرى. أما اللغة فلا نبالغ إذا قلنا إن اللغات السامية هي مجموعة خاصة من عائلة كبيرة تسمى معظم فروعها الأخرى، اعتباطاً، بالحامية[٢]. وباعتبار الطابع العرقي فإن العناصر التي انحصرت في آسيا الجنوبية الغربية قد لا تكون من أصل واحد، إذ دخلها فيما بعد عناصر أخرى من سوريا، ولكن المناخ والعادات وظروف الحياة عامة أدت الى نشوء تشابه عام في الخلقة، على الرغم من عدم وجود مثال عام للشكل السامي سوى نحافة البنية الناتجة عن حالة النشاط التي تستدعيها المعيشة في الصحراء. ولعل الصورة الشائعة عن الشكل السامي كما تظهر في الصور التي على الأضرحة لاتعدو أن تكون وصفا أقرب للشكل الحثي(×١).

إن قرابة الدم التي كانت تربط القبائل القديمة لا تعني نشوء القبائل من أصل واحد بل مشاركتها في طعام ديني واحد مثل الفطير [٣] في عيد الفصح عند بني إسرائيل(×٢)، فالقبيلة لا تكون من الذين نشأوا من أصل واحد فحسب، بل غالباً من الذين يشتركون في طعامها العام(×٣). وقد ساعد هذا على تبني العناصر الأجنبية وادماجها في أبنائها الاصليين، وهو ما كان يحدث ببساطة منذ قديم الزمان. وليس لدينا ما يثبت أن هناك وحدة جنسية في أي قبيلة، وما الأنساب والتقاليد لسلالة ما الا افتراضات جماعة من المتأخرين من أصحاب النظريات الذين يحاولون تعليل وجود جماعات متجانسة في أصلها. وبالنسبة للعرب فلم يظهر النسابون عندهم الا بعد انقضاء فترة لا بأس بها من العصور الاسلامية[٤].

تدل كلمة «ساميين» في أبسط معانيها على الجماعات التي كانت تتكلم اللغة السامية. كما تطلق لفظة «الأمم اللاتينية» ببساطة على جميع من يتكلمون اللغة اللاتينية على الرغم من الاختلافات الكبيرة في أصولهم العرقية. وعلى هذا الأساس فإن عبارة

(×١) مثل شكل الانف الاقنى في الوجه العريض.

(×٢) عيد الفطر .Passove وعيد الفصح عند النصارى Eastern.

(×٣) لا تزال هذه العادة قائمة لدى العشائر العربية في بلادنا حتى اليوم حيث تذبح الذبائح ويجهز الطعام الذي يشارك فيه طالب الانتساب للعشيرة وافراد العشيرة والشهود، ثم يُعلن قبول «الدخيل» فرداً من تلك العشيرة له مالها وعليه ما عليها.

الساميين لا تعني أكثر من أثر من العصور القديمة التي كانت تعتبر اللغة مفتاحاً صحيحاً للدلالة على العرق، دون أن تضع في حسبانها أن الفتوحات والتبادل التجاري وأشياء أخرى عديدة ستغري الكثيرين على تبني لغات جديدة: فزنوج جزر الهند الغربية لا يتكلمون اليوم سوى اللغة الانجليزية، فهل يؤهلهم هذا لأن يكونوا من العرق الانجلو سكسوني.

ولا تهمنا، في هذا المقام، الفوارق الفسيولوجية في الأجناس، لأننا نبحث في الجنس باعتباره وحدة اجتماعية حاصلة على درجة كافية من التوافق الحضاري إذا ما قورنت بغيرها من المجموعات الأخرى، وعلى هذا الأساس وحده يجب ان نفسر ما نسميه اصطلاحاً «العرق أو الجنس السامي» فالمسألة قائمة على التوافق الحضاري اكثر مما هي مبنية على الظواهر الفسيولوجية، لأن المميزات الفسيولوجية تتعين، دون ريب، قبل الولادة، في حين تكتسب الخصال الحضارية اكتساباً، وتتوقف على مدى الاحتكاك بالغير لا على الوراثة. ويجب أن نعرف في الوقت نفسه أن للمجتمعات حياة خاصة بها وروحاً تعاونية واضحة تتطور وتتكيف حسبما تشاء، كما لو كانت جسماً عضوياً له حياة خاصة متطورة تجذب اليها الأعضاء منفردين وتعطيهم شكلها.

تحترف القبائل البدوية مهنة الرعي والصيد فكان لا بد لها أن تنتشر في رقعة واسعة ومساحات شاسعة من الأرض، أما الجماعات المستقرة المشتغلة بالزراعة فإنها مرتبطة بالأرض الخصبة المحدودة التي صرفت عليها الكثير من الجهد والوقت، لذلك ينشأ بين هذه الجماعات المنزرعة في مواقعها ميزات خاصة مشتركة من وحدة اللهجات والثقافة والعادات تؤدي في النهاية الى قيام وحدات اجتماعية أصغر (Sub-groups). أما البدوي فمن طبيعته التنقل حسب فصول السنة سعياً وراء المراعي وطلباً للماء والصيد، حيث تجد القبيلة مراعيها ومواقع صيدها وعيون مائها وآبارها بعيدة عن كل تدخل خارجي. وعلى الرغم من أن العدوان من طبع الحضارة، الا أن الجماعات المستقرة تنقصها سرعة التحرك التي يتمتع بها البدوي لذلك عمد المزارعون إلى اقامة سياجات دفاعية منيعة حول أرضهم المعمورة ثم تدفعها شيئاً فشيئا نحو أراضي البدو، ومن هذا كانت الحروب التي شنتها الحضارة في غارات عسكرية على بلاد العرب وهي تحاول بناء الطرق التجارية عبر تلك البلاد، أو لمجرد التعدي على حدودها... والتاريخ كما يقال يعيد نفسه، ولم يزل استيطان أراضي البدو المشاعة للرعي والصيد قائماً، فنجد في تاريخ يثرب أن محاولة المستوطنين اليهود تسييج المراعي المجاورة لمزارعهم أثارت حنق القبائل المجاورة التي اعتبرت أن قسما مما كانت تعده مراعيها التقليدية قد اعتدي عليه حين أدخله المستوطنون ضمن الأراضي الزراعية.

يمكن أن نطلق عبارة (العرق السامي) **بأضيق** معانيها على البدو من سكان آسيا الجنوبية الغربية، الذين يشكلون مجموعات متحدرة من أصول مختلطة تختلف عن مجاوريها اقتصادياً، واجتماعياً وحضارياً، أو نطلق هذا الاسم **بأوسع** معانيه على تلك الجماعات التي كانت تقع من حين لآخر تحت تأثير المهاجرين من تلك المجموعات البدوية التي أخذوا منها لغة سامية الاصل. ففي المعنى الضيق نرى أن الساميين وحدة اجتماعية ذات طابع متخلف نسبيا، أما في المعنى الواسع فإن هذا اللفظ يشمل كل الشعوب التي تتكلم السامية. وفي كلا الحالين لا يدل ذلك على (عرق أو جنس) بالمعنى الذي يدل عليه علم الأنساب الطبيعي. (القرابة الدموية الفسيولوجية).

د ـ المجتمع العربي:

يميل المؤرخون العرب الى وضع خط فاصل بين شطري العرب فيطلقون اسم القحطانيين على عرب الجنوب واسم العدنانيين على عرب الشمال وليس من شك في أن هناك سبباً معقولا لهذا التمييز الذي وضعه المؤرخون العرب الذين بدأوا أعمالهم في العصر العباسي: لأنهم لمسوا هذا التمييز من الحروب الأهلية في صدر الاسلام حيث ظهرت المنافسات بين هذين القسمين(×١) الذين كانا على عداء دائم يرجع في أصله، على ما يظهر، إلى ما قبل الاسلام. ويرجع المؤرخون أصل هذين القسمين الى فرعين من العرب تشعبا في الأزمنة الغابرة، محاولين اثبات قولهم بتشكيل جداول الانساب التي تثبت انقسامهم منذ أجيال طويلة، ولكن لا قيمة لما جاء في هذه الأنساب لأنها لا تفيد شيئا إذا ما حاولنا تطبيقها على مجتمع لا يعتمد على التسلسل الأبوي في أنسابه. أما النظام العائلي لدى عرب الشمال فقد كان العمل به حديثا زمن محمد[١] (ﷺ).

من الواضح أن محاولة المؤرخين تعليل وجود فرعين مختلفين مبني على ما كان قائما فعلا في زمن تدوينهم للتاريخ، ولو أننا لا نستطيع قبول ما جاءوا به لتبرير وجود ذلك الانقسام . ومن المسلم به أيضا أن هناك فرقا ظاهرا في اللغة والعادات بين العرب المستقرين في الممالك الجنوبية، وبين القبائل البدوية الى الشمال منهم، وفرق اللغة بارز لدرجة أننا نجد اللغة العربية الجنوبية تدرج مع الأكدية والحبشية في مجموعة مميزة في اللغات السامية، يقابلها اللغة العربية الشمالية والعبرية والارامية في مجموعة أخرى[٢] ولا يقل الفرق في العادات عنه في اللغة. ولكن هذا التقسيم الثابت منذ القدم ظاهر في العادات والتقاليد أكثر مما هو في العرق والنسب ولا يتفق تماما مع الفرعين اللذين ذكرهما مؤرخو

(×١) باسم القيسية واليمنية.

العرب، وأعني بذلك أننا نعتبر جميع سكان سبأ ومعين داخلين تحت القحطانيين أو عرب الجنوب، بيد أن كثيرا غيرهم ممن نميل إلى اعتبارهم من عرب الشمال يظهرون أيضا في هذه المجموعة، ولما جاء الاسلام سيطرت اللغة العربية الشمالية على القسمين معا. وباعتبار اللغة فإنه لا يمكننا في الحقيقة أن نقول أكثر من أن لدى القحطانيين وحدهم بقايا أكثر من لغة عربية جنوبية قديمة. وتظهر تلك البقايا على شكل نتف أو شذرات في حضرموت، وظفار والمهرة وجزيرة سوقطرة ويتميز ذلك في لهجة الآخيرتين فعلا. ويرجع هذا التوحيد بلا ريب الى اثر الاسلام القوي في نشر لغة الحجاز حتى أصبحت المعيار المتعارف عليه لكل من عنده أثارة من علم. وتركت أثراً عميقاً في كلام الناس عامة.

أصبحت القحطانية والعدنانية زمن الاسلام أحزاباً سياسية متنافسة أكثر منها أقساما عرقية. ومن المؤكد أن القحطانية كانت تضم سلالات الممالك الجنوبية القديمة، وأبناء الحيرة والشمال الشرقي. ومن المحتمل أن يمثل هذان الشعبان بشكل خاص منطقتي النفوذ «اللتين لازمتا الفترة السابقة لمجيء محمد (ﷺ)». فكان القحطانيون على اتصال دائم بالفرس، وكان العدنانيون من وجوه كـ . ة في حالة تحالف(١×) مع البيزنطيين. وهذا من غير شك يتفق مع طبيعة تكون منطقتي النفوذ: فبسبب من المنازعات المحلية تنحاز القبيلة إلى طائفة ما لمجرد وجود منافستها مع الطائفة الأخرى. ويجب أن نسلم أيضا بأن الجنوب تمتع بأمجاد قديمة، تسهل علينا تعليل رغبة بعض القبائل رغبة ملحة في الانتساب إلى الجماعات الجنوبية. كانت المنافسة بين مكة والمدينة من أبرز الظواهر في الفترة الأخيرة من بعثة الرسول (ﷺ). وترجع تلك المنافسة في أصلها، دون شك، إلى ما قبل الهجرة حين كانت المدينة تحسد منافستها في الجنوب على ثروتها وتهدد طرق القوافل التي تمر بها، بالإضافة إلى أن أهل المدينة كما تروى الأخبار من أصل يماني بينما أهل مكة من عرب الشمال العدنانية الموالين للروم[٣] كما يبدو من علاقاتهم التجارية مع سوريا، ومن هذا يفهم أن عداوتهم مع مكة جعلتهم يتحالفون مع القحطانيين أعداء العد نانيين. وعلى أساس هذا التحالف فسر المؤرخون اسطورياً أن أهل المدينة متحدرون من أصل يماني.

كان الفرس والروم خلال قرون النزاع التي سبقت مجيء الاسلام يرحبون بالعرب

(١×) كانت علاقة العدنانيين مع البيزنطيين علاقة تعامل فقط. أما التحالف فكان مع الغساسنة القحطانيين، وقبيلة سليح في الشمال من بلاد الشام قرب قنسرين، وهم قحطانيون أيضاً. وقد بنى على هذا الغرض الخطأ علاقة البيزنطيين مع العرب.

الذين حاولوا بما جبلوا عليه من الكيد والمخادعة(×١) أن يثيروا هاتين القوتين ضد بعضهما البعض متسببين في انقسامات ثانوية وتيارات متضاربة في قوة الفرس شمالا وشرقا، وفي قوة الروم غربا.

زالت دولة الحميريين العظيمة خلال القرنين الثالث والرابع(×٢). ولعل ذلك الزوال يرتبط بتوسع نشاط البيزنطيين التجاري في البحر الأحمر. ولعل اعادة تشكيل القبائل بدأت بعد هذا الزوال، ولكن ذلك التشكيل كان قائماً على أساس سياسي يحمل العداء التقليدي بين هذين الفرعين من العرب. كانت عبارة القحطانية تطلق زمن الاسلام على الفئات التي تنتسب إلى الأصل الجنوبي. واعتبرهم مؤرخو العصر العباسي أبناء جد واحد هو قحطان[٤] ودعوه يقطان. لمجرد أن الاسم ورد في سفر التكوين (اصحاح ١٠ فصل ٢٥) باسم يقطان والد سبأ[٥] ومما يؤيد أن القحطانيين مجموعة قبلية قائمة أن كلوديوس بطلميوس من القرن الثاني الميلادي[٦] يتكلم عن أقوام سماهم (قحطانيتاي) ولعل لهم علاقة بمدينة قحطان التي وصفت بأنها بين زبيد وصنعاء[٧].

كان النبي وقريش العدنانيون يمثلون شرف الاسلام وفخره، فلجأ الجنوبيون الى ابتداع قصص بطولية يفتخرون بها أمام منافسيهم، ومما جاءوا به أنهم ينتسبون إلى مجد الممالك الأعرق من شرف العدنانيين الحديث[٨] وقد تركت هذه القصص البطولية أثرها العميق في انتاج المؤرخين العرب. ينقسم القحطانيون الى شعبين هما حمير وكهلان يمثلان عرب الجنوب المستقرين وأقرباءهم من البدو الذين يندرج تحتهم في الغالب، أولئك المتحضرون الذين أنتسبوا فيما بعد الى قحطان. ويمثل الحميريون العنصر العربي الجنوبي القديم، ولكنهم لا يعتبرون شعبا متميزا محدودا لأنهم يضمون قبيلتي قضاعة وتنوخ في الحيرة وقبيلتي كلب وجهينة في الحجاز وبعبارة أخرى فإن الحميريين هم النواة. وان الآخرين يدعون الانتساب إلى حمير: وهو ادعاء له ما يبرره، على اعتبار أنهم هاجروا شمالا وأنهم اندمجوا في القبائل العدنانية، وقد يكون هذا مجرد افتراض نظري من

(×١) ترجمة حرفية لعبارة with their natural gift for intrigue ولو قال «بما جبلوا عليه من الحيلة والدهاء» لكان مقبولاً.

(×٢) كان زوال الحميريين بعد قتل ذي نواس على يد الاحباش سنة ٥٢٥م-وليس للنشاط البحري البيزنطي-أي في القرن السادس بعد حكم دام ٦٤٠ سنة ١٥ ق.م إلى ٥٢٥ م ن الفصل السادس الجزء ج من نفس الكتاب.

المؤرخين لتعليل تعدادهم ضمن شعب حمير القحطاني(×١).

يتكون شعب كهلان القحطاني من أربعة بطون هي:

١ ـ **طيء**: وهي القبائل المعروفة الآن باسم شمَر، وكانت أقرب القبائل العربية من العراق في القرون المسيحية الأولى، وورد اسمهم في اللغات السريانية والعبرية الأرامية للدلالة على البدو عامة[٩].

٢ ـ **الازد**: وهم الذين غزو عُمان فأصبحوا تحت نفوذ الفرس في الفترة القريبة من مجيء محمد (ﷺ). ويضم اليهم بنو غسان الذين كانوا ينزلون الحدود السورية والذين كان حافزهم للانضمام لهذا الاتحاد هو تظلمهم المشترك من دولة الروم، كذلك الأوس والخزرج، أهل المدينة الذين يمكن الجزم بأنهم جاءوا اليها نتيجة للحركات المعادية للعدنانية.

٣ ـ **جماعة عاملة ـ جذام**: في فلسطين(×٢) ويضم اليهم الجماعات الموالية للفرس من كندة(×٣) في حضرموت واللخميين في الحيرة.

(٤) **جماعة همدان ـ مذحج**: الذين لا يزال معظمهم يقيمون حتى اليوم في اليمن.

أما عرب الشمال فينسبون إلى عدنان أو ابنه معد أو حفيده نزار. فقد استعمل

(×١) تحامل آخر على المؤرخين ووصفهم بتزييف التاريخ من قبل عالم باللغة العربية ولهجاتها والتي لا يختلف فيها عالمان بهذه اللهجات. فاليمنية تتميز بخصائص لا توجد في لهجات الشمال (القيسية) ولا تزال آثارها قائمة في بلادنا. فالقبائل اليمنية وهم غالب أهل الاردن وفلسطين يلفظون (في اللغة الدارجة) آخر الكلمة المضافة لضمير الغائب المفرد بالضمة مثل كتابُه (Ktaboh) بينما يلفظها القيسيون كتابَه (Ktabah) بالفتح ومثلها الكلمات المتشابهة في التركيب مثل قَلَمُهْ، وحصانه وأكله الخ.

(×٢) عاملة في فلسطين وجنوب لبنان (جبل عامل) وينسب اليهم باسم «العواملة» وهم كثيرون منهم العواملة في السلط، وآل فضل والجراح وآل عيسى(الفالوجة) والحيارى وماضي وطوقان والريماوي والفاعوري. ن = مصطفى الدباغ كتاب (القبائل العربية وسلائلها في بلدنا فلسطين.

(×٣) كان اللخميون موالين للفرس في الحيرة، أما عرب كندة الذين كانوا ملوك حضرموت الشمالية ـ على حافة الربع الخالي فلم يكونوا موالين للفرس لأن دولتهم وعاصمتهم «قرية» أو «الفاو FAO» (التي اكتشفت سنة ١٩٧٢) منذ القرن الأول الميلادي فلم تكن موالية للفرس الذين دخلوا اليمن في القرن السادس للميلاد ـ وكان آخر ملوك كندة الملك الضليل ـ امرو القيس بن حجر الكندي في القرن السابع الميلادي.

بروكوبيوس[10] عبارة معد للدلالة على العرب الشماليين، وظهر اسم نزار في نقش النمارة الذي يرجع تاريخه الى سنة ٣٢٨م(×١). ومن هذا يظهر أن الوحدة الشمالية كانت قد تشكلت حول نواة كانت موجودة في القرن الرابع[11].

ينقسم العدنانيون أو عرب الشمال أيضاً إلى شعبين كبيرين هما:

١ ـ **ربيعة**: ومنها قبائل اسد وعنزة ونمير وقبائل أخرى من سكان الشمال الشرقي من شبه الجزيرة العربية.

٢ ـ **مضر**: وإليها تنتمي قبائل قيس وعدوان وهوازن وكنانة ومنها قريش في مكة، وكلاب وبطون أخرى. وكان بين مضر وربيعة تنافس ظاهر أدى إلى حروب كثيرة تعود إلى المنافسات الفردية أكثر منها إلى الانقسامات القبلية. ويمكننا القول بأن الحسد الذي ولّده توزيع الغنائم في نفوس كثير من المقاتلين العرب في آسيا هو الذي طور تلك المنافسة، هذا إذا لم يكن قد بدأها فعلا.

هـ ـ تسلل الحضارة إلى شبه الجزيرة:

يعتبر ما وصف به عرب الصحراء من العزلة والتخلف عن ركب الحضارة أمرا نسبيا: فعلى الرغم من ذلك فإنهم لم يكونوا بعيدين عن التأثر بجيرانهم أو حضارتهم. فبدوي العصر الحاضر نسخة من مشيخات العصر القديم أو حتى العصر الحجري المتأخر ولكنه يعرف الاسلحة والأدوات الحديثة ويتمتع بكماليات الحضارة، بل ان بدو زماننا يختلفون عن الهمج البسطاء في انهم مؤهلون لتصريف أمورهم في المعاملات والسياسة. وقد تسللت الحضارة إلى الأراضي الصحراوية (التي نسميها جزيرة العرب) منذ أقدم الأزمان عن طريق التبادل التجاري، وأحيانا عن طريق إنشاء المستوطنات وأحيانا أخرى جريا وراء الأدوات المعروضة للبيع في أسواق المدن الحدودية مما كان يغري العرب على ترك باديتهم طمعا في التعرف على تلك الأسواق مما سهل قيام مراقبة غير مباشرة على تحركاتهم أو على الاقل الحصول على معلومات عنهم، تلك كانت السياسة التي اتبعتها الامبراطوريات القديمة لبلوغ تلك الغاية، وقد طبقتها بمهارة كل من دولتي الفرس وبيزنطة. وقد اتبعها الأتراك في الفترة الأخيرة، وهذه السياسة هي التي تعتبر اليوم أحسن سياسة تسير بموجبها الدول الأوروبية المنتدبة في الشرق الأدنى.

(×١) النمارة: مدينة في حوران = وجد فيها نقش بالعربية والنبطية جاء فيهما «امرؤ القيس بار ملك كل العرب» أي «امرؤ القيس ابن ملك كل العرب». المنجد في الآداب والعلوم. ولصورة النقش بسطوره الخمسة راجع «مصادر الشعر الجاهلي» د. ناصر الدين الأسد طبعة ٧ دار الجيل ١٩٨٨ صفحة ٢٨.

علينا عند الوصول الى مسألة التبادل والتأثير أن نعمد إلى شيء من البحث في نفسية العربي وعقليته. فأبرز ما في العربي النموذجي (الأصيل) أنه مادي ساخر، ذو نظرة ثاقبة منطقية، وحساسية قوية لكرامته الخاصة، وذو جشع أكال وليس في عقله متسع للخيال. وشيء أقل من هذا للعاطفة وميله للدين قليل جدا، ولا يعير الا القليل من اهتمامه لكل مالا يمكن أن يقاس بمقاييسه العملية. ونظرا لاعتداده القوي بكرامته الشخصية فإننا نراه يثور ضد أي لون من الوان السلطة وما يتوقعه رؤساؤه وقواده في المعركة ليس سوى الكره والحسد والخيانة منذ لحظة اختياره، حتى من الذين كانوا أصفياءهُ، إلى تلك اللحظة، لأن المحسن يكون عادة هدفا طبيعيا للمهاجمة. اذ ان الاحسان يستدعي نوعا من الجميل يتبعه حكما شعور بالنقص لدى المحسن اليه.

يصف الأب. لامنس العربي بأنه الديموقراطي المثالي. وعلينا أن نعرف ان في طبع العربي بعض صفات الديموقراطية الظاهرة ولو بشكل مبالغ فيه الى حد ما. ان نزعة العربي الدائمة الى الثورة ضد كل قوة تحاول أن تحد من حريته، حتى ولو كان ذلك لمصلحته، هي المفتاح لسلسلة الجرائم والخيانات التي لا هدف لها والتي تشكل القسم الاكبر في أي تاريخ عربي. وقد أدى فقدان هذا المفتاح في السنوات الأخيرة الى وقوع القوى الأوروبية في اخطاء كثيرة سببت تضحيات لا داعي لها في الأرواح. ومن المؤكد أن عدم صبر العربي على السلطة يزعج من يحاولون السير بذلك العربي العنيد في دروب الحياة الاجتماعية الغربية. يرينا كتاب «نفسية المسلم» للعلامة «أ. سيرفير» كيف يمكن اثارة غضب الفرنسي العادي متبلد العاطفة الذي يعيش عادة في ظل حكومة تقليدية، على الرغم من كونه ذا فكر مرتب وصاحب نوايا حسنة. ولا شك أن محاولة الأميرة الصيدانية ايزابيل (Jesabel) لتمدين العرب المستقرين في اسرائيل (على طريقتها الخاصة) كانت مقابلة العرب لها من هذا القبيل (×١).

يمكن أن نختم هذا بقولنا ان هناك صفات يتصف بها العربي فعلا، أو يمكن أن يتصف بها وهي الظلم، والغدر، والشك، وعدم الانقياد. ولكنه في الوقت نفسه ميال بطبعه وعاطفته نحو الحرية الشخصية، ومستعد للتمرد على كل قيد يحد من حريته الفردية بصرف النظر عن مصلحته الذاتية. وعلى الرغم من أنه يزن الأمور بكل منطق بارد، الا أنه يثور إذا انتقصت حريته كالوحش الهائج الواقع في المصيدة. ويتصرف كالمجنون ليكسر القيود التي تقف في سبيل تلك الحرية. وهو من ناحية أخرى مخلص ومتقيد بتقاليد

(×١) ايزابيل هي ابنة ملك صور وزوجة آحاب ملك اسرائيل. أدخلت وروجت عبادة بعل ملقرث اله صور فتصدى لها ايليا النبي ـ قتلت بأمر «ياهو» وطرحت جثتها فريسة للكلاب (المنجد). (إسم إله صور قد يكون يعني ملك الأرض Melkarth).

القبيلة كحقوق الضيافة والولاء في الحرب والاخوة وما أشبه ذلك، متخذا الأعراف القبلية مقياسا له. ويحافظ تمام المحافظة على المعنى الحرفي لقانون العشائر غير المدون، دون ارتباط أو التزام بأي شيء خارج ذلك المعنى الحرفي. وعلى العموم يمكن أن تكون هذه الصفات خاصة بفترة معينة في التطور الاجتماعي: فهي تمثل الخصائص الخلقية لفترة من التطور التاريخي ولا تتعلق بجنس معين لأن حدة هذه العقلية لا بد أن تخف حالما يأخذ العرب في الاستقرار الزراعي.

يجب أن تبقى هذه العقلية قائمة في أذهاننا ونحن نتعامل مع تاريخ كل ما له علاقة بالعرب. فاحتلال بلد (Conquest) لا يعني ترويض أهلها والسيطرة عليهم. وأنه من سخف القول أن نتوقع أن منح العرب «بركات الحضارة» التي لا يريدونها ولا يقدرونها سيجعل منهم رعايا مخلصة، ومطيعة ومستعدة لتقبل الأوامر من أي شرطي، بل لن يؤدي مثل هذا الاعتقاد الا إلى الثورة كما حدث في العراق سنة ١٩٢٠، أو كالذي لقيه الايطاليون من عرب طرابلس في السنوات القريبة السابقة. وعلى ما يظهر فإن المصريين القدماء مروا بهذه التجربة في سيناء. وكذلك عمد الاشوريون الى تشكيل حرس على الطرق التجارية، والى القيام بغارات تأديبية على كل من حاول التعرض للقوافل في تلك الطرق، لكن الفرس بدهائهم كما يقول هيرودوتس (٣: ٨٨، ٢) لم يحاولوا حكم العرب بل اكتفوا بالتحالف معهم، وقبول هداياهم التي كان العرب يعتبرونها هبة، لا جزية.

كان من سياسة الاسلام المدروسة منذ فجر الاسلام، أو كما تقول الأخبار منذ تولي عمر الخلافة (٦٣٤ـ٦٤٣م)، أن تبقى شبه الجزيرة موطنا للمسلمين من العرب فحسب، وإخراج غير المسلمين منها. ومن الثابت أن هذه السياسة كانت مطبقة منذ قيام العباسيين (٧٥٠م). على أن هذا التشدد زال في الزمن الحديث وأصبح مقصورا على الأماكن المقدسة المحيطة بمكة والمدينة حيث تجرى شعائر الحج السنوية. أما قبل الاسلام فلم يكن هذا الاستثناء وارداً لأن الروم واليونان لم يكونوا ينزلون شبه جزيرة العرب، وان كان يلاحظ قبل مجيء النبي (ﷺ) وجود جو من النفوذ البيزنطي في الحجاز، ومثله نفوذ الفرس بل احتلالهم لمناطق في الشمال والجنوب. وقبل ذلك بكثير كان هناك نفوذ للمصريين والبابليين. فقد كانت الطرق التجارية التي تتخلل شبه جزيرة العرب سببا في وجود اتصال مستمر بين العرب والبلاد المحيطة بهم، ومن هذه البلاد المجاورة تسرب شيء من المعارف الى بلاد العرب. ففي الفترة التي سبقت الاسلام دخلت البعثات التبشيرية المسيحية واليهودية إلى تلك البلاد، وتناثرت المستوطنات السورية (×١)، واليهودية

(×١) ترجمة اضطرارية لكلمة (Syrian) أي السورية ولعل المقصود هو (Syriac) أي السريانية ولا نعلم بمثل هذه المستوطنات السريانية الا ان يعني بها نصارى نجران الذين وصلهم الدين عن طريق فيميون السوري.

والحبشية في مواقع مختلفة، وعلى الرغم من أن كثيراً من القبائل البعيدة بقيت متخلفة ومتأخرة الا أنه كان هناك مجتمعات مستقرة مثل مكة التي كانت جمهورية تجارية ذات صفة دولية لها تجارة متطورة وأنظمة مصرفية ووكلاء في المدن البعيدة الأجنبية.

ان الصورة المعتادة لظهور الاسلام تصف نشوء هذا التطور في مجتمع بدائي من عرب الصحراء. ولكن هذا بعيد جدا عن الحقيقة، فقد كان مهد الاسلام في بقعة تسربت اليها حضارة من نوع متقدم منذ أجيال بعيدة: فقد وصلت تلك المعارف، حقيقة إلى الحجاز، ولكن عن طريق النقل عن الغير. فتأثير كل من المصريين والبابليين وبيزنطة وصل بطريق غير مباشرة. إذ لم تكن الحجاز جزءا من الحضارة في أي وقت، بل كانت واقعة على حدود العالم المتحضر. ولسنا بحاجة ونحن ندرس حياة الرسول وأعماله أن نتساءل كيف وصلت إلى سمعه المصطلحات والأخبار النصرانية واليهودية الموجودة في القرآن، بل نبدأ من حقيقة انه عاش في مجتمع كان يعرف بشكل تنقصه الدقة كل ما حوله من حياة العالم الهليني والفارسي المعاصرة. فبلاد العرب لم تكن معزولة بل كانت واقعة على حافة الحضارة السائدة في ذلك الوقت. ولم يدع النبي نفسه الى ملة جديدة بل اعتبر نفسه مصلحا دينيا يهدف الى بعث ملة ابراهيم التي كان يؤمن بها اليهود والنصارى، ولكنهم شوهوها بالاضافات المغلوطة. ولن يستطيع أن يقدر الاسلام حق قدره من يتجاهل التطور الحضاري المستمر في بلاد العرب عبر القرون، حين كانت هذه البلاد تحت تأثير مدنيات البلاد المجاورة. يؤيد هذا ما نراه في عالم اللغة. فاللغة العربية الفصيحة لم تحتفظ بنقائها نتيجة للعزلة التي لم يكن لها وجود، بقدر ما كان تأثير العناصر الغريبة على الحجاز أقل من تأثيرها على العراق وسورية. ترينا لغة القرآن بعض دلائل على وجود ماض قد زال واندثر. فهناك ظواهر لا تفسر الا بكونها مخلفات لم يعد لها استعمال مثلا الفعل المسبب (Causative) (أفعل) (بفتح العين واللام) لم يعد يركب بإضافة حرف «س» في أوله، ولكننا لا نزال نركب الفعل المسبب الانعكاسي(×١) (Reflexive Causative) بإضافة ت (تاء) الانعكاس الى السين في أول الفعل مثل «استفعل الخ»: ويمكن تعليل هذا بأنه من بقايا (س) ال (Causative) التي لم تعد تستعمل في العربية، ولكنها بقيت بكامل قوتها في الاكدية، والى حد ما في السريانية. ويلاحظ أن بعض لهجات العربية العامية، التي ليس لها أدب مدون، عدا ما بدأه علماء اللغة الأوروبيون من عملية جمع تلك المواد، هذه اللهجات تحتفظ بتعابير تبدو أقدم من الموجودة في لغة الأدب في العربية وهي الفصيحة

(×١) وهي صفة للفعل الذي يكون فاعله هو مفعوله مثل «جهز نفسه للحفلة وهي غالباً أفعال يعقبها كلمة نفس أو ما يؤدي معناها مثل «حاله».

التي بنيت على لهجة الحجاز السائدة في القرن السابع والتي كانت اكثر تعرضا للتأثيرات الأجنبية، وكانت تحوي تعابير قد اختفت من اللغات السامية الأخرى، في حين فقدت بدورها بعض التعابير القديمة التي لا تزال موجودة في لغات أخرى.

من المعروف أن اللغات السامية تشكل مجموعة متقاربة جدا وأنها كانت قبل الاسلام منتشرة في رقعة محدودة، ولا تستطيع أي لغة منها، على وجه الامكان، أن تمثل الاصل الأول، ففي كل منها بعض التراكيب القديمة الأولى، ولا يمكن اعادة استعمال السامية الام (Ursemitic) وان كان بالإمكان الوصول الى التعبير الاصلي إذا حاولنا التقصي والتمحيص(×١).

تعتبر اللغة عنصرا من عناصر الحضارة المتعددة والمختلفة أما العناصر الأخرى فهي البنية الاجتماعية والقانون والدين والفنون والصنائع الخ. ويجمعها عامل واحد مشترك هو أنها ليست موروثة بل مكتسبة: ولكنها تركة للمجتمع كله وليس للأفراد.

تسربت الحضارة إلى شبه جزيرة العرب بعدة وسائل أهمها:

١ ـ إنشاء مستوطنات تعمل في الزراعة، أو استغلال المناجم.
٢ ـ شق الطرق التجارية المنتظمة خلال الصحراء وتكوين معاهدات مع العرب الذين تمر الطرق عبر أراضيهم يتعهدون بموجبها بعدم التعرض للقوافل وكذلك بمنع غيرهم من العرب من الاعتداء على تلك القوافل مقابل أخذهم ضريبة هي أموال الابتزاز (×٢) ـ (black mail).

٣ ـ اقامة الاسواق وتأسيس القرى الحدودية التي تسهل تسرب الحضارة الى قبائل الصحراء من جيرانهم.

هذه هي الوسائط الرئيسية التي جعلت المؤثرات الخارجية تطغى على العرب. وان مهمتنا في الصفحات التالية أن نقيم الدليل على وجود هذه المستوطنات والطرق التجارية والقرى الحدودية. وسنجد بعض هذه الأدلة في السجلات التاريخية للأمم التي غزت بلاد

(×١) ليس من شك أو جدل حول «الأم السامية» وفي أنها هي العربية. يؤيد اصطلاحاتها، وعدد المتكلمين بها (جغرافياً) واستمرارها كلهجة سائدة على كل شقيقاتها.

(×٢) هي ما يسميه العامة (الخاوة) أي أموال مفروضة على الدافع سواء كانت بحق أو بغير حق وكأنها جزية وهي مقابل الاخاء والمهادنة والحماية.

العرب، وبعضها في النقوش والأدوات التي وجدت في تلك البلاد، وبعضها في التقاليد والعادات الاجتماعية والدينية المقتبسة في الغالب من مصادر خارجية، والبعض الآخر من اللغة. أما أشكال الأجناس المعروفة في التاريخ فلا تساعدنا (بالضرورة) في تتبع تيارات الحضارة.

يمكن قبول نظرية انعزال شبه جزيرة العرب بصورة ملطفة جداً: فالأمور هناك كانت مشتركة فيها وفي البلاد الخارجة عنها، وكان الخلاف محصوراً في البنيتين الاقتصادية والاجتماعية فحسب، على أن علينا أن نقرر وجود الانعزال في حدود معينة بسبب الفوارق الاقتصادية بين المزارع المستقر والبدوي وليس نتيجة أية حواجز جغرافية.

ملاحظات الفصل الأول

أ ـ رقعة الوطن العربي :ـ

١ ـ اي. آر. بيفان، الأسرة السلوقية: لندن ١٩٠٢ مجلد ١ ص: ٢٠ ـ ٢١.

ب ـ شبه الجزيرة العربية :ـ

٢ ـ حول بلاد البخور. ن ـ الفصل الخامس أدناه.

ـ ـ الجنس السامي :ـ

١ ـ سير أو. فلندرز بتري في خطابه إلى الجمعية البريطانية ابسويتش ١٨٩٥.
٢ ـ را. أوليري «خصائص اللغات السامية» برستول ١٩١٤.
٣ ـ را: سفر الخروج اصحاح ١٢ آية ٤٨ ـ ٤٩».
٤ ـ روبرتسن سميث القرابة والزواج في الجاهلية كمبردج ١٨٨٥ ص:٣ الخ.

د ـ المجتمع العربي:

١ ـ روبرتسن سميث: نفس المصدر ص١٣١ وما بعدها.
٢ ـ هكذا في أي انجناد: «ماهية السامية الأصلية» ليبزج ١٩٢٥.
٣ ـ القرآن: سورة الروم» الآية ١ ـ ٤. ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض...﴾.
٤ ـ ابن هشام: ج١، ص: ٤ ط بولاق.
٥ ـ «سفر الخروج» وإصحاح ١٠ آية ٢٦، كذلك المسعودي «المروج»، ج٣ ص١٤٣ الخ. «والتنبيه والاشراف ص: ٣١».
٦ ـ بطلميوس: «الجغرافيا» ٦، ٧، ٢٠، ٢٣.
٧ ـ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» ج٣، ص٨٧، ٩٤.
٨ ـ ك: ف. كريمر «حول أساطير بلاد العرب الجنوبية» ليبزج ١٩٦٦.
٩ ـ حرف «العين» أضيف إلى كلمة طيء على قياس خطأ من كلمة «طعة» بمعنى «تجول» والصحيح هو «طوى».
١٠ـ بروكوبيوس: «الحرب الفارسية» جزء١: ١٩، ١٤، ٢٠، ٩.
١١ـ المسعودي: «المروج» جزء٥ ص٣٢٣، وجزء ٦، ص٤٢ الخ.

الفصل الثاني

ـ طروء المصريين على بلاد العرب ـ ★

أ ـ نشوء الملاحة المصرية:

يظهر أن الحاجز الصخري العظيم في أسوان وجبل السلسلة اعترضا في زمن من الأزمان مجرى النيل نحو الشمال فتحول مجراه الى الشمال الغربي حيث لا تزال آثار المجرى القديم ظاهرة[1]. واستطاعت مياه النيل بعد زمن أن تخترق هذا الحاجز العظيم مشكلة القناة الحالية حيث نشأ المجتمع المصري على ضفاف هذا الممر الجديد الى الشمال من أسوان وهناك قامت حضارته وتاريخه القديم. أما الصحراء الكبرى الغربية فلم تكن هناك أية محاولة كبيرة لاختراقها. وكانت تعد عالماً تسكنه الأرواح. أما الاتصال البري مع الجنوب فكان موجوداً قبل عصر السلالات بدءاً من جنوب أسوان والشلال الأول. وفي تلك الفترة كانت تسير حملات صعوداً في بلاد «التانيهيسو (Tanehesu) أي أرض السود بحثاً عن الذهب والعبيد. يحد البحر مصر من الشمال. والى الشرق تمتد صحراء قاحلة حتى شواطىء البحر الاحمر الذي كان في وقت ما بحيرة داخلية تتصل براً مع شبه الجزيرة العربية من الشمال والجنوب ولا يزال الجسر البري الشمالي قائماً مشكلاً الوصلة البرية الوحيدة بين مصر والعالم المتمدن، أما البرزخ الجنوبي فقد طغى عليه البحر وأصبح مضيقاً يربط المحيط الهندي مع البحر الأحمر وكان مجرى النيل الأعلى في مناطق لا تزال في حالة من التخلف الحضاري. وقد يظهر مما تقدم أن مصر قطر منعزل تماماً، ولكن الواقع يخالف ذلك إذ أن مصر بدأت احتكاكها منذ زمن مبكر مع البلاد الأخرى عن طريق البحر مما جعل تطور مشاريع الملاحة ظاهرة هامة في تاريخ الحضارة المصرية.

نشأ المجتمع المصري على ضفاف النيل بين البحر شمالاً والشلال الأول جنوباً حيث كان النهر أهم طريق للمواصلات. ويشير هذا طبعاً إلى عهد ملاحي قديم في النهر نفسه. ثم صارت السفن النهرية تتجاوز عملها في النقل النهري وتعبر البحر الابيض المتوسط والبحر الأحمر.

★ اعتبرنا «طروء» ترجمة لكلمة Penetration بدلاً من «اختراق» أو «تغلغل» وهي الترجمة الحرفية للكلمة وذلك لأنه لم يكن هناك غزو مفاجيء أو مخطط كما سترى في نهاية الفقرة الثانية من هذا الفصل.

ترجع الملاحة النهرية الأولى في النيل الى ما قبل عصر السلالات كما يظهر في صور القوارب ذات المجاذيف، أو القوارب الشراعية على خزف ذلك العصر. أما التجارة البحرية فيبدأ أول دليل عليها زمن الاسرة الثالثة، أي أن الملاحة النهرية كانت في ما قبل عصر السلالات حتى الاسرتين الأولى والثانية أي حتى سنة (٣٠٠٠ق.م) وتبدأ الأدلة على وجود السفن التي تمخر في البحر بالملك سنيفيرو (Sneferu) عاشر ملوك الاسرة الثالثة حوالي ٢٩٠٠ق.م. الذي جهز حملة بحرية عبرت البحر الأبيض المتوسط إلى سوريا لتجلب خشب الأرز الى مصر التي كانت تعاني دوماً من قلة الاشجار الحرجية ذات القيمة الحيوية. وكانت تضطر دائماً إلى الحصول على الخشب من الخارج. وليس من المعقول أن نصدق بأن تكون هذه الحملة البحرية الكبيرة التي ذهبت لجلب شحنة كبيرة من الخشب هي أول مغامرة خلال البحر الشمالي إذ لا بد أن نفترض واثقين بأنه كانت هناك عمليات بحرية تجارية قبل هذه الحملة. لكننا مضطرون في غياب الدليل أن نعتبر عصر الملك سنيفيرو بدءاً لمرحلة في تطور الملاحة.

وما دمنا قررنا وجود ملاحة بحرية قديمة في البحر الأبيض المتوسط فلنا أن نفترض وجودها في البحر الأحمر. ويؤيد ذلك الفرض وجود طريق قديمة تصل وادي النيل في الانحناء صوب الشرق قبل أن يصل ارمنت بقليل(×١) ويبلغ ذلك الانحناء اقصاه عند قبطس (Koptos) قفط الحديثة: إذ يعود فجأة، بعد أميال قليلة، إلى الاتجاه غربا بحيث تكون قفط اقرب نقطة، على النيل، إلى البحر الأحمر. وكانت هذه الطريق منذ أقدم الأزمنة مستغلة بين النهر والساحل عبر وادي الحمامات أو وادي فواخيه(×٢) كما يسمى عادة، وتنتهي بساحل البحر الأحمر في نقطة إلى الشمال قليلاً من القصير الحديثة. على أن ذلك لا يستلزم جعل تجارة البحر الأحمر سبباً لتلك الأهمية التي لمدينة قفط (Koptos) زمن الاسرة الرابعة لأنه كان في وادي الحمامات مقالع حجرية تعد المصدر الرئيسي لسد الحاجة الملكية من الغرانيت والحجارة الرملية الصلبة والمرمر، وكانت المناطق القريبة منها تمون المملكة بالعقيق اليماني (Onyx). ويقول «ويجال[٤]» تدل النقوش القديمة في تلك المحاجر على أنها كانت مستعملة زمن الاسرتين الأولى والثانية(×٣). وكذلك اكتشفت هناك وفي زمن سيتي الأول من الاسرة التاسعة عشرة (١٣١٣-١٢٩٢ق.م) مناجم للذهب

(×١) أرمنت قبل الأقصر بقليل وإلى الجنوب من قنا بحوالي ٥٥كم تقريبا (Erment).

(×٢) لعله بئر أم فواخير الذي يقع بين وادي الحمامات وساحل البحر الأحمر بالقرب من مدينة (القصير) - ن - الأطلس العربي - وزارة التربية والتعليم في جمهورية مصر العربية. الطبعة الخامسة، ١٩٧٢.

(×٣) ٣٠٠٠ ق. م.

ولدينا تصميم واضح لهذه المحاجر والمناجم على أوراق البردى الموجودة حالياً في تورين[٥]. وكان الذهب يجلب قبل ذلك من بلاد النوبة والبلاد الجنوبية.

ومع أن وجود المحاجر ومناجم الذهب يظهر أهمية طريق وادي الحمامات الا أنها كما يبدو كانت تستعمل أيضاً للوصول الى البحر الأحمر مما يشير إلى أن الملاحة بدأت في هذا البحر في الوقت الذي ابتدأت فيه في البحر المتوسط ويرجع أول دليل على الملاحة في البحر الأحمر إلى الاسرة الخامسة اذ جهز الملك ساحور (Sahure) (حوالي ٢٧٤٣ـ٢٧٣١ق.م) حملة على محاذاة الساحل الافريقي، ونقش صورة الاسطول ولوحة عن عمله العظيم على جدران المعبد الذي دفن فيه[٦]. وقد أرسل هذا الملك جماعة أخرى الى بلاد النوبة عن طريق النيل ثم البحر كما يبدو من ذكر اسم أحد رجال هذه الجماعة الذي وجد منقوشاً على الصخور في جزيرة سهيل(×١) قرب الشلال الأول[٧]. والظاهر أن الغاية من هذه العملية كانت محاولة لوجدان طريق أقرب الى السودان عبر البحر، وكان يجلب الذهب والعبيد من السودان. أما نقوش واد الحمامات العديدة فكان أقدمها من عهد الاسرة الخامسة حوالي: (٣٣٦٠ق.م)(×٢) حيث تظهر سلسلة من الأسماء والألقاب الملكية التي يشير بعضها إلى الملوك الذين استغلوا محاجر تلك الجهة. ويشير البعض الآخر الى الحملات المرسلة في البحر الأحمر[٨]. ولما جاءت الاسرة السادسة كان المصريون قد مهروا في الملاحة، واصبحوا بحارة متمرسين يسهل عليهم نقل التجارة عبر البحر المتوسط والبحر الأحمر. وهذه الاسرة هي التي ينسب اليها مدفن هيرخوف (Her-Khuf) في أسوان حيث توجد نقوش عن سلسلة من الحملات الى بلاد «بنط Punt» كانت على ما يظهر تجارية محضة. وقد لعبت الملاحة في البحر الأحمر دوراً هاماً في توسع مصر التجاري: يؤيد ذلك استمرار تناقل القصة الشعبية التي تدور حول مغامرات بحار هناك[٩]: مما يدل على أن المصريين في ذلك العهد كانوا مولعين بحب البحر. وكان وادي الحمامات طريقاً لنقل تجارة البخور، مما يدل بوضوح على التعامل المستمر مع بلاد العرب الجنوبية ذات المحاصيل الوافرة من البخور، ومع الساحل الافريقي الذي كان يأتي منه البخور زمن الاسرة الثانية عشرة، وربما قبل ذلك.

(×١) جزيرة سهيل (Sahel) بين سد أسوان جنوباً وأسوان شمالاً في وسط النيل.

(×٢) هذا التاريخ قد يصلح للأسرة الأولى لأنه عند ذكر سنيفيرو عاشر ملوك الأسرة الثالثة وضع ٢٩٠٠ق.م تاريخاً له ولا يعقل أن تكون الاسرة الخامسة قبله بعدة قرون. ولعل التاريخ المقصود كان ٢٧٦٠ق.م ما دام حكم الملك ساحور (من الأسرة الخامسة) كان ٢٧٤٣ ـ ٢٧٣١ق. م.

يظهر من أحد نقوش وادي الحمامات أن المدعو (هنّو Hennu) من الموظفين الملكيين قاد حملة الى بلاد (بنط Punt) قبل نهاية الاسرة الحادية عشرة (حوالي ٢٥٠٠ق.م) ويذكر في النقش أنه أرسل بعض رجاله قبل مسيرة الجيش ليحفروا الآبار ويبنوا الأحواض والخزانات المائية على طول الطريق التي صارت، نتيجة لهذه التحسينات، أسهل وأكثر استعمالا خلال الوادي[١٠].

يذكر هيرودتس أن الملك سيزوستريس قد سار في الخليج العربي بمحاذاة شواطىء البحر الأحمر فاتحا البلاد الساحلية التي في طريقه[١١] وسيزوستريس هذا هو سنوسرت الأول (يوزرتسن Usertsen) من ملوك الاسرة الثانية عشرة (١٩٧٠ـ١٩٣٥ق.م). ويؤيد هذا القول نقش مطول وجد في مدفن القائد (أميني) الذي خدم في عهد الملك أمينهات الأول والملك سنوسرت الأول. وقبر هذا القائد موجود في أحد الكهوف الشمالية في بني حسن[١٢]. ولما جاء الملك يوزرتسن الثالث (١٨٨٧ـ١٨٤٩ق.م) قام باكمال فتح بلاد النوبة تاركا سجل مغامراته على بلاطة قائمة في جدار[١٣]. وجاء في نقش في وادي الحمامات أن الملك أمينهات الثالث من نفس هذه الاسرة قد استثمر محاجر تلك الجهة. فالاسرة الثانية عشرة تمثل فترة ازدهار عظيمة توسعت فيها توسعا ظاهرا نحو الجنوب وتبعا لذلك زادت الملاحة في البحر الأحمر.

يحوط الغموض الاسرتين التاليتين إلى أن تجيء الاسرتان الهكسوسيتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة اللتان كان ملوكهما من عنصر أجنبي أسيوي وعلى الأغلب من أصل سامي. أما الاسرة السابعة عشرة(×١) فهي مصرية ثارت على الحكام الأجانب واستعادت ملك أجدادها ليبلغ هذا الملك عصره الذهبي زمن الاسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ـ١٣٥٠ق.م).

(×١) جاء في «المنجد» أن الهكسوس حكموا مصر اعتبارا من ٢١٦٠ ـ ١٥٨٠ق. م (وهو ٥٨٠ عاما) ـ ن: الملوك الرعاة. وعلى هذا يكون مجيء سيدنا ابراهيم عليه السلام وأحفاده سيدنا يعقوب وأولاده إلى مصر زمن هؤلاء الهكسوس العرب، ولعلهم من بني عمليق سكان غزة وسيناء. ويقال إنهم مهاجرون من بلاد مابين النهرين.

أما أحمد سوسة «العرب واليهود في التاريخ» فيحدد عصر الهكسوس ١٧٨٥ ـ ١٥٨٠ ق. م أي ٢٠٥ أعوام. على أنه يقول في ص١٢٩ على لسان يوسيفوس نقلاً عن الكاهن المصري مانيثون الذي عاش وكتب تاريخه حوالي سنة ٢٨٠ق.م «إن هذا القوم الذي أطلقنا على زعمائه اسم «ملوك» ودعوناهم «بالرعاة» حكموا في مصر ٥١١ سنة». بريستد تاريخ مصر ص: ١٤٣.

سارت الاسرة الثامنة عشرة في سياستها على مبدأ حماية البلاد من كل محاولة لغزوها مستقبلا من الأمم الاسيوية. لذلك قامت بغزو سوريا والسيطرة عليها زمن مينهوتب الأول (١٥٥٧ـ١٥٠١ق.م) بمساعدة الاسطول النظامي الذي يعد انشاؤه بدءا لمرحلة أخرى في تطور الملاحة المصرية. وبفضل هذا الغزو اصبح خليفته تحوتمس الأول قادرا على المباهاة بأن الفرات هو حد مصر الشرقي. ولا يعني أن كل همهم البحري كان منصرفا إلى شواطيء البحر المتوسط الشرقية، وأنهم تركوا مشروع البحر الأحمر، إذ أنهم بعد مدة قليلة قاموا زمن الملكة حتشبسوت، من نفس الاسرة، وفي أوائل القرن الخامس عشر ق.م بارسال حملة في البحر الأحمر الى بلاد بنط الواقعة جنوب مصر والتي كانت على ما يظهر تشمل بلاد النوبة والصومال الخ.. وتشاهد في معبد هذه الملكة تفاصيل هذه الحملة ووصف الاسطول والأعمال التي جرت في بلاد بنط والكنوز التي غنموها محفورة على جدران ذلك المعبد في دير البحري Der-el-Bahari[١٤] والظاهر أن الملكة قد بنت اسطولها في أحواض اقامتها في النيل. ثم سيرت هذا الاسطول إلى البحر الأحمر عبر قناة تصل فرع النيل الشرقي مع خليج السويس. يقول هيرودوتس أن الذي بدأ هذه القناة هو الملك «نيخو Nicos» أحد ملوك الاسرة السادسة والعشرين. ولكنه يعني دون ريب أن الملك نيخو بدأ تنظيفها واعادة استعمالها بعد الذي لقيته هذه القناة من الإهمال الذي نعرفه من دراستنا لتاريخ الاسرة العشرين والاسر التي تلتها، ويصفها بأنها تبدأ من النيل قبل بوباستيس (بلبيس) بقليل على محاذاة الجانب الغربي من السهل المصري حتى تصل سلسلة التلال التي قبل ممفيس والتي تحيط بهذا السهل وحيث توجد المحاجر الواسعة، ثم تسير بمحاذاة سفوح هذه التلال من الغرب الى الشرق، ثم تنحاز داخلة في ممر ضيق وتتجه جنوبا حتى تصل الخليج العربي[١٥]. والظاهر أنها كانت مستعملة زمن الدولة الوسطى وأصابها الاهمال زمن الاسرة العشرين على الرغم من أنه كان لرمسيس الثالث وخلفائه من ملوك هذه الأسرة اسطول في البحر الأحمر، ولكنهم كانوا يفضلون استعمال ميناء قريب من القصير عن طريق وادي الحمامات. أما بليني فيعتقد أن القناة لم تتجاوز البحيرات المرة التي تمر فيها قناة السويس الآن، وذلك لاختلاف مستوى السطح بين البحر الأحمر والنيل. ولكن ديودوروس Diodorus يذكر لنا أن مدخل القناة كان قريبا من أرسينوى (Arsinoe) وعليه فهو قريب من مدينة السويس الحالية[١٦]. وقد ملأتها الرمال مرارا، وكان يعاد تنظيفها. وقد جددها البطالمة، وفتحها الخلفاء (المسلمون) في العصور الوسطى وبقيت مستغلة حتى اكتشاف طريق الهند حول افريقيا فتوقف استعمال هذه الطريق البرية وأهملت. ويمكن الآن تتبع مجراها العام ومشاهدة الحواجز والمتاريس التي كانت موجودة على ضفتيها.

وردت زمن الاسرة الثامنة عشرة أول اشارة الى «قفطيو»[١٧] (Keftiu) التي تعني أرض كريت وسكانها. فقد أخذ هؤلاء البحارة الشماليون يزعجون المصريين زمن الاسرتين التاسعة عشرة والعشرين بالاعتداء على شواطيء مصر وسوريا في البحر الابيض المتوسط اذ كانت سوريا في ذلك الوقت ولاية مصرية. وأول اشارة اليهم كانت في سجلات تل العمارنة باسم «شردانا Shirdana». وتصف المعلومات المفصلة في جدران معبد مدينة حابو حرب رمسيس الثالث مع جماعة من القراصنة وكيف طردهم من شواطيء مصر بعد أن حاولوا الاستقرار فيها. ولهم في تلك القصة أسماء مختلفة هي: بوليساتا (Pulesata)، ووشاشا، وتكروي (Takrui) ودانونا (Danauna) وقد استقر بعض هؤلاء المطرودين من مصر في ساحل كنعان حيث شكل القسم الأول منهم (البوليسات) الشعب الذي دعى فيما بعد باسم (الفلسطينيين).

نشاهد على جدران معبد الكرنك، وفي بهو احتفالات تحتمس الثالث، أول من أشار الى القفطيو، مجموعات من الازهار المختلفة والنباتات والطيور والحيوانات التي كانت تشاهد في حديقة المعبد والتي جلب كثير منها على ما يظهر من سوريا. وقد تم فتح سوريا بعد طرد الهكسوس مباشرة كاجراء مقصود لمنع أي غارة أخرى للقبائل الاسيوية على مصر. وبقيت سوريا في حوزة مصر حتى عهد أخناتون (١٣٧٥ـ١٣٥٨ق.م) وتزخر سجلات تل العمارنة بالمشاكل التي كانت تثيرها الحالة المضطربة في سوريا والتي انتهت الى ضياع تلك الولاية، واستعادها ستي الأول (١٣١٣ـ١٢٩٢ق.م) من ملوك الاسرة التالية(×١) (التاسعة عشرة) وبقيت تحت حكم مصر بمساعدة اسطول نظامي يعمل في البحر المتوسط. ولكنها ضاعت من مصر نهائياً زمن رمسيس الثالث (١١٩٨ـ١١٦٧ق.م) ولم يكن زوال القوة المصرية في سوريا عائداً إلى ضعفها العام بقدر ما كان ناجما عن ازدياد قوة العناصر الأجنبية في آسيا الغربية والتي كانت تتفوق على المصريين بالروح العسكرية المحبة للقتال.

تزامن انحطاط القوة المصرية في سوريا مع ظهور الفنيقيين وتسلمهم القيادة التجارية والملاحة في البحر المتوسط. وأصل هذا الشعب مشكوك فيه، حتى أن الكتاب الحديثين يفضلون أن يمروا به دون اشارة اليه ولو عرضاً[١٨]. ولكن الثابت أنهم كانوا أصحاب الامتيازات البحرية في صيدا ومستعمراتها التي كانت جميعها موانيء بحرية قديمة. ولا شك أنهم امتزجوا قبل تفوقهم التجاري بالشعب السامي الذي قام جماعة منه بغزو مصر باسم الهكسوس، ومن المحتمل جداً انهم أدخلوا ضمن جماعتهم أيضاً قسماً من البوليساتا الذين

(×١) هو فرعون موسى عليه السلام (في الغالب) حسب تاريخ خروج الاسرائيليين من مصر.

استقروا في ساحل كنعان(×١). وكانوا في حضارتهم تحت التأثير الايجي كما يظهر من الخزف المنقوش على الواجهات وغيرها(×٢).

رأينا فيما سبق كثيراً من الأدلة على وجود الملاحة النهرية في كل تاريخ مصر القديم؛ أما الملاحة البحرية في البحر المتوسط فظهرت زمن الأسرة الثالثة. كما ظهرت في البحر الأحمر زمن الاسرة الخامسة، وكانت الملاحة هذه فردية، ثم ظهرت الملاحة ذات الأساطيل الملكية النظامية، وكان أولها زمن الاسرة الثامنة عشرة في البحرين المتوسط والأحمر. وظهرت في الوقت نفسه الأمة الفنيقية التي انتقلت الى أيديهم معظم الملاحة التجارية في البحر الابيض المتوسط. وبقيت للمصريين قيادة الملاحة في البحر الأحمر، واستمر ذلك حتى عهد السلالات المتأخرة.

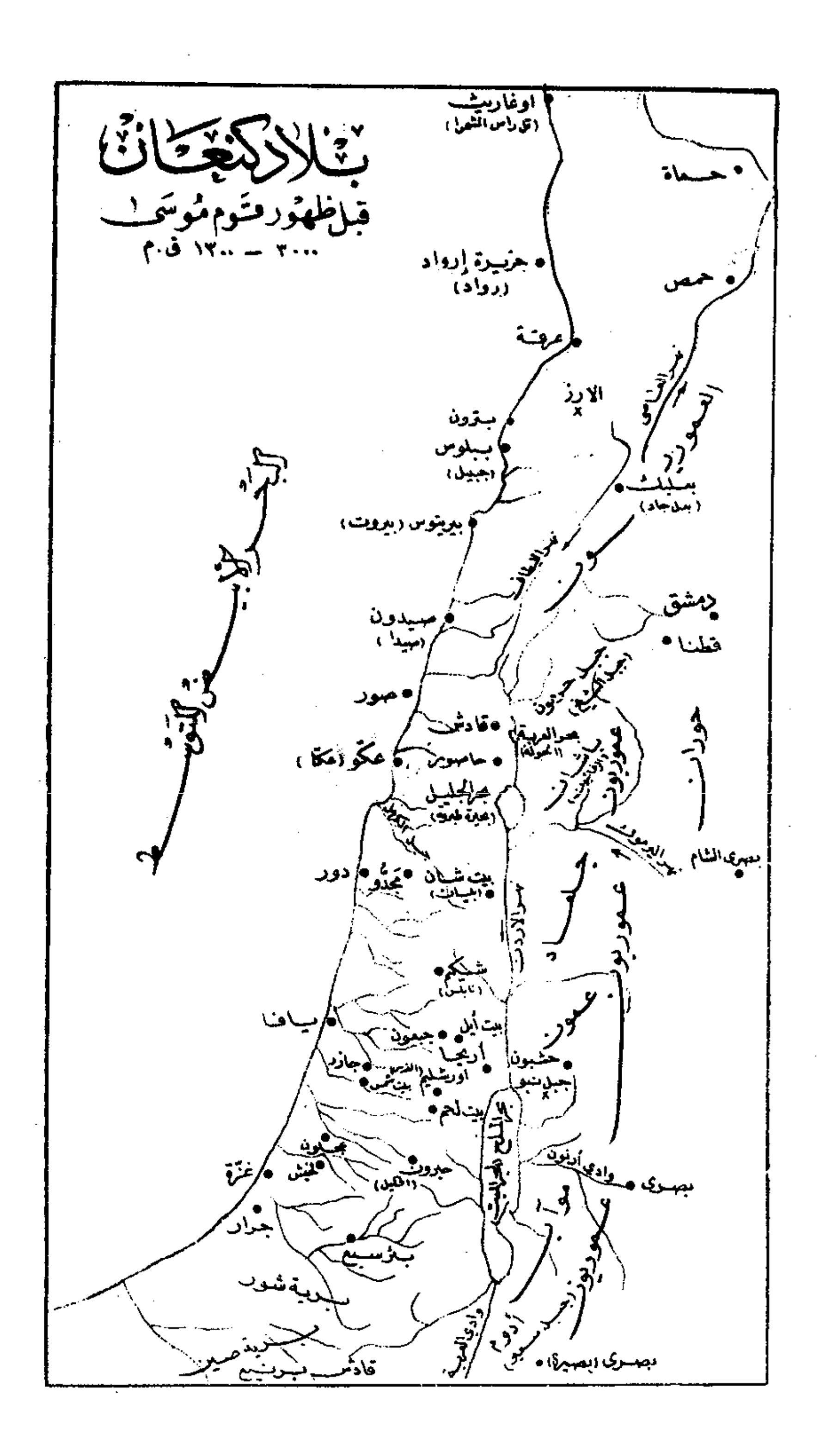
ب ـ الطريق البرية عبر سيناء:

ارتبط اجتياح سيناء، ارتباطاً خاصاً بكميات النحاس الذي كان ذا أهمية لمصر التي كانت قد دخلت العصر النحاسي منذ قيام الاسرة الأولى. وقد كان النحاس، في أول الأمر، يستعمل كمادة كمالية لتزيين الرقائق الصوانية الغالية[1]. وكان استعماله مقصوراً على الاشغال الفنية، دون أن يحل محل الصوان في صنع الأدوات الا بعد انقضاء فترة من الزمن. وكان النحاس قبل ذلك يجلب من الشمال من سوريا على يد جماعات من الأرمن الذين ظهروا في مصر قبل نهاية ما قبل عصر السلالات (الاسر) بمدة. ثم اكتشفوا في الجانب الغربي من شبه جزيرة سينا مورداً أقرب يقع في منطقة وادي المغارة الى الشمال قليلا من مدينة الطور الحالية. وتشهد النقوش والنحت البارز الموجودة هناك على قيام المصريين بأعمال تعدين النحاس[2] في مناجمه.

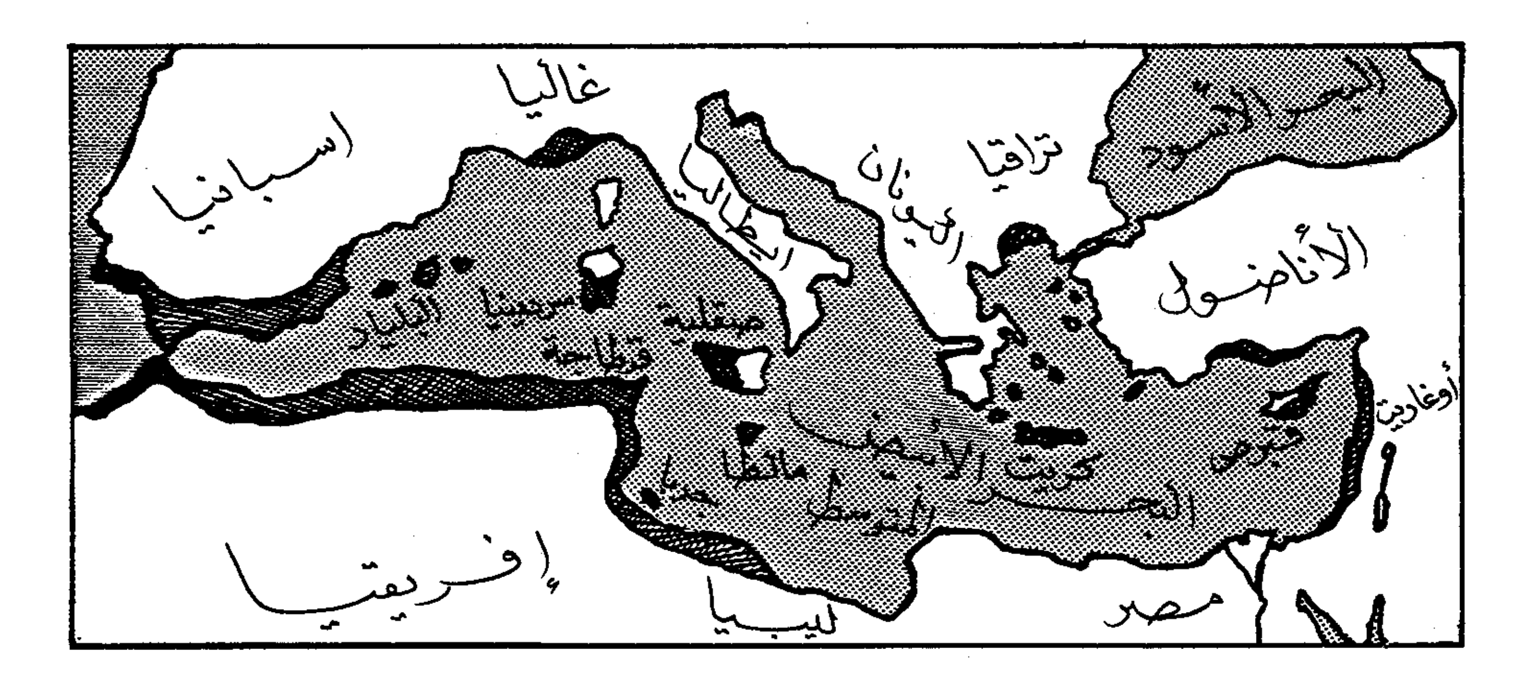
يرجع أول نحت بارز إلى الاسرة الأولى (حوالي ٣٩٠٠ق.م) حيث يظهر الملك (سميرخا Smerkha) وهو يهم بذبح أحد المواطنين. وقد أصبح هذا الرسم نموذجاً تقليدياً

(×١) من المؤسف أن يظهر هذا التجاهل للشعب الفنيقي الذي غزا العالم بحضارته وتقديمه الأبجدية (الألفبائية) للعالم والملاحة والاصباغ واستعمر شمال افريقيا ومن المؤسف أن المؤلف يعود إلى تمجيد الفنيقيين في الفصل الرابع ص: ٦٠ ـ ٦٤ ولكنه أيضاً يحاول أن يقول لا يُعرفُ شيء عن الفنيقيين.

(×٢) كان للفنيقيين كيان حضاري ـ ربما ساهمت فيه حضارات مصر وما بين النهرين قبل أن يكون للايجيين حضارة معروفة تستطيع التأثير في غيرها. ن . التاريخ القديم لبلاد الشرق الأدنى: هول «بالانجليزية».



بلاد كنعان
قبل ظهور قوم موسى
٣٠٠٠ — ١٣٠٠ ق.م
اوغاريت
(تل راس الشمرا)
حماة
جزيرة إرواد
(رواد)
حمص
عرقة
الارز
بترون
ببلوس
(جبيل)
بعلبك
(بعل جاد)
بيريتوس (بيروت)
دمشق
قطنا
صيدون
(صيدا)
صور
قادش
حاصور
عكو (عكا)
بحر الجليل
(بحيرة طبرية)
دور
مجدو
بيت شان
شكيم
يافا
بيت أيل
جبعون
أريحا
حشبون
جبل نبو
جازر
اورشليم
بيت لحم
حبرون
(الخليل)
لخيش
غزة
جرار
بئر سبع
برية شور
قادش برنيع
بصرى
وادي أرنون
بصرى الشام
بصرى (بصيرة)
حوران
عمون
ادوم



— دولة الفنيقيين —

يتكرر ظهوره في أعمال النحت البارز التي تسجل أعمال الملوك الآخرين من بعده[٣]. ثم أصبحت هذه المناجم تدريجيا مصدرا رئيسيا لتزويد مصر بالنحاس، وربما كانت مستغلة قبل مجيء المصريين لصالح السكان الساميين الاصليين(×١). وقد انتظم استغلال هذه المناجم زمن الاسرة الثالثة (حوالي ٣٠٠٠-٢٩٠٠ق.م) وزارها الملك زيسر Zeser حوالي ٢٩٨٠ق.م. ولم يكتف بأخذ معدن النحاس، بل أنشأ مناجم الفيروز واستعمل المستخرجات في تزيين حجرات هرمه. وزيارة هذا الملك مسجلة في نقوش الوادي[٥].

كذلك قام الملك سنيفيرو من الأسرة الرابعة (حوالي ٢٧٦٦ق.م.) بفتح شبه الجزيرة ونقش هناك أعماله البطولية بالنحت البارز[٦]. وقد استولى هذا الملك على المناجم وأقام الحصون وملأها بحاميات مصرية مكنته من السيطرة على السكان المحليين وجعلها أيضا ملجأ يحتمي فيها العمال عندما كانت تهاجمهم القبائل العربية. أما في النقش رقم (٧) الخاص بالملك خوفو Kheops من الاسرة الرابعة وهو باني الهرم الأكبر في الجيزة، فيظهر الملك في الرسم التقليدي وهو يهم بذبح أحد الأهالي المغلوبين. كذلك عاد هذا الرسم الى الظهور في سجل أعمال الملك ساحور من ملوك الاسرة الخامسة (حوالي ٢٧٤٣ ق.م) تحت الرقمين ٨ و ٩. علما بأن نقوش وادي المغارة التي تسجل احتلال المصريين لسيناء وأعمال التعدين فيها بلغت خمسة وأربعين نقشا في مجموعها، وتظهر في الرابع والأربعين منها أعمال الملكة حتشبسوت التي أعادت استغلال المناجم وكذلك الملك تحتمس الثالث وهما من الاسرة الثامنة عشرة (حوالي ١٤٨٣ق.م). أما النقش الخامس والأربعون الخاص برمسيس الثاني من ملوك الاسرة التاسعة عشرة (١٢٩٢-١٢٢٥ق.م). فغير موجود الآن، مع أن هناك ما يشير الى ان (ايبرس Ebers) قد رآه(×٢). ولا يوجد أي دليل محسوس على استعمال هذه المناجم بعد ذلك، مع احتمال بقاء أعمال التعدين قائمة. أما مناجم الفيروز فلا تزال تستعمل حتى اليوم.

توجد في أقصى الشرق في شبه جزيرة سيناء تلة (صربوط الخادم) (Sarbut el-Khadem) أي «تلة القلعة» ويوجد على رأسها المنبسط معبد الآلهة حتحور (Hathur) المصري ذى النقوش الكثيرة[٧] وفيه أعمدة أقامها كل من منهوتب من ملوك الاسرة الحادية عشرة،

(×١) عصر ما قبل السلالات كان قبل سنة ٤٠٠٠ق.م والساميون المشار إليهم هم عرب الساحل وغزة وسيناء من العمالقة والكنعانيين. ويؤكد المؤلف على أنهم عرب فيما بعد عندما يتكلم عن الملك سنيفيرو وتشكيله حاميات ضد القبائل العربية لوقف مضايقة المناجم حوالي ٢٧٦٦ ق. م.

(×٢) ضياع النقش الخامس والأربعين الخاص برمسيس الثاني الذي جاء بعد سيتي الأول فرعون موسى (ع) غالباً يثير الشكوك ويسترعي الانتباه.

وسيزوستريس الأول من ملوك الاسرة الثانية عشرة. أما المعبد فقد اكتمل بناؤه زمن الاسرة الثانية عشرة ووسع زمن الاسرة الثامنة عشرة. وتوجد بالقرب من هذا المعبد وفي وادي النصب (Wadi Nasb) مناجم نحاسية[٨] بدأ استغلالها زمن الملك سنيفيرو من ملوك الاسرة الثالثة. يشير النقش السابع والاربعون الى أمينمهات الثاني من ملوك الاسرة الثانية عشرة حين كانت المناجم في أوج استغلالها. بينما تختص النقوش ٥٨ و ٥٩ و ٦٠ بتحتمس الرابع من ملوك الاسرة الثامنة عشرة. أما النقش ٦١ فتاريخه مشكوك فيه. توجد أفران صهر النحاس على تلة صربوط الخادم بالقرب من المعبد الذي كان عمال المناجم ومراقبوهم يحتفلون فيه بأعيادهم، أما الآثار التذكارية فقد أقام معظمها الموظفون الذين كانوا يرغبون في تسجيل أسمائهم، ونجاح عملياتهم والصعوبات التي كان عليهم أن يخوضوها. وكانت منازل المعدنين والمستودعات في الوادي بالقرب من المناجم التي لا يزال بعضها غير مستنزف حتى الآن.

في ضوء ما تقدم وطلبا لمعدن النحاس شق المصريون طريق سيناء التي امتدت في شمال الحجاز حتى تيماء ومنها شمالا إلى بابل او جنوبا إلى اليمن. وكانت الطريق الاولى سببا للنزاع المتأخر بين مصر وآشور والذي تحول على ما يظهر الى حروب بين هاتين المملكتين في فلسطين الجنوبية[٩]. أما معلوماتنا عن الطريق الثانية ـ من ـ الحجاز الى اليمن جنوبا، فهي قليلة، على أنه كانت هناك مستوطنة مصرية في هذه الطريق نشأت مكانها يثرب (المدينة) التي ليس لدينا ما يدل على زمن نشوئها. ومن المؤكد أن الاتصال بين مصر وشمالي الحجاز كان موجودا من زمن قديم مما سبب على الأرجح تسرب التأثير المصري اليهم قبل تشكيل طريق القوافل النظامية عبر الحجاز[١٠]. يخمن السير هـ.هـ. جونسون ان أسلاف الأسر المصريين هم الذين قاموا ببناء السدود وأعمال الري العظيمة في جنوب شبه جزيرة العرب. وقد يعزى ذلك الى تأثير بلاد ما بين النهرين: فهذه الأعمال أقرب إلى الحضارة النهرية. وهذا تلميح معقول إذا عرفنا أن المنحوتات التي وجدت في جزيرة العرب تحمل بعض لمحات من التأثيرين المصري والاكدي[١١] مما يدل على أن أثر هاتين الحضارتين تغلغل في تلك البلاد في زمن مبكر جدا. ومما يؤكد اتصال مصر ببلاد العرب الجنوبية وجود البحر الاحمر الذي كان يجوبه المصريون لاحضار البخور اللازم لطقوسهم في معابدهم، ولتحنيط أمواتهم، على أن هذا الاتصال كان تجاريا محضا، إذ ليس هناك أي دليل مادي على غزو المصريين لبلاد العرب الجنوبية. ويؤكد اتصالهم بشمال الحجاز أنهم كانوا يحكمون سيناء القريبة. وقد وصل التأثير المصري شمالا إلى أبعد من هذا، فبادية الشام التي تعد جزءا لا يتجزأ من بلاد العرب كانت ضمن حدود مملكة تحتمس الأول الذي كان يعتبر نهر الفرات حدها الشرقي كما يظهر من نقش هذا الملك

على جدران معبد الكرنك وكذلك كان الاكديون يطلقون في نقوشهم اسم مصر أو مَصر (Musur , Misr) على تلك البلاد، ويدخلون فيها شمال بلاد العرب وسوريا أيضا[٢] مما يدل بوضوح على أن هذه الأراضي كانت تعتبر مصرية الى ما قبل تحرك القوات الاشورية. وتدل الآثار القائمة في فلسطين[١٣]. على أنها كانت مستعمرة مصرية، دون وجود نقوش تسجل ذلك الاحتلال قبل الاسرة الثانية عشرة. وأن ذلك الاستعمار جاء عن طريق التغلغل السلمي أو المشروعات التجارية وليس عن طريق الغزو العسكري، الذي جاء متأخرا عندما تبين للمصريين خطر الساميين(١×) المجاورين، وعندما رأوا انهم مضطرون لاتخاذ اجراءات من شأنها أن تحول دون تكرار أي غزو مماثل للغزو الذي أدى الى قيام حكم الهكسوس. وقد كان التغلغل السلمي أقدم من عصر الغزو والفتح بزمن طويل، وتعتبر آثار الاسرة الثانية عشرة المصرية أقدم دليل على الحضارة الأجنبية التي تم اكتشافها في فلسطين حتى الآن. ولا يوجد دليل مادي على انتشار التأثير المصري في بلاد العرب آنذاك. أما زمن الاستعمار والفتوحات فقد صارت حماية الطرق المؤدية من برزخ السويس الى فلسطين ومنه إلى شمالي بلاد العرب جزءا من جملة أعمال الدولة المصرية، وقد بدأ في هذا الوقت إن لم يكن قبله دخول التأثير المصري الى شمال بلاد العرب.

ج ـ استعمال البخور في مصر:

على الرغم مما لدينا من المواد الكثيرة المبوبة عن التاريخ المصري، الا أنه لا تزال هناك ثغرات في معلوماتنا لا نستطيع سدها دون اللجوء إلى الحدس والتخمين، بيد أن القرائن تجعل هذا التخمين أقرب للحقيقة. فقد يصف لنا التاريخ وجود حضارة معينة دون أن يبين كيفية نشوئها وتشكلها. مثلا اتصال مصرببلاد العرب: ترينا الأدلة التاريخية الأولى وجود تجارة مصرية مع تلك البلاد دون ايضاح عن كيفية نشوء تلك التجارة.

يرتبط جزء هام من القرائن بوجود تجارة البخور: فقد كان البخور يستعمل في تحنيط الاموات، وأثناء القيام بالطقوس الدينية في المعابد أو حين دفن الأموات. وقد نشأ فن التحنيط في الفترة التي بين الاسرتين الثالثة والرابعة (٣٠٠٠ـ٢٧٥٠ق.م) وكان التحنيط قليل الاستعمال زمن الاسرة السادسة وحتى الاسرة الثانية عشرة، وبعد ذلك أصبح مستعملا عند كل الاغنياء والقادرين. وكان التحنيط يعتمد على النطرون كمادة حافظة بعد نزع الأعضاء التي يخشى أن يدب فيها الفساد السريع: وكانت مادة

(١×) المعروف أن الهكسوس ساميون ـ ولابد أن المصريين كانوا أيضا ساميين وأدلة ذلك في كتب التاريخ. د. أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ ط٤ ١٩٧٥ ص١٢٦ ـ ١٣٠.

النطرون(×١) تجلب من وادي النطرون في غربي مصر السفلى. ثم صارت تضاف اليه التوابل (Spices) المجلوبة من بلاد العرب الجنوبية، ومع مرور الزمن صارت هذه التوابل كثيرة الاستعمال في الشعائر الدينية. فاستعمل البخور في التحنيط، وللحرق في مراسم الجنائز، وأثناء القيام بالطقوس الدينية في المعابد. ويعد استعمال البخور من المميزات الحضارية المصرية لدرجة أنه لا يمكن استعمال البخور في بلاد ما دون أن يكون لمصر أثر مباشر أو غير مباشر في استعماله. يقول هيرودوتس الذي عرف مصر عندما كانت معابدها عامرة «بلاد العرب هي القطر الوحيد الذي يوجد فيه اللبان والمر والكاسيا والقرفة واللادن[١](×٢). ولدينا أدلة أخرى من النقوش تقول: كان يجلب البخور للمعابد من المعينيين والسبأيين في بلاد العرب الجنوبية[٢] ومن المسلم به أن البخور كان ضمن الحاجات التي كانت تجلب من بلاد بُنط الجنوبية التي ربما كانت بلاد الصومال[٣]. ولكن هذا على ما يظهر، كان اكتشافا حديثا، بل عرف بأنه بدعة كذلك ويقول ثيوفراستيس فيما بعد «كان العرب يجلبون أطيب أنواع البخور من جزر كانت خاضعة لهم[٤]». ولكن الحقيقة تبقى نفسها وهي أن البخور جلب في أول الأمر من بلاد العرب فحسب. وأن بلاد العرب صارت في المدة المتأخرة طريقا لجلبه ومروره. لذلك لا بد من وجود تجارة عربية جنوبية مع كل أمة استعملت البخور.

يقول ديودورس سيكيليس(×٣) «كان الذهب يستورد من بلاد العرب» ويقول هاليفي أنه رأى أحواض غسل الذهب في بلاد العرب في حين أنكر غيره ذلك بالمرة[٥]. وسواء وجد الذهب في بلاد اليمن أم لم يوجد، فإن الثابت أن العالم القديم كان يجلب الذهب من بلاد العرب، مع احتمال أن يكون الساحل الافريقي هو موطن ذلك الذهب.

(×١) النطرون: مادة كربونات الصوديوم الطبيعية. ووادي النطرون بين مصر وليبيا(منخفض القطارة).

(×٢) وهي بالأجنبية Frankincense, Myrrh, Cassia, Cinnamon, & Ledanon.والكاسيا هي المسماة خيار شنبر وهي ثمرة مثل الخرنوب.

(×٣) سيكيليس أي الصقلي: عاصر يوليوس قيصر، وأغسطس وتجول في العالم المعروف آسيا وأوروبا وكتب كتبه التاريخية في ٤٠ مجلداً وصلنا منها ١٥ كتاباً كاملة ومن الباقي نتف فقط. بلاكيني ص ١٩٣ (القاموس الكلاسيكي الأصغر). ولا ننسى أن ديودوروس من صقلية وأن صقلية بلد فينيقي سقط في يد الرومان في الحرب البونية الأولى بين قرطاجنة وروما سنة ٢٠١ قبل الميلاد مع نهاية هنيبال.

ملاحظات الفصل الثاني

أ ـ نشوء الملاحة المصرية

١ ـ جي. دي. مورجان: «الشرق قبل التاريخ ج١: فصل٦/ ١٩٢٥.

٢ ـ مزهريات ما قبل عصر السلالات الموجودة في المتحف البريطاني مثل رقم ٣٥ ورقم ٣٢٤ المقتبسة في «بدج» ـ تاريخ مصر ـ جـ ١، ص:٨٠. ن. بتري «الفنون والصنائع في مصر القديمة» ١٩٢٣، شكل ٦٧. وكذلك جي دي مورجان «أبحاث حول أصل مصر» ١٨٩٦ ـ ٩٧ الأول لوحة ١٠ وما بعدها.

٣ ـ حول حملة «سنيفيرو» راجع بريستد «القيود والسجلات المصرية القديمة» ١: ١٤٦.

٤ ـ أي ويجال «آثار مصر العليا» ١٩١٠ ـ ٤٨.

٥ ـ نقش في ليبسيوس؛ دنكمولر ٣:١٣٩ـ٤١ مخطط المناجم والمحاجر في بردى تورين منشورات تشاباس «مناجم الذهب» ١٨٦٢ «فاكسيميلي ملون» را. أ.هـ جاردنر «صحيفة القاهرة العلمية» ٤١:٨ (تحليل المخططات).

٦ ـ د. بوركهاردت «ضريح الملك ساحور» ليبزج ١٩١٠، را: أ. كوستر «الملاحة والحركة التجارية في شرق البحر المتوسط» ليبزج ١٩٢٤ (خصوصا ص: ١١ حيث تظهر صورة إحدى السفن».

٧ ـ بتري: «تاريخ مصر» ٧١:١ واشارة إلى جي دي مورجان «أضرحة ونقش» ٣٨:١. ولكن ويجال في «دليل آثار مصر العليا يقول: إنه لم يتمكن من العثور على النقش».

٨ ـ كويات، مونتيت «نقش وادي الحمامات» القاهرة ١٩١٢. ما سبيرو «الحوليات» ١٩٣:٣ ـ فيه بيان تفاصيل الطريق.

٩ ـ جولينيشيف «البردي المقدس» أرقام ١١١٥، ١١١٦أ، ١١١٦ب في المقصورة الملكية في بطرسبرج. ١٩١٣ مجلد ١.

١٠ـ ن: ملاحظة ٨أعلاه.

١١ـ هيرودتس ١٠٨:٢.

١٢ـ نيوبري: «صندوق التنقيب المصري» بني حسن ٢٥:١، ٢٦؛ ٢:١٥ـ١٦: كانت الحملة الثانية من أصل الحملات الثلاث للحصول على الذهب للملك يوسترين الأول.

١٣ـ راجع أعلاه مع لوحة مي رين راع من الاسرة السادسة في أسوان. سجلات الرحلات ١٤٧:١٥.

١٤ـ نافيل «دير البحري» جمعية التنقيب المصرية، الحفريات التذكارية ١٦(١٨٩٨)

اللوحات ٦٩ ـ ٨٦ ن: جي ديميشين «اسطول الملكة اليونانية/ ليبزج ١٨٦٨ اللوحات: ٢، ١٧، ١٨، ١٩ حيث توجد إشارة إلى بخور بلاد العرب.

١٥ـ هيرودوتس ٢: ١٥٨.

١٦ـ بليني «ت. ط» ٦، ٢٩، ٣٣؛ ديودوروس الصقلي ١، ٣٣.

١٧ـ لوحة «تحتمس الثالث، متحف القاهرة. والنقوش المفصلة على جدران معبد الكرنك.

١٨ـ را: ليجرانج «دراسات عن الديانات السامية»: ط٢ فصل١.

ب ـ الطرق البرية عبر سيناء

١ ـ دكتور مايرز «تاريخ كمبردج القديم» ١:٩٠ را: ك. سينيث «مجلة علم الآثار المصرية» ١٩١٤. ص٢٣٣ـ٦ حيث يرد ذكر أعمال النحاس الفنية في العصر الحجري لما قبل عصر السلالات الذي كان في بدء تحوله إلى العصر النحاسي مع بدء الدخول في عصر السلالات (الأسر).

٢ ـ جاردنر، بيت «نقوش سيناء» ١٩١٧ـ جمعية التنقيب المصرية ـ الحفريات التذكارية ـ لوحة ١٥ التي تبين مخطط الوادي مع التأشير على مواقع المناجم ومجموع النقوش ٤٥ نقشا ـ «بيت» سيناء كما عرفها المصريون ـ الجمعية الشرقية». جي مانش ١٩١٣ ـ ١٩١٤ ص: ٢٠.

٣ ـ نفس ٢ رقم ١.

٤ ـ بنديتي: سجلات الأعمال المتعلقة بفقه اللغة الخ القاهرة.

٥ ـ نفس ٢ رقم ٢.

٦ ـ نفس ٢ رقم ٣ و٥.

٧ ـ نفس ٢ رقم ٦٢ ـ ٣٤٤ نقش ٦٢ من الأسرة الرابعة مشكوك فيه؛ ٦٣ ـ ١٣٢ للأسرة الثانية عشرة؛ ١٣٣ ـ ١٧٠ للمملكة المتوسطة. ٢٧٢ الخ للأسرة العشرين وما بعدها.

٨ ـ نفسه أرقام ٤٧ ـ ٦١.

٩ ـ س. سميث «متون التاريخ البابلي» لندن ١٨٩٤ ص ٨٠ ـ ٨١.

١٠ـ مؤسسة جي. ار. انثروب ٤٣ ـ ١٩١٣ ـ ص: ٣٨٢.

١١ـ هناك نقشان بارزان نقلا في نلسون «بلاد التوراة» ٢:٧٤٧. قدم أحدهما الكابتن مايلز من الجمعية الآسيوية الملكية.

١٢ـ «نقش دي ماش قا «دمشق»» اسطوانة سرجون ١٣، ١٩، ٣٤. را: كايل ٢٦٧٥، ٢ أو و٢:٥٣، ب ٣٤.

١٣ـ را: فنسنت: «بلاد كنعان بعد الاكتشاف الاخير» ص: ٤٢٨ ـ ٤٣٥.

ج ـ استعمال البخور في مصر:ـ

١ ـ هيرودوتس ٣:١٠٧ و١.

٢ ـ را: «نقش على ناووس معيني» رقم ٤٣١ غرفة ن متحف الآثار المصرية القاهرة.

٣ ـ هكذا في نقش الملكة حتشبسوت في دير البحري. را: فقرة أ ـ ١٤ أعلاه.

٤ ـ ثيوفراستوس ـ تاريخ النبات ـ ٩، ٤، ١٠.

٥ ـ ديودوروس الصقلي: ٢، ٥٠.

الفصل الثالث

طروء سكان ما بين النهرين على بلاد العرب

أ ـ الاتصال القديم بين مصر وبلاد ما بين النهرين:

كان سكان بلاد ما بين النهرين في بدء عصر التاريخ مزيجا من الشعوب السامية وغيرها من الشعوب الأخرى. ففي الشمال كانت «أكد» السامية مع قسم من السومريين غير الساميين. وفي الجنوب كان العنصر المتسلط من السومريين. والظاهر أن السومريين مهاجرون من أواسط آسيا من الجماعات القبلية التي في جنوب بحر آرال، في حين يصف التاريخ الساميين بأنهم جماعة جاءوا بشكل عام من الغرب، أي من الهضبة الصحراوية بين بلاد ما بين النهرين وسوريا. ويبدو أن مجيء السومريين إلى بلاد ما بين النهرين كان أولا، ثم جاء الساميون. وقد دخل القسم الأكبر منهم من الشمال بحيث فصلوا السومريين عن موطنهم الأصلي. ولما كانت صحراء الشام جزءا أساسيا من بلاد العرب فقد دخل الساميون من خلالها إلى سوريا وبلاد ما بين النهرين. ولم يحاولوا دخول الجنوب السوري الذي كان أهله قادرين على حماية بلادهم من الغزاة، في حين كان الشماليون أضعف من أخوانهم في الجنوب وأقل ميلا للحروب منهم. لذلك اجتاح الساميون الأراضي الشمالية من سوريا قبل الجنوبية. وبنفس الاسلوب وبالدقة حاول الاسرائيليون عبور أرض كنعان من الجنوب ولكنهم صدوا فجاءوها من الصحراء الشرقية عبر الأردن. ويمكن أن يكون هناك حالات **مشابهة في بلاد ما بين النهرين جعلت الغزو السامي يأتي من الصحراء الغربية، من الشمال قبل الجنوب**(×١).

(×١) إن أهل الشرق المؤابين والأدوميين هم الذين صدوهم فعاشوا في التيه مشردين ٤٠ سنة، وبعدها اشتروا طريقهم بالفضة والاسترحام (العهد القديم، سفر الخروج) و لكن هذا الاقحام للإسرائيليين لا مكان له هنا وضعا أو تاريخا فقوم موسى فيهم بعض بني اسرائيل (النبي يعقوب عليه السلام) وبعض الموحدين من أتباع أخناتون وقائدهم موسى (ع) الذي يعده المؤرخون قائداً مصرياً ـ وكانوا جميعًا هاربين من فرعون مصر. أما تاريخاً فهم من القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وليسوا مهاجرين كالساميين الذين وصلوا العراق قبل القرن السابع والعشرين ق. م وأسسوا وركاء وجمدة ودولة مسيلم ثم دولة سرجون ـ أكد ـ نسبة إلى عاصمته أكد. وقد حكمت هذه الدولة (الامبراطورية الكلدانية الأولى) من ٢٣٧١ ـ ٢٢٣٠ق. م.

أما دخول الساميين للعراق فهو من الجنوب: كما يقول العالم الألماني انطون مورتكارت في كتابه=

ويرى البعض أن بلاد ما بين النهريين هي موطن الساميين، ويمكن قبول هذا الظن على اعتبار أن الساميين كانوا في الحقيقة يشكلون جزءا من مجتمع أكبر توسع انتشاره مرة أخرى ثم طرد إلى المرتفعات القاحلة من آسيا الغربية الجنوبية، وأن الهجرة السومرية إلى بلاد ما بين النهرين ربما كانت أحد العوامل التي أنتجت عزلة الساميين. على أن بلاد ما بين النهرين الشمالية لم تكن بأي حال من الأحوال تحت الاحتلال السامي الدائم.

أما الذين جاءوا فيما بعد وأسسوا مملكتي أكد وأشور فقد كانوا غزاة دخلوا ما بين النهرين بعد أن كان السومريون قد سبقوهم إليها. وقد تأثرت أرض أكد الشمالية، حيث ساد العنصر السامي بالحضارة السومرية ولو لم يصل ذلك إلى الحد الذي نفترضه عادة من كلمة «تأثر». ويظهر أن الحضارة السومرية اقتبست من مصدر أسبق عيلامي الأصل. ولكن السومريين شكلوا حضارة خاصة بهم كونت علاقة مقبولة مع بلاد تركستان التي ربما كانت موطنهم الأصلي. مما تقدم كان سكان بلاد ما بين النهرين مزيجا طابعه سامي في الشمال، واقل سامية في الجنوب، مع وجود تسرب سامي دائم من الغرب عبر الحدود القريبة. وكثيرا ما أدى هذا إلى الاختلاط بالسكان الأقدمين وتبني حضارتهم. وفي الوقت الذي كان يجري فيه هذا التسرب لم يكن بالإمكان إقامة حاجز بين سومر وأكد أو بين العرب، ولابد انه كان هناك تداخل بين العرب والمجتمع المستقر مصحوب في الغالب بدرجة من تأثير المجتمع المستقر تأثيرا حضاريا على القبائل البدوية.

لا شك أن تأثير السومريين على العرب كان موجودا في أزمنة ما قبل التاريخ. كذلك كانت القبائل البدوية التي في الجانب الاخر من الصحراء تقطع بين الفينة والفينة ذلك الحاجز الصحراوي وتدخل مصر وتستقر فيها بعض الوقت، خصوصا في أزمنة القحط. وإذا اعتبرنا وجود أي نوع من الإتصال بين العراق وسوريا، فمن شبه المحتمل أن يكون مكان اتصال الحضارتين في شمالي جزيرة العرب وأن يكون ناقلو هاتين الحضارتين هم العرب، وأن يكون ذلك في زمن قريب من الوقت الذي تشكلت فيه الطرق الواصلة بين هذين القطرين المتحضرين أو قبيل إنشاء تلك الطرق.

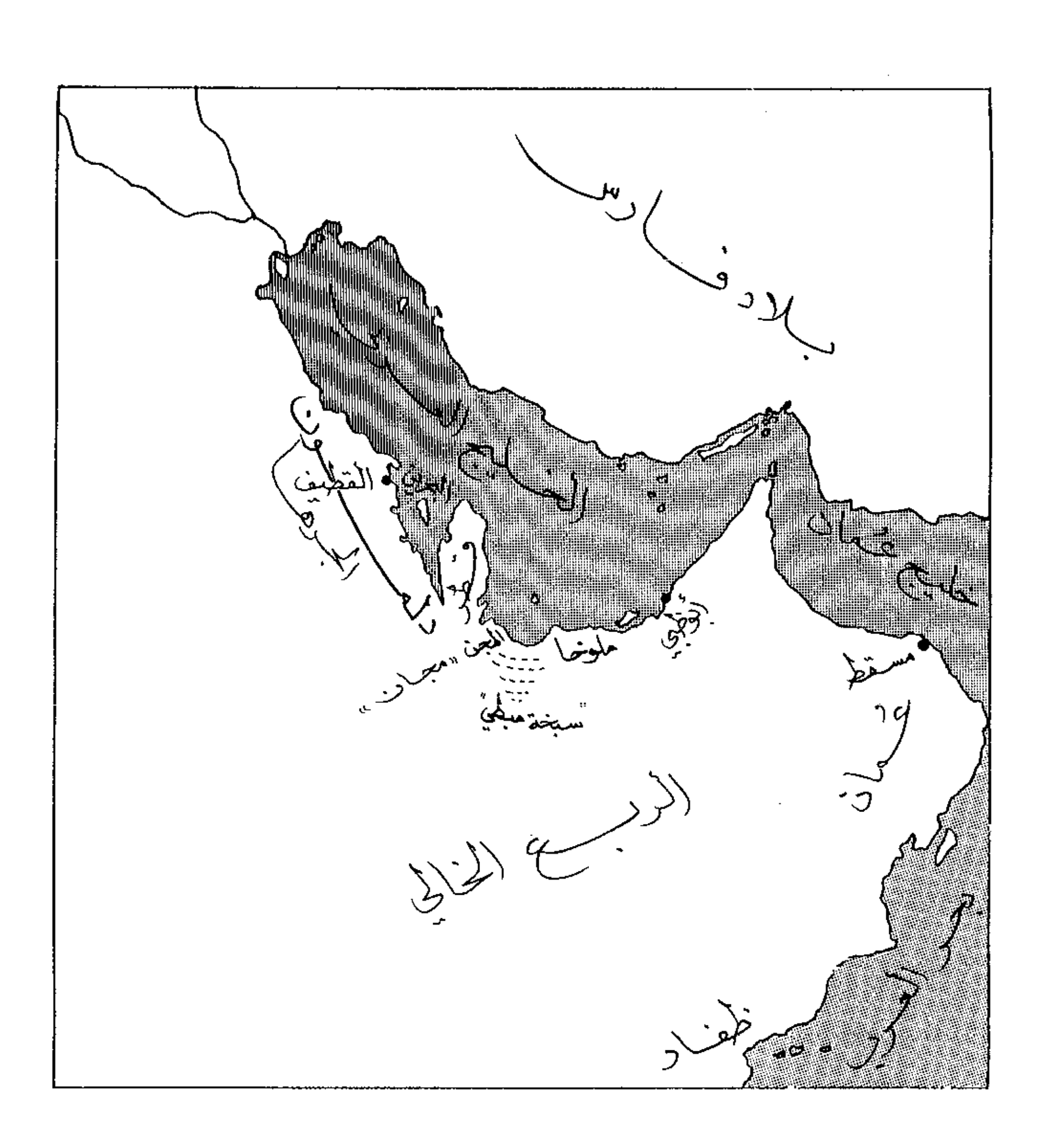
= «تاريخ الشرق الأدنى» ص٨٤ ـ ن ـ أحمد سوسة «العرب واليهود في التاريخ» ص: ١٢٤ الطبعة الرابعة. يقول: «ينتسب الأكاديون إلى أسرة الشعوب السامية البدوية الكبيرة التي استوطنت دوما الصحراء العربية ـ السامية. ولا بد أن يكون موضع ولوج الأكاديين إلى أرض سومر من المنطقة التي يقترب فيها الدجلة والفرات اليوم اقترابا شديدا من بعضها البعض وتماما في المناطق المحيطة بمدينة كيش القديمة (سابقة مدينة بابل)» وليس من الشمال.

أما عنوان الفصل فأولى أن يميز بين الطروء الذي يذكر عكسه في وسط الفقرة الأولى وبين دخول الساميين العراقيين فاتحين لبلاد العرب أو تجارا.

تشير أقدم المعلومات عن الطرق التجارية إلى طريق لا تعبر الصحراء مطلقاً، بل تسير في منحنى واسع نحو الشمال من العراق على محاذاة نهر الفرات إلى الأراضي الجبلية خلف قمة صحراء الشام ثم تتجه غرباً في انحناء نحو الجنوب حتى تصل ساحل سوريا انتهاء بغزة ثم تدخل الأراضي المصرية قريباً من فرع الدلتا الشرقي وبهذا الطريق جاء العنصر الأرمني من المنطقة التي حول جبل أرارات إلى مصر، وبما أنهم نزلوا العراق أيضا فمن المحتمل أن الطريق فتح من قبلهم أولاً ولكن الانحناء كان حول القسم الأعلى من الصحراء. والأرمن هم أول من عرف عن معدن النحاس في شمالي صحراء الشام أو في وادي النيل (×١)، وان فتح هذه الطريق كان متزامناً مع بدء العصر النحاسي.

والظاهر أن الاتصال بين مصر وبلاد ما بين النهرين كان موجوداً قبل العصر النحاسي بزمن كبير. وأدلة ذلك تظهر في التشابه الكبير في صناعة رؤوس الصولجانات التي تعود في مصر إلى ما قبل عصر السلالات وتعود إلى بلاد ما بين النهرين القديمة، وهي أدوات خاصة بحضارتي وادي النيل ووادي الرافدين القديمتين، واستعمال الأختام الاسطوانية، وقد أهملت في الأسرة الثامنة عشرة بينما استمر استعمالها في بابل في فترات تالية. وتظهر كذلك في تشاركهما في الاصول الفنية في الزخرفة والتماثيل خصوصاً في نحت الحيوانات المجنحة، وفي التقارب في المعتقدات الدينية بين السومريين والمصريين. وتشابههم في معرفة التواريخ واحتساب السنين، وفي كثير من نواحي الحضارة الأخرى التي قد تعتبر تشابه بعضها بعضا شيئا حدث اتفاقا عرضيا وبالصدفة. ولكن كثرة هذه الأدلة ترجح كفة الاقتناع بوجود الإتصال المشار إليه بين هاتين الحضارتين. ربما أن هذا التشابه وهذه الاتفاقات قديمة جدا وقبل عصر التاريخ الذي كانت الطرق معروفة فيه ومطروقة عبر الصحراء مما يحمل على الاعتقاد بوجود اتصال مستمر بين الجهتين في فترة بعيدة قبل التاريخ وهذا يعني وجود ممر عبر صحاري الجزيرة والصلة بسكانها البدو.

(×١) تعتبر سيناء جغرافيا من بلاد العرب (آسيا الغربية) ثم أتبعت سياسياً إلى مصر أو بلاد «وادي النيل» كما بين ذلك المؤلف نفسه في الفصل السابق.



بلاد فارس
الخليج
عمان
خليج
القطيف
ملوحا
أبو ظبي
«مجان»
سبخة مطي
مسقط
الربع الخالي
ظفار

ب ـ مجان وملوخا : Ma-Gan ane Me-Lukhkha

يأتينا أول دليل على الإتصال بين مصر وبلاد ما بين النهرين عن طريق غير مباشر عند النظر في الظروف التي رافقت ظهور مملكة أكد (Agade) فقد ظهر أحد الساميين المدعو سرجون وكان كاهنا من كهنة الديانة المعروفة بديانة أور ـ البابا (Ur-Ilbaba) وكان ملكا مقدسا على كيش (Kish)(×١). فقادهم في ثورة (×٢) ونجح في تأسيس مملكة أكد الجديدة حوالي ٢٨٧٠ ق. م وكان من أقدم بناة الامبراطوريات حيث امتد سلطانه من جبال عيلام في الشرق إلى شاطىء البحر المتوسط غربا[(١)]. وكان الهدف من التوسع نحو الغرب هو أن يكون قادرا في أي وقت على معالجة الاعتداءات التي كثيرا ما تأتي من جهة الصحراء وسكانها البدو الساميين أيضا. وهذا التوسع جعله على اتصال مباشر بعرب صحراء الشام. ومكنه من المحافظة على الطريق الصحراوية إلى سورية عامرة آمنة. وكان لابد أن يؤدي هذا التقدم نحو الغرب، إلى تعجيل قيام التصادم مع مصر التي كانت بدورها قد أخذت في الزحف نحو سوريا، وهكذا نشأت الطرق الحربية بين بلاد ما بين النهرين ومصر.

خلف سرجون ابنه رموش (Rimush) وتبعه ابنه مانيشتيسو (Manishtesu) ثم جاء بعده ابنه نارام سن (Naram-Sin) ٢٧٩٥ق. م(×٣) الذي وسع فتوحات جده العظيم ودون أعماله حفرا على الصخور احتفاء بانتصاراته على مانيئوم (Mani-um) أمير مجان[(٢)]. نقف عند هذه النقطة من بحثنا عن ملوك أكد لندرس الآراء المتضاربة التي اكتنفت المحاولات الكثيرة لتحديد موقع مجان هذه وكذلك ملوخا التي نراها مرتبطة دائما مع بلاد مجان. فإن كان هذان الاسمان لأماكن تقع في بلاد العرب، فإنه يصبح لدينا دليل مباشر على الاحتكاك بين بلاد العرب وبلاد ما بين النهرين القديمة ولكن بعد أن نرى إن كان هذا الاستدلال مقبول الاحتمال . فقد قام في ذهن بعض المؤرخين ، بعد اكتشاف (جي دي مورجان J.de Morgan) نصب نارام سن في سوسة وعليه النقش الذي نحت احتفاء

(×١) Ur-Ilbaba هي **إيلبابا (بالياء)** أور الآله «ايلبابا» اله الحرب ولعل هناك خطأ في القراءة وأما **كيش** فهي بلدة سامية (اسمها اليوم **تلال الأحيمر**)، أنشئت بعد الطوفان وهي من أقدم مدن جنوب العراق على بعد ١٥ كيلومترا شرقي مدينةبابل وكان هيكل «ايلبابا» إله الحرب وزوجته «عشتار» من ضمن منشآت المدينة الرئيسية: ثماني كيلو مترات طولاً وثلاث كيلومترات عرضاً. د.أحمد سوسة «العرب واليهود في التاريخ» صفحة ٧٧٨ ط٤ سنة ١٩٧٥. ايل: إله.

(×٢) ثورة ضد السومريين.

(×٣) لاحظ تقدم هذا التاريخ عن التاريخ الذي في الهامش السابق لدولة أكد الأولى نقلاً عن د. سوسة بما لا يقل عن ٦٠٠ عام ولعل هذا أصح، لأن «Hall» أيضاً يؤكد هذا القدم.

بانتصاراته أن اسم (مانيئوم) يشير إلى اسم الملك مين (Men) مؤسس الأسرةالأولى في وادي النيل. وقد جاء بهذه النظرية ودافع عنها الدكتور البرايت (Dr.Albright) سنة ١٩٢٠[٣]. ولكن قامت في وجه هذه النظرية صعوبات كثيرة هامة خصوصاً في الناحية التقويمية الزمنية وغيرها ويتعذر بصورة خاصة تفسير إغفال ذكر هذه الحادثة في كل الآثار المصرية المدونة(×أ).

كانت تقع مدينة لاجاش السومرية الهامة إلى الجنوب من مدينة أكد، وكانت تحت حكم سلسلة من الملوك الكهنة مثل أكد. وكان أعظم هؤلاء الملوك جوديا (Gudea) الذي اعتلى العرش حوالي سنة ٢٦٠٠ق. م وترك شواهد كثيرة على ورعه وقدراته الادبية. فقد بنى هيكل نين - جيرسو (Nin-gir-su) أو جدد بناءه في لاجاش وسجل على جدرانه أنه احضر الخشب لهذا الهيكل من بلاد مجان وملوخا - وهما مكانان سيظهران متلازمين من الان فصاعدا -[٤] لأن السومريين سكان هذه الأهوار المنخفضة السبخة كانوا يضطرون إلى استيراد الخشب والحجارة، عند الحاجة إلى أي كمية منها، وقد أحضر (جوديا) حجارة الديوريت(×٢) (Diorite) من جبال «مجان» وصنع منها التماثيل التي لا تزال مجموعة منها موجودة وعددها أحد عشر تمثالا[٥].

ويعتقد هوبت (Houpt)[٦] أن «مجان» تعني مصر (×ب) بما فيها سيناء وأن ملوخا تعني بلاد أثيوبيا، أي بلاد النوبة، والسودان المصري والحبشة والصومال. ويصدق هذا على المدونات المتأخرة مثل نقوش تل العمارنة وما بعدها، ولكنه لا يصدق بالنسبة للأخبار الأقدم[٧]. إذ يذكر سرجون الآشوري (٧٢٢ - ٧٠٥ق. م) في وصف جغرافي لممتلكاته أن

(×١) يظهر كثير من التناقض في آراء المؤرخين كما سنرى. وتدل الاكتشافات الحديثة أن البلدين هما المجن (مجان) والبحرين (دلمون) ثم ملوخا على ساحل الخليج الفارسي (العربي) من الشرق وأن وجود النحاس في الأوصاف لا يدل على سيناء وإنما على الجبل الأخضر الذي لا يزال النحاس يستخرج منه في عُمان ويمتاز نحاسه بكمية القصدير التي يحتويها. وقد اشتهرت «مجان» أيضا بحجر الديوريت الاسود المشهور والذي كان يستعمل في صنع التماثيل. أحمد سوسة: ص ٧٨٠ نفس الطبعة الرابعة ١٩٧٥.

(×٢) الديورايت: صخر بركاني متبلر.

(×أ) Um باللغات القديمة العربية والسامية تدل على التنوين غالباً فيكون اسم الملك مانع أو «منيع» ورأى مورجان ومن دافع عنه خطأ. في اسم Mani UM.

(×ب) هذه شطحة أخرى مادام فيها نحاس وسيناء فيها نحاس فاذن مجان هي مصر، ولكن ما ذكرته من وجود أحسن نحاس في عمان يبطل تخيلات هوبت.

المسافة من حوض نهر الفرات (كون نار ـ بوراتي) (Kun nar Porratti) إلى ملوخا هي مسيرة ١٢٠ ساعة (بيرو Biro) على ساحل البحر[٨]. وجاء في تلك النصوص أن دلمون (Dilmun او Tilmun) تقع على مسيرة ٣٠ ساعة من راس الخليج الفارسي[٩]. والمعروف الآن أن دلمون هي التي اشتهرت فيما بعد باسم تيلوس[١٠] اليونانية، وذلك ينطبق على موقع البحرين تماماً، وقياساً على هذا يكون موقع ملوخا على بعد ٤٠٠ ميل من درجة عرض ٣١ تقريباً، أي في منتصف الساحل إلى عُمان(×جـ) وصارت دلمون مترابطة مع مجان وملوخا بترتيب دلمون، ومجان وملخا كما يظهر من المقاطع الكتابية التي تشير إلى أنواع التمور في تلك المنطقة، ويشاهد نفس الترتيب في قوائم السفن[١٢]. ويشجع على الاستنتاج بأن بلاد «مجان» في أحسن الإحتمالات هي الأراضي الغنية في منطقة جرها (gerrha) القديمة أي الحسا (والقطيف)(×١) الحاليتين. وأن ملوخا تقع مسافة أبعد قليلا وراء البحرين حتى تضم عُمان.. أما إطلاق اسم ملوخا على أثيوبيا، ومجان على بلاد العرب الغربية بما فيها سيناء فيأتي في فترة متأخرة جداً[١٣].

لم يرد اسم مجان وملوخا معاً في نقوش تل العمارنة[١٤] بل ظهر اسم مصر وملوخا (Musur) وهي حسب القياس قد تشابه مصر = مصور العبرية أو مصريم وهي تشير دون ريب إلى مصر. ويظهر ذلك أيضاً في وثائق سنحاريب (٧٠٥ق. م الخ)[١٥].

ورد في المقاطع الكتابية من القرن السابع قبل الميلاد ذكر حاصلات عديدة من حاصلات «مجان». وإضافة إلى أنواع خاصة من التمر يوجد خشب خاص يدعى بالأكدية (مسكانو Musukkanu) الذي يعتقد بأنه ما يسمى أكاسيا سيال (Acacia ciyal) من أشجار بلاد العرب ومصر على السواء، في حين تصفه النقوش البابلية المتأخرة بأنه خشب لا يبلى اشبه بالخشب «مسكن» بالعبرية (M'SUKKAN) (أشعيا ١١ـ٢٠) حيث يصفه بأنه خشب لا يعطب. وهذا الوصف أقرب شيء إلى شجر الأرز (Cedar) الذي يدرج معه في قوائم النبات[١٦]. وجاء في المقاطع المشار إليها ذكر الديورايت الذي لا يوجد في سيناء بل في صحراء مصر الشرقية وفي بلاد العرب الجنوبية الشرقية[١٧]. ووردت كذلك كلمة جي - زي (Gi - Zi) التي يقابلها كلمة كيسو الاكدية (قارن جيش المصرية) والتي شرحت بأنها قان

(×جـ) موقعها يسمى الآن (سبخة مبطى) غربي الإمارات ومعناها ملاحة (ملوخا) أو ملاخا، وهي في منتصف الساحل الجنوبي من شط العرب إلى عُمان، الأطلس العربي.

(×١) زيادة من المترجم لأن المؤلف يفسر جرها باسم القطيف في الفصل العاشر في نهاية صفحة ١٨١.

مجان أي قانو مجان ومعناها القصب وليس البردى كما كان يظن(×١). وكذلك ذكر نوع من الخنازير يعرف بمكانو (Makkanu) أو خنزير «مجان». ولعل ما دعا بعض المؤرخين إلى اعتبار «مجان» أنها سينا (من بلاد مصر) وصف بلاد مجان بأنها جبل من نحاس حيث كان معروفاً منذ القدم أن سيناء من أهم مصادر النحاس. ولكن هذا الوصف لم يرد إلا في نقش متأخر. ويصح أن ينطبق هذا الوصف أيضا على الجبل الأخضر في عُمان وقد توصل البروفسور لانجدون (Prof. Langdon) عند تطبيق هذه الأوصاف على مصر على أنه لا دليل هناك يدعو إلى الاعتقاد بأن مصر كانت تدعى قبل سنة ٧٠٠ق.م بهذا الاسم. ولو عدنا إلى المقطعين السابقين وهما القصب في مجان، وخنزير مجان لوجدنا أنهما كتبا في القرن السابع ق. م. نقلاً عن أصول قديمة تعود إلى سنة ٣٣٠٠ق. م أما المقاطع الكتابية المتأخرة فمن المعروف أنها تضيف كلمات جديدة... فحين نجد مقطعا من القرن السابع يذكر أن كلمة «قصب» هي «جي زي» في بلاد مجان = كيسو الأكدية أي جيش المصرية، فلا شك أن الناسخ يتكلم بلغة العصر المتأخر. وبهذا يزول الدليل على أن مجان تعني بلاد مصر قبل القرن السابع ق. م ويثبت الدليل على أن «مجان» كانت من مقاطعات الخليج الفارسي حتى في القرن الثامن أيضا[١٨].

رأينا فيما سبق أن السفن التي تنقل الأخشاب[١٩] كانت تصل إلى بلاد مجان وملوخا وجوبي (Gubi) ودلموني التي ترد بهذا الترتيب عادة. كذلك يرد ذكر دلمون وملوخا مجتمعتين[٢٠] في قائمة البلاد التابعة للملك «توكلتي نينورتا» Tukalti Ninurta ابن (شلمناصر الأول)[٢١]. وكان يمكن الوصول إليها برا كذلك كما رأينا في حملة نارام سن وكذلك عند ذكر الوقت اللازم للوصول إليها كما ورد في أخبار سرجون الآشوري.

وهكذا تكون سهولة الوصول إلى هذين البلدين برا وبحرا سببا معقولا لاعتبارهما واقعتين على الخليج الفارسي.

نجد في نقوش تل العمارنة المتأخرة اسم ملوخا مرادفاً لكلمة كاشي[٢٢] (Kashi) التي تمثل على الأغلب كلمة كوش (Kosh) المصرية المتأخرة أو كوش (Kush) العبرية «بلاد

(×١) كيسو الأكدية وجيش المصرية تدلان على القش (القصب) أما كلمة قانو بمعنى القصب فهي مثل كلمة كاني (المصرية) بمعنى العسل الذي يؤخذ من قصب السكر (Suqur Cane) وهي العربية قنديد أو الانجليزية (Candy) او الفارسية «قند» في طشقند وسمر قند وغيرهما وكلمة «قند» = السكر، و «كاني ماني» (بالقبطية) تعني «عسل وبصل» ومثلها: بين حانا ومانا أي بين القشرة والبصلة» ضاعت لحانا». وعليه فإن «مصكانا» تعني قصب المص أي قصب السكر.ن أيضا «القيان والغناء في العصر الجاهلي» للدكتور ناصر الدين الأسد ص: ٢١، ٢٣ دار الجيل، بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٨.

النوبة» (قارن: كوشو الاكدية القديمة). وكانت كاشي وملوخا تطلقان على الجنود المرتزقة في الجيش المصري.

أما في استعمالات آشور بانيبال المتأخرة الخ فتشير كلمة ملوخا إلى أثيوبيا التي كانت تصلها السفن بالدوران حول جنوبي بلاد العرب، ثم بطريق تمر من البلاد التي كانت تعرف بذلك الإسم في الأزمنة القديمة: وكان سكانها يدعون (صلموتي Salmuti) أي السود[٢٣]. نستنتج مما سبق أن مدلول مجان وملوخا قد توسع حتى شمل جميع البلاد التي كانت تصلها السفن وهي في طريقها للمتاجرة مع تلك الاماكن التي كانت تدعى بهذين الاسمين أصلا.

يرد ذكر حجر «الجوج» الكريم بين حاصلات ملوخا باسم (جوج - جي - رين - ي gug-gi-Rin-E)([٢٤]) ولا يعرف على أي حجارة يطلق هذا الاسم. واسمه بالاكدية «سامتو» التي فسرت بأنها مرادفة لكلمة شوهام العبرية (تك ١٢،٢ الخ) ولكن ليس للكلمة العبرية مدلول معروف. وتشير القواميس إلى حجر الجزع (العقيق اليماني) (Onyx) أو ساردونيكس (Sardonyx) الموجودين في سيناء وافريقيا الشرقية، ويبقى ذلك كله تخمينا فحسب. ويعتقد ثورو دانجن (Dangin) أنه حجر الكورنليان(×١)... الذي يوافق الوصف الاكدي والسومري بأنه أحمر لامع... في حين يبدي لانجدون (Langdon) الملاحظة القيمة التالية: إن الوسيلة الوحيدة لاكتشاف نوع حجر الجوج أو السامتو هي أن تزيد معلوماتنا عن أنواع الحجارة الكريمة الموجودة في بلاد العرب الجنوبية الشرقية[٢٥]: يقول جوديا (Gudea) الملك السومري(×٢) انه أحضر غبار الذهب من ملوخا[٢٦]. وقد يصعب تفسير وجود «ذهب ملوخا»(×٣) بل لا يمكن في الحقيقة تفسير وجوده[٢٧]. أما مناجم الذهب الموجودة في وادي العلاقي (Wadi Ulaqi) في صحراء مصر الشرقية فلم تستغل حتى زمن سيتي الأول من الأسرة التاسعة عشرة[٢٨]. ولا يزال القول باستخراج الذهب من بلاد العرب أمرا صعبا تماما على الرغم من قول هاليفي (Halevy) بأنه شاهد مخلفات أعمال

(×١) وهو العقيق الأحمر.

(×٢) جوديا هو ملك لاجاش السومري ٢٦٠٠ق. م. واسمه مكون من جود + يا والاخيرة اسم الإله ايا ea الواردة في ملحمة جلجاميش الجزء الثاني عشر. ولعل الاسم العربي (الأكدي) هو جود الله - عبد الكريم. إذا اعتبرنا الاسم جوديا.

(×٣) يوجد ذهب في جزيرة العرب في الأودية القريبة في نجد مثل وادي الدواسر وغيره (في السعودية حالياً) ن: مدينة «مهد الذهب» في وادي العقيق في خط مدار السرطان تماماً إلى الجنوب الشرقي من المدينة المنورة وعلى بعد ١٩٠ كيلومتراً منها، الأطلس العربي.

تعدين الذهب. على أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن نرتأيه هو أن الذهب وصل إلى بلاد العرب من افريقيا حين كانت متصلة برا مع افريقيا من الطرف الجنوبي للبحر الأحمر. ولا يستبعد كذلك أن يكون الانسان القديم قد اجتاز المضيق الذي يفصلهما عن بعضهما البعض. وقد كانت بلاد العرب في العصر اليوناني الروماني مشهورة بالذهب. وكان الذهب موجوداً فيها فعلاً، بغض النظر عن المصدر الاصلي الذي جاء منه.

يعتبر بحثنا عن أصل اشتقاق هاتين الكلمتين (مجان وملوخا) على أساس أنهما ساميتان مبنياً على أساس ضعيف لا يؤدي إلى نتائج ذات قيمة تذكر. ففي رسائل تل العمارنة وما بعدها كانت مصر تدعى موصور (Musur) بالاكدية بتغيير في حرف العلة عن كلمة ماصور (Masur) التي قد تكون ذات صلة بكلمة ميصوراه (Mesurah)(١×) العبرية التي تعني «المكان الحصين» وقد يكون الاشتقاق المتعارف عليه قد أدمجها بكلمة مصرو (Misru) ومعناها «الحد» ومن هنا جاءت كلمة مصر[٢٩] (Misr) ومثناها مصريم في العبرية متأثرة بوصف المصريين لبلادهم أنها من مملكتين: مصر العليا ومصر السفلى اللتين اتحدتا تحت تاج واحد في بدء عصر السلالات (الأسر). أما دكتور «البرايت» فيظن أن هذه التسمية ترجع إلى زمن بناء «سور الأمراء» وأن الاسم القديم الذي كان يطلقه عليها الساميون «ماعان» التي تقابل في ظن هومل (Hommel) كلمة مجان[٣٠] أو ماعون (Ma'on) العبرية القريبة من ماعين (Ma'yan) أي المكان الذي ترويه الينابيع أو العيون على اعتبار أن العرب كانوا يعتبرون مصر بلادا خصبة جيدة الري(٢×). أما البروفسور سايس (Sayce) الذي يعتقد أن مجان اسم لسيناء فيبني رايه على أن لهذه التسمية علاقة بمقنة (Makna)(٣×) الواقعة على رأس خليج العقبة[٣١]. بينما يميل البعض الآخر إلى الاعتقاد بوجود علاقة بينها وبين كلمة معين (Minaea) أي معان (Ma'an)، هذه الفرضيات حول أصل اشتقاق الكلمة ليست مقنعة. أما اسم ملوخا فقد يكون من كلمة (م ل ،) التي قد تقرأ (ملع أو ملح أو ملخ) لأن هذه الشولة (،) في العبرية يقابلها (خ) الاكيدية فتكون

(١×) مصوره العبرية مأخوذة من مسورة (عليها سور فهي المكان الحصين) ولا علاقة لهذه الكلمة باسم مصر الفعلي. فمصر كلمة عربية سامية معناها القطر أو الدولة وموجودة في العبرية وهي مصريم عند التثنية في العبرية كما يبعد اسمها عن كلمة (ميصوره بمعنى مسورة) بعداً واضحاً.

(٢×) هذا تبرير غير منطقي لجعل العرب يستبدلون كلمة ماعين بكلمة مصر ويجوز تبادل الجيم والعين ولكن ليس لكلمة مجان، أو ملوخا.

(٣×) مقنة على بعد ٢٧٠كم جنوب العقبة مقابل ميناء ذهب في سيناء ولا يعقل أن تكون اسما لسيناء.

(ملع) أي الصحراء(×١) وقد تكون من ملح مثل ملحيا العبرية أي المكان (المالح) (فهو غير خصيب)(×٢).

يتضح لنا، على الرغم من كل المسائل التي لم تحل بشأن هذه الأسماء، أن بلاد دلمون ومجان وملخا تقع بنفس هذا الترتيب(×٣) على الساحل الغربي من الخليج الفارسي، والأولى هي البحرين الحديثة. بينما اطلق اسم مجان في زمن متأخر على سيناء وساحل البحر الأحمر من بلاد مصر. وأطلق الأسم الاخير على أثيوبيا. أما إذا تقيدنا بمدلولاتها القديمة يتضح لنا أن جميع القسم الشرقي من بلاد العرب كان معروفاً لدى السومريين والاكديين براً وبحراً في الألف الثالث قبل الميلاد. ولابد أن الطريق البرية كانت كما هي عليه اليوم موازية للساحل تقع بينه وبين الدهناء. وبذلك كانت عمان سهلة الوصول إليها ومنها إلى بلاد العرب الجنوبية السعيدة الخصبة. ولا ريب في متانة الصلة الثقافية بين بلاد ما بين النهرين وبلاد العرب، يؤيد ذلك القرابة الثابتة في علم اللغة بين اللغة الاكدية واللغات الواردة في النقوش المعينية والسبأية التي تدل على احتكاك البلدين واتصالهما منذ زمن قديم جداً.

جـ - الفتح الآشوري لبلاد العرب:

عزم سرجون الآشوري حوالي ٧١٥ق. م على مناجزة القبائل العربية التي كانت على ما يظهر تعتدي على طرق التجارة الآتية من اليمن وحضرموت خاصة قبائل الخيابا (Khaiapa) وثمود (Tamud) والعباديين (Ibadidi) والمراسمة (Marsimani) وتشتهر ثمود من بينها وهي التي ورد ذكرها في القرآن ﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴾ وهم الذين ذكرهم ديودورس الصقلي باسم ثموذيني، وبليني باسم ثموديني (بالدال) وذكرهم بطلميوس باسم ثميذيني (بالياء بعد الميم) وقال أنهم سكان الداخل والثميذيتي سكان الساحل. وهم على الأغلب سكان الكهوف القائمة حتى الآن في مدينة الحجر وفي وادي القرى في شمال بلاد العرب وكهوفهم منحوته في الصخر. وقد صح عزم سرجون فخضد

(×١) الملاع: المفازة التي لا نبات فيها ومثلها المليعة وسميت كذلك لأن الابل تملع فيها أي تعدو عدوا شديداً.

(×٢) وتسمى الملاحات أي المستنقعات أو السبخات (سبخة مبطي بين قطر والامارات مقابل جزيرة دلما). وهذا يؤيد الملاحظة (×٢) أعلاه وربما كان لاسم دلمون أي دلم علاقة بدلما «الجزيرة».

(×٣) الترتيب الصحيح: هو دلمون - البحرين، مجان، ملوخا - التي فيها سبخة مبطي بين قطر ودولة الامارات (تابعة للسعودية حالياً) ويقال إن مجان هي عمان الحالية وقد عثر فيها على موضع اسمه ميجان أو وادي شهبة د. سوسة ص: ٧٨٠.

شوكة العرب وأخضعهم لسلطانه تمام الخضوع(×١). وجاءته الهدايا من شمسة ملكة العريبي (Aribi) اي العرب في الصحراء الشمالية ومن «يثمروتر (Itmar)» من سبأ(×٢). ومن مصر التي ورد ذكرها إما لاعتبار مصر (مُصُر) التي اعتبرت شاملة للقسم الشمالي من بلاد العرب وربما سوريا التي كانت لا تزال تعتبر ولاية مصرية، أو إلى أن المصريين كانوا على اتفاق مع الآشوريين لأن يستفيدوا من الطرق التجارية التي كان يحميها الآشوريون.

قام سنكريب(×٢» ابن سرجون بحملة على بلاد العرب سنة ٦٩٠ق. م وقام اسرهدون(×٣) حفيد سرجون بحملة مماثلة سنة ٦٧٦ق.م وأخضع العريبي (العرب) وذلك يوضح الجهود المضنية التي بذلها الملوك السرجونيون لحماية الطرق التجارية واقرار الأوضاع في بلاد العرب. ولكن ذلك. كما هو الحال الآن، كان عملية مستحيلة. وأقصى ما أمكنهم عمله هو حراسة الطرق التجارية والقيام بالحملات التأديبية على العرب إذا ما هاجموا القوافل... ولم يكن حكم جميع بلاد العرب أمراً سهلاً. إذ كانت القبائل تتميز غيظاً كلما قامت محاولة لكبح جماح نشاطها، بل كانت تبادر إلى الانضمام إلى حلف ضد الآشوريين. وهذا يفسر المفاوضات بين بابل وحزقيا الاورشليمي الواردة في سفر «الملوك الثاني» الإصحاح ٢٠ آية ١٢ ـ ١٩» والتي تشير إلى تحالف حزقيا و«مردوخ بلادان» الذي كان رئيساً نموذجيا لجماعة من العرب المستقرين بدافع التعاون على مقاومة قوة سرجون الواعدة الزاحفة وقد جرت هذه المفاوضات قبل سنة ٧١٠ق. م بقليل لأن سرجون هاجم بابل في تلك السنة(×٤) وسقطت بيده في السنة التالية. والذي يهمنا من هذه القصة أن الوفد البابلي إلى أورشليم لم يستطع السير في الطريق التي كانت بحماية الآشوريين. ولا بد أنهم قطعوا الطريق إلى يهودا (Judah) بمساعدة القبائل العربية القاطنة في الصحراء

(×١) بعد الانتصار على يهود ثمود قام سرجون باجلاء الثموديين الى السامرة وأسكنهم مكان الاسرائيليين الذين أزال مملكتهم من الوجود سنة ٧٢١ق. م، ن «ثمود» في الفصل الرابع من فهارس «العرب واليهود في التاريخ» د. أحمد سوسة. ص ٧٢٨.

(×٢) المكرب (الملوك) (يثمروتر) ومن قبله ومن بعده هم الذين دفعوا الجزية لأسرة سرجون الآشورية. نفس المصدر. ص٢١٤.

(×٣) لا يوجد حرف «الحاء» في اللغة الآشورية. من تاريخ اللغات السامية ـ إسرائيل ولفنسون طبعة أولى دار القلم، بيروت ١٩٨٠، ص٢٧٤. في ملاحظات: انو ليتمان الذي يقول بالعربية المترجمة عن الألمانية «لا يوجد في اللغة الاشورية حرف «حاء» لذلك لا يمكن نطق اسم الملك «ايسرحدون» إلا بابدال الحاء بحرف آخر غير حلقي».

(×٤) لا بد وأن يكون هذا الاتفاق قبل موت مردوخ بلادان ملك القطر البحري (بابل) سنة ٧١١ وبعدها هوجمت بابل سنة ٧١٠ وسقطت ٧٠٩ق. م.

المتوسطة بين البلدين، وبتسترها عليهم أيضاً. وقام آشوربانيبال سنة ٦٤٨ق. م بتشديد السيطرة والمراقبة على بلاد العرب فاهاج بذلك ثورة عامة اتحدت فيها القبائل تحت قيادة (نابا أي تي)[١] ولعله (نبايوت)(×١) الوارد في العهد القديم (سفر التكوين: اصحاح ٢٥ آية ١٣ وما بعدها) كما يرى يوسيفوس (Antiq ١، ١٢، ٤) وقد اخمدت هذه الثورة دون هوادة وجرد اشور بانيبال بين سنتي ٦٤١ ـ ٦٣٨ق. م جيشاً قوياً على بلاد الحثيين واخضع صيدا (Zidon) والقلعتين التابعتين لها في أوشي (Ushu) ـ تدمر. وعكو (عكا) اللتين كانتا تسيطران على الطرق التجارية العربية، وفي ذلك يقول أشوربانيبال «في غزوتي الأولى قصدت مجان وملوخا وهو يشير ظاهراً إلى سيناء وبلاد العرب لأن ملك العرب «أهاج سكان العرب للثورة معه» ولكني محوت بالسيف كل سكان بلاد العرب الذين جاءوا معه»[٢] ثم يصرح اشوربانيبال أن جميع ملوك البلاد **الغربية** (مارتو Martu) بما فيهم حزقيا ملك أورشليم استسلموا له. وهكذا نرى أن الطرق التجارية كانت أقوى حراسة زمن الحكم الآشوري نتيجة للحملات العسكرية المستمرة على أراضي العرب المجاورة لتلك الطرق.

د ـ تيماء

يشير أحد نقوش تغلات بلاسر الرابع[١] الى «تي ـ ماء» المشابهة (ماساآ ـ أو ساباا) التي ترتبط بتيماء الواردة في التوراة. وجاء في النقوش السامية أنها مكان تطرقه القوافل المسافرة بين مصر وبلاد آشور، وهي (ثيمي) الواردة في بطلميوس وتقع في واحة في شمالي بلاد الحجاز أقيمت لتشرف على تنظيم الطرق التجارية بين الحجاز وسوريا وبين مصر وبلاد ما بين النهرين. وتظهر علاقة الآشوريين والمصريين بهذه المدينة واضحة كما يظهر من نقش اقتبسه كوك (Cooke)[٢]. ولعل الآشوريين كانوا يرمون إلى السيطرة على تلك الطرق، مما آثار حسد المصريين كما يقول س. سميث فتدخلوا في فلسطين[٣]. ولكن انهيار مصر كقوة استعمارية بعد الاسرة العشرين فتح الطريق إلى سيطرة النفوذ الآشوري في شمالي بلاد العرب سيطرة تامة.

(×١) الكتابات القديمة لم تكن مشكلة أو حاوية لحروف العلة وبعضها لم تنقط إلا متأخرة لذلك كان من السهل قراءتها على عدة وجوه مثل نبايوت، ونبيط وغيرها. وكان في بعضها تبادل الحروف مثل الزاي والسين: مثلا مسجد. ومسيد، ومزود، ومزيد الخ وقد يكون هذا القائد من الأنباط الذين ظهروا حول هذا التاريخ في جنوب الاردن قادمين من الجزيرة جنوباً أي أن الانباط كانوا موجودين في القرن السابع ق. م؟ ولعلهم قبائل العباديين نسبة إلى ملوك الأنباط الذين كان كثير منهم يسمى عبادة.

قام نبونيديس (Nabonidus) آخر ملوك البابليين سنة ٥٥٢ق. م بحملة على تيماء التي يصفها بأنها في بلاد العموريين (Amurru) أي البلاد الغربية موطن الساميين حيث بنى قصرا أقام فيه مع حامية من البابليين والسوريين حتى سنة ٥٤٤ق. م على الاقل. وفي سنة ٥٤٠ ـ ٥٣٩ق. م قاد كورش(١×) حملة على بلاد العرب وصفت بأنها كانت محاولة لطرد الأنباط (أي العرب) من تيماء[٤]. والظاهر أن تيماء كانت آخر معقل من الامبراطورية البابلية صمد في وجه الغزاة من الفرس[٥].

لم تجر بعد الاحتلال الفارسي لبابل، أية محاولة للسيطرة على العرب، إذ يقول هيرودوتس «ما كان العرب يوما مستعبدين للفرس، بل إنهم صاروا حلفاء لهم بعد أن سمحوا لقمبيز بالمرور عبر بلادهم وهو في طريقه لفتح مصر. ولولا ذلك السماح لما تمكن الفرس من غزو مصر[٦].

وخلاصة ما ذكر أن حكام البلاد المستقرة في ما بين النهرين أخذوا يتوغلون في بلاد العرب منذ زمن قديم لأغراض التجارة. واضطروا لتجريد الحملات العسكرية لحماية الطرق التجارية لضمان بقائها عامرة أمنة. ونتيجة لهذا الاحتكاك انتشر تأثير بلاد ما بين النهرين في جميع الجزيرة العربية وبشكل خاص في الجنوب(٢×) حيث قامت حضارة عليها صبغة ما بين النهرين ستشغل اهتمامنا في الفصل التالي. وقد اضمحلت هذه الحضارة في الفترة المتأخرة مما قبل الإسلام، ولكن بعد أن تركت آثارا واضحة، وبعد أن عملت كثيرا، وبطريق غير مباشرة على تهيئة المجتمع الذي ترعرع فيه الإسلام.

(١×) كورش: ملك فارسي اخميني. سماه د. حسين مؤنس «أطلس تاريخ الإسلام» الإكميني «بالكاف».

(٢×) لم يعلمنا المؤلف كيف أثر الغزو الاشوري الذي لم يتجاوز تيماء جنوبا (بشكل خاص) في جنوب الجزيرة العربية وحضارتها. ولا أظنه يعتقد أن الحضارة النهرية أو مشاريع المياه كسد العرم كانت من ابداع بلاد ما بين النهرين القديم وتقديري أن ذلك السدكان مبنيا بعقول مصرية على الاقل قبل الغزو الاشوري او الكلداني أو الفارسي. إلا إذا عنى ملوك القطر البحري الذين تلقوا الهدايا والجزيات من ملوك سبأ ومعين قبل القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد. والمؤلف نفسه يذكر أن المصريين من عصر ما قبل السلالات (٤٠٠٠ق.م) هم الذين بنوا سدود اليمن على الأغلب.

ملاحظات الفصل الثالث

أ ـ الاتصال المبكر بين مصر وبلاد ما بين النهرين

١ ـ س. لا نجدون «التسلسل الزمني القديم لسومر ومصر وأوجه التشابه في حضارتيهما في مجلة الآثار المصرية ١٩٢١ مجلد ٧ ص١٣٣ ـ ١٥٣ وكذلك هول في «مصر وآسيا الغربية في ضوء الاكتشافات الحديثة ١٩٠٧، ل. و. كنج «بعض الأمثلة الجديدة على تأثير مصر على نينوى» في مجلة الآثار المصرية ١٩١٤) ١٠٧ ـ ١٠٩، ٢٣٧ ـ ٢٤٠ (القرن الرابع عشر) وما بعده.

ب ـ مجان وملوخا:

١ ـ كنج: الأحداث المتعلقة بملوك بابل الأقدمين ١٩٠٧، ج ٢ ٣:٢ الخ جروسمان ـ انجناد، رانكي، نصوص شرقية قديمة ١٩٠٩ الأول: ١٠٥ وما بعدها. وهناك لوحة من «تلو» مؤرخة في السنة التي فتح فيها سار ـ جاني ـ شري (سرجون) بلاد أمورو (القطر الغربي) في بسار. را: كنج سومر وأكد ص: ٢٢٥.

٢ ـ ما ـ جان ك. (ساج ـ جيش ـ را) = اينار **وما نع** (   ) بال ما ـ جان ـ ك ـ شو ـ جاب = حاصر مجان وغلب مانع (أم) سيد مجان (وجد التمثال أ في سوسة. والنص في: ف. ثورو ـ دانجن «نقوش ملوك سومر وأكد (١٩٠٧) ص: ١٦٦هـ: ٢. نا ـ را ـ ام ـ ايلو ـ سن ـ شار ـ كي ـ يب ـ را ـ تيم أر ـ با ـ ريم يوروم (نام ـ را ـ اق =) شلات ما ـ جان ـ ك = نارام سن ملك الاقاليم الأربعة. غنم مركباً من الحجارة من مجان. (على مزهرية ب) وجدتها «البعثة العاملة في العراق» نفس المصدر تورو ـ دانجن ١٦٤، ٢، ج).

٣ ـ ألبرايت: مجلة الآثار المصرية: ١٩٢١/٦ ص: ٨٩) ناقشها البروفسور سايس نفس المرجع ٢٩٦ ورد عليه دكتور ألبرايت في المجلد ٧ (١٩٢١) ٨٠ ـ ٨٦. ثم معالجة جذرية من لانجدون في «التسلسل الزمني القديم سومر وأكد» مجلة الآثار المصرية ١٩٢١/٧ ص١٣٣ ـ ١٥٣.

٤ ـ ما ـ جان ـ مي ـ لوخ ـ خا كور ـ بي ـ تا، جو ـ جيش مو ـ نا ـ أب ـ جال = مجان وملوخا جمعوا الاخشاب من الجبل. اسطوانه جودي رقم أ ١٥٠ في تورو ـ دانجن نفسه، ثم ١٠٤، ١٥.

٥ ـ كور ما ـ جان ـ ك ـ تا دوق ايسي ام ـ ا ي ـ آلان ـ نا ـ ني ـ شو مو ـ تو (د)

= من جبال مجان جلب الديورايت وعمل منه تمثالاً. تمثال جودي أ. تورو ـ دانجن ٦٦، ١٦، أي ٢ ونفس الكلمات على جودي ب، تورودانجن ١,٧٢ وعلى تمثال جودي ج، ٥,٧٦ وعلى «د» ملاحظة ١٩ أدناه.

٦ ـ في «مجلة الآداب الشرقية» ليبزج ١٦: ٤٨٨ ـ ٤٩٢.

٧ ـ را: لانجدون ـ مجلة الآثار المصرية ١٩٢١/٧ ١٣٣ ـ ١٥٣..

٨ ـ ١٢٠ بيرو (ساعة) شي ـ إد ـ رو اشتو كون نا يوراتي أدي بات مات م ـ لوخ خا = مسافة ١٢٠ ساعة مشياً شديداً من مصب نهر الفرات إلى ملخا. شرويدر نقوش مسمارية مختلفة رقم ١٩٢.

٩ ـ أو صور (طوروس) سترابو ٣,١٦.

١٠ـ أ. أو. ٢١٣١ ن ـ ٦ ـ ١٠ «الوقائع الآشورية» ٦.

١١ـ النصوص الآشورية ٣، ٨٨(٥) ٥ ـ ٧.

١٢ـ لانجدون نفس المصدر ملاحظة ٨(١٤٤) را: هوميل «الوافي»: ٢: وما بعدها. ماجان = شرقي بلاد العرب. ملوخا = وسط بلاد العرب وشمالها الغربي.

١٣ـ مي ـ يص ـ ري ـ و مات ملوخا. تل العمارنة (الرسائل) مجموعة برلين ٥٠ و٠ و٢٠.

١٤ـ سن كريب الثاني (٧٣) شرا مات مو ـ صو ـ ري (٧٤) شر مات ي ـ لوخ ـ خا (٨٠) شر مات مو ـ صو ـ را ـ ١ ـ ١ (٨١) شر ما مي ـ لوخ ـ خي. راولين «النقوش المسمارية في آسيا الغربية». (١٨٦١) الأول: ٣٧ ـ ٤٢. مصران = مستعمرة معين، «العلا» ـ هوميل ـ الوافي ـ الثاني: ٦٠٣ مصران = مدين (جلاسر سكيزي ٢: ٤٥٢).

١٥ـ س ـ نا ـ كان ـ نا آشور بانيبال في رولنسون ١ : ١٧ ـ ٢٦.. ستاند ١٨ = قش ميشكانا «نفسه» ٥ : ٤,٦,٦٥ را: «حوليات سرجون: ٤٢٩، اسطوانة ٦٣. روبنسون الأول: ٣٦.

١٦ـ متوخ تاريخ الشرق الأدنى ١٩١٣، ٢، ص: ٢١.

١٧ـ قارن ملاحظة ٦ أعلاه.

١٨ـ لا نجدون «نفسه» ص: ١٤٩.

١٩ـ ما ـ جان ك مي ـ لوخ ـ خاكي جو ـ بي ك ـ كور ني ـ توج كي قو ـ قيش مو ـ نا ـ قا ـ لا ـ ام ما قيش ـ دو ـ آ ـ بي شير ـ بور ـ لا ك ـ شو مو ـ نا ـ جين، خار ساج ـ ما ـ جان ك ـ تا لاج ايسي ـ ام ـ تا ـ ء الان ـ نا ـ شو = ما جان وملوخا وجوبي وتلمون (= كور ني ـ توج) جمعوا الخشب، وعادت السفن بالاخشاب إلى

الآجاش: ومن جبال مجان جلب حجر الديورايت لعمل تمثال. تمثال جودي رقم «د» تورو ـ دانجن ٧٨ د،٤.

٢٠ـ را: كنج «اللوحات المسمارية» ١٥: ٤٤. لانجدون «النصوص الدينية السومرية رقم ١، مجموعة ٢ (ما) جان ـ ك ـ زاجا ـ حي ـ إن ـ لال (... ما ـ) جي ـ لوم مي ـ لوح ـ جـا ـ ا ـ جي = ندعو له بالوصول إلى مجان التي على أفق السماء... ومدابغ (أوسفن) ملوخا. رولنسون: النقوش المسمارية لآسيا الغربية ـ ٤: ٢٥ عمود ١.

٢١ـ را: نقش توكولتي ـ نينوستا المنقول في تاريخ كمبردج القديم، مجلد ٢: ص: ٢٤٢.

٢٢ـ آمي لوتي مات كاشي، رسائل العمارنة في تاريخ كمبردج القديم (المتحف البريطاني) ٩،٢٤ وما بعدها إي: شريدر، «المراجع السماوية» مجلد ٥؛ كنود تزون ـ ويبر «رسائل العمارنة» ص: ٥٤ الخ ١٥٧٨.

٢٣ـ مي ـ لوخ ـ خا صلموتي ـ جيسين في وينكلار «بحوث الشرق القديمة» ٢: ٥٧٨.

٢٤ـ جوج جي رين مي ـ لوخ ـ خادا واسطوانة جودي ب ١٤ تورو ـ دانجن ١٣٤ سطر ١٤.

٢٥ـ لا نجدون نفسه ١٥٠.

٢٦ـ جوشكين سخار ـ با كور ـ ني ـ لوخ ـ خا ـ تا ـ إم ـ تا ـ ء = غبار الذهب الذي جلبه من ملوخا تمثال جودي ب ٦ ثورو ـ دانجن من : ٧٠] أسطر ١٢ ـ ١٣.

٢٧ـ لا نجدون نفسه ـ ١٥.

٢٨ـ قابل الملاحظة أ ـ ٥ في الفصل الثاني أعلاه.

٢٩ـ قابل «رسائل العمارنة» المقتبسة في ١٣ أعلاه.

٣٠ـ هوميل «الوافي» ١: ١٣٢.

٣١ـ مجلة الآثار المصرية، مجلد ٦ (١٩٢٠)، ٢٩٦.

جـ ـ الفتح الأشوري لبلاد العرب :ـ

١ ـ اسطوانة أشور بانيبال، المراجع المسمارية ٢: ٢١٦ ـ ٢٢٢.

٢ ـ أشور بانيبال، الحوليات ١: ٥١ ـ ٢، ٧: ١١٢ ـ ١١٣، ٨: ٢ ـ ٣، ٤٥ ـ ٤٦.

٣ ـ اسطوانة تيلور عمود ٢، ٣، قابل رولنسون ١: ٣٧ ـ ٤٢، مجلة الجمعية الآسيوية الملكية (١٨٥٩) ١٣٥ وما بعدها.

د ـ تيماء:

١ ـ رولنسون: النقوش المسمارية لآسيا الغربية ١٠ رقم ٢، ٣٨ وما بعدها.
٢ ـ كوك: النقوش السامية الشمالية ص: ١٩٥ ـ ٩٩.
٣ ـ س. سميث النصوص التاريخية البابلية ٨٠ ـ ٨١.
٤ ـ يوسيفوس أبيونيم ١: ٢١، كزينفون سروب ٧:٤ و١٦.
٥ ـ قابل س. سميث نصوص التاريخ البابلي ـ لندن ١٩٢٤. ر: بي دوغرتي «نبونيدس في بلاد العرب» في مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية» مجلد ٤٢: ٣٠٥ـ١٦.
٦ ـ هيرودوتس، ٣،٨٨،٢. قابل كزينفون سروب ١ و٤و٥و٢؛ ٦و٢و١٠.

«ملاحظة إضافية للفصل الثالث»

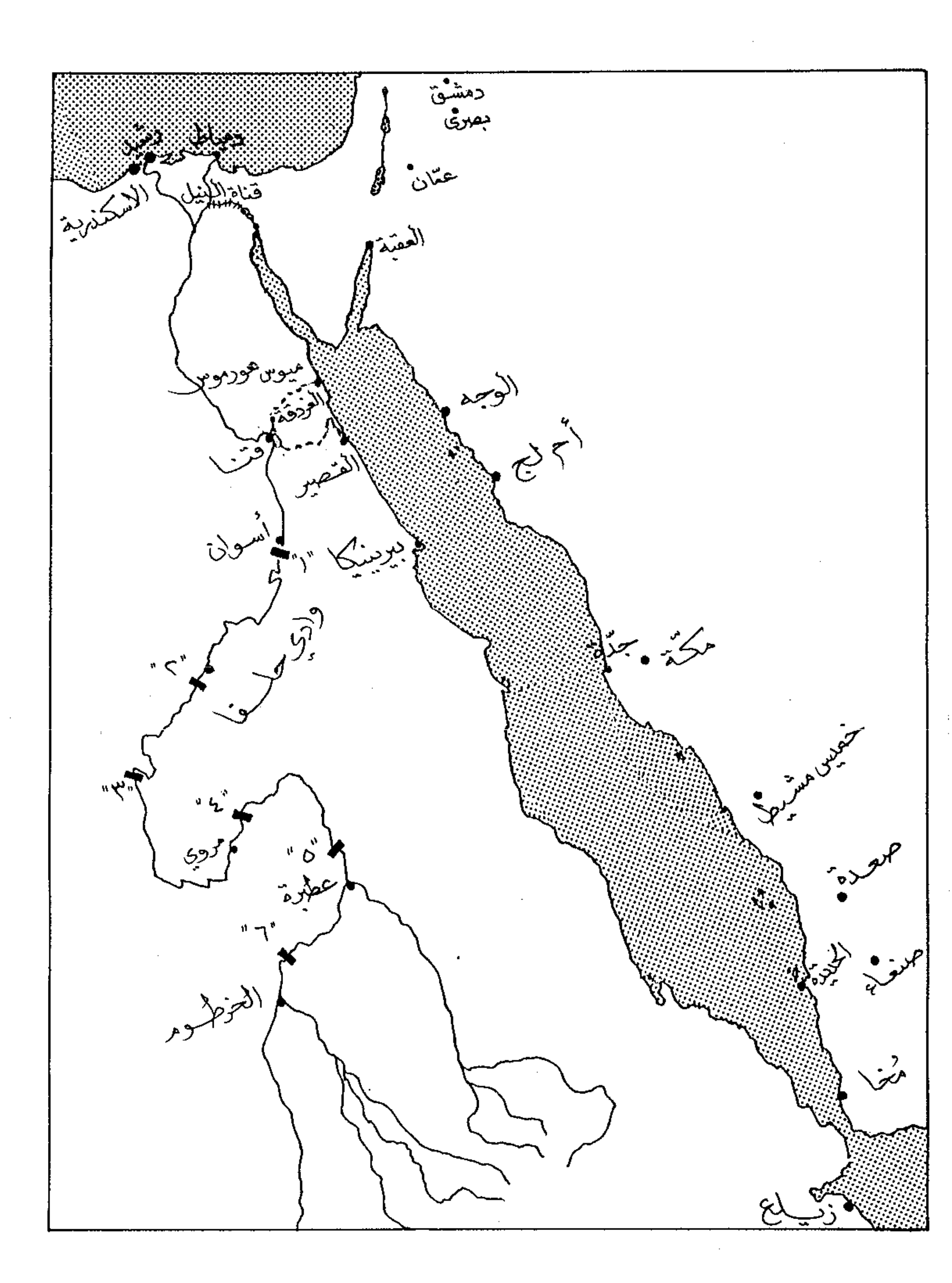
(حويلة ومصادر التزود بالذهب)

إذا اعتبرنا أن ملوخا كانت البلد التي يقال أنها تحوي الذهب، فيسهل أن نفترض وجود بعض العلاقة مع «حويلة» سفر التكوين اصحاح ١٠ آية ٢٠. التي توصف بأنها بلاد الذهب (تك ٢: ١١) والتي تقرن في المواضع الأخرى بأنها بلاد الكوشيين (تك ـ ١٠: ٧) أي في افريقيا (أو بلاد العرب الشمالية الغربية. قابل هوميل «الوافي» ٢: ٥٥٧ وما بعدها) وهي مشهورة كذلك «بالبدولح» (تك ٢: ١٢) وذكرها يوسيفوس بكلمة «بديلا» المقابلة (لبديليون) التي ذكرها ديوسكوريديس ١، ٨٠ والتي ذكرها بليني باسم «بديليوم» ت. ط. ١٢: ٩ ـ ١٠ والتي تدل على الصمغ ذي العطر الشذي، وهو نوع من الراتنج (المادة الصمغية في الشجر) المشابهة للمر. وهذا يجعل احتمال الإشارة إلى بلاد العرب الجنوبية وإن كان ذلك ليس لازما بالضرورة، لأن ثيوفراستوس يخبرنا بأن هناك أنواعا جيدة من البخور لا تأتي من شبه الجزيرة العربية بل من الجزر المجاورة التابعة للحكم العربي، ويحتمل أن هذا الفيلسوف الاسكندري الذي يكتب من السماع ربما كان يعني بعض الأماكن الأخرى التي يوصل إليها عبر البحر وبذلك ربما شملت افريقيا الشرقية التي كان يجلب منها البخور مثلما يجلب من بلاد العرب. فإن كان ذلك كذلك، فإنه يقوم بذلك تخمين محتمل بأن تكون حويلة هي أفاليتس التي كان يجلب منها نوع جيد من المر (بليني ت. ط ٢٨ب وبطلميوس ٤: ٧) حيث تشير أفاليتس إلى «زيلع» على الساحل الأفريقي بالقرب من باب المندب. ولكن حويلة يمكن أن تكون من الاصل العربي «حول» وهو الدوران وبذلك تدل على «الساحل» وقد لمح دكتور البرايت في مجلة الآثار المصرية (١٩٢١) ٨٤ إلى أن أصل بدولح من «بدولخ» المرادفة مالوخا = م ـ لوخ ـ خا ويجعل

تلك البلاد تدل على «بلاد البخور» ويشير ـ اعتماداً على جلاسر ـ بأن الراتنج لا يزال يدعى «أملَخ» في ظفار. وفي «موردتمان ومولر» سبأ... ٣٦ نجد «سبأ وعريبان» التي يحتمل أن تقابل «سبأ وحويلان» كما في جلاسر ١١٥٥ وهاليغي ٥٣٥ وان صح ذلك فإن حويلان تكون مرادفاً آخر لكلمة «عريبان» أرض العرب (؟) وكلاهما يعني جنوب بلاد العرب.

يقال إن أسطول الملك سليمان في البحر الأحمر أحضر الذهب والفضة، والعاج، والنسانيس، والطواويس (سفر الملوك الأول إصحاح ١٠:٢٢) وقد يشير هذا إلى الاتجار مع بلاد بُنط (السود) إذا استثنينا الطواويس فإنها ليست من أصل افريقي. ولما كان واضحا إنه كان هناك ملاحة حول بلاد العرب وأن السفن البابلية كانت تجوب البحر الأحمر فإنه لا يستغرب أن تكون الطواويس قد جاءت من بابل حيث تربى هناك، وإن كانت مجلوبة في الاصل من الهند. (ديودورس الصقلي ٢:٥٣) ولا بد من الإشارة إلى مشكلة «أوفير» التي يشار إليها بأنها أرض الذهب (الملوك الأول ٩:٢٨، أيوب ٢٨:١٦، والمزامير ١٤:١٠ وما بعدها) والتي تقترن «بسبأ الافريقية» (تلك. ١٠:٢٩) وربما كانت «خيبر» الواردة في رولنسون ٤:٣٤ الأرقام ٣،٣،٥.

لقد كانت كلمات العاج والنسانيس والطواويس كما ترجمت في كتب الترجوم والبشيتا والفلجاتا وتفسيرات الأحبار مبعث صعوبات. أما النسخة السبعينية فإنها تذكر الذهب والفضة والحجارة المحفورة والمنحوتة، ما عدا أنها تتطابق مع الترجوم وخلافه في القسم أ من (الملوك الأول، إصحاح ١٠ آية ٢٢ وقد ظن أن كلمة العاج (شنها بيم) قد تكون حاوية خطأ كلمة ابنوس (هاباني) وإذا قرىء المقطع ذهب وفضه وأبنوس فإن الحمل الذي وصل سليمان يكون مشابهاً جداً للبضاعة التي جلبها جودي من مجان وملخا. أو أن العاج (شنها بيم) يكون خطأً لكلمة (حجارة الشهام) حجارة الجزع (العقيق اليماني) أو مزيجا من العاج والابنوس. ولكن هناك تخمينات أخرى، أحدها يجعل (توخييم) تدل على سكان (الكهوف أو العبيد السود (وينكلر في (OLZ). ١٩٠١: ١٤٨. وما بعدها. ويظهر أن هذا يوافق عبارة «أثيوبيا توكابيتا كاي» كما جاء في يوسيفوس (الآثار القديمة) في الجزء الثامن ٢،٧ (١٨١).


دمشق
بصرى
عمّان
العقبة
دمياط
تنيس
الاسكندرية
قناة النيل
ميوس هورموس
الغردقة
قنا
القصير
الوجه
أم لج
أسوان
بيرينيكا
وادي حلفا
جدة
مكة
خميس مشيط
صعدة
الحديدة
صنعاء
مروي
عطبرة
الخرطوم
مخا
زيلع

الفصل الرابع

ـ الطريق إلى الهند ـ

أ ـ الطريق البحرية:

عرفت بلاد العرب بأنها بلاد البخور. ولم يكن البخور مصدر ثروتها أو المصدر الرئيسي لتلك الثروة. فإلى جانب تصدير محصولها الخاص من التوابل الحلوة إلى الغرب، فإنها كانت مركزا تمر عليه التجارة القادمة من الهند، إذ كانت الطريق البحرية بين الهند وخليج فارس معروفة منذ زمن طويل. وقد فتحها البابليون على الأغلب أو الهنود في العصر البابلي. ويظهر في الإسطوانات البابلية القديمة عينات من القوارب، وذلك شيء يسهل تعليله في بلاد نهرية كثيرة القنوات. وقد رأينا أن الملاحة في خليج فارس وحول سواحل بلاد العرب كانت معروفة منذ زمن جوديا ملك لاجاش. ومن السهل أن ندرك أن الذين استطاعوا الملاحة على الساحل الغربي من الخليج وعلى محاذاة عُمان كانوا يستطيعون ايضا أن يبحروا على الشاطىء الشرقي من الخليج، وأن يستمروا في اتجاههم حتى يصلوا شمال غرب الهند، وهذه الطريق أسهل كثيرا من السابقة ويرجح أن هذه الطريق كانت مستعملة في زمن قديم ولكننا لا نملك الدليل القاطع على أنها كانت مستعملة قبل الامبراطورية البابلية المتأخرة.

إن رحلة ساحلية من خليج فارس شرقا توصل المسافر إلى مصب نهر السند ـ إلى الشريان الكبير في الشمال الغربي من بلاد الهند التي يتكلم أهلها اللغة الآرية. ولو ابتعدوا عن الساحل فإن الرياح الموسمية قد تدفعهم في اتجاه جنوبي شرقي إلى الساحل الجنوبي الغربي لبلاد الهند حيث يتكلم أهلها اللغة الدرافيدية. ومن الطبيعي أن يكون الملاحون الأوائل الذين قاموا بالرحلات الأولى للهند قد تقيدوا بالإبحار على محاذاة الساحل من مدخل الخليج الفارسي إلى مصب نهر السند، لأن الطريق كانت معروفة جيدا زمن الحكم الفارسي وربما كانت معروفة جيدا قبل ذلك. أما الطريق البحرية الحرة (Open Route) فكانت معروفة قديما أيضا وربما بطريق الصدفة، وكانت الطريقان مستعملتين في عصر الامبراطورية البابلية المتأخرة، وعرفنا الدليل على وجود نوعي الإتصال البحري من أسماء الحاجات المجلوبة من هناك. فالمسميات السنسكريتية الأصل تعني التجارة مع شمال الهند والمسميات التاميلية أو المشتقة من إحدى اللغات الدرافيدية الأخرى تثبت المتاجرة مع

جنوب الهند، فضلاً عن أن التجارة تختلف باختلاف المصدر. فما كان من الشمال يمكن وصوله بحراً أو براً. أما ماكان من الجنوب فلا يمكن وصوله إلا عن طريق البحر.

كان خليج العجم (الفارسي) في القرن الثامن ق. م ميداناً لعبث القراصنة وظل كذلك حتى جاء سنكريب ووضع حدا لأذاهم حوالي ٦٩٤ق. م وأجبرهم على الاستقرار في الجرها[1] (الحسا). وكان الاعتقاد الشائع أن هذه الجهات هي موطن الفينيقيين الأصلي. إذ يقول هيرودوتس «ان هذا الشعب الذين كانوا يسكنون سابقا على شواطىء البحر الأحمر، أخذوا منذ اللحظة التي هاجروا فيها إلى هذا البحر الذي يحكمونه الآن في القيام برحلات طويلة». يستعمل هيرودوتس اصطلاح البحر الأحمر ليشمل كل أقسام المحيط الهندي المحيطة ببلاد العرب، ويعني «بهذا البحر»، البحر المتوسط. ومثله قول سترابو إذا أوغل الإنسان بحراً (أي من شط العرب خلال الخليج الفارسي) يجد جزرا أخرى هي صور (Tyros Tylos) وأرواد (Arados) ذات المعابد المماثلة لمعابد الفينيقيين.

ويدعي سكان هذه البلاد أن تلك الجزر والمدن الفينيقية كانت مستعمرات للفينيقيين أهل البحر المتوسط. ولكنه يسلم في موضع آخر بأن الآراء لم تتفق على أي من هاتين الجهتين هي موطن الفينيقيين الأول. «يقول البعض أن الصيداويين (Sidonians) القريبين منا هم الذين استعمروا أولئك الذين يقيمون على سواحل المحيط. مؤيدين زعمهم بأنهم أخذوا هذا الإسم نسبة إلى البحر الأحمر. بينما يرى البعض الآخر أن أولئك هم الذين استعمروا هؤلاء (سترابو ٣٥,٢,١). أما «جستين» وهو ليس حجة قوية فيقول نقلا عن بومبيوس تروجس (Trogus) «تعود صور في أصلها إلى فينيقية التي كان اسمها زمن الأشوريين «المستنقع الأشوري» وهو البحر العظيم المليء بالأسماك بالقرب من صيدا المدينة الحصينة على شاطيء البحر (جستين ٣,١٨) وقد ثارت مجادلات كثيرة حول معنى «المستنقع الأشوري» ويظن بأنه البحر الميت. ولكن أ. ف جتشميد فيرى أن الإسم يعني «بحيرة بامبيكي» أما هيرين فقد ايد الرأي الأول الذي ذكره سترابو وهو أن الفينيقيين الذين على البحر المتوسط هم الأم الأصلية وأن الذين على خليج فارس هم فرع من ذلك الأصل. وهو شيء محتمل على الرغم من عدم وجود اثباتات له.(×١) يدعى الفينيقيون في

(×١) مما يؤيد أن الأصل هو منطقة الخليج الفارسي أن من طبيعة الهجرات أن تكون من الجنوب إلى الشمال أو من الشرق إلى الغرب مثل هجرات الكنعانيين والآراميين والهكسوس والسومريين، وأن يعطى الاسم القديم للجديد بعد أن هاجرت الأقوام نهائياً وأن الآثار موجودة في منطقة البحر المتوسط وحدها. أي بعد ارتقاء المهاجرين حضارياً. باستثناء آثار البنيان في منطقة جبيل (سعودية حالياً) بين الدمام والمنطقة المحايدة شمالاً.

العهد القديم وفي مدونات الآشوريين باسم الصيداويين (Sidonians) وهي تسمية لا تدل على جنسهم بقدر ما تدل على موقعهم الجغرافي، وكذلك ورد اسمهم في الالياذة والأوديسا (لهوميروس) (×١). ومرة ورد اسمهم «الفنيقيون» (Phoinkes) وهي تسمية مطابقة لاسم «فنخ» الواردة في النقوش المصرية. وقد كان اليونان يطلقون هذا الاسم على جميع سكان ساحل كنعان ـ وكانوا كذلك يطلقونه على شجر النخيل، وكانوا يعتبرون هذا الإسم مكوناً من الصفة فينوس «أحمر» ومن حرف الزيادة القديم (يك)، ولا ريب أن استعمال ذلك الإسم قد أثر على النظرية القائلة بأنهم جاءوا من البحر الأحمر. وعلى أي حال فهو اشتقاق خطأ مبني على الاسم المصري. وجاء في سفر الملوك ذكر إبحار الصيداويين إلى البحر الأحمر، فإن دل هذا على أنهم جاءوا إلى البحر الأحمر من بلاد صيدا فإنه لا يعد دليلا على بطلان احتمال كونهم من أصل شرقي.

من المؤكد أن هناك مستوطنة ساحلية فينيقية على الأقل هي أنطلياس من الفترة المجدلانية وتبعاً لذلك فهي من العصر الحجري القديم المتأخر ولدينا كل الأسباب المقنعة بأن هذه المستوطنات الساحلية كانت من الأماكن الأولى التي نزلها الناس في بلاد كنعان. أما ما وجد فيها من آثار وأدوات خزفية توحي بأنها تقليد للنماذج المصرية أو الأيجية أي أن الحضارة الفينقية منقولة على الأرجح عن المصريين في عصر التوسع، أو عن طريق الاتصال مع كريت، أو بوساطة الفلسطينيين الذين جاءوا إلى بلاد كنعان من كريت. والاتصال الأول مع الايجيين قبل سقوط كنوسوس «والثاني عن طريق ادخال العنصر الفلسطيني إلى بلاد فنيقيا الذين جاءوا واستقروا في الساحل الفلسطيني الذي سمي باسمهم وذلك بعد زوال الاحتلال المصري. يروي العهد القديم أن سليمان (ع) استعان بالفنيقيين في بناء الهيكل في القدس، ويحتمل أن يكون قد استعان بهؤلاء الفنيقيين في تشييد القلاع في مختلف المدن. ومن الصعب أن نكوّن فكرة عن الفن الهندسي الذي حواه الهيكل (كما وصفه العهد القديم) بعد أن دمرت معالمه كلها، ويمكن أن نقدر أن بناءه كان على النمط المصري أو الكريتي. أما القلاع فبقي بعض آثارها شاهدة على ضخامة البناء وعلى أن الحجارة كانت في الغالب مهندمة (مدقوقة) وهو طراز من البناء لم تكن تعرفه تلك البلاد من قبل، مما يحملنا على الظن بأن هذا شاهد على التأثير الفنيقي.

يتصل الفنيقيون بطريقة أو أخرى مع الفلسطينيين الذين استقروا على طول الساحل الجنوبي حول غزة وعسقلان الخ. وهؤلاء هم أحفاد القبائل البحرية التي أثارت سخط المصريين زمن رمسيس الثالث: فجاءوا إلى ساحل كنعان بعد أن طردوا من مصر، حين

(×١) هوميروس: حوالي ٨٥٠ق.م يذكر جزيرتهم + القاموس الكلاسيكي.

لم يكن هذا الجزء الجنوبي محمياً جيداً. وجاء ذكرهم في التوراة: عاموس ٩ :٧ «الفلسطينيون من كفتور»، وأخرى «الفلسطينيون بقية جزيرة كفتور» وفي سفر التثنية «الكفتوريون هم غزاة غزو أرض كنعان». وكفتور هي بالتأكيد كفتيو (كريت). غير أن الفلسطينيين الأصليين هم بقايا الشعب الايجي القديم صاحب الحضارة المتطورة التي طغى عليها الاخائيون الذين غزوا بلاد اليونان[٢] ولقد حاول الفلسطينيون أن يتوسعوا نحو الشمال ونحو الداخل بعيداً عن مراكزهم الساحلية الجنوبية، فأدى توسعهم نحو الداخل إلى اصطدامهم مع الإسرائيليين الغزاة الحديثين لبلاد كنعان أيضاً. وكانت قوة هذه الإصطدامات سبباً في نشأة مملكة اسرائيل وفي توسع الفلسطينيين نحو الشمال وأسسوا لهم مستوطنات جديدة انضمت في النهاية إلى مدينتي صور وصيدا التجاريتين العظيمتين. وقد نشأت هاتان المدينتان وأصبحتا هامتين قبل طروء القبائل البحرية على ساحل كنعان. وكان الفنيقيون يسكنون هاتين المدينتين قديماً وفي زمن قدوم الفلسطينيين. وهم (أي الفنيقيون) اما من المهاجرين الساميين أو بقايا السكان الذين كانوا هناك قبل الساميين. وعلى ما يظهر فإن القبائل البحرية امتزجت بهم. وربما بدأت أهمية الصيداويين البحرية منذ هذا الامتزاج. فالهجرة الفلسطينية حدثت زمن الأسرة العشرين المصرية. بينما ورد ذكر مدن الساحل الفنيقية قبل هذا التاريخ إذ كان هدف غزوة تحتمس الثالث الخامسة وهو من الأسرة الثامنة عشرة أن يحكم السيطرة على مدن الفنيقيين الساحلية. وكذلك قام أموريو سوريا (ساميون) زمن الملك امنحوتب الثالث بهجوم على الفنيقيين لأنهم كانوا موالين لمصر، وكذلك أوغل الخبيرو(×١) المذكورين في رسائل تل العمارنة، ويحتمل أن يكونوا العبرانيين، في بلاد كنعان وفنيقيا على السواء. من المؤكد أن الفلسطينيين لم ينشئوا صيدا ومستعمراتها، وإن كانت أخذت بعض الصبغة الفلسطينية فيما بعد: ويشير سفر القضاة إلى «أن سكان صيدا كانوا من الكنعانيين المتحضرين. فهم ليسوا قادمين حديثين مثل الكفتوريين. وتشير مدونات سنكريب(×٢) إلى «صيدونو العظيمة» بأنها

(×١) الخبيرو والعبيرو المشار إليهم هي صفة للعرب القادمين من شمال الجزيرة العربية وهم الذين عبروا إلى الشمال قبل مجيء قوم موسى من مصر بأكثر من ١٠٠٠ عام وقد استنجد عبد خيبا ملك القدس العربي بفراعنة مصر ـ أخناتون ومن قبله ١٣٨٠ق. م ضدهم وقد وضحت التوراة أن العبري او العبراني هو غير اليهودي (خروج ٢١ آية ٢) = سوسة ص ٤٢٧ العرب واليهود في التاريخ ود. خالد عوض «بنو عابر».

- حوالي ١١٩١ق. م وصل الفلسطينيون للساحل الجنوبي وقد استعمر الفنيقيون اسبانيا بعد هذا التاريخ في أواخر القرن الثاني عشر مما يدل على أنهم كانوا أمة بحرية قبل امتزاجهم بالفلسطينيين «الحضارة الفنيقية في اسبانيا بول تسيركين: ص٢٥» ترجمة يوسف أبو فاضل.

(×٢) سن كَرب: سنكريب تعني خادم أو عابد أو كاهن الإله (ينْ) ـ القمر.

إحدى المدن الفنيقية العظيمة التي خضعت له في عمليته الثالثة[٣]. جاء في سفر التكوين (الاصحاح ١٠ آية ١٥) ما يلي: «وكنعان ولد صيدون بكره وحثاً الخ» صيدون = الفنيقيين، وحثا = الحثيين. فالعهد القديم يعتبر الفنيقيين والحثيين من أصل واحد. فالكاتب (كاتب التوراة) في الحالة الأخيرة مخطىء قطعاً. ويصعب أن نقتنع كذلك بصحة قوله في الحالة الثانية (ان الفنيقيين من أولاد كنعان). وعلى أي حال فالصيدانيون لم يكونوا مهاجرين جدد إلى تلك المنطقة.

يرى ب. لجرانج (P. legrange)[٤]. أنه كان هناك توسع سامي نحو الغرب ابتداء من تخوم خليج العجم ونتج عنه غزو الهكسوس لمصر، واستقرار الفنيقيين على سواحل البحر المتوسط. وهذا الرأي لا يعين موطن الساميين، ولكنه يشير إلى هجرة نحو الغرب بدأت من بابل التي هي على الأغلب مستوطنة سامية إلى سواحل لبنان بعد سقوط بابل (الامبراطورية الثانية) في أيدي الكاشيين (١٥٩٥ ق. م). ويبدو أن هذه أقرب النظريات احتمالا بالنسبة لتاريخ الفنيقيين. ومن الواضح أن الهكسوس الذين غزوا مصر (قبل هجوم الكاشيين بقرنين من الزمان) لم يكونوا بدواً أجلافاً. يذكر مانيثو المصري (Manetho) (١×) ان سلاطيس أول ملوك الهكسوس قد حصن أفاريس (Avaris) (= تل اليهودية؟) (٢×) في الدلتا لأنه كان يخشى هجوم الآشوريين (أي سكان ما بين النهرين الذين كانوا تحت حكم الكاشيين انذاك)(٣×)[٥]. قد نقبل أن يكون الفنيقيون ساميين جاءوا من بلاد مابين النهرين بعد غزو الكاشيين لامبراطورية بابل الثانية وأنهم استقروا على الساحل حيث كانت هناك موانىء ومدن قديمة متعددة وهناك صاروا تحت تأثير المصريين والايجيين ولكن هذا لا يعني، طبعا، انهم أول الغزاة الساميين الذين طرأوا على بلاد كنعان، إذ يرى مكالستر (Macalister) جازما أن أقدم آثار الساميين في جازر (Gezer

(١×) مانيثو كاهن مصري عاش وكتب تاريخه المشهور في حدود. ٢٨٠ ق. م وهو أول من أطلق اسم الهكسوس (الملوك الرعاة) على هذه الأقوام. السوس والسياسة = الرعاية بشكل خاص للحيوانات.

(٢×) تل اليهودية وردت أيضاً في كتاب «هول» بدون علامة استفهام ويصفها بانها على الجانب الشرقي لدلتا النيل وعلى مدخل طميلة Hall The Ancient History, of The Middle East Tumilat.

(٣×) الكاشيون المشار إليهم ليسوا الذين اسقطوا الامبراطورية البابلية الثانية ١٥٩٥ق. م بل جماعة منهم غزوا بلاد العراق وأسسوا مملكة كاشية سنة ١٧٤٢ في أواسط نهر دجلة (أحمد سوسة) ص ٦٥٥. ولا يمكن أن يكون هذا التاريخ مناسباً لأن الهكسوس حكموا مصر في ١٧٨٥ أي قبل دخول الكاشيين للعراق - ومدينة أفاريس أقامها سلاطيس أول ملوك الهكسوس الذي حكم ١٣ سنة فقط (حتى ١٧٧٢ق. م) وهناك الرأي القائل بأن عصر الهكسوس يبدأ سنة ٢١٦٠ق. م وليس سنة ١٧٨٥ق. م، ويقبل رأي لجرانج بأن الفينقيين ظهروا حوالي القرن السادس عشر ق. م وأنهم جاءوا من بلاد بابل.

يازور) يرجع تاريخها إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، مع ميل إلى ارجاع أقدم مخلفات الساميين إلى الألف الرابع قبل الميلاد[٦]. أما غزو الهكسوس لمصر فلم يكن قبل القرن السابع عشر قبل الميلاد(×١).

حاول و. ج. برى (W.J.Perry) في (علم الانساب) باريس الفصل ٢٩، ١٩١٨ - ١٩، ١٣٣ - أن يربط الفنيقيين بالأضرحة الحجرية الضخمة المنتشرة في أوروبا وآسيا بقرب مواقع المعادن النفيسة، والحجارة الكريمة الموجودة بوفرة، أو المجاورة لمواقع الأصداف اللؤلؤية. إن هذا التخمين شيء ممتع ولكنه يبقى في النهاية تخمينا. وفي الحقيقة لا نعرف عن الفنيقيين شيئا أكثر من لا شيء(×٢).

انتعشت بابل بعد سقوط الامبراطورية الآشورية سنة ٦٠٦(×٣) وعادت مرة أخرى سوقا دولية. وكان يسميها الهنود بابيرو (Baberu) وتروي أخبار وجود البحارة الهنود في بابل قصة يرجع تاريخها للقرن الثالث قبل الميلاد. ويظهر أن الطاووس كان يربى في بابل نفسها[٧].

أما ضآلة معلوماتنا عن الطريق البحرية بين الهند وبلاد العرب قبل عصر الاسكندر فترجع في بعض نواحيها إلى الحقيقة المعروفة عن أولئك الذين كانوا يجوبون تلك الطرق بأنهم كانوا يفضلون أن يضفوا على أعمالهم شيئا من الكتمان الشديد تأمينا لاحتكاراتهم. وهو أسلوب سار عليه الفنيقيون أيضا وفي مواطن أخرى.

ب - الطريق البرية إلى الهند:

يمكن الوصول إلى الهند برا كما نصلها بحرا. وهذا شيء له أهميته في تفسير وصول التجارة من الهند والتي كنا نظن أنها تصل بحرا إلى خليج العجم ثم تنقل عبر جزيرة العرب إلى بلاد الغرب في حين أن هناك طرقا برية تصل عددا إلى أربع طرق برية هي:

(×١) غزو الهكسوس حسب رأي د. أحمد سوسة - في القرن الثامن عشر ق. م.

(×٢) ان ما قدمه المؤلف من أخبار وآراء متناقضة كان أكثرها لصالح الفنيقيين على الرغم من أنه أغفل الناحية العالمية الخالدة التي يحفظها العالم للفنيقيين - الكنعانيين - العرب بأنهم أعطوا للعالم حروف الهجاء وأنهم عرفوا العالم الجديد منذ القدم، وعلى الأقل قبل كولمبوس بأكثر من ألفي عام عن طريق الربان (هانو - هانىء ابن تيم) في زمن الفرعون نخو) قبل سنة ٦٠٠ ق. م.ن كونستانس إروين **Fair Gods and Stone Faces**.

(×٣) سقوط الامبراطورية الآشورية مرتبط بسقوط عاصمتها (نينوى) عام ٦١٢ ق. م.

(١) طريق تمتد من بحر قزوين إلى بلاد التركستان الحالية ثم جنوبا أو جنوبا شرقيا خلال ممرات هندكوش إلى حوض السند الأعلى.

(٢) طريق شرقية على محاذاة سفوح جبال البرز فهندكوش وحوض السند.

(٣) طريق تقطع صحراء (داشي لوط(×١). Dash-i-Lut) أو صحراء الملح الكبرى في بلاد العجم إلى غزنة(×٢) (Chazni) ثم ثانية إلى الشمال الغربي.

(٤) طريق عبر بلوخستان إلى أقصى الأجزاء الجنوبية من وادي نهر السند. ويمكن التجاوز عن هذه الطريق الأخيرة لأنها صعبة للغاية. وقد اكتشفها الكابتن سايكس (Capt. Sykes) سنة ١٨٩٨ وربما لم يستعملها أحد غيره. ومن المؤكد أنها لم تستعمل في يوم من الأيام كطريق تجاري عام. أما الطريق الثالثة خلال صحراء الملح الكبرى فقد تستعمل أحيانا، ويصعب القول بأنها كثيرة الاستعمال إلا للجماعات الصغيرة من المسافرين الأشداء ذوي الأحمال الخفيفة، وآبارها رديئة وقليلة العدد. أما ما يصلح من هذه المسالك فهما الطريقان الأخريان: على محاذاة سفوح جبال البرز، والتي تعبر تركستان إلى الشمال. وكلاهما تمر من خلال ممرات هندكوش وتدخل الهند من الشمال الغربي، وخلال هذه الطريق كانت الجيوش الغازية تدخل إلى الهند مرة بعد أخرى.

دخل أسلاف الجنس الهندي إلى بلاد الهند عن طريق ممرات هندكوش وهم فرع من الجماعات المنتشرة في شمال اسيا الوسطى. وتحوي النقوش الحثية الخاصة بملوك ميتاني(×٣) (Mitanni الحثيين)؛ والتي يرجع تاريخها إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد، تحوي أسماء آلهة فيديين[1] وكذلك تثبت مدونات (بوغازكوى Keui Bughas) أن لغتهم كانت من نوع السنتم (Centum) وليس الستم (Satem)[2] أي أنهم أقرباء الجماعة الارية في أوروبا، وأنه كانت هناك جماعة من الآريين في وادي الفرات الأعلى حوالي ١٤٠٠ق. م. وأنهم كانوا هناك حين ظهور الفيدا العظيم. (Rig Veda). ويرجح أن

(×١) اسم الصحراء بالفارسية داشت ي ـ لوط Dash ti Lut صحراء الملح.

(×٢) غزنة اليوم في أفغانستان.

(×٣) ملوك ميتاني ليسوا حثيين بل هم من «الحوريين» القادمين من بلاد أرمينيا، أما الحثيون فأصلهم من بلاد البلقان والقفقاس والأناضول وعاصمتهم «حاتوشاس» ومن القسم الأول من الإسم أخذوا الحثيين. واسمها اليوم «بوغازكوي» وقد شاركوا في القضاء على دولة الحوريين في أواخر القرن الخامس عشر ق. م (أحمد سوسة ـ العرب واليهود في التاريخ ص١٥٤).

ذلك كان زمن الغزو الآري لبلاد الهند. ثم أخذت الأسماء الآرية في الزوال من ميتاني سنة ١٠٠٠ ق. م.(×١) مما يشير إلى التوجه شرقا نحو شمال غربي الهند. أما حضارة شمال الهند في العصر الحجري المتأخر وقبل مجيء الآريين فقد دلت اكتشافات سنة ١٩٢٤م على وجود علاقة بين الهند القديمة وبين بلاد ما بين النهرين الجنوبية مثل وجود الأختام الاسطوانية المتشابهة في البلدين.

والظاهر أن الآريين وهم يسيرون شرقا إلى هندكوش ومن هناك إلى الشمال الغربي من الهند كانوا يسلكون طريقا معروفة وقديمة جدا، إذ لم تكن طريق القبائل في هجرتها فحسب، بل ظلت طريقا دائمة الحركة يؤيد ذلك الأدلة الموجودة في بلاد اليونان الهوميرية وفي ايطاليا القديمة. فكلمة (اليفانت Elephant) اليونانية وتعني الفيل معطى العاج يقابلها الكلمة السنسكريتية (ابهادانتا Ebha Danta) = (ابها العاج، ودانتا تعني العطاء) يقابل (ابها) كلمة (abur) الايطالية أي العاج (ivory). وقد ورد أيضا في الياذة هوميروس كلمة (كاستيرا Kastira) بمعنى تنك (×٢). الإلياذة (١١-٢٥) وتدل هذه الأمثلة على وجود التبادل الثقافي القديم مع آسيا الوسطى. وليس من شك في أن خط البراهمة مشتق من أصل سامي. وإذا كان اعتبار بدء استعماله في القرن السابع قبل الميلاد صحيحا فإن ذلك يؤيد نظرية التبادل المستمر، مع أن أقدم نقش هندي موجود يرجع تاريخه إلى القرن الثالث فقط.

لم يتمكن البابليون والآشوريون الاقدمون من الوصول إلى البلاد المتاخمة لبحر قزوين لأن أهلها كانوا معادين لهم. لذلك فإن طريق ما قبل التاريخ عبر آسيا لم تكن معروفة لهم. بينما أدت تنقلات القبائل إلى غزو وادي دجلة والفرات أثناء هجرتها نحو الجنوب. والأرجح أن السومريين جاءوا إلى بلاد ما بين النهرين من أواسط آسيا عبر هذه الطريق. وتلا ذلك فيما بعد تدفق ثقافي من بلاد قزوين. والظاهر أن الامبراطوريات المستقرة لم تحاول اختراق هذه الأراضي الشمالية حتى زمن تغلات بلاسر الأول (حوالي ١١٠٣ق. م) حينما تغلب على الميديين (Medes) وبهذا الفتح وصلوا إلى المناطق التي تمر خلالها الطريق البرية. وليس هناك ما يدل على أن الآشوريين وصلوا إلى أبعد من هذه الأماكن. ومن المرجح أن ثورة مادي (الميديين) سنة ٧١٠ق. م حالت دون أي تقدم آخر.

(×١) لم يكن هناك ميتاني سنة ١٠٠٠ق. م فقد غزاها شلمنصر الأول الآشوري وضمها إلى مملكته سنة ١٢٧٦ ق. م ولعل الأصل يعني البلاد التي كانت تدعى ميتاني المرجع السابق

(×٢) راجع كلمة قصدير العربية وعلاقتها بهذا الإسم (يونانية) (قاموس المنجد).

تكثر الأدلة على وجود الصلة بين الهند والامبراطورية البابلية الجديدة إما عن طريق البحر أو طريق البر، وغالباً عن الطريقين كليهما. إذ نجد أن دعامات خشب الساج (Teak) قد استعملت في هيكل القمر في (أور) وفي قصر نبوخذ نصر أيضاً.

شقت الطريق إلى الهند وسط آسيا منذ قيام مملكة الفرس. وسيطر الفرس زمن كورش (٥٥٨ ـ ٥٣٦ق. م) على آسيا الوسطى والبلاد المتاخمة للهند. وحافظ داريوس هيستاسبيس (Hystaspes) على انتظام العلاقة الطيبة مع الهند التي كان يجلب الذهب منها. وأرسل في ٥١٢ ـ ٥١٠ق.م أحد المرتزقة اليونان والمدعو سكايلاكس (Skylax) ليكتشف الطريق في مجرى السند الأسفل ثم عابراً المحيط الهندي ثم صاعداً في البحر الأحمر حتى أرسينوى (Arsinoe) بالقرب من السويس الحديثة (هيرودوتس ٤٤,٤) كأن الملك الفارسي كان يريد معرفة تفاصيل طريق كانت معلوماته عنها من الأخبار. وقد ضم داريوس جميع مجرى وادي السند وجعل تلك البلاد ولاية في مملكته. ويوجد أقدم ذكر صحيح لهذه الممتلكات الشرقية في نقش داريوس في برسيبوليس Persipolis ، وفي(نقشي رستم) (Naksh-i-Rustam) الذي يعود تاريخه إلى سنة ٤٨٦ق. م تقريباً. وهناك يعلن داريوس أنه «ملك فارس وبلاد السوس» (Susiana) وبابل وآشور، وبلاد العرب، ومصر والمقاطعات البحرية، واسبرطة، وآيونية، وميديا، وآرمينيا، وكبادوكيا (Cappadocia) وفرتيا (Parthia) وزرانجيه (Zarangia) وآريا (Aria) وخوارزم، وبخارى (Bactria)، وبلاد الصغد (Sugdiana) وقندهار (gandara) وسقا (sacae) وستاكيديس (Sttagydes وأراخوسيا(×١) وميكيا[٣] (Macia) وكانت الولاية الهندية تزود مملكة الفرس بالذهب المستخرج من الرواسب الغرينية في داردستان (Dardistan) وقد استنفذ الذهب خلال قرن من تعدينه. وهذا يفسر وجود الرماة الهنود في جيش احشويرش (xerxes)[٤].

لم يكن عمل داريوس سوى فرض سيطرته السياسية على طرق كانت معروفة لدى التجار قبل زمانه. فقد حوت مسلة شلمنصر الثالث (٨٦٠ق. م) القرود والفيلة والجمال، وكلها تدل على وجود التبادل التجاري مع بخارى والهند. وعبر هذه الطريق أيضا جاء القطن إلى الغرب. والظاهر أن الأنسجة البيضاء المعروفة باسم كرباس العبرية (سفر استير

(×١) كبادوكيا: الجزء الجنوبي من الأناضول المحاذي لشمال سوريا وجبال طوروس. فرتيا مقاطعة فارسية قامت فيها دولة الفرتيين ١٢٦ ق. م ـ ٢٢٧م، أريا مقاطعة إلى الشرق من فرتيا وإليها ينسب الجنس الآري. (Sacea) من أشجع القبائل السكيثيين، أراخوسيا: آخر بلاد الفرس من الشرق على حدود نهر السند في بقعة خصبة ن: أحمد سوسة العرب واليهود في التاريخ ص: ١٧٢ وكذلك حسب موقع الكلمة من: Blakeney ; A Smaller Classical Dictionary

١ :٦) مأخوذة من كرباسا السنسكريتية (Karpasa).

بعد أن أصبح جزء من الهند ضمن مملكة الفرس، لم تعد الهند مجهولة من قبل اليونان خصوصا وأن الذي قام بالاكتشافات لداريوس كان يونانيا. وأقدم اشارة لهذه الإكتشافات جاءت من هقاتايس (حوالي ٥٢٠ق. م) الذي لا نعرف أعماله كاملة بل من الاقتباسات التي أخذت منها. وهي تقدم المعلومات التي كانت معروفة عن الهند قبل جولة داريوس الاستكشافية أي عن عصر التبادل قبل التوسع الامبراطوري الفارسي. ثم جاء بعده هيرودوتس (حوالي ٤٧٨ق. م) ليعطينا معلومات قد تكون مستقاة من سكايلاكس ورفاقه وخصوصا أن سكايلاكس ابن منطقته ولديه نفس الأساطير الهندية المعروفة انذاك[٥]. أما الطبيب اليوناني اكتسياس من البلاط الفارسي فلم يزودنا إلا بالقليل من المعلومات لأنه كان منهمكا بسرد القصص الرائعة، وقد وجدت قطع نقود في بلاد البنجاب من ولاية الهند الفارسية[٦] وكذلك توجد آثار واضحة جدا عن التأثير الفارسي في الفن وهندسة البناء.

جـ ـ الاسكندر:

ليس من الضروري تعداد الحوادث التي تدل على ضعف بلاد فارس، أو الأسباب التي دعت الاسكندر لأن يهاجمها. فقد تغلب على داريوس في معركة «اسوس» سنة ٣٣٣ق. م فهرب من الميدان. وتغلب عليه ثانية في معركة أربيلا سنة ٣٣١ ولم يمض وقت طويل حتى اغتيل داريوس، وأصبح الاسكندر صاحب السيطرة على جميع الامبراطورية الفارسية، ولم تكن حملته على الهند أكثر من زيارة للولاية الشرقية التي أصبحت شبة مستقلة نتيجة لضعف السيطرة زمن ملوك الفرس الأخيرين. وقد سار الأسكندر في هذه الحملة خلال منطقة كانت كلها، ولو بالاسم، على الاقل، جزءا من مملكة الفرس. وكانت فتوحاته تعيد المقاطعات التي سمح لها كثيرا بأن تتصرف على هواها إلى حظيرة السيطرة المركزية. وبعد أن أخضع بخارى عبر ممرات هندكوش سنة ٣٢٧ق.م وصل نهر السند في السنة التالية. ولم يكن يكتشف ممرات جديدة، وإنما كان يعيد فتح الطرق الفارسية التي نالها الإهمال. وقد عاد الاسكندر عن الطريق البرية ـ كما عمل داريوس من قبل، وأرسل اسطولا بحريا عبر نهر السند ليرجع عن طريق الخليج الفارسي.

قاد الأسطول القائد نيركوس (Nearchus) وقام بسرد تفاصيل رحلة السند المؤرخ أريان (Arrian)[١] في أقدم وصف للطريق البحرية بين الهند وخليج فارس. سار نيركوس مع ساحل الهند وبلوخستان. وكان ينزل يوميا، وقبل هبوط الليل، على الشاطيء ويمضي

الليل في معسكر، وتمكن أن يجد دليلا عندما وصل مارسانا في بلوخستان، وقد وصفت المسيرة بأنها لم تكن صعبة، وأن أسماء الأماكن كانت معروفة جيدا[٢]. ويدل هذا على أن الطريق الساحلية كانت معروفة تماما. بل يؤكد أن تلك الطريق كانت هي الطريق المعتادة من الهند وإليها. وكان الاسكندر يعتقد بامكانية الإبحار حول شبه جزيرة العرب إلى البحر الأحمر. فجهز جماعة من الرجال للقيام بهذا العمل ولكنهم لم يتمكنوا من اجتياز الرأس المقابل لساحل كرمنشاه أي راس مسندم (Ras Messendem) ولم تبذل محاولة أخرى لاستكشاف شبه جزيرة العرب أو الساحل العربي.

د ـ تقسيم امبراطورية الاسكندر:

حال موت الاسكندر المبكر دون تدعيم فتوحاته وأدت الحروب الأهلية بين المتنافسين من قواده، بعد موته، إلى إستعادة المستعمرات البعيدة استقلالها. ولما جاءت سنة ٣١٥ق. م كانت السلطة اليونانية قد زالت عن بلاد البنجاب. وقام القواد اليونانيون المتنافسون وفي الوقت المناسب بتقسيم امبراطورية الاسكندر فيما بينهم، فآلت المقاطعات الاسيوية إلى سلوقس نيكاتور... (٣١٢ ـ ٢٨٠ق. م) وقد حاول سنة ٣٠٢ ق.م استرجاع الولاية الهندية.

وكانت الأحوال في الهند قد تغيرت في تلك الأثناء وأدت إلى غزو هندي معاكس للغرب، وكان بمثابة رد على التوسع الهليني بقيادة الاسكندر. فقد قامت في الهند الشمالية الغربية حكومة قوية هي امبراطورية موريا Maurya)) التي أسسها شاندراغوبتا (سماه اليونانيون ساندرا كوتوس). فلم يتمكن المقدونيون من فرض سلطانهم عليه واكتفوا بعقد محالفة معه، وتزوج شاندراغوبتا ابنة أحد السلوقيين، واستقبل الرسل اليونانيين اللذين كان من بينهم (ميجاسثنيس) الذي كتب وصفا مسهبا عن الهند لا نعرفه لسوء الحظ إلا من الاقتباسات منه فقط.

كانت البوذية قد تطورت وانتشرت في الهند قبل غزو الاسكندر ببضعة قرون، وتنسب بعض المعلومات الأولى عنها إلى ميجاسثنيس الذي يقول في احدى المرات: «هناك هنود يتبعون مبادىء (بوذا) ويعظمونه كإله نظرا لتساميه في الرفعة[١]». وكان البراهمة بنظمهم الطبقية المتشددة يكرهون الأجانب ويحتقرونهم. أما البوذيون فلم يكن لديهم هذا الشعور بل كانوا أصدقاء للغرباء. وقد أسس شاندرا غوبتا امبراطوريته بأن اغتصب عرش (مجاذا Magadha) ـ بهار ـ واصبح حاكما على كل الهند الشمالية: وقد احتقره البراهمة لانه كان من منبت وضيع، فتحول عنهم إلى البوذيين. وكان حفيده (أسوكا) المعاصر

لانطيوخوس الثاني متحمسا للبوذية جدا. فعقد المؤتمر العام الثالث للطائفة البوذية حيث تقرر انفاذ المبشرين إلى البلاد الأخرى ليقوموا بالدعوة للبوذية وانتهز فرصة قيام علاقات حسنة مع العالم اليوناني فانفذ البعثات التبشيرية إلى ممتلكات السلوقيين وما وراءها من المناطق. وهناك ارتباط قوي بين معابد الكهوف والمنحوتات الصخرية التي وجدت في الهند وافغانستان وبين تفجر النشاط التبشيري. وتعتبر نقوش (آسوكا) في (بالي Pali) أول دليل خطي على عائلة اللغات الهندية التي تبتدىء بالسنسكريتية وتنتهي باللغة الأردية (Urdu). والموجود من هذه النقوش في الهند ٣٦ نقشا أخذت فكرتها من نقوش داريوس والفرس. وقد ورد فيها ذكر انطيوخوس، وبطلميوس (حاكم مصر) وأنتيغونس (×١) وماغاس القرني والاسكندر الذي يرجح أنه كان حاكما لبلاد ابيروس في ذلك الحين (Epirus) وقد تمكنت البعثات التبشيرية من القيام بأعمالها بسبب وجود هذه الطريق البرية عبر اسيا. وهذه الطريق اما أن تكون وسيلة لدخول بعض النفوذ الهندي، أو أن نفترض أن ذلك جاء عن طريق بلاد العرب.

كانت الطريق البرية عبر اسيا معروفة ومطروقة من قبل الجميع زمن الاخمينيين (×٢) والسلوقيين، ويفسر هذا كثرة المعلومات المعروفة عن الهند وعن التجارة المجلوبة منها، وقد تأثر التبادل التجاري وغيره بسبب ثورة بخارى سنة ٢٥٠ق.م وثورة فرتيا سنة ٢٤٨ق. م وقيام سلطة اسيوية جديدة شرقي دجلة، وذلك قبل وفاة «آسوكا» ببضع سنين. أما الطريق فقد بقيت مستعملة على الرغم من هذا كله، ولم يتغير عليها إلا الإشراف الذي أصبح للفرتيين.

هـ ـ البطالمة والبحر الأحمر:

عمل البطالمة في مصر على تقوية التجارة البحرية مع الهند، ودفعهم لذلك أن التجارة البرية كانت بيد منافسيهم الكبار حكام سوريا السلوقيين. وقد عمل بطلميوس فيلادلفوس (ح ٢٧٤ق.م) الكثير في هذا الميدان. فجدد طريق قفط (Coptos) ساحل البحر الأحمر. وأنشأ أو أعاد بناء ميناء القصير القديم وسمى موقعها الأخير «برينيكا»(★)

(×١) أنطيوخوس ـ حاكم سوريا، انتيغونس (غوناتاس والمقدوني. القرني نسبة إلى القرنة (Cyrene) في ليبيا الحالية وإليها ينسب الفلاسفة القرنائيون وهي بلاد برقة الحالية. ابيرو س الساحل الغربي لبلاد اليونان وهو اليوم القسم الجنوبي من ألبانيا الحالية.

(×٢) السلالة الفارسية الأولى أسرة كورش ٥٥٨ ـ ١٢٦ق.م.

(★) برينيكا: والدة بطلميوس الثاني فيلادلفيوس ـ الذي عمرها وربطها بمدينة قفط على النيل ـ القاموس الكلاسيكي. ـ ص: ١٠١.

وميناء ميوس هورموس إلى الشمال من برينيكا على نفس الساحل. وكان معظم الرجال يفضلون استعمال النيل ذهابا وإيابا ثم يستعملون الطريق الساحلية على أن يواجهوا أخطار البحر الأحمر. وهكذا أصبحت برينيكا مشهورة في المرحلة الأولى. ثم فتحت طريق جديدة فيما بعد توصل للساحل خلال سبعة أيام بدلا من أحد عشر يوما كانت تستغرقها الطريق إلى برينيكا وهذه الطريق هي الطريق إلى ميوس هورموس التي حلت بدورها محل برنيكا. ويقال أن بطلميوس فيلا دلفوس قد أعاد هذه الطريق حتى الساحل ابتداء من موقع قفط ليستعملها جيشه. وهيأ استراحات وبركا للماء على طول الطريق لخدمة المسافرين من المشاة أو راكبي الجمال[١]. وكانت التجارة التي ترد زمن سترابو من الهند والحبشة وبلاد العرب تتجمع في مدينة قفط «المعروفة للمصريين والعرب على السواء[٢]» ولم يقل اهتمام بطلميوس بأولئك الذين كانوا يفضلون استعمال البحر الأحمر، فنظف لهم القناة الملكية القديمة، التي تربط فرع النيل الشرقي بميناء أرسنوي (قرب السويس الحديثة) وجدد استعمالها(×١). وقد أنشأها أصلا الملك سيزوستريس (×٢) ولكنها هجرت فيما بعد فانطمرت(راجع ص٢٧)وبذل دراريوس بعض الجهد لتجديدها ولكنها اهملت ثانية وبقيت كذلك إلى أن أعادها البطالمة[٣]. وأسس بطلميوس فيلادلفوس إلى جانب هذا مستعمرات على الساحل الافريقي، وفي ديسكورن (سوقطره) التي بقيت تابعة لملك بلاد البخور[٤].

كانت تجارة أفريقيا الشرقية تأتي عن طريق الساحل لتفرغ في أحد الموانىء الثلاث: برنيكا، أو ميوس هورموس أو ارسينوى. أما تجارة بلاد العرب والهند فكانت تأتي الى(لويكا كوما» ×٣) Leuke Kome ـ الحورا ؟) ومنها إلى أحد هذه الموانيء الثلاث. وكانت تجارة بلاد الهند كلها بأيدي العرب. ولم يحاول البطالمة أن يتدخلوا في ذلك، بل كانت جهودهم موجهة نحو تحسين الملاحة في البحر الأحمر، وتسهيل عملية النقل من جنوب غربي بلاد العرب إلى مصر. وقد نسمع عن بعض المغامرين ومحبي الاستطلاع من اليونان الذين استعملوا طريق المحيط الهندي التي كانت معروفة للعالم الغربي في ذلك الوقت. ويشير سترابو إلى بعض الملاحين الذين كانوا يبحرون بين الفينة والأخرى من الموانيء المصرية إلى الهند[٥]. ولكنهم كانوا قانعين في معظم الأحوال بترك تجارة المحيط الهندي

(×١) الاتصال عبر البحيرات المرة

(×٢) من الاسرة الثانية عشرة حوالي ٢٠٠٠ ق. م.

(×٣) كانت في ملك الانباط في شمالي البحر الأحمر على الساحل الغربي لبلاد الحجاز.. وهي أم لج الحالية ميناء الحوراء القريبة جدا وميناء حجاج مصر للمدينة: الفيروز آبادي.

للعرب، أو التجار الهنود. ولا ننسى أن عرب الجنوب كانوا ولا يزالون جوابي بحار على النقيض تماما من أقربائهم الشماليين.

كان البحر الأحمر زمن البطالمة مسبورا جيدا ومعروفا للعالم اليوناني. وقد عرفنا أحسن الأخبار والمعلومات القديمة عن بلاد العرب الجنوبية من عالم النبات ثيوفراستوس (٢٨٧ق. م) وهو عالم ثقة، كان يدقق كل شيء بنفسه، وقد أعطى هذه المعلومات عرضا وهو يتحدث عن شجيرات البخور في بلاد العرب[٦]. أما ايراتوسثنيس (المتوفى سنة ١٩٦ق. م) فيقدم لنا وصفا مسهبا عن البحر الأحمر، ومعلومات لا بأس بها عن ممالك بلاد العرب الجنوبية. وكان قيما لمكتبة الاسكندرية وجامع معلومات لبق: فهو يصف بالدقة شكل بلاد العرب العام، ويعرف اتجاهات الطرق الداخلية التي تصل حضرموت بالقطيف على خليج العجم، وبتهامة على خليج العقبة: ويبدو أنه حصل على معلوماته عن الهند وبلاد الفرس من موظف سوري اسمه «بتروكليس» كان قد خدم في الشرق البعيد. ومن المؤسف أن أعمال بتروكليس المجيدة قد ضاعت ولم يبق منها إلا اقتباسات فوتيوس وسترابو[٧]. وقبيل نهاية القرن الثاني قبل الميلاد كتب عالم اللغة (أجاثار خيديس Agatharkhides) معلم بطلميوس (سوتر الثاني Soter II) وصفا للبحر الأحمر في خمسة كتب. اقتبس كل من فوتيوس، وديودوروس الصقلي الكثير مما جاء في الجزئين الأول والخامس[٨]. وجاء بعد هؤلاء أرتيميدوروس (حوالي ١٠٠ق.م) الذي كان رحالة وجغرافيا في نفس الوقت، فتمكن من تصحيح كثير من المعلومات التي جاء بها أراتوسثنيس. أما علماء فترة الامبراطورية الرومانية سترابو، وديودوروس الصقلي، وبليني (×١) فقد قدموا لنا معلومات كثيرة وجيدة نقلا عن أراتوشنيس وأجاثارخيديس، وارتيميدروس. والمعروف أن سترابو قد زار بلاد العرب مشاركا في الحملة التي قادها أيلوس جالوس وقام بتدوين ملاحظاته عما اختبره بنفسه، واعتمد في المعلومات الأخرى على ما اقتبسه من أراتوسثنيس، وأرتيميدوروس خصوصا ما يتعلق ببلاد العرب والهند معللا هذا الاعتماد بأنه لا يثق بالبحارة والتجار الذين زاروا تلك البلاد في زمنه لأنهم كانوا أميين وأعجز من أن يدونوا ملاحظات دقيقة أو يصفوا ما كانوا يشاهدونه وصفا جيدا. أما الكتاب الثاني عشر من عمله الجغرافي فليس مجرد تكرار لاراتوسثنيس كما كان يعتقد. أما ديودوروس الصقلي فقد عول على نفس المراجع، ولكنه يدعى أنه استقى معلوماته عن مصر من كتب الملوك المصريين[٩]. ولم يكن بليني أكثر من جامع معلومات لبق، ولكنه استأثر ببعض المعلومات التي لم يتعرض لها سترابو أو ديودوروس.

(×١) سترابوا ٦٤ق. م ـ ٢٣م أراتوسثنيس ١٩٦ق. م بليني الأكبر ٢٣ ـ ٧٩ميلادي.

وعلى كل حال فقد قدم لنا هؤلاء الكتاب كل ما كان معروفا لدى العالم اليوناني في عصر البطالمة من معلومات عن الهند، وبلاد العرب، وآسيا الوسطى. قد يبدو أن الحصول على هذه المعلومات مجزأة ميسور، إلا أن هؤلاء قدموا لنا خدمات تذكر فتشكر، إذ بدونهم كان يصعب تجميع الإشارات القديمة إلى ممالك بلاد العرب الجنوبية بعد فرز المعلومات التاريخية الصحيحة عما كان يرد في الأخبار العربية القديمة حول بلاد العرب في فترة ما قبل الإسلام.

و ـ البحر الأحمر تحت سيطرة الرومان:

توقف الأزدهار التجاري الذي رأيناه أيام البطالمة المتأخرين اللذين أصابهم التفسخ والضعف خصوصا تحت حكم كليوبترا الهزيل حيث أهملت الطرق وانطمرت القنوات وعاث القراصنة في سواحل بلاد العرب هم والمغررون الذين يغرقون السفن، والبرابرة(×١) وكان هؤلاء جميعا يسترقون الاغراب الناجين ممن تتحطم سفنهم. واستمر ذلك التدهور التجاري حتى سنة ٣٠ق. م حين أصبحت مصر ولاية رومانية تشرف عليها إدارة حازمة فاعلة. ومن الطريف أن نعرف ان «بنديون» ملك الهند أرسل سنة ٢٠ق. م سفارة إلى قيصر[١] استغرق الوفد المحمل بالهدايا للوصول أربع سنوات خلال الطريق البرية، مع أن السفر بالطريق البحرية لو تم لا يستغرق أكثر من سنة واحدة[٢].

كان معظم التعامل التجاري مع الهند وبلاد العرب زمن الاباطرة الأولين محصورا في الأصناف الفاخرة خصوصا البهارات والبخور من بلاد العرب، والفلفل واللالىء والزبرجد من جنوب الهند. وأصبح حرق كميات من البخور في جنازات الأثرياء ضمن الطقوس المألوفة[٣]. وكذلك شاع استعمال أدوات التجميل. ولم يرد ذكر الفلفل والزبرجد والزنجبيل قبل عصر بليني. ويبدو انها دخلت إلى الغرب بعد أن انتعشت التجارة البحرية في عهد اغسطس قيصر. وكانت هذه من أطايب الأشياء الثمينة إذ كان يباع الباوند (×٢) من الفلفل في روما بمبلغ ١٥ دينارا[٤]. ويدل على سعة هذه التجارة ما وجد من النقود الرومانية من عهدي أغسطس وطيباريوس في جنوب غربي الهند، والتي بلغت ٦١٢ قطعة ذهبية و١١٨٧ قطعة فضية.

(×١) البرابرة: اسم كان يطلقه الرومان بشكل خاص على كل شعب من غير الرومان ولا يعني المتوحشين بل الغرباء عنهم وعن اليونان.

(×٢) الباوند وزنة انجليزية = ٤٥٤غراما. والدينار آنذاك وصف لقطعة ذهبية أو فضية.

وقد نظفت القنوات المصرية زمن أغسطس وأصلحت الطرق وبذلت الجهود لانعاش التجارة في البحر الأحمر. ووضعت حاميات مسلحة على السفن التي تمخر ذلك البحر، واستمر ذلك فترة ما، إلى أن أصبح ذلك غير لازم كما يقول بليني[٥]. وقام تراجان (Trajan) فيما بعد بتنظيف قناة البحر الأحمر وحفر مجرى جديد، ووضع أسطول في البحر الأحمر. وكان كل ذلك جزءا من سياسة ذلك الامبراطور الجريئة التي كانت تتطلع إلى الامام[٦].

كان ضمن مشاريع اغسطس ارسال حملة لفرض النظام في بلاد العرب والضرب على أيدي القراصنة ومغرري السفن على طول الساحل خصوصاً القبائل سيئة السمعة القاطنة إلى الجنوب من (أم لج) (Leuke Kome)(١×)، وعهد إلى أيليوس جالوس والي مصر بقيادة هذه الحملة. وكان هناك دافع أخر ربما كان أهم من فرض الهيبة، وهو استنزاف كنوز بلاد العرب الجنوبية التي كانت تعتبر بلاد (الالدورادو)(٢×)[٧].

لقد أرخ لهذه الحملة الكاتب الشهير سترابو إلذي رافق هذه الحملة(•) واشترك فيها بنفسه وكتب عنها من معلوماته الأصلية وبالمشاهدة والمشاركة فهي قصة استكشاف بلاد العرب وتستحق فحصا مسهبا. يقول سترابو «حدثت حملة الرومان على بلاد العرب بقيادة أيليوس جالوس(٣×)» في زمننا ومنذ عهد قريب. وقد عرفتنا الكثير من خصائص تلك البلاد. فقد أرسله أغسطس قيصر ليكتشف الشعوب والأماكن وحدود الاثيوبيين وبلاد سكان الكهوف المجاورين لمصر، وكذلك الجزء المجاور للبحر الأحمر حيث يكون ضيقا، ويفصل العرب عن سكان الكهوف. وذلك لعقد محالفات معهم أو إخضاعهم، وكان المسموع عنهم أنهم أثرياء جدا، فهم يقايضون الأفاوية بالذهب والفضة والأحجار الكريمة، وانهم في غنى عن كل ما يستورد من الخارج. : فكان يأمل أن يجعل منهم أصدقاء أغنياء، أو إذا لم يتيسر ذلك، أن يتغلب على أعداء أغنياء جدا. وقد حملته محالفة الصداقة مع الأنباط إلى أن يحلق في جو من التمنيات الواسعة، وأملته بمساعدتهم له في كل

(١×) لويكاكوما ـ هي أم لج شمالي ينبع وبذلك تكون هذه القبائل من قبائل وسط الحجاز

(٢×) الألدورادو = بلاد الذهب والثروة، في الأساطير.

(٣×) اسمه اللاتيني (Aelius Gallus) ويلفظ مضعف (LL) بصوت الياء فهو غايس، مثل (Trojillo) تلفظ تروخيو.

• لم يشترك سترابو في هذه الحملة وإنما كان صديقاً للقائد غالوس ورافقه في رحلاته لاستكشاف الطريق البرية عن طريق النوبة والحبشة سنة ٢٥ق. م أي قبل سنة واحدة من الحملة على بلاد العرب الجنوبية.

ما يحتاج، واعتماداً عليهم سار جالوس بجيشه، إلا أن سيلايوس (Syllaeus) مندوب الانباط خدعه، فقد كان وعده بأن يدلهم على الطريق ويزودهم بالمؤن ويقدم لهم كل مساعدة ولكنه خانهم فلم يدلهم على معبر سهل ولا طريق جيدة، بل قادهم في طريق مهجورة ملتوية ينقصها كل شيء خلال الروابي والشعاب بين الصخور الخفية ومر بهم وسط شطوط يطغى عليها المد والجزر الذي كان يقاوم تحركهم بعنف، وأول خطأ قام به جالوس هو بناء سفن طويلة، فلم يكن هناك حرب أساطيل، ولم يكن أي شيء من هذا متوقعا فالعرب ليسوا أهل حرب في البر أو البحر وأحسن ما يصلحون له أن يكونوا باعة أو تجارا. فبنى ثمانين سفينة مزدوجة المجاذيف وكذلك ثلاثية المجاذيف وبعض الزوارق الصغيرة في ميناء كليوباتريس (Cleopatris) بالقرب من قناة النيل القديمة. ولما اكتشف خطأه جهز ماية وثلاثين سفينة تجارية وأقلع بها مع عشرة آلاف من المشاة الرومان المرابطين في مصر ومن جنود الحلفاء الذين كان من بينهم خمسون يهودياً وألف من الأنباط بقيادة سيلايوس. وقد أصابتهم خسائر كثيرة ومروا بكرب شديد قبل أن يصلوا ميناء «لويكا كوما» الهامة التي كانت من بلاد الأنباط. وقد فقدوا كثيراً من المراكب قضت عليها مصاعب اجتياز البحر الأحمر، ولم يكن ذلك من أية مقاومة كما كان يظن. وكان هذا بسبب حقد (١×) سيلايوس الذي أنكر وجود طريق برية تصلح لنقل الجنود إلى «لويكا كوما» علما بان تجار القوافل كانوا يسافرون براحة وأمان مع جمالهم ورجالهم العديدين من رابية إلى رابية، ولن يكون ذلك أصعب من تنقل الجيش[٨]. وساعد على حدوث هذا أن الملك «عبادة» (Obadas) كغيره من الملوك العرب، لم يكن يريد أن يشترك في أي مشروع خارجي خصوصا ما كان منها حربيا. فأسند كل ما يتعلق بالطريق إلى «سلي» الذي خانهم - في رأيي - (رأي سترابو) وكان يهدف إلى استكشاف البلاد بالسير مع الرومان إلى بعض المدن والقبائل، فإذا ما أهلك الجوع والمرض والتعب والمصائب الأخرى جيوش الرومان - وهو ما كان يتوقعه - فانه ينصب نفسه سيداً على تلك الأماكن والقبائل. ولما وصلوا إلى «لويكا كوما» كان مرض سقربوط اللثة والأرجل المنتشر في تلك البلاد قد أصابهم شر إصابة. فاضطر أن يقيم هناك بقية الصيف والخريف بعد أن تبين له أن وجود الماء والعشب هيأ بعض الاسعاف لمرضى الاسقربوط بنوعيه.*: «كانت البضائع تنقل من «لويكا كوما»

(١×) عبارات خدعهم: وخيانة وحقد المنسوبة إلى سيلايوس (سلّي) كلها بمفهوم سترابو أما من منظور محلي (عربي) فلم تكن إلا دهاء من الوزير النبطي ربما بمعرفة الملك عبادة ملك الانباط، حتى يتمكن سُلى من الاتصال ببقية البلاد العربية ليكسب ولاءها لمملكة الأنباط من جهة وليكرّه الرومان في العودة لبلاد العرب حتى لا ينافسوه فيها.

* ما بعده مباشرة من كلام المؤلف وليس سترابو.

(Leuke Kome) إلى بترا ومنها إلى العريش (Rhinoculora) الفنيقية على حدود مصر ومن هناك إلى الجهات المختلفة». أما الآن (زمن سترابو) فتنقل خلال النيل إلى الاسكندرية فتجلب البضائع العربية والهندية إلى ميوس هورموس حيث تنقل على ظهور الجمال إلى «قفط» بالقرب من طيبة ومن هناك إلى الاسكندرية عن طريق نهر النيل ا هـ. عاود جالوس سيره بجيشه على دفعات من لويكا كوما خلال مناطق كان يضطر فيها إلى حمل الماء على ظهور الجمال. وذلك بسبب خيانة الأدلاء. وبعد أيام كثيرة وصل منطقة «العارض»(× ١) (Arata) التي كان يحكمها أحد أقرباء عبادة، وقد قام بالواجب نحو غالوس وقدم له الهدايا. ولكن خيانة سلي، جعلت تلك البلاد صعبة أيضا. فتجول جالوس ثلاثين يوما في اجزاء غير مطروقة مع نقص التزويد في الشعير والتمر والسمن بدلا من الزيت، تلك كانت بلاد البدو التي لم تكن أكثر من صحراء وكانت تدعى «عربرين» (Arerene)(× ٢) وملكها يدعى سابوس (Sabus). ثم سار خمسين يوما أخرى في مفازات غير مطروقة حتى وصل مدينة أجراني (Agrani) حيث البلاد خصبة وهادئة فهرب ملكها ولم تصمد لغير الهجمة الأولى، وبعد ستة أيام وصل نهرا، حيث قابل البرابرة(× ٣) الذين احتشدوا للقتال، فقتل منهم يوم ذاك حوالي عشرة آلاف ولم يقتل سوى اثنين من الرومان. لأنهم لم يكونوا محاربين بطبعهم، وليسوا مهرة في استعمال سلاحهم المكون من السهام والرماح والسيوف والمقالع، ومعظمهم مسلح بالبلطات ذات الحدين، ثم احتل مدينة تدعى اسكا (Aska) كان قد تخلى عنها ملكها. ثم سار إلى مدينة تدعى «أثرلا» (Athrulla) فاحتلها عنوة ووضع فيها حامية. وبعد أن جمع كميات من القمح والتمر سار إلى مدينة مرسيابا (× ٤) من أملاك قبيلة الرحمانيين الذين كانوا تحت حكم إيل ازر. (Ilasarus) فحاصرها ستة أيام سلمت بعدها بسبب نقص الماء، وعلم من الاسرى أنه أصبح على مسافة يومين من بلاد البخور. وهكذا يكون قد قضى في رحلة الذهاب والوصول إلى هنا ستة أشهر بسبب أخطاء الأدلاء الذين اكتشف مكرهم متأخرا فرجع من طريق اخر فوصل أنا جنانا في تسع مراحل وهناك حصلت معركة. وبعد أحد عشر يوما وصل مكانا يدعى الاباز السبعة

(× ١) Arata يمكن أن تكون أي اسم عربي يمثل حارثة، عارض، وعارضة الخ...

(× ٢) وقد تكون «الرّين» من رين به أي وقع في ما لا يستطيع الخروج منه ولا طاقة له به. المنجد.

(× ٣) البرابرة ـ غير الرومان واليونان.

(× ٤) Aska نشق، Athrulla اثرولا=يثل: أما مرسيابا فلا يمكن أن تكون مارب لأن نقص الماء لا يتناسب مع موقعها بل ربما كانت موقع «العبر» على أبواب أرض البخور من الجهة الصحراوية، أما اليزاروس فلم يذكر سترابو أنه كان من ملوك «سبأ» بل مجرد زعيم في الرحمانيين اللذين لا يستبعد أن يكونوا من رعايا سبأ: Beeston الصفحة ٤٧

ومن هناك إلى شعله (chaalla) وأخرى تدعى مالوثا (Malotha) بالقرب من نهر. ثم خلال صحراء قليلة المياه إلى قرية نيرا (Nera) على البحر تخص الملك عبادة. وهكذا استغرقت العودة ستين يوما، مع أنه أضاع في الذهاب ستة أشهر. ومن هناك رجع بجيشه في أحد عشر يوما إلى ميوس هورموس ومنها إلى «قفط» ووصل الاسكندرية بثروة لا بأس بها. وقد فقد بعض رجاله في غير قتال وإنما بسبب المرض والجوع والتعب ومصاعب الطريق. ولم يفقد في القتال الفعلي سوى سبعة جنود. لهذه الأسباب لم تنجح الحملة كثيرا خصوصا بالنسبة للتعرف على المواقع وإن كانت أدت إلى بعض النتائج. ويقع اللوم كله على سلي الذي عوقب في روما بقطع رأسه، لأنه كان يدعي الصداقة، ثم ثبتت إدانته بالخيانة والاعمال الشريرة الأخرى».

يعزى هذا الفشل في رأي الرومان إلى خيانة الدليل النبطي. ولكن الحقيقة هي أن الجيش الروماني لم يكن مهيأ لحروب الصحراء ولم يكن قادته مدربين على ذلك. ولقد كانوا محظوظين كثيرا إذ وقفت خسائرهم عند هذا الحد.

لا جدال في أن نجرانا هي نجران، ولعل هجرا هي الحجر التي كانت مثل العلا مدينة على الحدود الجنوبية لمملكة الانباط ولعل مريابا التي ذكرها سترابو باسم مرسيابا هي مريبا التي لا تزال أثارها في بيجان القصب وهي ليست مأرب مدينة السد. (ورد ذلك في التوراة كذلك). بل مرياب التي لا تزال آثارها في بيجان القصب.

لقى الرومان في هذه الحملة صعوبات وأهوالا عظيمة جعلتهم لا يفكرون بغزو بلاد العرب ثانية[٩]. وكانت الحملة مخيبة للآمال فلم تفتح لهم بيوت ثروة كانت مغلقة. ولكن الحملة، على الاقل، ألقت الرهبة في قلوب العرب. فأثّر ذلك، مع الجهود الفعالة لحراسة البحر الأحمر، تأثيرا حسنا في انعاش التجارة حول بلاد العرب، وزادت كثيرا على ما كانت عليه زمن البطالمة.

ز ـ هبالوس Hippalus

لقد حصل أهم تطور تجاري سنة ٤٥ ميلادية أو حولها عندما اكتشف النوتي هيبالوس نظرية الرياح الموسمية، ووجد أن الرياح تهب مدة ستة أشهر متواصلة من الشرق الى الغرب وتهب مدة ستة أشهر أخرى في الإتجاه المعاكس[١]. فتطورت التجارة البحرية منذ ذلك الوقت بين مصر والهند وصارت قوية ومنتظمة. وأصبح العالم اليوناني الروماني على اتصال وثيق مع الهند، واستمر هذا الاتصال حتى ما يقرب من قرن قبل ظهور الاسلام. ولم يكن مجيء الإسلام سببا في قطع الأواصر بين الغرب والشرق، بل كان ذلك

عندما تدهورت الملاحة البيزنطية في البحر الأحمر خلال القرن السادس الميلادي. وبذلك رجعت تجارة الهند إلى أيدي الملاحين العرب. وقد أدى اكتشاف هبالوس إلى إشاعة استعمال الجميع لهذه الطرق مما ساعد على اعداد دليل بحري (راهنامج)(×١) (Periplus) للبحر الأحمر والمحيط الهندي، أصبح في متناول الجميع حوالي نهاية القرن الأول الميلادي وتجد في هذا الدليل أوسع المعلومات وأدقها عن سواحل البحر الأحمر وبلاد العرب الجنوبية وإن كان لا يعطينا معلومات كافية عن داخل تلك البلاد.

كانت الطريق البحرية في الأصل عبارة عن ممر بين رأس سيجروس (Syagrus) إلى باتالا (Patala) ولما قويت ثقة الملاحين بالرياح الموسمية صاروا يفضلون الذهاب إلى سيجيروس على ساحل بومبي، وأخيرا صارت أحب الطرق إليهم من كاني (Kane) أو رأس غاردافوي(×٢) إلى داميريكي (الملابار) أما الطريق العربية فكانت تبدأ من (العقيلة Okelis) بالقرب من عدن ثم تمر اما مرورا بسوقطرة إلى جنوب الهند أو تسير على محاذاة الساحل العربي إلى مخا ميناء بلاد البخور ومنها إلى المحيط إلى بتالا. يلاحظ أن الملاحين القدماء كانوا يفضلون الذهاب إلى أقصى شمال الهند. ولكنهم، وبعد أن أصبحوا يستفيدون فائدة كبرى من الرياح الموسمية، صاروا يقومون برحلات أسرع إلى أماكن أبعد في الجنوب. ولعل أول من ضرب الرقم القياسي في اجتياز المحيط هي سفينة الايرادات والضرائب بقيادة أنيوس بيوكاموس (Annius Peocamus) التي عبرت المحيط إلى سيلان في خمسة عشر يوما[٢].

كان بطلميوس ح: ١٤٠ ميلادية أول من استعمل كلمة داميريكي للدلالة على بلاد التاميل (Tamilikam) ويوجد في بطلميوس والدليل البحري أدلة على معرفة الأسواق والموانىء في بلاد باندیا (مادورا وتينفيلي) وبلاد خولا (Chola) (×٣)، وكيرابا (الملابار) وكانت بلاد التاميل هذه ذات أساطيل خرج منها ملاحون قديرون بواسل، ومن المحتمل

(×١) Periplus كلمة يونانية معناها الدوران البحري، وهي «راهنامج» أي كتاب الطريق (مأخوذة من الفارسية راه نامه) وهو الكتاب يسلك به الربابنة البحر ويهتدون به في معرفة المراسي وغيرها فهو دليل بحري ـ القاموس اليوناني الانجليزي، وقاموس المحيط للفيروز آبادي/ وسماه آخرون «كتاب الطواف» جورجي زيدان «العرب قبل الإسلام».

(×٢) غاردافوي في الصومال على ساحل المحيط الهندي، (Okelis) على ساحل اليمن الجنوبي جنوب مخا/ (Moscha) أو موسى أو موشج ومخا وموشج أو موسى مدينتان جنوب الحديدة في اليمن/ و(Damirike) (الملابار) على ساحل الهند الجنوبي الغربي.

(×٣) بلاد (Pandya) في جنوب شرقي الهند مقابل شمال سيلان. بلاد التاميل الحالية.

جدا أن للملاحين التاميل فضلا مساويا لفضل العرب في إنشاء الطريق القديمة الواقعة إلى الشرق من عمان.

استاء العرب جدا بسبب فتح طريق مباشرة من مصر. لأن ذلك كان يعني نزع زمام التجارة من أيديهم. وكذلك رأى الرومان، زمن تدوين الدليل البحري (الرهنامج) أن يقوموا بحملة تأديبية ضد بلاد (يوديمون **Eudaimon**) والتنكيل بها لأن أهلها حاولوا التعرض للسفن التجارية.[٣]

كان الذهب (**Aureus**) الروماني منتشرا في جنوب الهند، كذلك كانت النقود البرونزية التي دخل قسم منها بلاد الهند من الغرب وقسم آخر تم ضربه في مادورا[٤]. وفي هذه الجهات وجدت أواني برونزية من صنع روماني[٥]. وكانت توجد مستوطنات للرعايا الرومان في جنوب الهند منذ القرن الأول الميلادي. وقد وجد في أوراق بردى أوكسير هينكوس المجموعة ٣ : ١٩٠٣، رقم (٤١٣) قصة مضحكة يرجح أنها من القرن الأول أو الثاني الميلادي تصف مغامرة بعض الرواد اليونان الذين كانوا في قبضة ملك بربرى (×١). ولم يستطع اليونان فهم كلام أسرهم أو أتباعه. ويظن أن الكلمات التي وردت في النص (كنارية **Canarese**)[٦].

يتحسر بليني على الأموال الهائلة التي تحول سنويا إلى بلاد العرب تسديدا لما يستورد منها من منتوجها أو منتوج الهند والصين[٧]. وجاء في الدليل البحري أن كمية كبيرة من السبائك الذهبية والبرونزية كانت ترسل سنويا إلى سبأ[٨]. وقد وجد في جنوبي بلاد العرب أكثر من تمثال برونزي من الصناعة الهلينية أو الصناعة المنقولة عن نماذج يونانية. ومن بين الأشكال التي وجدت رأس وشق (×٢) (**Lynx**) صغير مفعم بالحيوية وهو يتهيأ للوثوب وحول عنقه إكليل من أوراق الكرمة واللبلاب. وتوجد هذه التحفة في المتحف البريطاني[٩] ويعثر على نقود يونانية من حين لآخر، في بلاد العرب، من بينها (دراخما أثينية مضروبة بكتابة حميرية. ونقود مصنوعة محليا منها ما عليه صورة بومة منقولة عن نماذج أثينية. وقد وجد كثيرا منها (أم دي، لونج بريير **M.de longperier**) ١٨٦٨ وكذلك من جاء بعده: وتعتبر النقود اليونانية من النقود المحلية[١٠]. كذلك وجدت رؤوس

(×١) أكرر أن كلمة بربري في لغة الأوربيين تعني الاجنبي وبشكل خاص من ليس يونانيا أو رومانيا قاموس (المورد).

(×٢) **Lynx**= الوشق: حيوان من فصيلة السنور أصغر قليلاً من النمر. وقد وجد في آثار مدينة عمران في اليمن. وهو بحجم الفهد تقريباً.

من المرمر بينها رأس يحمل ملامح افريقية. وهكذا يتضح لنا أن التأثير اليوناني وصل إلى بلاد العرب عن طريق التجارة وهذا دليل أن بلاد العرب كانت أقل عزلة مما صارت إليه زمن حكم الخلفاء (×١).

ح - الأنباط Nabataeans

كان السلوقيون في سوريا منافسين كبارا للبطالمة في مصر. وقد امتدت دولتهم في بادىء الأمر إلى البنجاب شرقا، ثم أخذت تتقلص سريعا لأنه لم يكن لدى السلوقيين متفرغ للولايات الشرقية بعد ان ركزوا أنظارهم على البطالمة في مصر. هذا من جهة ولأن عصر الاسكندر من جهة أخرى أعقبته صحوة قوية في الهند (ن: الفقرة د: من هذا الفصل) فاعلنت استقلالها سنة ٢٥٥ق. م كما أسس الارساكيون حوالي ٢٥٠ق.م مملكة مستقلة في فرتيا. وكانت ثورة بخارى (بكتريا Bactria) مثالا على ما يمكن أن يقوم به الوالي اليوناني الذي لم يعد يشعر بسلطة سيده في المركز، ويغتنم الفرصة ويؤسس لنفسه دولة مستقلة. أما ثورة الفرتيين فكانت حركة وطنية تمثل فارس القديمة ولكن بشكل متواضع. وخلال القرن الثاني ق. م فتح الفرتيون بلاد السوس. وتلا ذلك انضمام فارس وبابل إلى دولة الفرتيين بمحض اختيارهما:، وبهذا امتدت حدود فرتيا إلى نهر الفرات غربا. فاضطر السلوقيون إلى البقاء في الجانب الغربي لصحراء الشام حيث ثار اليهود زمن (انطيوخوس ابيفانيس) بقيادة المكابيين (×٢).

وهكذا صارت هذه المنطقة حاجزة بين فرتيا وسوريا ومعظمها صحراء يتخلل سطحها بعض الواحات وعدد من الطرق التجارية الهامة. وهنا أسس العرب أصحاب الطرق التجارية مملكة الأنباط وجعلوا بترا عاصمة لها. وقد ورد ذكر بلاد الأنباط في مدونات أشوربانيبال(×٣) على أنها تحالف عربي[١]. ولعل اسمها هو الوارد في التوراة (ن ب ي و ت) وقد استطاع المدعو ارتيموس (Erotimos) أن يوحد هذه المملكة العربيّة في القرن الثاني ق. م[٢] وقد حاول انتيغونس ملك سوريا اخضاعها وأرسل حملة بقيادة أثينايوس ولكنها باءت بالفشل واضطر الغازي إلى عقد الصلح[٣]

(×١) يعني بمعزولة أنها عازلة لأي شخص غير عربي أو غير مسلم وتمنعه أن يعيش فيها كما سيأتي في الفصول الاخيرة من هذا الكتاب.

(×٢) أنطيوخوس كان ينوي إلغاء الدين اليهودي وعبادة يهوه، وجعل اليهود يعبدون ألهة اليونان. ١٧٥-١٦٤ق.م.

(×٣) أشوربانيبال ٦٦٩ - ٦٢٦ ق.م.

وكانت وهي في أوج عظمتها تمتد من خليج العقبة إلى دمشق (×١). وقد قيض لبلاد الانباط بعد فتح الرومان لسوريا وضم فلسطين أن تبقى مدة من الزمن دولة حاجزة بين دولتي فرتيا والرومان. وربما أخطأ تراجان عندما قضى على هذه المملكة سنة ١٠٦م واستبدل بها ولاية رومانية دعيت «كورة العربية» ظنا منه أن بالامكان نقل حدود الامبراطورية إلى ما وراء الفرات. وشجعه على ذلك ضعف فرتيا في تلك الآونة[٤]. وقد وصلت حدود روما في عهد تراجان إلى أبعد توغل نحو الشرق، ولكن الخسارة في المال والرجال كانت كبيرة جدا. ولما جاء هدريان سنة ١١٧م تخلت روما عن ولايات أرمينيا، وبلاد ما بين النهرين، وآشور بسبب ضغط الرأي العام الذي شعر بفداحة ثمن انتصارات تراجان التي كان يمجدها في الوقت نفسه. كذلك كان الارساكيون ملوك فرتيا يشعرون بثقل الحمل الذي القته عليهم الحروب مع روما. ويحسون بالعناء المضني الذي أدى في النهاية إلى انتكاسهم(×٢). وأخذت قوات الدولتين المتحضرتين بالتراجع على جانبي الصحراء الشمالية، وأخذت المنطقة الحاجزة بينهما تعود إلى حياة التخلف والبداوة. وقد قضى على فرصة قيام دولة متحضرة للعرب الشماليين بعد أن زالت دولة الأنباط وعادت الحياة البدوية القديمة إلى سابق عهدها في تلك المنطقة المتنازع عليها من قبل روما وفرتيا.

(×١) هذا يناقض ما ذكره في الفصل هـ من الباب السابق حين جعل حدود دولة الأنباط الجنوبية بعد (أم لج) مقابل يثرب وحتى بئر نبط شمال ينبع.

(×٢) دولة فرتيا الفارسية حكمت ٣٥٣ سنة من ١٢٦ ق. م إلى ٢٢٧ بعد الميلاد ثم جاء الساسانيون الذين حكموا حتى معركة القادسية في حزيران ٦٣٦م. د. أحمد سوسة «العرب واليهود في التاريخ». أو حتى يزدجرد الثاني في عهد عثمان (رضي) سنة ٣٢هـ (التنبيه والأشراف ـ المسعودي ص: ٩٠).

ملاحظات الفصل الرابع

أ ـ الطريق البحرية

١ ـ سترابو ١٦:٥٣.
٢ ـ قابل: آر. آي. س مكاليستر «الفلسطينيون» ١٩١٣. ماكس مولر آسيا واوروبا (خصوصا الفصول ٢٦ ـ ٢٩ ص٣٦٢ السلاح الغربي النوع وما بعدها).
٣ ـ رولنسون ١:٢، ٣٥ وفي أماكن أخرى.
٤ ـ لجرانج: دراسات في الديانات السامية طبعة ثانية فصل١، «والساميون» ٤١ ـ ٦٩.
٥ ـ يوسيفوس ١:١٤ ـ ١٥ وكوري «المرقعات القديمة» ط جديدة (١٨٧٦) ١٢٦.
٦ ـ التقرير الدوري لصندوق التنقيب الفلسطيني ١٩٠٤ ـ ١١٥، ١٩٠٥ ـ ٢٨.
٧ ـ بابيرو جاتاكا ـ ترجمة كو ويل وراوبي كمبردج ١٩٠٧ ـ ٣:٨٣. بخصوص الطواويس. را: الملاحظات الإضافية في نهاية الفصل الثالث.

ب ـ الطريق البرية إلى الهند

١ ـ تاريخ كمبردج ـ الهند. مجلد ١ فصل ٢٠ راجع ما ير في كوهين في الجريدة ٤٢، ومجلة الجمعية الآسيوية الملكية (١٩٠٩) ـ ١٠٩٤ ـ ١١١٩.
٢ ـ كومراسوا مي اقتباس رولنسون «الاتصالات القديمة» ٨ ـ ٩، وملاحظة ١ ص٩.
٣ ـ نقش بيهستون العمود الأول مقطع ٦ في ل. و. كنج، ر.سي تومبسون: النحت والنقوش الخاصة بداريوس الكبير على صخرة بيهستون. لندن ١٩٠٧.
٤ ـ هيرودوتس ٧:٦٨.
٥ ـ هير ٣:١٠٦.
٦ ـ رابسون: «الوافي في فقه اللغة الهندية والعربية لوحة ١: ٥، ١:٦.٧.

ج ـ الأسكندر:

١ ـ آريان: «الأناباسيس» ٦:١٩ ـ ٢٠، إنديكا ١٨ ـ ٤٣.
٢ ـ آريان: إنديكا ٢٧.

د ـ تقسيم امبراطورية الأسكندر.

١ ـ نقل كليمنت الأسكندري «ستروم» ١، ١٥.
٢ ـ بخصوص «آسوكا» انظر ف. و. توماس فصل ٢٠ مجلد تاريخ كمبردج ـ الهند ـ

- أي سميث «أسوكا» ط٣ أوكسفورد ١٩٢٠

هـ - البطالمة والبحر الأحمر:

١ - بليني (التاريخ الطبيعي) ١٠٤:٦ وهيأ استراحات وبركا للماء ليستعملها المشاة أو راكبوا الجمال إلى قفط.

٢ - سترابو ٤٤,١,١٧ وكانت قفط مركز تجمع تجاري للعرب والجيش اليوناني ومعروفة للجميع.

٣ - سترابو ٢٥,١,١٧: «يوجد قناة» أخرى تدخل البحر الأحمر والخليج العربي، عند مدينة ارسينوي التي يسميها البعض كليوباتريس وتمر من البحيرات التي يدعونها المرة. وقد كانت مرة في القديم، ولكن بعد فتح القناة واختلاط مياه النهر بها تغيرت وأصبح فيها الآن سمك جيد والكثير من الطيور المائية السابحة. وقد تم حفر القناة أولا زمن سيزوستريس قبل حرب طروادة والبعض يظن أن الذي بدأها هو «بساميتيكوس الذي هاجمه الموت عند ذاك. وكان أول من تابع عملية الحفر بعد ذلك هو داريوس الذي تحول عن ذلك عندما أقنع خطأ بأن البحر الأحمر على مستوى أعلى من مصر، وأنه إذا حفرت الأرض الفاصلة فإن مصر قد تتعرض لفيضان البحر عليها. أما البطالمة فقد حفروا خلالها وأغلقوا «يوريوس» ببوابة متحركة بحيث يتمكنون من الإبحار متى شاءوا والعودة ثانية.

٤ - كتاب الطواف ٣١. والملك غالبا سبئي أو حميري.

٥ - سترابو ٤,١,١٥ قليل من التجار الذين يسافرون من مصر عن طريق النيل والخليج العربي يصلون نهر الكنج وهم: أشخاص أميون.

٦ - تيوفراستوس: «تاريخ النبات» ٩ :٤.

٧ - اراتوسثنيس: «الجغرافيا» أجزاء في فوتيوس «المخطوطة» ٢١٣ طبعة بيكر برلين (مجلدات) ١٨٢٤ - ٢٥.

٨ - أجاثار خيديس: راجع بيكر - أعلاه - وكذلك سي. مولر «جغرافية اليونان الصغرى» باريس. ١٨٨٢ - الأول ١١١ - ١٩٥.

٩ - ديودورس الصقلي: ٤٦,٣٨,٣.

و - البحر الأحمر تحت الحكم الروماني:

١ - سترابو ١,٧٣,٤,١٥ ميريفيل «الرومان زمن الامبراطورية» ٤ :١٧٥,١١٨.

٢ - رولنسون «الإتصالات القديمة» ص: ١٠٨ - ١٠٩.

٣ ـ بليني ـ ت. ط. ١٨,١٢ ـ ٤١، جف ١٠٩,٤، ستات.سيلف. ٢٠٨,٥.
٤ ـ بليني ـ ت. ط. ١٤,١٢.
٥ ـ بليني ـ ت. ط ١٠١,٦.
٦ ـ بطلميوس ٥,٤، يوتروبيوس ٣,٨.
٧ ـ بليني: ت. ط. ٢٨,٦ ليس بين شخصيات العرب من هو قليل را: «قصائد» هوراس ٢٧,١، ١٢,٢، ٢٤,٣، الرسائل: ٧,٦,١، سترابو ١٩,٤,١٦ الذي سمع أنهم كانوا لفترة طويلة من الأغنياء عن طريق مبادلتهم الذهب والفضة والحجارة الكريمة بالافاوية التي ينتجونها» ويبدو ذلك أمراً مقنعاً. آخذين بالاعتبار أن معلومات سترابو عن الحملة من الدرجة الأولى.
٨ ـ بليني ـ ت. ط. ١٦٠,٦ ـ ١٦١ قال غايوس الجيش الروماني يقف على أرض صلبة.
٩ ـ سترابو ٢٢,٤,١٦ (را: ٤٦,١,١٧) ولم يعد الرومان، بعد هذه المصاعب، يفكرون في معاودة غزو بلاد العرب.

ز ـ هيبالوس:

١ ـ بليني: ت. ط. ١٠٠,٦ ـ ١٠١، الطواف ٥٧.
٢ ـ بليني: ت. ط. ٢٢,٦.
٣ ـ الطواف ٢٦.
٤ ـ سيويل: «نقود رومانية وجدت في الهند» مجلة الجمعية الآسيوية الملكية (١٩٠٣) ٥٩١.
٥ ـ الطواف: ٥٦. الآثار الهندسية (١٩٠٥) ٢٢٩.
٦ ـ را: د. هولتش مجلة الجمعية الآسيوية الملكية (١٩٠٤), ٣٠٩ الخ. ل. ر. بارينت في مجلة الآثار المصرية ١٩٢٦ ـ ١٣ ـ ١٥ حيث يدل على نقاط ضعيفة في الرأي.
٧ ـ بليني ت. ط. ٣٤,١٢ لماذا تدفع الملايين والأموال التي لا تعد من الفضة مقابل أخذ منتوجات معين.
٨ ـ الطواف: ٢٤.
٩ ـ غرفة ٢ رقم ٣٨٣١١ لوحة نحاسية عليها الجزء الأمامي لحيوان الوشق. مقدم من كابتن و. ف بريدو (عدن) من حفريات «عمران».
١٠ـ هيل: كتالوج العملة المعدنية اليونانية في بلاد العرب «الخ» ١٩٢٢.

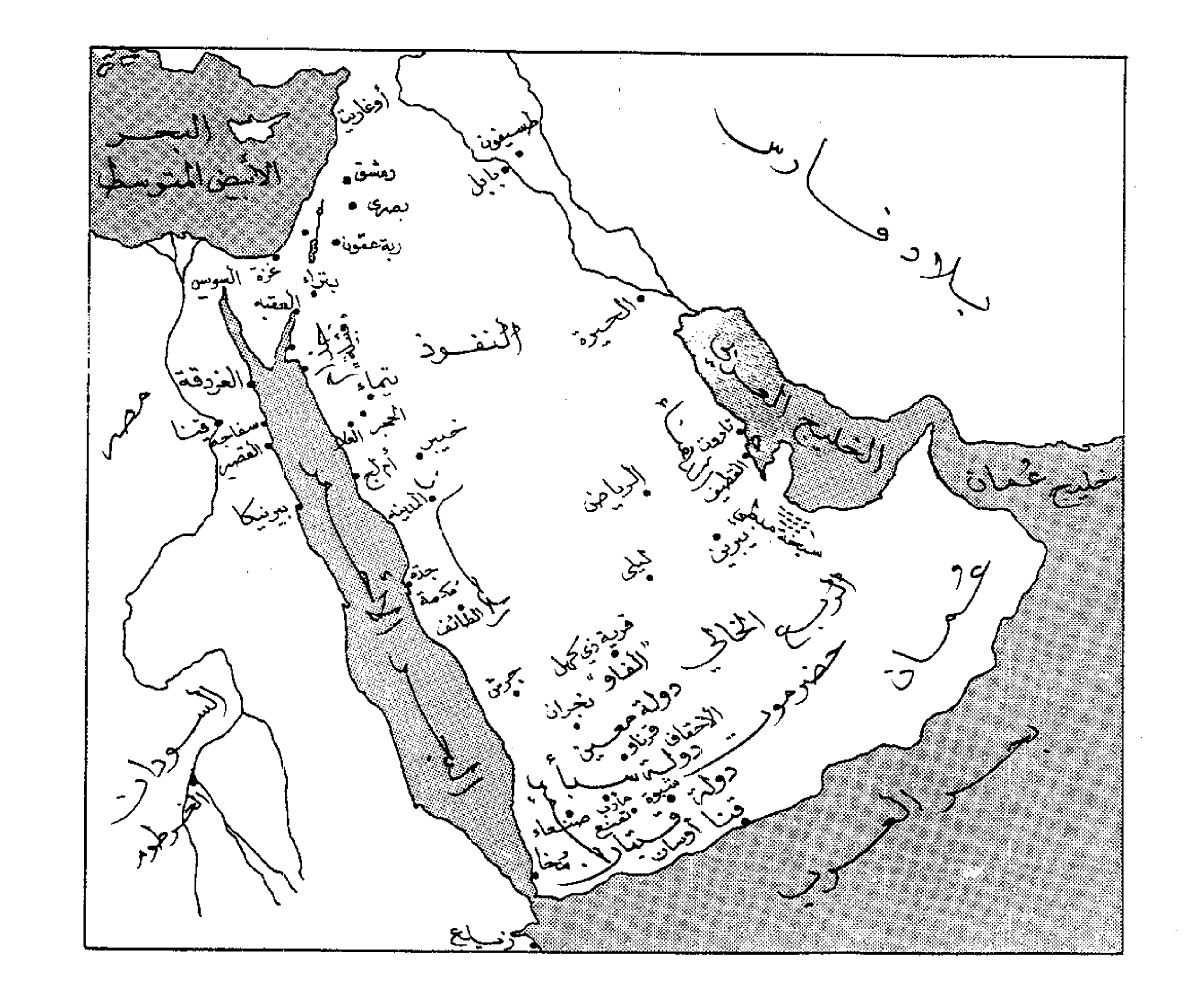
ح ـ الأنباط

١ ـ نا ـ با ـ اي ـ تي (ك . ب) ٢ :٢٢,٢١٦.

٢ ـ يوسيفوس : الآثار القديمة ٥,٣,١٣، ٢,١,١٥.

٣ ـ ديودوروس الصقلي: ٩٤,١٩ ـ ١٠٠.

٤ ـ ديوكاس. ١٤,٦٨، أمانوس ماركيلونوس ٨,١٤ وسعت من قبل سبتيموس سيفيروس في ١٩٥. ديو كاس: ٢,١,٧٥، يوتروب: ١٨,٨.



البحر الأبيض المتوسط
أوغاريت
دمشق
بصرى
ربة عمون
طيسفون
بابل
بلاد فارس
غزة
السويس
بتراء
العقبة
النفود
الحيرة
العزرقة
مصر
تيماء
الحجر
العلا
خيبر
أم الرج
المدينة
قفط
القصير
برنيكا
الرياض
الخليج العربي
خليج عمان
تاروت
القطيف
سبخة
يبرين
ليلى
جدة
مكة
الطائف
عمان
الربع الخالي
قرية ذي كهل
الفاو
جرش
نجران
دولة معين
قرناو
الاحقاف
حضرموت
دولة سبأ
دولة
مأرب
شبوة
تمنع
صنعاء
مخا
قنا
أوسان
السودان
الخرطوم
زيلع

الفصل الخامس

- الممالك العربية الجنوبية -

أ - سبأ :

يعتبر ما أورده الجغرافي اليوناني أراتوسثنيس عن الممالك العربية الجنوبية أقدم نص في هذا الباب، وعنه اقتبس سترابو، وقد أيد هذه المعلومات ثيوفراستوس Theophrastus) تلميذ ارسطو طاليس وصديقه عالم النبات حين أشار عرضا إلى هذه الممالك الأربع وهو يتحدث عن المنتوجات النباتية في بلاد العرب الجنوبية. كذلك قال أراتوسثنيس «هناك أربع ممالك في بلاد العرب الجنوبية هي: مملكة المعينيين الذين يقطنون بالقرب من البحر الأحمر، وسبأ وقتبان الذين يحتلون المنطقة المجاورة للمضائق ومدخل خليج العرب وحضرموت وبلادهم في الشرق[1]. في حين يذكر ثيوفراستوس الثلاثة الأخيرة بنفس اللفظ بينما يذكر معين باسم مامالي أو معالي[2]. وأشهر هذه الممالك الأربع هي سبأ خصوصا شهرة الإسم، إذ ان كلمة سبأيين كانت تطلق على كل التجار العرب ووردت بهذه الدلالة في العهدالقديم في اسفار «أيوب إصحاح ١ اية ١٥ وإصحاح ١٦، ١٩، وأرميا إصحاح ٦ اية ٢ الخ). أما سترابو فقد أورد الأسماء الثلاثة الأولى حسب مواقعها من الشمال إلى الجنوب فأورد القتبانيين اخرا لأنهم في الزاوية الجنوبية الغربية، لذلك فإنه يمكن اعتبار «سبأ» في الوسط بين قتبان ومعين. وقد يفهم من بليني (التاريخ الطبيعي ٣٢,٦) أن السبأيين يمتدون من الشاطىء الواحد إلى الشاطىء الاخر أي أن بلادهم تضم قسما من ساحل البحر الأحمر وقسما من الساحل الجنوبي يمتد حول الحد الداخلي لبلاد قتبان جميعه. ولكن عبارة بليني الحقيقية تقول أن هذه الشعوب (Thoani) = الدوعنيين ــــ (Actaei) = (ربما القعيطي). والثونابيين أو ذوناب (Thonabi) والانتيداليين (Antidalei)، والحضارمة، واللحيانيين (Lexianae) والنجرانيين (Agranei) والكربيين (Carbani) والسبأيين والقبائل الواقعة حولهم. تمتد من بحر إلى اخر، والأرجح أن تكون هذه الشعوب التي عددها منتشرة في بلاد العرب من خليج فارس شرقا إلى البحر الأحمر غربا(×١).

(×١) هذا تفسير- من بحر إلى اخر- على أن الممالك الأربع هي حول الزاوية الجنوبية الغربية الموسعة. أي من حدود عسير على البحر الأحمر حتى ظفار على المحيط الهندي (الأسماء معروفة وفيها ذو أكثر من مرة وهي جمهوريتا اليمن الحديثتان.

وردت أقدم إشارة لا يتطرق إليها الشك إلى سبأ في حوليات تغلات بلاسر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ق. م) والاشارة الثانية في حوليات ـ سرجون (حوالي ٧١٥ق. م) حيث يرد اسم (يثمر It'iamar)(١×) السبأى بين الذين قدموا الجزية ذهبا وبخورا[٤] وأقدم من هذا بكثير نقش أرض النهر (Ardannar) السومري الذي كان أمير أمراء (Patesi) لاجاش حوالي سنة ٢٥٠٠ق. م وفيه يدعى أرض النهر (Ardanna(r)) أنه حاكم سا ـ بو ـ وُم وبلاد جو ـ تي ـ بو ـ وُم[٥]. وربما أشارت الأولى الى سبأ(٢×). فإن صح هذا فإن المعلومات التي لدينا ترجع إلى الوراء حتى الألف الثالث قبل الميلاد. أما في النقوش الأكدية المتأخرة فكثيرا ما تشير كلمة سباباءا، وساباؤم إلى سبأ[٦] لدى العرب[٧] تقابل (س) العربية أو الحبشية «ش S» أو «ش Sh» في العبرية أو الارامية أو الأكدية، ولم يكن سبب هذا عجز العربية عن لفظ «ش» إذ أن «S» في العبرية والارامية تماثل «ش Sh» العربية أو الحبشية أو الأكدية. ويبدو أن تغير الشين S إلى (ش Sh) أو تغير (ش Sh) إلى (س S) جاء متأخرا نسبيا، على افتراض أن (س، ش وش S - S - Sh) العبرية أو الآرامية تمثل الأصوات الاصلية كيفما كانت الحالة (٨)، نجد في بعض الأحيان أمثلة على عدم حدوث هذا التغير الصوتي العادي. وتوضيحا لمثل هذه التناقضات، دون شك، نقول إن التغير حدث في فترة معينة وليس في فترة أخرى. وعليه فإن كلمة «سبأ» طبقا للعلاقات الصوتية العادية، يجب أن تكون «شبا» بالعبرية، وأن يقابلها «سبأ Sa Ba» في النسخة السبعينية «Lxx» ولكن النص: «الماسوريتي Masoretic» الذي يرى لفظا متأخرا* يظهرها بلفظ «شيبا Sh'eba» (سفر التكوين إصحاح ١٠ آية ٢٨، وسفر الملوك إصحاح ١٠ آية ١ الخ) وفي الاكدية هي «ساباء» وليس شاباء كما قد يتوقع. ولكن هناك «سيبا S'ba» أيضا تتحول إلى سبأ ـ SaBa في النسخة السبعينية التي تعجز عن التمييز بين (س، ش sh) (سفر التكوين إصحاح ١٠ آية ٧ وسفر أيوب إصحاح أول آية ١٥، والمزامير ٧٢، ١٠) وفي المقطع الغامض من .EZEK إصحاح ٢٣ آية ٤٢، حيث يقرأ الكثري K'ri (مكائيم) «أي أهل سبأ من البرية».

وفسر يوسيفوس كلمة سبأ بأنها الاسم القديم لجزيرة مروى (Meroe) ومدينة مروى في بلاد النوبة(٣×)[٩]. ويعني ذلك، أنه كان هناك موقعان يحملان اسم سبأ أحدهما في بلاد العرب

(١×) (يثمروتر) اسم أحد ملوك سبأ الذين قدموا الجزية للآشوريين: د. أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ ـ الفصل الثاني.

(٢×) والثانية ربما تشير إلى قتبان، وهذا يدل على أن في نقش «أرض النهر» إشارة قديمة إلى «سبأ».

(٣×) مدينة مروى على النيل جنوبي الشلال الرابع في السودان.

* الماسوريتي (نسبة إلى جماعة قاموا بتعديلات في كتاب التوراة ـ وإصلاحه قبل القرن العاشر باسم الماسوراه.

والاخر على نهر النيل في بلاد النوبة، وكان الثاني مستعمرة لسبأ العربية كما أشار إلى ذلك لودلف منذ زمن بعيد[١٠]. ويميز بينهما في العبرية والآرامية أن المدينة العربية هي «شبأ» وان الأفريقية هي «سبأ». ويوضح المؤلف ذلك الإزدواج في الاسم والاختلاف في المكان من مزامير التوراة رقم (٧١: ١٠) «وسيقوم ملوك شبأ وسبأ بتقديم الهدايا له»، وربطها مع الحبشة في الأسفار التوراتية (أشعيا والنسخة السبعينية) سترابو نقلا عن أرتيميدوروس، يصف أفريقيا الشرقية التي تضم سبأ وبيرينيكا(×١) السبئية المجاورة لمناطق اصطياد الفيلة التي تدل بوضوح على أن الموقع في أفريقيا وليس في بلاد العرب كذلك يذكر بطلميوس (٨,٧,٤) أن شبات تقع على الجانب الغربي للبحر الأحمر. **وقد تتشابه الأسماء وتختلف المواقع والصفات** مثلا لا توجد علاقة بين هاتين المدينتين وبين نهر سابيس (Sabis) الذي يقول عنه: «بومبونيوس ميلا» أنه في كرمانيا على الجانب الشرقي من خليج فارس (ميلاخ ١٨,٣) أو جبال (Sabo) سابو على مدخل خليج فارس كما ذكرها بطلميوس (٢٣,٧,٦)، والتي يصفها الدليل البحري اعتمادا على أريان (Arrian)(×٢).

يوجد مصدر أخر للمعلومات و النقوش التي اكتشفت في بلاد سبأ ومنها ما لا يقل عن ٦٨٦ نقشا من اكتشاف هاليفي. واكتشف جلاسر (Glaser) ومن جاءوا بعد هاليفي أكثر بكثيرمن هذه النقوش. ولا تزال كمية كبيرة من مادة جلاسر غير منشورة (محفوظة لدى (ن. رودوكاناكيس RHODOKANAKIS). وربما شوهت قيمتها بعض التناقضات التي أثارتها بعض النظريات التي قدمها (جلاسر) ـ انظر «معين» أدناه، ولكن المادة نفسها هامة لدرجة اعتبارها القاعدة الأصلية والمحك الفعلي لكل ما نعرفه عن بلاد العرب القديمة. يشير الجزء الرابع من (C.I.S)(×٣) طبعة باريس إلى مجموعة من هذه النقوش. وقد نشر المجلد الأول في اربعة أجزاء والثاني نشر من فصلين والثالث سيحوي النقوش المعينية والقتبانية. وقام (و. تي. بلتر W.T.Pilter) بعمل فهرس أنيق سهل الاستعمال لاسماء الأعلام الواردة في الفصلات الخمسة الأولى. لهذه المجموعة التي بدأ طبعها (١٨٨٩ـ١٩١٤). أما النقوش نفسها فتقدم لنا معرفة لا بأس بها عن اللغة السبئية والآلهة

(×١) بيرينيكا: ميناء مصري جنوب القصير/ على البحر الأحمر. راجع الفصل الرابع فقرة هـ، سماها بطلميوس الثاني فيلادلفوس باسم والدته. ومعناها ـ جلبة النصر ـ.

(×٢) أريان جاء في المنجد: أريانوس فلافيوس مؤرخ وفيلسوف (القرن الثاني ميلادي) وصف رحلة الاسكندر في كتابه (الاناباز). وهذا الرأي في تشابه الأسماء واختلاف المواقع والصفات ينسحب حتماً على تفسيرات المؤرخين الخطأ على اسم مجان ومعان الواردة في نهاية الفقرة ب في هذا الفصل.

(×٣) C.I.S هي اسم المرجع الذي يحوي تفاصيل النقوش وهو ـ Corpus Inscriptionum Semiticarum أي مجموعة النقوش السامية.

التي كان يعبدها السبأيون، وتعطينا أدلة عامة عن حضارة راقية نسبيا، وكذلك على تفاصيل تاريخية وجغرافية كثيرة، على الرغم من ان مجال العمل في ذلك الحقل ما يزال واسعا. أما اللغة فتقترب كثيرا من الحبشية، وتشبه في كثير من الحالات اللغة الاكدية. وأحسن مكان لدراستها هو ما كتبه ف. هوميل (F. Hommel) في كتابه «منشورات من بلاد العرب الجنوبية»(×١) (طبعة ميونيخ ١٨٩٣). وهذه النقوش مكتوبة بحروف مأخوذة عن الخط الفنيقي الذي يعتقد أن شكله لم يستقر إلا حوالي ١٠٠٠ ق.م لذلك يستحسن ان نرجح أن تاريخ أقدم النقوش السبئية يرجع إلى حوالي ٧٠٠ق. م وذلك يعني أن استعمال الحروف الفنيقية في بلاد العرب بدأ حوالي الوقت الذي حصل فيه الفتح (الغزو) الآشوري، وإن جاز هذا ـ كما يرجح ـ فإن تلك الفتوحات تكون قد سببت دحر بعض القبائل العربية إلى الوراء، بل ربما دفعت بعضها إلى بلاد العرب الجنوبية، وعليه يحتمل أن يكون التوسع الاشوري هو الذي سبب انتشار الحضارة جنوبا في بلاد العرب.

هناك دليل آخر على الحضارة السبئية قائم في بقايا الأعمال الهندسية التي أهمها السد (العرم) القريب من مأرب والمشهور كثيرا في الأخبار العربية. وورد في القران (الكريم) (سورة سبأ آية ١٥). وتقوم بقاياه الحقيقية على بعد بضعة اميال إلى الجنوب من مأرب، وقد زارها (أرنود Arnaud) ووصفها[١٢]. وقد نسبت هذه الأعمال الهندسية إلى تأثير المصريين والبابليين، لأن الحقيقة تثبت أن هناك طرازا قريبا من الانشاءات التي كان يقوم بها أصحاب حضارة الأنهار بغية السيطرة العلمية على المياه التي تجلبها الفيضانات الدورية المنتظمة. وقد تهدم السد بفعل الفيضانات بين «٤٤٧ ـ ٤٥٠م» وأصلحه جزئيا القائد الحبشي أبرهة (في أوائل القرن السادس) (×٢) وسجل عمله في نقش على السد نفسه ولكنه تهدم ثانية في زمن متأخر. وهذا الخراب ثابت تاريخيا على الرغم من الغموض الذي تضفيه عليه الأخبار والاساطير. يشير القرآن (الكريم) إلى أهل سبأ ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم﴾ موضحا أن هذه الكارثة كانت عقابا لأهل سبأ. وقد أعمل المفسرون أذهانهم في تعليل كيفية حدوث ذلك الخراب. ومعرفة ماهية الذنوب التي اقترفوها حتى استحقوا من أجلها هذا العقاب. يقول البيضاوي «العرم يعني مطرا مهلكا شديدا» أو «الجرذ» أو «العرم» جمع عرمة ومعناها «الحجارة المكومة». (أي السد). وبناء

(×١) Sud Arabisch Chrestomathie أي النثر الأدبي في بلاد العرب الجنوبية.

(×٢) اشارة إلى أن أهل سبأ قديمون جداً في حضارتهم (الألف الثالث ق. م) وأن السد المشار إليه هو حديث ولا شك بالنسبة لأسلافه من السدود التي كانت تدمر ثم تعمر أو تجدد (سورة سبأ ٣٤ آية ١٥)

على ما ذكر اصبح هناك اعتقاد بأن الفيضان حدث نتيجة أمطار غزيرة شديدة، أو أن الجرذ نفذ خلال السد وسبب تلك النهاية المحزنة، ولا تتعدى هذه كونها تخمينات مبنية على المعاني المجازية الأخرى للكلمة التي تدل على الأرجح على السد، والتي تقرب كثيرا من عرم العبرية التي تعني تراكم (الماء) كما ورد في سفر الخروج (أصحاح ١٥ آية ٨). أما الذنوب التي استحقوا من أجلها هذا العذاب. فيورد المسعودي في مروج الذهب (الجزء الثالث طبعة باريس ص٣٦٥ ـ ٣٧٠) بعض الاساطير الغريبة. ومن الواضح أنه لم يكن لدى المصنفين العرب مصادر غير التي بين أيدينا الآن: فكان لديهم نص القرآن (الكريم) الذي بين أيدينا وكل ما كانوا يعملونه هو تخمين التفسيرات لأنه لم يكن هناك أخبار حقيقية عن بلاد العرب في الجاهلية زمن هؤلاء المؤرخين أو أن ما وجد من هذه الأخبار جرى عليه التنقيح والتهذيب بحيث يتفق ونص القرآن (الكريم) [١٤] .

يقول سترابو اعتمادا على أراتوستنيس أن عاصمة السبئيين تدعى مريابا (Mariaba) ويقتبس وصفا من أرتيميدوروس جاء فيه ـ تقوم مريابا مدينة السبئيين على جبل مملوء بالأشجار... ويقوم بعض الأهالي بزراعة الحقول ويتجر البعض الآخر في البهارات سواء ما ينتج منها محليا أو ما يستورد من أثيوبيا عن طريق عبور المضائق بحرا في قوارب مصنوعة من لحاء الشجر. (سترابو ١٦ـ٤ـ١٩). أما ديودوروس الصقلي نقلا عن أجاثارخيديس فانه يصف سباي (Sabai) بأنها واقعة على تل مرتفع مغطى بالأشجار على مسيرة يومين من بلاد البخور. ويبدو أن الجغرافيين اليونانيين لم يكونوا في كثير من الأحوال، متأكدين فيما إذا كان المكان الموصوف مدينة أو قطرا. وذلك بسبب اضطرارهم للاعتماد على الرواية والسماع بالنسبة لأسماء المواقع في بلاد العرب الجنوبية، والظاهر أن سترابو كان يميل إلى اعتبار كلمة مريابا علما لكل عاصمة رئيسية، وتلك نظرية لم تعززها النقوش، فيدعو ديودوروس المدينة سباي بينما يدعوها سترابو «مريابا»: ويقول أبو الفداء(×١) أن المدينة كانت تدعى مأرب أو سبأ. وكان بعض الناس يظنون أن مأرب علم على المقر الملكي وأن سبأ هي المدينة كلها[١٥]. ويصف بطلميوس أن سبأ مدينة داخلية في بلاد السبئيين، ويؤيد

(×١) تقويم البلدان ص٨١ و٩٦ و٩٧ـ يقول أبو الفداء «والسيل للسد الذي في ديار سبأ». ثم يقول «وبين مأرب وسبأ ثلاث مراحل... وكانت قاعدة تابعة اليمن وبها كان السد وتسمى مدينة سبأ. قال في المشترك... وسبأ هي مدينة مأرب باليمن سميت باسم بانيها سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان: المشترك وضعا والمفترق صقعا (مطبوع) ياقوت الحموي.

لا يهمنا عدم تأكيد الجغرافيين اليونانيين أو سترابو من أن سبأ عاصمة مأرب أو أن مأرب عاصمة سبأ ما دام العلماء العرب من اليمنيين، وأبو الفداء يعرفون البلاد بأسمائها الفعلية ومواقعها فلا حاجة للبحث عن أسمائها في النقوش.

ذلك بليني في كتاب التاريخ الطبيعي ويظهر في النقوش اسم مراب واسم مريب[16] التي قد تكون رسما اخر لنفس الاسم أو على الأرجح تدل على مريابا (مريبا) إلى الجنوب الشرقي من مريب وهي مدينة لا تزال اثارها قائمة في بيجان القصب في وادي بيجان. ويتراءى لنا انه كان هناك مكانان أو أكثر تحمل أسماء متشابهة. ويوضح بليني ذلك (ت. ط. ٢٨،٦) حيث يقول توجد مريابا (بحر ماليكوم) التي كانت مدينة للشرميين (Charmaei) الذين هم فرع من المعينيين، ومريابا أخرى للكالنجيين يقول بليني (ت.ط: ٢٨/٦) تقع مريابا المحصنة في بلاد الكالنجيين. وقد دمر غالوس حصونها. ويقال إن محيطها ٦ أميال رومانية★، وكذ لك دمر خربة Caripeta الأبعد منها التي ذكرها سترابو على أنها أبعد نقطة وصل إليها جالوس. وكان عليها حاكم اسمه اليسار(١×) (Ilisaros) ولعله اليشارت الوارد اسمه في مجموعة النقوش السامية الشاملة (C.I.S) حين يقول ديوكاسيوس (Diocassius) أن أبعد نقطة وصل إليها كانت اثلولا[17](٢×). ومن ذلك يتضح أنه ليس بين هذه البيانات بيان واحد كامل من جميع الوجوه. ومن المحتمل أن تدل مريابا بحر ماليكوم التي ذكرها بليني على عاصمة السبئيين إذا دلت الكلمة التابعة لمريابا على «البحر الملكي» وهو المياه المحبوسة خلف السد (العرم) القريب. جاء في وصف حديث للمدينة والمنطقة المجاورة ما يلي: «هناك وهدة واسعة أو بالاحرى سلسلة من الوهاد المتقاربة على طول ١٦٠ ميلا إلى الشمال والشمال الشرقي من بلاد اليمن. ويفصل هذه الوهاد عن هضبة صنعاء المناطق القاحلة من (نهم) (Nehim) وبلاد خولان (٣×) ويمتد هذا المنخفض الكبير الغير منتظم من الشمال إلى الجنوب منحدرا من هضبة اليمن وعسير، ويحاذيه من الشرق الكثبان

(١×) الاسم الروماني معدل ليناسب كتاباتهم ونطقهم وغالبا ما يكون اليسار أوأيل آسر التي ترد كثيرا في الاسماء السامية ـ الاكدية، والآشورية والبابلية مضافة إلى أسماء الآله قبلها أو بعدها مثل (شلمناصر سلمان ازر) ـ (أسردون، آزر أدون = آتون وأدون هو الإله) (ونبوخدن اسر = نبو = اسم الاله خدن: صديق آزر أي أزر صديق الاله. وهكذا فهو (ايل ازر) أي آزر ايل أي القوى بالله = آزر القوى وأيل الاله).

(٢×) أثلولا ـ يسثل اليمنية.

(٣×) نِهم بالكسر ابن ربيعة والد بطن من العرب. وخولان قبيلة باليمن = الفيروز آبادي (القاموس المحيط).

(٤×) راجع مجلد ٤٢/ ١٩٧٩ مجلة Bsoas جامعة لندن ص١٢، للعلامة A.F.L.Becston الذي يقول: لم يذكر سترابو أو معاصرو الحملة شيئا عن تدمير أسوار المدن، أو أن كريبيتا هي المكان الأبعد الذي وصل إليه غالوس».

★ القياس الروماني = وحدة طولها ٥ أقدام رومانية Passum وكل ميل روماني ١٠٠٠ خطوة فمجموع المحيط ٦ أميال.

العالية من الصحراء الشرقية الكبرى، ويدعى القسم الجنوبي من ذلك المنخفض بالجوف (ويدعى كثيرا بجوف اليمن). وقد كان مركز الحضارة السبئية القديم[١٨]، وتعرف العاصمة القديمة مريب باسم مارب في الوقت الحالي، (وهي على بعد ٣٠ ميلا إلى الجنوب من الجوف الاسفل. وعلى بعد ٥٥ ميلا إلى الشرق والشمال الشرقي من صنعاء) وقد زارها (نيبور Niebuhr) سنة ١٧٦٢م. وزارها فيما بعد هاليفي الذي ذكر أنها خرائب عدا الجزء القائم على التل حيث المدينة الحديثة. وخرائبها موجودة على مساحة من الأرض قطرها ٥٠٠ متر/تحوي كثيرا من الأعمدة المرمرية التي لا تيجان لها (Capitals) أما موقع السد فعلى مسيرة ساعتين إلى ثلاث ساعات غربا على مدخل واد يجري فيه وادي شبوه (Shibwa) ويحوي القسم القائم بقايا خزان محكم التركيب والصنع الجيد يحوي كثيرا من فتحات التصريف. ويشاهد قريبا منه في الناحية الجنوبية الغربية آثار بناية كبيرة من حجارة منحوتة حسنة البناء مستندة إلى صخرة شامخة[١٩]. وتوجد بالقرب منها مجموعة متوالية من الخزانات العميقة التي تتجمع فيها مياه العيون[٢٠]. ويوجد بالقرب من هذا المكان مدن تاريخية أخرى أهمها نجران في منطقة «تبعد عن الجوف الاعلى مسيرة أربعة أيام خلال منطقة وعرة[٢١]».

وقد انتقلت العاصمة زمن الحكم الحميري من مأرب إلى صنعاء (صنعن في مجموعة النقوش C.I.S). وتقرن الاخبار هذا التغيير بانفجار سد العرم.

يعتقد بعض الباحثين أن كلمة سبأ اسم جمع للمسافرين أي «التجار» قابل سبأً بمعنى (سفر بعيد)(×١) وهذا مشكوك فيه. وكذلك فان اشارة تاج العروس التي اقتبسها لين في قاموسه (Lane's Lexicon Sub Voce) أي أن كلمة سبأ تعني «متفرقين» أي أن الناس تفرقوا بعد انفجار سد العرم إشارة غير معقولة لأن انفجار السد لم يحدث حتى القرن السادس الميلادي(×٢). وفي الحقيقة لا يعرف أصل اشتقاق هذا الاسم. أما قول حمزة الاسفهاني بأن سبأ تعني «الأسرى» نسبة إلى العدد الهائل من السجناء الذين طلبهم احد ملوك سبأ من مصر وأسكنهم في بلاده. ويبقى ذلك تخمينا ليس له قيمة تذكر[٢٢].

ومن المحتمل أن يكون عرب الشمال هم الذين اسسوا مملكة سبأ بعد زحفهم جنوبا

(×١) السبأ بضم السين وتشديدها وتسكين الباء = السفر البعيد = الفيروز آبادي.

(×٢) انفجار السد الأول قبل ٤٤٧ ـ ٤٥٠ ميلادي بكثير وما يشير إليه هو الانفجار الأخير بعد اصلاحات أبرهة.

أمام الغزو الأشوري في القرن الثامن قبل الميلاد(×١). ومن المحتمل أن أولئك المهاجرين العريبي (Aribi)[٢٣] هم الذين تذكرهم النقوش الكلدانية والذين كانت منازلهم الأولى في الجوف ولعلها (يعرب(×٢) Jareb) الواردة في (هوشع ٣،٥/١٣، ٦،١٠) الواقعة في بلاد مدين، والتي لا علاقة لها البتة بجوف اليمن.

ب ـ المعينيون:

يذكر أراتوستنيس (في سترابو ١٦: ٤،٢) عند عد ممالك بلاد العرب الجنوبية، مملكة المعينيين، وان عاصمتهم هي قرنا (Karna)، تقع معين حسب وصف سترابو في الشمال والى الجنوب منها سبأ. وإلى الجنوب البعيد تقع قتبان. وإلى الشرق منها كلها تقع حضرموت.. يتفق ثيوفراستوس مع أراتوستنيس في أسماء الممالك الثلاث الأخيرة، أما مملكة معين فيسميها ممالي (Mamali) ولعل هذا الخلاف جاء نتيجة لخطأ في النسخ[١].

(×١) لا يقبل أن نفكر بأن أهل الشمال في القرن الثامن ق.م هم الذين أسسوا مملكة سبأ لعدة أسباب منها:ـ

١ ـ أن أول احتكاك للآشوريين بشمال الحجاز كان مع الثموديين أهل الحجر بعد سنة ٧١٥ق.م في عهد سرجون والمعروف تاريخيا (التوراة) أن سليمان (ع) تزوج بلقيس في حدود ملكه ٩٧١ ـ ٩٣١ق.م أي قبل الغزو الآشوري للشمال بأكثر من ٢٥٠ سنة. وأن بلقيس السبئية ملكت بعد آخرين لا يقل زمنهم عن ٢٠٠ سنة أخرى قبلها.

٢ ـ في سنة ٦٤٨ق.م لا يزال آشور بانيبال يحارب العرب الثائرين ضده (بعد أبيه أسرهدون، وجدّه سرجون) ـ ويقول جده وصلتني الهدايا من (يثمر I'tamer) أو كما يسمى (يثمر وتر) من سبأ أي أن سبأ كانت موجودة قبل الغزو الآشوري ولها ملوك معروفون.

٣ ـ ملك القطر البحري السومري (أرض النهر) يقول وصلته الهدايا من سبأ، وقتباؤم ـ وحكمه قبل ٢٥٠٠ق. م في لاجاش في العراق.

٤ ـ وكذلك ذكر المؤلف أن الذين بنوا سد مأرب لابد أن يكونوا مصريين أو من بلاد ما بين النهرين وعلى الأقل في الألف الثالث قبل الميلاد إن لم يكن قبل ذلك وهذا مخالف للرأي المذكور.

٥ ـ لأن اسم سبأ ظهر في التوراة المكتوبة في القرن السادس قبل الميلاد على أنها في بلاد النوبة أو الحُبشة وأن أهلها حكموا مصر ٧١٢ ـ ٦٦٣ق.م وهؤلاء جاءوا إلى الحبشة (الحكام من بلاد سبا اليمنية) أي أنهم كانوا دولة قديمة قبل غزو الآشوريين لشمال الحجاز.

٦ ـ موجود في أول الفصل العاشر من هذا الكتاب نقلاً عن التوارة «أن الاسماعيليين الذين باعوا يوسف في مصر هم حملة البخور اليمني القادمين براً عن طريق جلعاد (السلط) وذلك حوالي سنة ١٨٠٠ق.م.

(×٢) ليس في سفر هوشع أو يوشع ذكر لاسم (Jareb) بالعربية بمعنى الجوف.

ويشير بليني إلى المعينيين بأنهم جيران الحضارمة في الداخل[٢]. وتدل النقوش التي وجدت في بلد همدان إلى الشمال من سبأ إلى وجود دولة مستقلة في (معين) لها آلهة يختلفون عن أولئك المذكورين في النقوش السبئية، وكذلك تختلف لغة معين في بعض النواحي عن لغة النقوش السبئية. مثلا تستعمل المعينية (س، سو) للضمير المفرد الغائب بينما تستعمل السبئية (هـ، هو)، كذلك تستعمل المعينية حرف (س) للتعدية بينما تستعمل السبئية حرف (هـ)(×١). وتعتبر أبحاث جلاسر ومكتشفاته التي تشمل ٢٠٠٠ نقشا (ولم تنشر كلها حتى الآن) تعتبر القاعدة الأساسية لمعلوماتنا الحالية عن بلاد العرب زمن الجاهلية وقد جاء بنظرية مفادها أن نقوش المعينيين تدل على أنهم جماعة متقدمون في تاريخهم وحضارتهم، وأن تلك الحضارة قد حلت محلها حضارة السبئيين. وسانده في هذه النظرية (هومل Hommel)، ووينكلر وبارتون الخ وعارضها هاليفي وسبرنجر وموردتمان وماير وليدزبارسكي (Lidsbarski) وغيرهم[٣]. ويرينا هذا الجدل الذي لا يزال قائماً، المشكلات الخطيرة في نظريات جلاسر. يذكر أراتوسثنيس وأجاثارخيديس (على لسان بليني) أن المعينيين والسبئيين كانوا متنافسين. وقد فسر أصحاب فكرة جلاسر تلك المنافسة بأن الدولتين قد تداخلتا زمناً أي ان السبئيين برزوا للميدان منافسين للمعينيين ثم تغلبوا عليهم وحلوا محلهم. ويرى جلاسر أن المعينيين رجعوا إلى بداوتهم، أو أنهم زالوا بالفعل قبيل نهاية القرن الأول ق. م... ولكن هذا الرأي لا يتفق مع إشارة بليني إليهم بأنهم جيران السبئيين وكذلك لا يتفق مع وصف بطلميوس اياهم في زمن لاحق بأنهم شعب عظيم جدا[٤]. ويشير ديودوروس(×٢) الصقلي إلى المعينيين بأنهم هم الذين كانوا يجلبون البخور من بلاد العرب العليا (أي الداخلية). ويتفق هذا مع ما وُجد في الناووس القاهري(×٣) من أنهم كانوا يقاسمون السبئيين تجارة البخور في زمن متأخر نسبياً فقد نقش هذا الناووس زمن البطالمة. ويدل على أنهم كانوا في ذلك الحين يزودون المعابد المصرية بالبخور[٥]. يحوي المتحف البريطاني مجموعات كثيرة من النقوش السبئية، وكثير منها لا يدل على أنه متأخر عن النقوش المعينية من حيث حروفها المنقوشة أو قواعدها النحوية، مع مراعاة بعض الفروق مثل(س، هـ) التي أشرنا إليها والتي تدل على تقدم أو تأخر في الزمن وكذلك آخذين بعين الاعتبار أن اختلاف اللهجة المحلية قد يكون

(×١) استعمال هـ، هو : سببه الحداثة فهما تستعملان في لغتنا الحديثة. أما التعدية فهي مثل أراق = هراق، تحسّن الوضعُ: استحسن الوضع، وبالعامية همد الترابُ: (سهمد التراب) بمعنى سواه.

(×٢) ديودوروس الصقلي من معاصري يوليوس قيصر وأغسطس: يعني أوائل القرن الأول الميلادي والأول ق. م والبطالمة أصحاب الناووس القاهري انتهوا في (٣٠) ق.م.

(×٣) الناووس: تابوت حجرى مزخرف.

تعليلا أصلح لوجود هذا الفرق. من الواضح أن اللغتين والجماعتين كانت متباينة. أما مسألة كونهما من عصر واحد فلا تزال مؤضع شك على الرغم من أنه ليس من المعقول أن نسلم بأن الفارق الزمني بينهما كان كبيرا، بل قد لا نسلم بأن احداهما كانت قد زالت أو رجعت إلى البداوة زمن البطالمة أو الرومان. وكما لاحظنا قبلا فإن استعمال الخط المأخوذ عن الفنيقيين يبطل احتمال تقدم أي من هذه النقوش المعينية أو السبئية عن القرن الثامن (١×) ق.م وهو ما لايكفي لإثبات قدم النقوش المعينية البعيد كما جاء في نظرية جلاسر التي ترى أن مملكة سبأ قد قامت حوالي سنة ٧٥٠ق.م وأن حضارة المعينيين التي بدأت حوالي ١٢٥٠ق.م كانت إذ ذاك في دور انحطاطها. وقد وجد في حريم (Harim) اثار دينية لمعتقدات السبئيين والمعينيين[٦] ولأنها لا تعتبر ذات قيمة تذكر فإنها لا تستدعي بالطبع معاصرتهما لبعضهما البعض (٢×).

يوجد في الجوف مكان يدعى «معين» وقال هاليفي «تحوي الجوف اثارا قديمة أكثر من أي منطقة أخرى في بلاد العرب. وأهم هذه الآثار من ناحية تاريخية تلك التي تحمل اليوم اسم معين ومأرب. والأولى تشير دون ريب إلى عاصمة المعينيين»[٧] التي يدعوها أراتوسثنيس (قرنة Karna) وهي بالتأكيد قرناوة (٣×) المذكورة في النقوش[٨] وعلى ما يظهر هي معين الحديثة التي زارها هاليفي سنة ١٨٦٩ ـ ١٨٧٠م.

جاء في التوراة استعمال كلمة المعونيين (جمع كلمة معون) ويرجح المؤلف أن تكون معان البعيدة مسافة ١٨ ميلا إلى الشرق والجنوب الشرقي من بترا التي ترد في النسخة السبعينية باسم «مدين Midian». ونلاحظ هنا كما لاحظنا في سبأ (انظر أعلاه) ان هناك اشارات إلى أن المعينيين والسبئيين مهاجرون من الشمال. أو أن مستعمراتهم ومراكزهم التجارية كانت تمتد في وقت من الأوقات حتى «مدين» شمالا، وأنها تراجعت تدريجيا نحو الجنوب وعلى ما يظن نتيجة للتوسع الآشوري. وبناء على ما تقدم لا يمكن اعتبار أي نقش معيني أو سبأي أقدم من ٧٠٠ ق.م، وكذلك فإن الحضارة التي تشير إليها تلك النقوش مستمدة دون ريب من الشمال(٤×).

(١×) بطل هذا الرأي بعد اكتشاف آثار يوغاريت (راس الشمرا) قرب اللاذقية سنة ١٩٤٩م وعن الفينيقيين في القرن السادس عشر ق.م (بخط فينيقي ـ ـ المترجم).

(٢×) قد يكون من أدلة المعاصرة، ما قدمناه من استحالة قيام سبأ ٧٥٠ق. م أو بعدها لأن وجود سبأ زمن النبي سليمان (ع) بملكة مشهورة (بلقيس) يستدعي أن تكون سبأ معاصرة لدولة معين.

(٣×) قرناو تقع على الرأس الشرقي لمثلث متساوي الأضلاع قاعدته خط بين مأرب ونجران.

(٤×) هذا الرأي قد بلوره ما اكتشف من آثار في العلا والحجر من قبل جامعة الرياض، أما تشابه الأسماء فذلك لا يعني بالضرورة قرابة في النسب والعلاقات بل هو تركيب لغوي: فماعين، ومعين من =

جـ ـ قتبان:

يورد ثيوفراستوس (كِتّبينا أو كَتّبينا[١]) ضمن ممالك بلاد العرب الجنوبية الأربع. وهذه التسمية تتفق مع كتبانيس التي ذكرها سترابو[٢]. ومع كتبانيس أو كتباني كما جاء في بليني[٣]. ومع قتبان الواردة في النقوش[٤]. يصف سترابو هذه المملكة بأنها تشغل أقصى الزاوية الجنوبية الغربية من بلاد العرب في المنطقة المجاورة للمضيق الذي يشكل مدخل البحر العربي (باب المندب). وعلى ساحلها الجنوبي تقع ميناء عدن[٥] التي تخربت حوالي قيام حملة غالوس وحلت محلها (موسى أو موشج) على البحر الأحمر (Muza) مؤقتا إلى ان عاد إليها نشاطها زمن الحميريين... وقد حصل جلاسر على مئة نقش من عدن والمنطقة المجاورة لها والتي تعد دون جدال منطقة قتبانية. ومن هذه النقوش نجد أن لغة قتبان أقرب صلة إلى المعينيين منها إلى السبئية. فهي كالمعينية تستعمل حرف (س) في تعدية الفعل. وضميرا للمفرد الغائب في حين تستعمل السبئية حرف (هـ) جاء في نقش هاليفي(٥٠٤) «معين أصبحت تابعة لقتبان». أما النقشان ٤١٨ و٤١٩ فيذكران «معين وقتبان تعدان عدوتين دانتا معا لسبأ» وهذه كلها تتفق في إظهار القرابة المتينة بين معين وقتبان. وقد وجد جلاسر في هذه النقوش أسماء ثمانية عشر ملكا، كان يدعى الأولون منهم مكارب Ma karib ... أو الملوك الكهنة[٦]. ولقتبان ميزة واضحة في ديانتها. فإن الاله (الحاكم Haukum) الذي ربما صح أن يقترن بكلمة (حوك HWK) أي الذي يسبب ظهور النبات (اله المطر) أو الذي ينسج (الحياكة)، وهذا الإله غير موجود عند أي قوم اخرين. ويظن هومل في كتابه (Grundriss der Geogr., etc. 139 , 142) أن دولة قتبان قد زالت في القرن الثاني قبل الميلاد أما بليني فيذكر عبارة قتباني (ت. ط٥، ٥٦) معتمدا على جوبا الثاني (Juba II) من القرن الأول قبل الميلاد(×١). ويستعمل كلمة قتباني في موضع اخر

= كلمتين ماء + عين وذلك غير مرتبط بموضع جغرافي بقدر ما هو وصف لطبيعة الارض وما على سطحها. «فكلمة معين» وصف للماء الجاري كما وردت في القرآن الكريم والمعاجم (من ماء معين) أي جار، والماعون تعني المطر أو الماء ولا يربط «معين» في اليمن بأي معين أخرى سوى وجود ماء جار فيهما، أما معان فهي اسم للمباءة أو المنزل ولا علاقة لاسمها بماعين ـ التوراة ـ. وليس لكلمة (المعونيون) الواردة في النسخة السبعينية أية علاقة بمعين أو المعينيين في الجنوب لأنها تدل على (المعانيين) وإنما «الواو» قلبت عن الألف وهو تركيب لغوي قائم في اللغة العربية الدارجة وكذلك في العبرية مثلا كاهين، كوهين، وماءاب = مؤاب، وعيسى= عيسو، وآدم = آدوم. ويقول السوداني انوم بدلا من أنام، والبيتلحمي عمون بدلا من عمان

(×١) جوبا الثاني ابن ملك نوميديا (الجزائر الحالية) زمن يوليوس قيصر وهو من الملوك العلماء رباه الامبراطور بعد انتحار والده جوبا الأول وكان لا يزال طفلاً ثم عينه اغسطس ملكاً لنوميديا ثم لموريتانيا. وقد توفي في سنة ١٩ ميلادية في موريتانيا ـ القاموس الكلاسيكي الصغير، ط، لندن سنة ١٩١٣.

(٣٢:٦) حيث يعترف بأنه حصل على المعلومات من تقرير أعده بعض المشاركين في حملة غالوس، ولا يوجد ذكر لقتبان في الدليل البحري (Periplus) على الرغم من أن ذلك المصنف يبحث بشكل خاص في السواحل وسكانها. أما بطلميوس فقد ذكرهم باسم (كتابانوى Kattabanoi) «الجغرافيا ٦، ٧، ٢٤» ويلمح نقش هاليفي رقم ٥٠٤ من جهة أخرى إلى غزو قتباني لبلاد معين. مع أن كليهما دانتا فيما بعد لدولة سبأ (ن أعلاه نقش ٤١٨، ٤١٩ جلاسر) بل اندمجتا فيها. أما سترابو فيقول تنتج قتبانيا البخور والمر، وكذلك تنتجه حضرموت[٧].

تعتبر البلاد التي يدعوها العرب «اليمن» الموقع الفعلي لملكة قتبان لأنهم اعتمدوا على اعتبار قحطان (كما قال المسعودي[٨]) هو يقطان (التوراة سفر التكوين ١٠: ٢٦) ـ فيما بعد أما د. ب. مولر (D.B.Muller) فيلفت النظر إلى أن قتبان هي تصحيف من بني قحطان (Die Bur gen etc; ii) وفي موضع أخر (نفسه ١، ٨٣) يأتي بفرضية أكثر غرابة حيث يقول «كتبان يعني قتبان) مأخوذة من الفعل «كتب». ولعل لاستعمال هذا الإسم قحطان علاقة بالمدينة الواقعة بين زبيد وصنعاء وتحمل نفس الاسم كما ورد في المقدسي[٩].

يقول سترابو اعتمادا عل أراتوستنيس أن مدينة القتبانيين الرئيسية هي: تمنع Tamna [١٠] ـوقد تكون هذه أو قد لا تكون ـ «ثمنع Thomna» التي يذكرها بليني أو «ثوما Thouma» التي يذكرها بطلميوس[١١]. يقول بليني «لا يمكن تصدير البخور إلا من بلاد «جبانيتاي Gebanitae» وتبعد مدينتهم الرئيسية تمنع ٤٤٣٦ ميلا عن غزة الواقعة في بلاد اليهودية على شاطيء بحرنا(×١) . وتقدر المسافة بمسيرة ٦٥ يوما على ظهور الجمال»[١٢].

ويقول استرابو أيضا في موضع اخر نقلا عن الأخبار التي وردت في تقارير الذين عادوا من حملة جالوس أن أماكن وشعوبا أخرى تقع إلى الجنوب وهم: «الأنصاريون Ansaritae» وشعوب رندان(×٢)(Larendani) والقتبان والجبانيتاي Gebanitae الذين يسكنون مدنا

(×١) يعني بحر الروم ـ البحر الابيض ولا ننسى أن بليني عالم روماني وليس يونانيا وهو مخطىء في نسب غزة إلى بلاد اليهودية ـ وهي منطقة حتى اليوم ١٩٨٩، تشمل مقاطعة جغرافية في فلسطين بين رام الله شمالا والخليل جنوبا وما بينهما اسمها اليهودية.

(×٢) اللارنديون: غالبا هم الريدانيون نسبة إلى ريدان: التي يعبر بها الأحباش عن حضرموت وريدة أيضا قريتان في حضرموت.

الأنصاريون = لعلها دولة آل نصر بن ربيعة الذين رحلوا إلى العراق وأسسوا دولة الحيرة وكانوا قد خرجوا من منطقة نجران في نهاية القرن الأول الميلادي ومنهم الأوس والخزرج الذين سكنوا «يثرب» سيرة ابن هشام الجزء الأول.

كثيرة اهمها ناجيا وتمنع التي تحوي ٦٥ معبدا[١٣]. يقول سترابو (٤:١٦، ٤) أن الجبانيين هم الذين كانوا ينقلون البخور من قتبان وحضرموت إلى أيلة (العقبة) (Elanai) على رأس البحر الأحمر. ويروى جلاسر (بنت ٦٠,٣٥ Punt) أنهم من جماعة قتبان أو أنهم قبيلة اشتهرت واستقلت قبل بدء التاريخ المسيحي بقليل. جاء في النقوش ذكر مدينة اسمها (تمنع) بفتح التاء أو كسرها وبصوت (ع) العبرية في آخرها) التي يعتقد جلاسر باحتمال كونها «تمنع» الواقعة في وادي بيجان القصب[١٤]. ولما لم يتأكد الذين أعدوا كتب سترابو من اسم «جبايوي Gabaioi) عدلوه إلى «جزايوى Gazaioi» (قصاوبو) وغيرها من العبارات مما لا يعنينا في هذا المقام.

لا نجد بعد بطلميوس أية اشارة مستقلة إلى قتبان أو الجبانيين وذلك لانهم اندمجوا على الأرجح في سبأ، ثم اندمجوا هم ومملكة سبأ في مملكة الحميريين. ويشير الكتاب اليونان المتأخرون إلى كل سكان بلاد العرب الجنوبية باسم الحميريين. أما الكتاب العرب فيقتصرون على أسماء حمير وقحطان واليمن، وتعني كلمة «يمن» اليد اليمني أو الجنوب. وتدل في اصطلاح الجغرافيا على قتبان وسبأ القديمتين.

بعد أن تغلبت سبأ على قتبان تقلصت أهمية تمنع التي كانت تحوي ٦٥ معبدا زمن حملة جالوس. وحلت صنعاء التي كانت تقع في المنطقة التي كانت يوما ما قتبانية محل مارب عاصمة السبئيين، ولا تزال صنعاء مدينة اليمن الرئيسة. واسمها مذكور في النقوش الحميرية (جلاسر ٤٢٤) باسم «صنعن» ولكن تلك المدينة لم تشتهر حتى قيام الثورة على الحاكم الحبشي أبرهة سنة ٥٣٠ ميلادية. وحافظت على شهرتها بعد ذلك حين أصبحت الحد الجنوبي للطريق الممتدة من الشمال إلى الجنوب خلال بلاد الحجاز. وصارت بذلك وريثة لمدينة تمنع، وهذا كل ما بين المدينتين من علاقة.

د - حضرموت:

يرد ذكر حضرموت في التاريخ بأسماء مختلفة فهي عند أراتوسثنيس حضرموتيتاي وعاصمتها «كباتانون» وعند «سترابو ١٦، ٤، ٢». وعند ثيوفراستوس (ت. النبات ٩، ٤) فهي حضرميتا. بينما يشير بليني إلى أهل حضرموت أنهم جماعة من السبئيين (ت. ط ٦، ٢٨، ٣٢) ومن هؤلاء (الكتاب) نتعرف على بلاد حضرموت وسكانها (مجموعة النقوش - حظرموت ١٢٦، ١٥، ١٥٥، ٣ إلخ)[١]. وكان الاسم في الأصل جمعا (حضرمات). وإلى ذلك يشير (كومت دي لاندبرج Comte de Landberg) إلى أن الألف تلفظ في بعض مناطق الجنوب «و» مفخمة(×١) أو «و» ممدودة وبذلك يسهل تفسير لفظ

(×١) المفخمة مثل: موت، وغوث، والممدودة مثل: توت وصوف.

«حضرمات، وحضرموت، وحضرموت»[٢] وتدل الواو على الجمع عادة. وهكذا يكون المفرد «حضرم» ويرى (ليوهيرش Leo Hirsch) أن «الميم» من بقايا التنوين (×١) أي أن الأصل «حضر»[٣]. وباشتقاق على غير قياس اعتبر هذا الاسم دالا على «وادي الموت» ومن هنا قامت اسطورة تقول أن البخور برائحة شجره النفاذة كان ينشر الموت هناك. ويقول هيرودتس (٣، ١١٣) على لسان أحد الرحالة «أن تلك البلاد مفعمة بروائح البخور. ويقول سترابو نقلا عن ارتيميدوروس ويزرع لديهم المر واللبان والقرفة، وفي الساحل يزرع البلسم والنباتات العطرية الأخرى، التي لا تدوم رائحتها طويلا. وهناك أيضا أشجار عطرة من النخيل والقصب، ويوجد فيها كذلك الأفاعي الحمراء التي طول الواحدة منها «شبر» ولكنها تستطيع القفز إلى علو الفخذ، وعضتها لا براء منها (سترابو ١٦، ٤، ١٩). وهـذا وجه اخر لأسطورة الموت»: يؤكد ديودوروس الصقلي وفرة البهارات التي يملا شذاها الجو، بل ويشير أيضا إلى أن الأرض عندما تحفر تبث رائحة جميلة. وقبل هذا تماما ذكر أن البلسم ينمو هناك ولا ينمو في أي مكان أخر في العالم. وقبل هذا كذلك تكلم عن بحيرة مملوءة بالقار «الزفت» وتكثر حولها الحرائق التي تنفث رائحة كريهة جدا، «وتجعل أجسام الرجال قابلة للمرض ولا تمنحهم إلا فترة قصيرة للحياة». (ديو. ص ٢، ٤٨، ٤٩) ولا يعني أبدا، أن لهذه الآثار السيئة علاقة بشجيرات البخور. بل يعزوها إلى منطقة القار. ثم ينتقل إلى وصف بلاد البخور. وعلى ما يبدو فإن هذه القصص كما وردت هي التي أنشأت فكرة حالة الموت التي تختص ببلاد البخور، وأن تلك الاسطورة قد تنامت عند المؤرخين العرب على الأقل ـ بالمعنى الخطأ الذي قدتوحيه كلمة حضرموت نفسها. بينما هي في الحقيقة بلاد ذات جو صحي جيد، وذات مناخ جاف صاف، ومن حاصلاتها اليوم الحبوب والذرة والتمر والتبغ والتين والعنب والعظلم (النيلة) وغيرها. وأهلها زراع ناجحون مجتهدون في أعمالهم، وما يظهر من التأخر سببه قلة رأس المال، لذا يهاجر كثير من رجالها وبعد الغربة يعودون إليها بعد أن يكونوا قد حصلوا على ثروات لا بأس بها. ويعيش البدو منهم في بيوت من الطين أو الكهوف، أما سكن الخيام فلا وجود له في حضرموت. وتحوي اللهجة المحلية عدة ظواهر غريبة مشوقة، تعتبر أحيانا من بقايا «اللغة العربية الجنوبية» أي المعينية والسبئية. ولكن المرجح أنها من بقايا العربية الشمالية القديمة. وتســـهل ملاحظة غرائب اللهجة في الشقة الساحلية المعروفة بالمهرة والتي فيها شبه قريب جدا للعربية الجنوبية القديمة. وقد يكون هناك بقايا حقيقية من العربية

(×١) كان التنوين عندهم «بالميم» بدلاً من النون الساكنة بعد الحركة المناسبة ـ يعني قول «تكتب قولن ثم تلفظ عند اليمن «قولم» سأل أحدهم رسول الله (ﷺ) «أمِمْ برَم صيامُم في سفر» أي = أمن بر صيام في سفر = فأجابه (ﷺ) ليس مم برَم صيامُم في سفر.

الجنوبية، كما يشاهد ذلك بالفعل في جزيرة سقوطرة. وكان يعرف سكان حضرموت الاقدمون بالصداف أو الصديف. و قد انضمت إليهم كندة في حوالي ميلاد الرسول وكندة من اهل البحرين(×١). وهذه مجرد أخبار. ولكنها قد تحوي لونا من الصحة ما دامت تشير الى هجرة عربية من الشمال صبغت حضرموت بطابع العرب الشماليين في معيشتهم العامة. وإن كانت تنحاز إلى الجانب الجنوبي في النزاعات السياسية في صدر الإسلام.

كانت تدعى هذه البلاد قديما باسم ريدان[٤]، وضمتها سبأ إليها في القرن الأول ق.م[٥] حيث تبع ذلك تعاقب ٢٦ ملكا كان الواحد منهم يلقب نفسه «ملك سبأ وسيد ريدان»[٦]، ثم اندمجت سبأ وريدان في مملكة حمير[٧]، التي تغلب عليها الاحباش فيما بعد[٨].

يقول سترابو (١٦، ٤، ٢) أن العاصمة كانت «كباتانون» أو صباتانون. أما بليني (ت.ط. ٦، ٢٨، ٣٢) فيسميها سبوته[٩] التي يغلب أن تكون «سباتا» كما جاء في الدليل البحري (فصل ١٥) وفي بطلميوس (٦، ٧، ٣٨) وصبوة كما جاء في القاموس، وهي «شبوة» البعيدة ٥٥ ميلا إلى الشمال الشرقي من «النصاب»(×٢) والمبنية على أنقاض المدينة القديمة. وتقع في أقصى الغرب من حضرموت، ويصفها الدليل البحري بأنها واقعة على ضفة نهر صالح للملاحة(×٣).

تقترن تجارة البخور بسبأ ومعين، أما إنتاج البخور الحقيقي فكان حول ظفار (سفار في سفر التكوين الإصحاح العاشر اية ٣٠) إلى الشرق من حضرموت والتي تعتبر ضمن عمان في الوقت الحاضر. وتنمو فيها شجيرات اللبان ولو أنها دون الهند وسيام في جودة منتوجاتها ويعرف أجود أصنافها بلبان لقط، ويليه في الجودة لبان رسيمي. ومعدل الصادرات إلى بومبي وحدها بالمراكب البحرية المحلية يقدر بتسعة آلاف وزنة مئوية(×٤) وأجود البخور نموا في حوى وحسكي على مسيرة أربعة أيام تقريبا من مرباط(×٥) على

(×١) كندة قبيلة عربية نشأت في الجنوب لأنها يمنية ـ لها مملكة ودولة منذ القرن الأول الميلادي وعاصمتها اسمها «قرية» وسميت بعد اكتشافات جامعة الرياض ١٩٧٢ـ «قرية الفاو» وكل آثارها عربية: عمارة وخطاً ونقوداً وصناعةً. د. عبد الرحمن الطيب الأنصاري ـ قرية الفاو، والهجرة كانت من الجنوب إلى الجنوب والشمال. وليس كما توهم المؤلف.

(×٢) النصاب: من بلاد العوالق العليا في حضرموت على مشارف وادي بيجان.

(×٣) لا يوجد الآن أنهار صالحة ولعلها سيول تمتلىء في فصل الأمطار الموسمية مثل وادي بيجان أو وادي الدوعن = (ذوعين)؟

(×٤) هو وزن مئة وحدة انجليزية يعني ١٠٠ باوند (رطل انجليزي) = ٤٥ كيلوغراما وحرف C بالحساب الروماني يدل على ١٠٠ أو Cent مثلا Century قرن.

(×٥) مرباط ميناء في ظفار قرب جزر خوريا موريا وصلالة، أطلس التاريخ الإسلامي د. حسين مؤنس.

المنحدرات المؤدية إلى الربع الخالي.

يشير سترابو وبليني إلى أن هذه التجارة كانت بيد التجار الجبانيتاي أو الجبائيين، الذين كانوا في الغالب عشيرة قتبانية ولم يكونوا من منتجي البخور بل كانوا ينقلونه فحسب(×١).

هـ - الحميريون:

ترد أقدم إشارة إلى الحميريين في بليني[١] الذي يقول، أنهم يسكنون بين سبأ والبحر. وبذلك يكونون من سكان البلاد التي سماها سترابو قتابانيا، واسمهم في النقوش «حميرم»[٢]. ويكثر ذكرهم في الأزمان التالية بألفاظ واضحة وإن اختلفت الحروف ولم يتغير سوى لقب الملوك من «ملك سبأ وسيد ريدان إلى ملك سبأ وحمير» كما هو في النقوش. ويظهر من هذا أن ظهور حمير على مسرح الحياة السياسية في بلاد العرب كان متأخرا نسبيا، إذ حلت حميرفي البدء محل قتبان القديمة، ثم ابتلعت سبأ وريدان ودام ذلك حتى سنة ٣٥٠م. حين خضعت «سبأ وريدان وحمير جميعها» لملك أكسوم (الحبشي(×٢)) ولو أن حكم الاكسوميين لم يتجاوز تهامة أو البلاد الساحلية لذلك فإن جميع ممالك بلاد العرب الجنوبية الغربية كانت تحت لواء الحميريين قبل غزو الأحباش وكذلك فإن المؤرخين العرب واليونان يطلقون اسم حمير على شعوب بلاد العرب الجنوبية أو على غير اليمنيين من سكان بلاد العرب الجنوبيين حيث صارت هذه البلاد لدولتين: حمير واليمن. ولم يعد المؤلفون اليونان واللاتين يذكرون اسم سبأ في مؤلفاتهم بعد القرن الرابع عشر الميلادي وأصبح جميع سكان الجنوب العربي يسمون بالحميريين.

يسمى بليني عاصمة حمير «سفار» (ت.ط. ٦، ١٤) ويصف بطلميوس (٦، ٦، ٢٥) تلك المدينة بأنها عاصمة السفاريين. ولا شك في أن المدينة هي ظفار (سفار العهد القديم) مع أنه يظهر أنه كان هناك عدة مدن تدعى بهذا الاسم. ولعل عاصمة الحميريين هي (ظفار الصاحب) التي كانت تعد سابقا عاصمة حضرموت، وهذا يجعل من المحتمل أن يدل على أن قيام الحميريين كان ثورة للعرب الشرقيين على حكم السبئيين الغربيين. جاء في الدليل البحري (٢٣). أن «كرب ايل(×٣)» كان ملك الحميريين والسبئيين وأنه

(×١) هنا يعيد المؤلف ١٠ أسطر وردت في صفحة ٩٧ من الاصل الانجليزي هي التي وردت تحت مملكة قتبان والتي تتحدث عن غزة ومدينة تمنع ومعابدها الخمسة والستين والتي لم أعد ترجمتها.

(×٢) دام حكم الاحباش حوالي ٣٠ سنة فقط وطردهم الاتحاد الحميري سنة ٣٧٨م. د. سوسة ص٢١٨.

(×٣) كرب ايل: ملك من ملوك حمير اسمه متصل بكلمة «أيل» الإله الذي كانوا يدعونه إله ابراهيم (ع). ويدل على أن هذا الإله عربي أصلا من حيث العبادة. ومكرب كلمة بمعنى المقدس وتقرن باسماء الملوك الكهنة. د. سوسة ٢١٦ ط٤.

كان يعيش في ظفار[٣](×١).

و ـ **الطرق البرية في بلاد العرب:**

إذا أردنا البحث عن الطرق البرية القديمة، فإن علينا أن نعتمد بالدرجة الأولى على الطرق القائمة حاليا لأنها مثل سابقتها تسير في الأماكن التي فيها الماء والبعيدة عن الصحراء والجبال ما أمكن ذلك. نبدأ من ظفار على الساحل الجنوبي المقابل لسوقطرة لأن ظفار كانت مركزا لتجارة البخور عصب التجارة العربية أنذاك. وإلى الشمال منها تقع الصحراء•الواسعة المعروفة بالربع الخالي حيث تحاذيها الطرق شرقا وغربا متجنبة الصحراء، مع أنه هناك رواية عن طريق مباشرة من بغداد إلى ظفار كانت مستعملة في العصور الوسطى. وذلك يعني أنها كانت تقطع الصحراء[١]، ولكن المعروف أن تلك الصحراء صعبة المجاز، ولا بد أن الرواية تشير إلى القوافل التي كانت تسير حول الجانب الشرقي من الصحراء عن طريق عمان في رحلة مستمرة من بغداد إلى ظفار مجازفة أحيانا في عبور بعض الأجزاء الصحراوية. أما الطريق الغربية فتسير خلال وادي حضرموت الأصلي في طريق سهلة حسنة إلى شبوة في أقصى الغرب من حضرموت حيث تلتقي بطريق فرعية تؤدي إلى عدن. وتتجه من شبوة نحو مأرب عاصمة سبأ، ثم إلى صنعاء حيث تلتقي بطريق أخرى تؤدي إلى عدن. جاء في بليني أن تمنع كانت آخر حد للتجار اللذين يتعاملون مع غزة حيث كان يتم تبادل البضائع من يد إلى أخرى هناك. وصارت صنعاء على الأرجح مركزا للتبادل بعد أن حلت محل تمنع.

كانت الطريق تتجه من صنعاء صوب الشمال، على الأغلب، عبر الحجاز مارة بين سلسلتي الجبال المتوازيتين ومارة من هدية إلى العلا ـ محطة الحدود النبطية ـ وهناك كان عرب اليمن يسلمون بضائعهم لعرب الأنباط ليصير نقلها إلى تيماء حيث يتم فرزها ويرسل قسم شمالا إلى بصرى وتدمر والشام وبذلك يصل سوريا، ويؤخذ قسم آخر إلى العقبة فالعريش والطرف الشمالي لشبه جزيرة سيناء ثم إلى مصر، والقسم الأخير ينقل عن طريق حائل إلى بابل في منحنى واسع تجنبا لمصاعب صحراء النفوذ. والظاهر أن سير الطرق

(×١) كان هناك مملكة خامسة في جنوب اليمن اسمها «أوسان» ولها اهل ينتسبون إليها وقد ذكر الهمذاني في كتابه صفة جزيرة العرب اسم الاوساني الحميري أستاذه وكذا في الاكليل. ويقول د. أحمد سوسة ـ العرب واليهود في التاريخ ص ٢١٠ ـ ٢١١ طبعة ٤ .كانت جزءا من مملكة قتبان ثاروا عليها وانفصلوا عنها. وقد وصلت كتابات أوسانية اعتمد عليها الهمذاني في كتابه صفة جزيرة العرب. ووصلت تماثيل رخامية لبعض ملوكها وهي أول تماثيل تصل إلينا عن ملوك العرب. د. سوسة.

الشمالية زمن الأنباط كان هكذا: تصل الطريق الحجازية إلى تيماء حيث ينقل اليمنيون تجارتهم إلى هناك. ولا شك أن نزول القوافل والتبادل على الحدود كان جزءا من خطة نبطية ليؤمنوا لانفسهم حصة مناسبة من عائدات نقل التجارة، ثم توقف التبادل وصار اليمنيون يقطعون كل الطرق حتى العقبة وذلك حوالي بدء التاريخ المسيحي. ولما صارت البضائع تنقل تحت مراقبة الانباط، صار يرافقها كتبة وموظفو تحصيل (جمرك) خلال سيناء حيث كان العرب يرعون جمالهم ويقضون وقتا طيبا دون عمل. وهؤلاء الكتبة والموظفون هم الذين خلفوا الكتابات المخططة المبعثرة في أنحاء مختلفة من سيناء خصوصا في وادي المكتب ويوجد كثير من هذه الكتابات في الوديان المؤدية إلى المراعي فحسب. مما يدل على وجود الكتبة هناك يقضون أوقات فراغهم الإجبارية إلى حين انتهاء العرب من رعي جمالهم. وقد شاهد «كوزموس انديكوبليوستوس» من القرن السادس الميلادي، هذه النقوش وظنها من مخلفات الاسرائيليين الخارجين من مصر في أيام موسى[٣](ع): وفي وقت كوزموس كانت الأحوال قد تغيرت وزالت دولة الانباط منذ زمن بعيد وأصبحت التجارة مع سوريا ومصر وما بين النهرين بيد عرب الحجاز وحدهم. وصارت العقبة في عهد الرومان مركزا للجيش العاشر[٤] حيث كانت تنزل القوافل فيقوم موظفو الامبراطورية بتحصيل الضرائب. وكان تراجان قد أنشأ طريقا من العقبة تصل إلى فلسطين وسوريا وطريقا أخرى إلى البحر الأبيض المتوسط عن طريق غزة. وكان ميناء ام لج (ليوكاكوما) زمن البطالمة يتصل بصنعاء ومأرب إذ كانت التجارة التي تصل إلى ذلك المرفا تقطع البحر الأحمر إلى برينيكا أو إلى (ميوس هورموس) في الساحل الغربي. واشتهرت العقبة بالدرجة الأولى لأنها ميناء على البحر الأحمر وليس لأنها سوق للطريق «البرية» القادمة من الحجاز فحسب. ولما ضعفت الملاحة في البحر الأحمر فيما بعد وانتعشت طريق الحجاز البرية اشتهرت مكة ويثرب. وكانت يثرب مستعمرة(×١) للزراع والصناع من اليهود، واشتهرت مكة لوقوعها على مفترق الطرق التي كانت تسير حول الجانب الشمالي من الربع الخالي بطريق الرياض إلى (الاحساء أو القطيف)(×٢) على خليج فارس.

(×١) كانت يثرب مسكونة من الاوس والخزرج الذين وصلوها مع اليمن الذين توجهوا إلى الحيرة من بني نصر بن ربيعة. أما اليهود فكانوا يسكنون معهم في حي خاص يمثل ربع البلدة مساحة.

(×٢) القطيف أو الحسا وردتا للدلالة على معنى (Gerrha) التي تتكرر عدة مرات في هذا الكتاب وأنقلها كما هي على الرغم من معرفتي أن القطيف ميناء بحري في منطقة الاحساء على الخليج العربي. ولم تضعف الملاحة إلا في أواخر القرن السادس الميلادي وكانت يثرب بلدة عربية معروفة منذ قرون من عهد الأوس والخزرج ويسكن اليهود قسماً منها وهم عرب من قبيلة جدام تهودوا: اليعقوبي.

★ وربما كان موقع مكة على هذا المفترق سبباً في بناء سيدنا ابراهيم واسماعيل قواعد البيت العتيق فيها... المترجم.

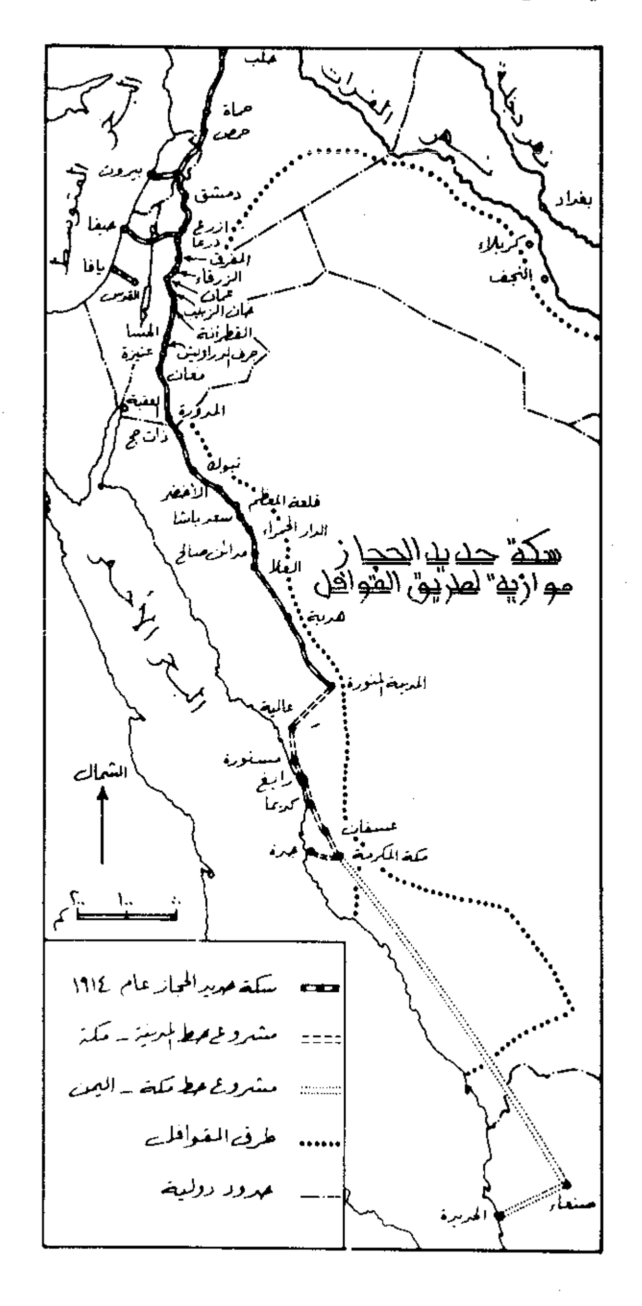
لنرجع إلى ظفار حيث نجد طريقا أخرى تتجه شرقا مارة حول عمان ثم تسير صعودا نحو القطيف متجنبة صحراء الربع الخالي المخيفة. وخلال هذه الطريق أيضا كانت تنقل البضائع المجلوبة من الهند. والتي كانت ترسو في القطيف ومن هناك مارة بظفار إلى صنعاء، ومنها إلى (أم لج) «ليوكاكوما» على البحر الأحمر، أو تستمر في سيرها برا في الحجاز. ولا يستبعد أن تكون هناك طريق مباشرة من ساحل حضرموت إلى الهند لسهولة هذه الطريق التي تقطعها المراكب المحلية اليوم دون صعوبة، إلا أنه من المؤكد أن معظم التجارة الهندية كانت تأتي عن طريق خليج فارس. وفي زمن البطالمة على الأقل كان هناك ميناء عدن وميناء «قانة» على الساحل الجنوبي وكلاهما كان متصلا بشبوة، وكانت الأولى متصلة مباشرة بصنعاء[٥].

وهكذا أصبح لدينا، وكما كان متوقعا، سلسلة متصلة من الطرق حول الربع الخالي من القطيف، الى ظفار ومن شبوة إلى مأرب فصنعاء فمكة فالرياض فالقطيف. (ويعتقد أن الطريق الأخيرة من زمن متأخر) أما الطريق من القطيف إلى الرياض فعنيزة فحائل فتيماء فلا شك في أنها قديمة جدا، إذ كانت تيماء أيام ازدهارها مركزا عظيما للتوزيع على بلاد العرب كلها. وترجع هذه المسؤولية الهامة في وقتها إلى العصور المصرية والآشورية. اما الطريق بين الرياض ومكة فيظهر أنها قد نشطت عند انتعاش طريق الحجاز وبعد أفول الملاحة في البحر الأحمر مع أن مكة كانت مشهورة قبل هذا الوقت لوقوعها على الأقل كمحطة على الطريق من اليمن إلى الحجاز(١×).

كانت تيماء كما رأينا بؤرة عظيمة للتجارة في الشمال: إذ كانت متصلة مع بابل عن طريق حائل ومع مصر عن طريق معان فالعقبة فسيناء. ومع سوريا عبر الطريق الصحراوية المباشرة مع بصرى. وكذلك عن طريق معان البترا وبصرى. وكانت تتصل عن طريق العقبة مع غزة وتجارة البحر الأبيض المتوسط وكذلك مع فلسطين التي أصبح الوصول إليها أيسر بعد انشاء طريق تراجان. وكان هناك طريق مباشرة أخرى تمتد من حائل عن طريق الجوف وكاف Kaf إلى بصرى. وكانت تتصل في الجوف بطريق فرعية مباشرة مع بابل. ومن المحتمل جدا أن يكون عدد كبير من هذه الطرق قد تم شقها من قبل البيزنطيين بهدف الانحراف عن المراكز التي تحصل ضرائب المرور (الجمرك). ولا

(١×) شهرة مكة بسبب احتوائها بيت الله الحرام. وأما اضمحلال الملاحة في البحر الأحمر فكان بعد زوال حكم الاحباش سنة ٥٧٥م. والطريق الجنوبية إليها كانت شرقي الجبال وتمر عن الطائف من الجنوب الشرقي وليس عن طريق تهامة. ولولا البيت العتيق الذي طهره ابراهيم واسماعيل عليهما السلام للطائفين والعاكفين والركع السجود ما اشتهرت.

تعطينا هذه الطرق المتأخرة في أحسن حالاتها أكثر من فكرة تقريبية عن الطرق القديمة جدا. ولا يستدل على الطرق الصحراوية إلا بما فيها من آبار قديمة أو أطلال الديار أو طبيعة الأراضي التي تصلح لمرور القوافل عبرها.



ملاحظات الفصل الخامس

سبأ

١ ـ سترابو: ٢,٤,١٦.

٢ ـ ثيوفراستوس: «تاريخ النبات» ٤,٩ (مامالي) معينايا (؟).

٣ ـ تغلات بلاسر الثالث يذكر السبئيين ضمن القبائل التي قدمت له الجزية بعد حملته على بلاد العرب الشمالية. را: رولنسون «النقوش المسمارية في آسيا الغربية». ١٠:٣ رقم ٣٨,٢ الخ، بي.روست «مخطوطات تغلات بلاسر الثالث المسمارية» لايبزغ ١٨٩٣.

٤ ـ وينكلر «الخطوط المسمارية لسرجون. را: هوميل «الوافي» ٥٨٠.

٥ ـ تورو ـ دانجن نفسه ١٤٨ ـ ١٥٠ (١٩) الرئيس السبئي

٦ ـ رولنسون: نفسه ٥٣,٦٧:٢، ١٠:٣ رقم ٣٨,٢ سابوك ١٢:٥ اي . اف، ٤٩.

٧ ـ «مجموعة النقوش السامية» ١٠:٤، ٧,٣٧، ٦,٤٠الخ.

٨ ـ بروكلمان: «الوافي في القواعد المقارنة للغات السامية» ليبزغ ١٩٠٨ الأول ١٢٩ ـ ١٣٠.

٩ ـ يوسيفوس، الآثار القديمة» ٢,١٠,٢.

١٠ـ قابل جي لودلفي (لاوتولف) «تاريخ اثيوبيا» فرانكفورت (١٦٩١) ٥٧ ـ ٥٨ الأسباب، هي اللغة القريبة، والتقاليد الأصلية. وكذلك سكاليجر في تعديل الأزمان ٤: قابل بروكوبيوس الحرب ـ الفارسية ١٩,١:١. وقد ظن سكاليجر أنهم عبروا زمن بروكوبيوس وهو شيء رفضه لودلف: كميرر «بحث في تاريخ الحبشة القديم» باريس ١٩٢٦ خصوصا الفصول ١ ـ٥.

١١ ـ اكتشف نقوش أخرى كثيرة بوساطة اي.جلاسر، وأصبحت مجموعة النقوش السامية تتكون الان من القسم ٤ المجلد ١ من ٤ فصول نشرت منه ١٨٨٩، ١٨٩٢، ١٩٠٠ و١٩٠٨ والمجلد ٢: من فصلين فقط ١٩١١، ١٩١٤. والمجلد ٣ سيحوي نقوش معين وقتبان راجع أيضا بلتز «فهرس أعلام بلاد العرب الجنوبية الواردة في المجموعة «باريس ٤ فصول ١ ـ ٥ في وقائع جمعية الآثار التوراتية» ٣٩ (١٩١٧) ٩٩ ـ ١١٢، ١١٥، ١٣٢. وهو دليل مفيد جدا.

١٢ـ أرنود في المجلة الاسيوية المجموعة ٣,٧ (١٨٧٤) ٣ وما بعدها.

١٣ـ اي.جلاسر: «نقشان على سد مأرب» في نشرة مؤسسة الشرق الأدنى ١٨٩٧.
١٤ـ انظر لامنس.. القرآن والحديث «في مجلة الأبحاث الدينية» (١٩١٠) ٣، دكتور مرجوليوث «مصادر الشعر العربي في المجلة الآسيوية» (١٩٢٥) ٤١٧ ـ ٤٤٩.
١٥ـ أبو الفداء،تاريخ الجاهلية تحرير فلايشر ليبزع ١١٤،١٨٣١ وقيل إن مأرب هي قصر الملك والمدينة سبأ (ص ٦٦ الجزء الأول ـ دار المعرفة) المترجم مختصر تاريخ البشر.
١٦ـ مأرب في المجموعة السامية ت: ٣٥٣ (٥), ١٠ الخ، وتوم: ٢: ١٠,٤٠٧ مريب في ٦,١٩، ٢,٢٨ الخ (ن مجلد ٤ هنا وبأي مكان آخر إلا إذا نص على مجلد اخر) الوصف الذي في مجلد ٤ الفصلة ٢:٢٠ـ٢٢ مخطط الموقع بين ٢٠ و٢١.
١٧ـ ديوكاسيوس: ٢٩,٥٣ إن ابعد نقطة وصل إليها كانت أثلولا.
١٨ـ «دليل البحرية عن بلاد العرب» المجلد الأول (كل الطبعات) ١٧٥.
١٩ـ نفسه ١٧٦.
٢٠ـ «عيون» راجع فيلبي: قلب الجزيرة الثاني: ٨٤.
٢١ـ دليل البحرية ١٧٧.
٢٢ـ حمزة: تاريخ كبار البشر تحرير جوتوالدت ١٨٤٤ ـ ١٨٤٨ ص: ٢٢.
٢٣ـمات ـري ـ بي، آب ـ رب ـ بي قابل هوميل «الوافي» ص ٥٨٠.

ب ـ معين:

١ ـ راجع فقرة (٢آ) أعلاه.
٢ ـ بليني (ت. ط) ٢٨,٦.
٣ ـ راجع دائرة المعارف الإسلامية ـ الفصلة آ (١٩٢٤) ص١٣، بخصوص هذه الجدلية.
٤ ـ سترابو: ٤٥,١٦. قابل مولر «مختصر جغرافية اليونان» ١:١٨٦.
٥ ـ متحف الآثار المصري ـ القاهرة ـ غرفة «ن» رقم ٤٣١ ناووس (تابوت حجري) تاجر وعليه نقوش معينية. النقش وترجمته بوساطة هوميل في مجلة الوقائع جمعية الاثار التوراتية ١٦: ١٤٥ـ١٤٩ (١٨٩٤)، د. هـ. ميلر في مجلة فيينا للدراسات الشرقية (١٨٩٤) أو ما بعدها.
٦ ـ نقوش هاليفي ١٤٤ ـ ١٦٠.
٧ ـ دليل البحرية عن بلاد العرب ١:٦٧٦.
٨ ـ نقوش هاليفي ١٩٢ ـ ١٩٩، ٤٤٣، ٤٥١، قابل هوليل «الشامل» ٦٧٩ ـ ٦٨٥.

ج ـ قتبان

١ ـ ثيوفراستوس «تاريخ النبات» ٩:٤.. كيتيبينا أوكتبينا.

٢ ـ سترابو ٢,٤,١٦ يقول إن «أبعد جزء من بلاد العرب الجنوبية مقسم بين أربعة أجناس المعينيين عبر ساحل البحر الأحمر، وعاصمتهم قرنة. والسبأيين وعاصمتهم مريابا، والقتبانيين الذين كانوا يتجهون من المضيق شمالا في بلاد العرب مفتوحة السواحل وعاصمتهم تمنع، والحضرموتيين وعاصمتهم قبتانون «سباتاهون أو نبوة».

٣ ـ بليني (ت. ط) ٣٢,٦ (٢٨) شعوب لارنداني، قتبـاني، وجبانيتاي الذين يقطنون مدنا كبيرة عديدة.

٤ ـ نقش هاليفي رقم ٤٠٥.

٥ ـ فيلوستورجيوس «أراني» في تاريخ الديانات ٤,٣، «أثونا» في بليني ت. ط ٣٢,٢٨,٦. بومبونيوس ميلا يسميها «بلاد العرب» (ميلا ٧,٨,٣).

٦ ـ إي. جلاسر: بلاد السود والممالك العربية الجنوبية برلين (نشرات جمعية الشرق الأدنى (١٩٠١) ١,١ـ٤٣، ٢ قابل: ويبر: دراسات «ديرنبورج» مجلة اشور ١١٧:٥ ـ ١٢٨.

٧ ـ سترابو ٤,٤,١٦ قتبانيا تنتج البخور والمر (اللبان) ومثلها حضرموت وتباع هذه الحاصلات إلى «إيلانا» العقبة التي في نهاية البحر الأحمر شمالا قرب غزة.

٨ ـ المسعودي: المروج ١:٧٩، ٢:١٤٢، ٣:١٤٣. والتنبيه ٣١. قابل ابن هشام ٤,١ وابن خلدون ترجمان «العبر» (بولاق) ٢:٧,١ ـ ٨.

٩ ـ المقدسي: الجغرافيا المعتمدة «بالعربية» ٩٤,٨٧,٣.

١٠ـ سترابو: ٢,٤,١٦ قابل ملاحظة (٢ج أعلاه).

١١ـ بليني: ت. ط. ٣٢,٦، ٣٢,١٢، بطلميوس ٣٧,٧,٦.

١٢ـ بليني: ٣٢,١٢.

١٣ـ بليني: ٣٢,٦.

١٤ـ قابل هوميل: «الوافي» ٦٥٦.

د ـ حضرموت

١ ـ حرف ح السامي يلفظ باليونانية (خ).

٢ ـ كونت دولاندبرج: دراسات ٢:٢٩٥.

٣ ـ ل. هيرش رحلة في بلاد العرب الجنوبية الثاني.

٤ ـ ريدان في المجموعة السامية ٤:٦,٤٠,١٥، ٣,٤١، ١,٦٩ الخ.

٥ ـ جوبا الثاني ـ اقتباس بليني (ت. ط. ٣٠,١٢) يصف الحضارمة بأنهم مجموعة من السبئيين.

٦ـ جلاسر «الاحباش في بلاد العرب وافريقيا» ميونيخ ١٨٩٥.
٧ ـ كتاب الطواف ٢٣ حيث يصف كريب ايل بأنه ملك الحميريين والسبأيين ويقول نفس الكلام باليونانية.
٨ ـ في النقش مزدوج اللغة في زيلع (منتصف القرن الرابع الميلادي) أزاناس (ايزانا) يطلق على نفسه ملك أكسوم وحمير، وسبأ وفي نقوش البلاد العربية الجنوبية نرى حكام اليمن يعودون حوالي ٣٧٨م ويستمرون حتى ٥٢٥م، حين قام الأحباش بفتح البلاد تماما. قابل جلاسر «الأحباش» ٥.
٩ ـ بليني: ت.ط ٣٠,١٢ «الحضرميون مجموعة من السبأيين عاصمتهم سابوتا» الواقعة على جبل عال جدا.

هـ ـ الحميريون.

١ ـ بليني (ت. ط) ٣٠,١٢ جاء في تقرير وصل إلى الوطن عن حملة غالوس «أكبر القبائل عددا هم الحميريون والمعينيون... ولكن الكرباني والأجراي يفوتونهم في الأمور الحربية، وأكثر منهم في ذلك الحضرميون... أما مناطق «الكرى» فهي أوسعها وأكثرها إنتاجا، ولكن السبأيين أغناهم في أشجار الأفاويه (البهارات) ومناجم الذهب «وقد كان للحميريين زمن غالوس كيان سياسي، وإن لم يكونوا انذاك القوة الأولى.
٢ ـ المجموعة السامية ١٤٠ (١) ٤: ٢،١٥٥، ٢٨٩، ١٧ وما بعدها.
٣ ـ ن: (د. ٧ أعلاه).

و : الطرق البرية في بلاد العرب:

١ ـ اعتمادا على ابن المجاور يقول جي. هـ. فوردتمان في دائرة المعارف الإسلامية (٣٧:١) ان البدو كانوا حتى القرن الثالث عشر يسافرون عبر الصحراء مباشرة إلى مرباط وظفار لمبادلة البضائع التي يحملونها من العراق.
٢ ـ أيلة، أيلات، أيلون، راهليا، ايلات، ايلا إلخ وبالآرامية أيلون، أيلونا، وبالعبرية أيليم، إيلاث، إلباران.
٣ ـ كوزماس إنديكوبليوستيس: «ميغني» «بي جي» ٢١٧,٨٨. ولم يكتف كوزماس بمقابلة تلك النقوش مع الإسرائيليين، بل إنه كان متأكدا من قدرته على تتبع اثار عجلات عربة فرعون الحربية.
٤ ـ «أيلات... ومن هناك إلى مصر والهند بوساطة الملاحين المصريين، ولكن يقوم بذلك الآن فرقة من الجيش الروماني تطلق على نفسها اسم الجيش العاشر.

٥ ـ بليني: ٢٦،٦ يصف «كاني» بأنها الميناء الرئيسي للقطر. قابل بطلميوس، ١٠،٧،٦.
أما كتاب الطواف (٢٧) فيشير إلى «سباتا» = (شبوة) التي يسكن أهلها فوق «كاني» وقد زارها ـ «هاينز» و«ولستد» سنة ١٨٣٤. وزارها مايلز ومنزنجر سنة ١٨٧٠ وزارها كارلو دولاندبرج سنة ١٨٩٦. وتحوي المنطقة كثيرا من النقوش.



الفصل السادس
«التجارة العربية أيام جستنيان»

أ ـ عهد جستنيان:

تحولت الامبراطورية الرومانية في القرن السادس الميلادي الى دولة عالمية في أوصافها وميولها، وصار الروماني المقتصد الذي كان يعجب تسيتس(١×) طرازاً قديماً إذ لم تعد حياة البذخ لدى المواطن البيزنطي ـ نتيجة لطول الانغماس فيها، شيئاً كمالياً بل ضروريا لراحته. وكما تدربنا في أيام الدراسة على احترام تسيتس وليفي ومثلهم شبه الرجعية، فقد اعتدنا كذلك أن نعتبر العصر البيزنطي شبه متأخر وفاسد خلقياً، وقوى ذلك لدينا الاسم الذي اختاره جيبون (Gibbon) أفول وسقوط (٢×) وكذلك اعتقادنا الذي استوحيناه من أمثال جوفينال الشاعر الهجاء بأن اسباب الفساد كانت بتأثير شرقي. وعلى كل حال فإن معظم هذه الآراء لا تتعدى التحيز المتصنع للتشبه بعصر النهضة حين كان يُرى من الضروري أن يقلدوا آراء العصر الاوغسطي ـ (أوج الرفعة الأدبية). ومن المؤكد أن العصر البيزنطي كان مفعماً بالحياة وغنياً في حياته أكثر من أي عصر آخر في تاريخ الرومان. وأن مدونات القوانين في عهد جستنيان ربما كانت أرقى إسهام قامت به روما لخير الحضارة البشرية. وأن آسيا في ذلك العهد قدمت هدية ثمينة للعالم اليوناني ـ الروماني كما وصف ذلك البروفيسور استرزيجوفسكي (Strzygowski) عند كلامه على الفن والهندسة المعمارية في مدح يسهل أن ينسحب على حقول الحضارة الأخرى. ومن المؤكد أن عصر جستنيان يعطينا صورة خلابة تحوي كثيراً من الملامح المضيئة، مع التسليم بانطوائها على بعض عناصر الفساد التي يرجع السبب في ظهور الناحية المثيرة فيها إلى حقيقة أن تاريخ هذه الفترة كان معروفاً بكل جلاء أكثر من أي عصر آخر من العصور التي كانت تختفي فيها العيوب تحت الظلال الخافتة التي كانت تعيش في ضوئها تلك العصور. وقد تركت مجموعات القوانين في عصر جستنيان آثارها العميقة في تاريخ الحضارة الاوروبية الغربية،

(١×) تسيتس (Tacitus) وليفي (Livy) مؤرخان رومانيان عاش الاول في القرنين الأول والثاني الميلادي وعاش الثاني من ٥٩ق.م إلى ١٧م=٧٦ سنة والثاني وضع تاريخ روما في ١٤٢ كتاباً. بلاكيني: القاموس الكلاسيكي الصغير ص: ٥١٣ و ٣١٠.

(٢×) جزء من عنوان كتاب جبون Decline and Fall of the Roman Empire أفول الامبراطورية الرومانية وسقوطها.

وتميزت تنظيمات امبراطورية جستنيان ببروز ناحية هلينية مميزة كان لها أكبر الأثر في تشكيل بناء المجتمع الاسلامي.

وأكد عهد جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) فترة انتقال في الحياة التجارية للشرق الأدنى، وفي العلاقات بين العالمين الهليني والشرقي، ولم يكن ذلك كله عائداً لوضوح تاريخ تلك الفترة، بل لأنه كان هناك تغييرات جذرية قائمة أدت الى ظروف جديدة حيث نشأ وترعرع الاسلام.

وكانت أهم المصادر التي استقينا منها معلوماتنا عن العالم الاسيوي في هذه الفترة هي:-

١ - كوزماس انديكو بليوستيس الذي كان على ما يظهر نسطوريا فقد ألف بين سنتي ٥٣٥ و ٥٤٧م كتاب «الطبوغرافية المسيحية لجميع العالم» دون فيه المعلومات التي حصل عليها خلال رحلاته في البحر الأبيض المتوسط، والبحر الأحمر، والخليج الفارسي، والهند، وسيلان. وكان موجوداً في أدوليس (زيلع) سنة ٥٢٥م عندما كان ملك أكسوم يجهز سفنه لغزو بلاد العرب. كان كوزماس في أول حياته تاجرا يسافر لغرض التجارة فحسب ولكنه كان كما يبدو صاحب عقلية استقصائية وملاحظة دقيقة، وصادقاً في روايته: فكل الاشياء التي يقول أنه رآها بنفسه صحيحة لأنه يمكن اثباتها. وهو لا يدعي أنه رأى الحيوانات الخرافية مع أنه كان كبقية أهل زمانه يعتقد بوجودها. ثم هجر التجارة وتحول على ما يظهر إلى حياة الرهبنة، وصرف وقته في الكتابة، وأنتج عدة رسائل دينية وجغرافية لم يبق منها الا «الطبوغرافية المسيحية» وكان يهدف من هذا الكتاب أن يبطل دعوى اولئك الذين يظنون أن الأرض كروية وليست كما يعتقد هو مستطيلة تشبه تابوت العهد الموسوي تمام الشبه. ولا قيمة لأدلته التي يدعم بها رأيه، بل هي مستحيلة. أما ملاحظاته وأوصافه التي جاءت نتيجة لاختباراته والتي حاول أن يوضح أدلته بها فهي قيمة جدا، ويزيد في روعتها أنها بسيطة تنقصها الصنعة الكتابية، وليست اكثر من معلومات جاء بها تاجر، ينقل بأمانة ما شاهده فعلا دون أن يعمد الى تنميق أوصافه بالخيال التقليدي[١].

٢ - بروكوبيوس القيصري Procopius of Caesarae الذي يبدأ حياته كاتما للسر عند بليزاريوس سنة ٥٢٧م حيث رافق ذلك القائد عدة سنين في فارس وشمال افريقيا وصقلية. ثم رجع سنة ٥٤٢م الى بيزنطة حيث كرس حياته، على ما يظهر، للأبحاث العلمية. ومن بين مصنفاته كتاب «الحروب الفارسية» وفيه معظم المعلومات عن

المسائل الشرقية. ولا يخلو كتابه «الحروب القوطية»[٢] من بعض الاشارات التي تأتي في الدرجة الثانية من الأهمية.

٣ ـ ايفاجريوس Evagrius في كتابه «التاريخ الكنسي» الذي يعتبر إلى حد ما ملحقاً كنسياً لتاريخ بروكوبيوس لأن المؤلف كان يكتفي بالاشارة إلى ما جاء في بروكوبيوس عند الكلام عن أي حادث تاريخي ورد فيه. ولد ايفاجريوس سنة ٥٣٦م ويبدأ تاريخه منذ «مجمع كنسي افسوس» سنة ٤٣١م إلى أن ينتقل إلى سنة ٥٣٦، ولا يعرف تاريخ وفاته. أما كتبه الثلاثة الأخيرة (٤ـ٦) التي تبحث في أهل زمانه فهي طبعا أكثر أعماله قيمة[٣].

٤ ـ تاريخ أجاثياس Agathias الذي يبحث في الفترة ٥٥٣ـ٥٥٩م ويبدو وكأنه تكملة لبروكوبيوس، ولكنه في الحقيقة لا يفوق أي عمل من أعمال ذلك الكاتب أدبا وتاريخا. فهو لم يبدأ عمله الا بعد وفاة جستنيان ٥٦٥م. ولم يكتب الكتاب الرابع الا بعد وفاة كسرى سنة ٥٧٧. ولا يعرف تاريخ وفاته شخصياً ويتراوح بين ٥٨٢ و ٥٩٤م[٤].

ب ـ تجارة الحرير:

ذكرنا أن العالم الهليني زمن جستنيان لم يعد قادراً على القيام بنفقة نفسه بعد أن تركزت عادات الترف والكماليات وصارت ضرورات فأصبح من الضروري البحث عن وسيلة لتغطية تلك النفقات، ولم يكن أمامهم سوى التجارة الخارجية. وكان أهم مظاهر الترف هو استعمال التوابل والحرير. فالتوابل سواء للتعطير أو للتبخير كانت عزيزة وأصبح الحصول عليها ضروريا مهما كلف الثمن، بعد أن صارت لازمة للمراسم في البلاط الحاكم أو الكنائس على السواء. ولا سبيل للحصول على هذه البضاعة الثمينة الا عن طريق التجارة مع بلاد العرب والهند. أما الحرير فكان استعماله قد انتشر تدريجياً زمن الامبراطورية واصبح لونا من ألوان الترف الشائعة كثيرا، بل صار في عهد جستنيان من الضرورات (أثينـايوس) حول البذخ في سوريا ومقدونيا في العطور ـ قارن بلوطارخ ـ سُلا، ٣٨. ولعل ملابس التشريفات التي يذكرها هيرودوتس عند الحديث عن الفرس مصنوعة من الحرير، وهناك بينة في بروكوبيوس تدل على أن ملابس الشرف في زمانه كانت من الحرير. ومن المسلم به أن كلمة «مديكا» اليونانية كانت تستعمل بمعنى كلمة «سيريكا» المتأخرة[١] ومن العجائب التي يذكرها سترابو نقلاً عن «نيركوس Nearchus» والمقدونيين الذين زاروا الهند[٢] انهم تحدثوا عن وجود الحرير «سيريكا» والعسل الذي يخرج من

القصب دون نحل (أي من قصب السكر). ومنذ عهد الاسكندر صار الحرير على الرغم من ندرته وغلاء ثمنه شيئا مألوفا عند أهل الغرب، ويقدم لنا أرسطوطاليس وصفا صحيحا نسبيا لطريقة انتاجه، وقد نقل بليني هذا الوصف عنه. دون أن يزيد فيه شيئا[٣]. وكان يجلب للغرب آنذاك بشكله الخام على شكل شرانق حيث يقوم اخصائيون بفك خيوطها في جزيرة «كوس Cos» ويدل كلام ارسطوطاليس على أن هذه الصناعة (فك خيوط الحرير عن الشرانق) عادت إلى مهدها التاريخي حيث يقول «يذكر أن هذه الصناعة عرفت أصلا في كوس»(١×).

تعتبر الصين الموطن الاصلي للحرير حيث يسمى (سي) ولعلها أصل الكلمة اليونانية (سير). وكان اليونان يدعون الصينيين باسم شيريس، وكانت الحلل الحريرية زمن سترابو تسمى (سيريكاي) بعد أن بطل تسمتيها (ميديكاي) وحوالي بدء التاريخ المسيحي[٤] صار الحرير يستورد من الصين والهند على السواء، مع أن حرير الصين كان أجود، وكانت التجارة عن طريق البر عبر صغديانه ومن هناك إلى بلاد فارس، فكانت التجارة بيد الفرس الذين كان بامكانهم فرض الضرائب الفادحة، وايقاف تجارته بالمرة عند نشوب الحروب مع بيزنطة وعندها يقوم العرب بتهريب كميات قليلة منه مقابل أجور فاحشة. وكانت المرحلة الأخيرة من التجارة من الشرق الى الغرب، وفي معظم الحالات، في يد «العرب». وقد منح هؤلاء الناقلون الصحراويون حرية التنقل (الايلاف: انظر المسعودي - مروج الذهب ٣،١٢١) تلك الحرية التي رفعها الغرور العربي إلى مرتبة الأساطير، واعتبروها نوعا من المحالفة التي كان ينشدها كل من قيصر، والملك العظيم. وقد عرّض هذا البضائع لرسوم باهظة (ابتزازية) كانت تدفع للعرب الذين صاروا فيما بعد يعتبرون نسبة المئة في المئة شيئا معقولا. على أن الفرس كانوا قادرين بالطبع على وقف التجارة عندما يريدون، ويومئذ يشعر العالم البيزنطي بالمرارة لأن الحرير كان لا يقدر بثمن عندهم.

يحدثنا بروكوبيوس أن جستنيان دخل في مفاوضات مع الاثيوبيين أي الأحباش حوالي سنة ٥٣٠-٥٣١م وكانوا دولة مسيحية قوية تحت حكم ملك اكسوم، واقترح عليهم شراء الحرير من الهنود ثم بيعه للرومان وبذلك يتحقق لهم أرباح جيدة، ويتخلص الرومان من دفع الاموال للعدو ويدفعونها لاصدقائهم الاحباش. وذلك من أجل استعمال هذا الحرير في صناعة الحلل الحريرية التي كانوا يسمونها «سيريك» بعد أن كان اسمها الأول

(×١) نقل بيوض دودة الحرير بوساطة راهبين نسطوريين في القرن السادس ٥٥٢ أو ٥٥٤.

«ميديك»... ولكن ذلك لم يكن يسيراً على الاحباش، لأن التجار الفرس كانوا يثبتون وجودهم في الموانيء التي ترسو فيها السفن الهندية يساعدهم على ذلك أنهم من بلاد متاخمة، وهناك يشترون كامل الوسق[٥]. وساعد على ذلك أن تجارة الحرير كانت تنقل في سفن ملاحوها من الهنود، كذلك كان الحرير ينتج في سهول الكنج الوسطى فلا هو من الشمال الغربي، ولا من بلاد التاميل الجنوبية الغربية، فكان أقرب شيء لموانيء بلاد فارس. وكان بالامكان نقل الحرير من هناك براً، إلى الساحل الغربي، الا أن الأمر لم يكن كذلك. بل كان يصدر من الساحل الشرقي القريب من مكان نتاجة في حوض الكنج، وكان الدوران حول شبه الجزيرة الهندية أمراً غير سهل بالنسبة للملاحين من اليونان والعرب. وهكذا كانت بلاد فارس قادرة على احتكار تجارة الحرير الهندي لنفسها. وهذا ما كان يفزع الامبراطورية البيزنطية جداً عند نشوب حرب مع الفرس. وقد تيسرت الأمور قليلا بعد الوصول إلى الصلح سنة ٥٣٢م. ولكن الحرب نشبت ثانية سنة ٥٤٠م.

لم تكن مفاوضات جستنيان مع الأحباش هي المحاولة الوحيدة للقضاء على الاحتكار الفارسي، بل شقت الطريق من البحر الاسود إلى سواحل بحر قزوين، ومن ثم إلى واحات صغديانه متجنبة المرور في أراضي فارس. ويبدو أن الفضل في فتح الطريق الشمالية القاصية، أو بالأحرى أعادة فتحها، يرجع إلى الأعمال الاستكشافية التي قام بها المبشرون النساطرة الذين عبروا آسيا الوسطى ونفذوا إلى أقصى الشرق وإلى الجنوب من بلاد الهند. ولما وصل كوزماس الى سيلان وجد الدين المسيحي مؤسساً هناك[٦]. وقد ساعدت المفاوضات مع القبائل التركية القاطنة الى الشمال من الحدود الفارسية على اتمام فتح تلك الطرق. وأهم من هذا المغامرة التي قام بها راهبان نسطوريان سنة ٥٥٢ (أو ٥٥٤م) اذ أحضرا معهما من الصين وهما عائدان براً بيوض دودة القز في قصبة جوفاء[٧]. ومن هنا بدأت صناعة حقيقية شاملة للحرير، تطورت في خطوات سليمة بعد التغلب على بعض الصعوبات في أول الأمر، وأصبح الغرب أقل اعتماداً على التجارة الاسيوية (في مادة الحرير)(١×).

جـ - الاحباش والبحر الاحمر:

لا غرابة في أن يكون شعب الحبشة المتكلمون بلغة سامية على اتصال وثيق لغة وثقافة مع أقربائهم المعينيين والسبئيين والحميريين في بلاد العرب الجنوبية، وعن طريق هؤلاء

(١×) اي صارت تربية الدودة ثم اتمام العملية كلها تتم في الغرب منذ القرن السادس الميلادي بينما كانت التجارة بالشرانق واستنسال خيوطها الحريرية عملية معروفة زمن ارسطوطاليس في القرن الرابع قبل الميلادي قبل الراهبين بتسعماية عام.

على اتصال مع الاكديين في بلاد ما بين النهرين وليس هناك من تعليل معقول لهذا الاتحاد سوى أن نفترض أن الاحباش مستعمرون جاءوا من بلاد العرب الجنوبية وحافظوا على لغتهم بحيث بقي فيها بعض الاشكال القديمة من اللغة العربية الجنوبية وكان ذلك في الوقت الذي كانت فيه أكد وبلاد العرب الجنوبية على اتصال تام. ومن الغريب أن يحافظ المستعمرون (المهاجرون) على أشكال لغوية وعادات أصبحت مهجورة في موطنهم الاصلي. ولا يوجد لدينا سجلات تاريخية لهذا الاستيطان على الرغم من وجود أدلة على اتصال قائم بين العرب والاقطار الافريقية القائمة على الساحل الآخر للبحر الأحمر. فقد كان في افريقيا (كما رأينا عند الكلام على سبأ في الفصل الخامس) سبأ نوبية تحمل نفس الاسم العربي الجنوبي، وأنها كانت على صلة مع الأم العربية. ويؤكد بليني نقلا عن جوبا أن هناك وجودا عربيا في أثيوبيا[1]. ونرى فيما بعد أن ملوك اكسوم الاحباش يحكمون سبأ وريدان وحمير، ولكن ذلك لا يشير الى وجود استعمار لأنه يشير إلى غزو متأخر بعد ذلك بكثير(×١). كانت أدوليس المعروفة الآن باسم زيلع[2] أصلح مكان لرسو السفن على الجانب الافريقي في الطرف الجنوبي للبحر الأحمر. وهو ميناء مشهور في تاريخ الحبشة القديم. لذلك يمكننا أن نفترض أن موجة الاستعمار بدأت هناك ثم انتشرت تدريجيا في الداخل حتى وصلت هضبة الحبشة الخصيبة. أما السكان الاصليون فكانوا من القبائل الحامية أو السامية. ولا يزال هؤلاء يشكلون قبائل التلال، ولعلهم قد تراجعوا إلى تلك المناطق القاحلة أمام الغزاة الذين احتلوا المراعي الخصيبة. لذلك لا يمكن الجزم بأن الاحباش الحاليين من الجنس السامي الصرف. وكل ما يمكن أن نقوله أن هناك قرابة في الثقافة واللغة بينهم وبين بلاد العرب الجنوبية. ولا شك أن الاستعمار تم على أيدي جماعات فيها كثير من العناصر العربية التي لا بد أن يكون بعضها لا يزال موجودا. وربما حصل تمازج مع الاصول الافريقية أو تزاوج مع العناصر الاصلية أو مع المهاجرين الافريقيين المتأخرين بحيث يمكن القول بأن العنصر العربي الخالص يشكل نسبة مئوية صغيرة فحسب. ولكن هذه الامور الفسيولوجية لا تعنينا كثيرا، بل نعتبر كلمة «جنس Race» دالة على أي جماعة متحدة ومن هنا يمكن القول بأن الغزاة قد فرضوا لغتهم وثقافتهم فكانت الجماعة الجديدة سامية طبعا(×٢).

(×١) الذين استوطنوا بلاد الحبشة هم العرب كما مر وكما سيمر، وهم وأحفادهم الذين غزوا وحكموا بلاد حمير سنة ٣٥٠ـ٣٧٨م ثم طردوا منها. د. أحمد سوسة ـ العرب واليهود في التاريخ.

(×٢) ولعل مقدمة هذه الفقرة (ج) دليل على عروبة شعب الحبشة وحكامها. وأضيف لذلك اسماء وردت في الكتاب: مثل ابرهة، والاشرم والمسيفع وذوقيل (Zoskales) أو ذو صقال والأول أغلب أو «ذا ناس (Azanas)» وناس مفرد نواس.

كانت الاسرة الخامسة والعشرون في مصر (٧١٢ـ٦٦٣ق.م) من أصل أثيوبي غير سامي، وذلك يعني أن الاستيطان العربي لم يكن قد بدأ آنذاك: اذ ليس معقولا أن يكون الملوك الاثيوبيون القادرون على فرض سلطانهم على مصر، عاجزين عن صد غزو أجنبي على بلادهم الاصلية(×١). المعروف أن نفوذ البطالمة (٣٠٤ـ٢٣ق.م) وصل إلى بلاد النوبة ومنطقة البحر الأحمر. ولكن ليس لدينا دليل واضح على ذلك في جميع الآثار اليونانية الموجودة سواء في أدوليس أو الحبشة، مع أن النفوذ اليوناني استمر حتى زمن متأخر. واقدم مرجع تاريخي لدينا هو نقش يوناني من القرن الثاني الميلادي وجد في أدوليس ونقش يوناني آخر للملك (أيزانا Aizanas) حوالي سنة ٣٤٠م وجده سالت (Salt) في اكسوم[٣]. وفيه يوصف ذلك الملك بأنه حاكم أكسوم وسبأ وريدان وحمير. وتوجد هذه الالقاب في أقدم نقشين أثيوبيين نشرهما (دلمان[٤] Dallman) ولكنهما من القرن الخامس الميلادي حين كانت بلاد الحبشة نصرانية. وكان للحبشة انتاج أدبي وافر في العصر المسيحي، يغلب عليه الطابع اللاهوتي وان كان لا يخلو من بعض الاخبار التاريخية عن ذلك العصر، بشكل يبعد قليلا جدا عن مرتبة الاساطير، ومتأثرة على الاكثر بالمهاجرين اليهود في الأزمنة المتأخرة، خصوصا فيما يتعلق بتاريخ فترة ما قبل النصرانية. ويشير الدليل البحري[٥] حوالي نهاية القرن الأول الميلادي الى أحد ملوك اكسوم المدعو (زوسكاليس)★ ويقول عنه «وهو كخبير في الشؤون اليونانية»، مما يدل على انتشار الثقافة اليونانية إلى الداخل إما من أدوليس أو قادمة من الشمال خلال النوبة زمن البطالمة أو في أوائل العصر الروماني وتدل كذلك على وجود مملكة في بلاد أكسوم في القرن الأول الميلادي.

يتراءى لي أن الغزاة الساميين(×٢)، أنشأوا مستعمرات متعددة، استطاع ملوك

(×١) هذا الافتراض قد يبدو سليماً لأول وهلة. ولكن لماذا لا نفترض أن الاسرة الخامسة والعشرين الاثيوبية كانت من العرب الذين استوطنوا الحبشة قبل قيام تلك الاسرة. وقد يؤيد ذلك ـ وجود كلمة «سبأ» في التوراة سواء الاصلية أو التي كتبت في زمن السبي في القرن السادس قبل الميلاد وهي تعني (سبأ الموجودة في افريقيا في بلاد كوش (اصحاح ٤٣ آية ٣، ١٤/٤٥) وذكر المؤرخ اليهودي يوسيفوس (ت. قديم ٢، ١٠، ٢) حيث يقول هناك موقعان لهذا الاسم العربي شبا والافريقي سبا ـ أوليرى. ملاحظات الفصل الخامس ـ فقرة ـ أ ـ سبأ.

(×٢) المقصود بهم العرب الجنوبيون.

★ زوسكاليس ـ شرحناه قبلاً اما ذو صقال أو ذو قيل أ ي صاحب الملك. ولعله الملك الأكسومي الذي أشرنا إليه في الفقرة التالية لأن الناريخين متقاربين ومتوازيين مع كتاب الطواف الذي يسمى بالدليل البحري (باليونانية).

احداها ـ أكسوم ـ[٦] في بداية التاريخ المسيحي أن يوسعوا نفوذهم ويمدوا سلطانهم الى البحر بما في ذلك ميناء أدوليس (زيلع) وبذلك أصبحوا معروفين لليونان الذين كانوا يجوبون البحر الأحمر. كان في بلاد اكسوم في القرن الرابع الميلادي «كنيسة»(×١) ودرجة لا بأس بها من الثقافة الهلينية ساعد على وجودها قيام النصرانية وان كانت دخلت تلك الثقافة قبل ذلك بتأثيرات سابقة. فقد كان من سياسة جستنيان أن يضمن وحدة الكنيسة وأن يعتبر جميع النصارى مهما اختلفت بلادهم اكثر من حلفاء، بل رعايا عليهم واجب الولاء مقابل الحماية، التي أظهر جستنيان اكثر من مرة بأنه مستعد لمنحهم اياها. وطبقا لهذه السياسة بدأ مفاوضاته مع الحبشة وحاول أن يجعل منها وسيلة لتحطيم الاحتكار الفارسي، ولم يأت ذلك التفاوض بنتيجة، ولكنه على الأقل جعل بلاد الحبشة على اتصال بالعالم الهليني.

عبرت النصرانية من مصر إلى بلاد النوبة حيث نشأت واستمرت قائمة حتى القرن السادس عشر[٧]. ثم اتجهت جنوبا إلى بلاد الحبشة حيث لا تزال الكنيسة موجودة. وكانت الكنيستان النوبية والحبشية تمثلان رأس سهم للثقافة اليونانية وكانتا نشيطتين في أعمال التبشير. وتشاهد لمحات مثيرة من أثر النصرانية والبيزنطية عبر بلاد السودان حتى حوضي بنوي والنيجر وربما تجاوزتهما حتى بلاد الكنغو. وقد وصلت قبل القرن التاسع بزمن عن طريق السودان إلى دارفور ثم إلى غانة في نيجيريا الشمالية، وإلى بنين ثم الى بلاد «يوربا Yoruba» ولا يزال كثير من المعتقدات والطقوس المسيحية قائمة بين القبائل القديمة في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من خط النفوذ الاسلامي الذي وفد من جهة مغايرة تماما من الشمال الغربي. فقد استمر الاعتقاد في بورجو (Borgu) بقيام «كسرى(×٢) يهودي بتقديم نفسه فداء للبشرية» حتى منتصف القرن التاسع عشر، وهناك مرقعات جلدية ونحاسية من تلك الجهات تحمل الطابع البيزنطي والنصراني بكل وضوح. وهذا ما يبرر الاعتقاد بأن مراسيم الاحتفالات الفخمة عندهم مستوحاة مما كان يجري في البلاط البيزنطي[٨].

تجد آثار النفوذ الحبشي في بلاد العرب منذ القرن الرابع الميلادي فقد قامت مملكة أكسيوم على ما يظهر حوالي سنة ٣٤٠م. وكان الملك يعتبر نفسه حاكما على اكسوم وحمير وريدان وسبأ. والثلاث الأخيرة تقع في بلاد العرب الجنوبية(×٣)[٩].

(×١) كنيسة بمعنى مؤسسة نصرانية.

(×٢) المراد بكسرى معنى الملك وهم يعنون الملك اليهودي وربما عنوا «المسيح» (ع) لأنه ظهر من اليهود.

(×٣)ذكر في البحث عن «حمير» في الفصل الخامس أنها دخلت تحت حكم ملك اكسوم حوالي ٣٥٠م. وهنا يقول قامت دولة اكسوم ٣٤٠م أي بعد ١٠ سنوات فقط من قيامها. وكما ذكر المؤلف كانت=

هناك آراء متضاربة حول انشاء الكنيسة الحبشية. فيقول «روفينوس Rufinus» بأن الاصل يعود إلى مساعي أسقف اكسوم «فرومنتيوس Frumentius» الذي سامه القديس أثاناسيوس قبل سنة ٣٦٨م بفترة وجيزة. وقد عزز هذا الرأي كل من سقراط، وسوزمون وثيودوريت[١٠]. وكان أسقف اكسوم رئيساً لأساقفة الكنيسة الحبشية، ولكنه يستمد وسامته من بطريرك الاسكندرية كما هي الحال حتى الآن، حيث تعتمد الكنيسة الحبشية اعتمادا كليا على الكنيسة المصرية، بل كانت تعتبر زمن جستنيان جزءاً من كنيسة الاسكندرية. وقد تحولت كنيسة الاسكندرية بعد الانشقاق حول طبيعة المسيح إلى المذهب اليعقوبي وهي كذلك حتى اليوم.

وقد قام ملك اكسوم سنة ٥٢٢م، وبايعاز من الامبراطور البيزنطي، باتخاذ خطوات فعلية يعزز بها سيطرته على بلاد العرب الجنوبية وكانت مملكة حمير في حالة من الهوان جعلتها فريسة سهلة للأحباش نتيجة لطبيعتها الاقطاعية وفقدان السيطرة المركزية واستمرار المناوشات بين مختلف الأمراء. وقد كان الاحباش منذ زمن يتقاتلون مع الحميريين من أجل السيطرة على المنفذ الجنوبي للبحر الأحمر الذي تعتمد عليه تجارة الغرب البحرية. وقد وصفت الأخبار الاسلامية حملة ٥٢٢م بأنها انتقام لمذبحة نصارى نيجران التي تمت على يد الطاغية اليهودي ذي نواس ونسبت الأخبار الى أن جستنيان(×١) هو الذي أوعز إلى رئيس أساقفة الاسكندرية (البطريرك) أن يوجه ملك اكسوم لغزو بلاد العرب وحماية النصارى هناك. وهذه الأخبار مبنية على معلومات نصرانية حقيقية مستقاة من القرن السادس الميلادي ومصدر هذه القصة موجود في الكتاب الآرامي «كتاب الحميريين» الذي نشره (أكسل موبرج Axel Moberg) في لند Lund سنة ١٩٢٠ـ١٩٢١[١١] في الرسالة السريانية لسمعان البيت أرشامي[١٢] Beth Arsham وكذلك «استشهاد (القديس الحارث[١٣] S.Arethas) المكتوبة باليونانية وكلها تصف تعذيب نصارى نجران، ومعاناة الشهيد الحارث(×٢). ولما كان ملوك اكسوم قبل هذا التاريخ بقرنين من الزمان (٣٤٠م) يعتبرون حمير وسبأ رعايا لهم فإن هذه الحملة لم تكن غزوا بالمعنى المعروف. بل كانت حملة تأديبية ثبت فيها الاكسوميون سلطانهم وفرضوا احترامهم. ومن

= مجرد نزول على شواطىء تهامة. فان الاحباش طردوا سنة ٣٧٨م. د. سوسة. وقد استغرب الهمذاني ورأى أن الاحباش دون هذا بالنسبة للحميريين حيث قال العرب أرفع مكاناً من أن يدخلهم الحبشة، وإنما دخلوا من ساحل جدة إلى مكة أ.هـ. (صفة جزيرة العرب ص: ١٥ طبعة أولى ١٩٧٤ـ دار اليمامة.

(×١) امبراطور الحملة هو جستين ٥١٩ـ٥٢٧م أما جستنيان فيبدأ عهده بعد بداية الحملة ٥٢٧ـ٥٦٥م.

(×٢) راجع سيرة بن هشام حول نصارى نجران.

الملاحظ أن كل هذه الوقائع تؤكد صداقة ملك أكسوم «للحارث» الذي يوصف بأنه الحاكم الحبشي لنجران. وهكذا فإن دوافع هذه الحملة لم تكن كلها بسبب ايعاز جستين أو انتصاراً للعقيدة النصرانية. ورد في كتاب «الشهيد» اليوناني «Martyrium» أن الحملة الحبشية نقلت بالتعاون مع سفن بيزنطية في البحر الأحمر.

يعطينا «نيسيفوروس كليستوس»[١٤] رأيا مخالفا عن كيفية نشوء الكنيسة الحبشية، اذ يقول ان ملك أكسوم سمع عن تعذيب نائبه، وكان الملك وثنيا، وعن ظلم «ذى نواس» فنذر أن يتنصر إذا أعانه الله على غلب الحميريين، واجبارهم على الاستسلام. ثم يأتي «حنا الاسيوي John of Asia» ويشير إلى هذا النذر ويذكر رسالة السمعان، مما يدعو إلى عدم رفض هذا الرأي كليا: فلعل النصرانية وصلت الى الحبشة في القرن الرابع الميلادي في حين أن الاسرة الحاكمة لم تعتنقها الا في القرن السادس الميلادي، مثلهم في ذلك مثل ملوك الحيرة. يؤيد هذا ما جاء في نقش (بنت Bent) الذي لاحظه سنة ١٨٩٢ وهو يعود إلى ما بعد سنة ٤٠٠م وفيه اشارة إلى الالهة عشتار أي الى وجود أحباش وثنيين في نهاية القرن الرابع[١٥].

أصبح البحر الأحمر بعد حملة ٥٢٢م تحت سيطرة الأحباش، ولو أنهم كانوا يتظاهرون بأنهم منتدبون من قبل البيزنطيين. وبقوا يسيطرون على جنوب البحر الأحمر، حتى ظهور الاسلام ويتحكمون في التجارة مع افريقيا، وربما في التجارة مع الهند كذلك[١٦]. وقد أشار «فرانكل Frankel» إلى أن الاصطلاحات العربية البحرية القديمة هي كلمات دخيلة من الحبشية[١٧]. وذكرت «سيرة بن هشام» أن المسلمين الذين هاجرّوا إلى الحبشة،زمن النبي محمد (ﷺ) انتقلوا اليها بسفن حبشية[١٨]، أي أن مصالح بيزنطة البحرية تقلصت في عهد جستنيان وتحولت الى أيدي الاحباش الذين كانوا يتظاهرون بأنهم أعوان للبيزنطيين في حين كانوا في حقيقة الأمر منافسين أقوياء جديدين يهدفون الى السيطرة على طريق الهند. وتعزو الأخبار العربية دخول مرض الجدري بلاد العرب إلى هؤلاء الغزاة الأحباش[١٩].

د. ـ وباء الطاعون:

ذكرنا أن وباء الجدري جاء في الغالب إلى بلاد العرب عن طريق الحبشة. ولعله لم يكن غريبا على البلاد الاوروبية ايضا، إذا كان هو الوباء الكبير الذي نزل بأثينا في عهد بريكليس. وفي عهد جستنيان دهم الامبراطورية الرومانية وافد مخيف لا يعدو أن يكون الطاعون الدبلي الذي يحتمل أن يكون عبر الى الامبراطورية من الشرق الاقصى حيث

يستوطن هناك. وتوالى حدوث الاوبئة في أوروبا من وقت لآخر منذ عهد جستنيان حتى القرن السابع عشر، وأشهرها وباء الموت الاسود في القرن الرابع عشر، وطاعون لندن الكبير سنة ١٦٦٥. ولم تنظف أوروبا من الأوبئة منذ دخولها اليها في القرن الرابع عشر حتى القرن الثامن عشر حين ساد الاعتقاد بأنه تمّ القضاء على الأوبئة لولا انتشار طاعون هونج كونج الكبير سنة ١٨٩٤ الذي أكد عدم خلو أوروبا من الأوبئة حتى ذلك الحين.. وقد وصف بروكوبيوس طاعون القرن السادس وبين طبيعة هذا المرض إلى حد تسهيل تشخيصه بكل دقة وثقة، دفعت بعض الناس إلى تقدير بروكوبيوس كعالم في الطب، وانتقل علمه إلى «ايفاجريوس» الذي أصيب بالطاعون الدبلي وهو في سن السادسة سنة ٥٤٠م وفقد فيما بعد عددا من أولاده وزوجته وكثيرا من أقربائه وخدمه اثناء تفشي ذلك المرض اثناء هجماته المتتالية التي استمرت متقطعة حتى زمن كتابته مدة ٥٢ سنة[1] يقول ايفاجريوس في وصف هذا الوباء «لقد نشأ في بلاد الحبشة» أما بروكوبيوس فيحدد المكان بدقة اكثر ويقول أن موطن هذا المرض هو الفرع الشرقي لنهر النيل[2]. ويبدو أن معاصريه من الكتاب افترضوا أن هذا المرض يتوالد عفويا هناك، وهو أمر لا يسهل تصديقه. وليس من شك في أن ظهور الوباء في تلك المناطق يمثل آخر حلقة في السلسلة التي تربط هذا الوباء بالشرق الاقصى. اذ بالامكان الحدس بأن المرض كان ينتقل مع البضائع القادمة من الهند والتي كانت تفرغ عند المصب الشرقي للنيل (Palusiac Br.) لتنقل بعد ذلك إلى السوق البيزنطية. وقد قررت لجنة الطاعون سنة ١٩٠٨ أن هذا المرض الذي يصيب الانسان ينتقل اليه من الجرذان المصابة عن طريق البراغيث التي تهجر الجرذان وتدخل ملابس الاشخاص وأجسامهم أو تختبىء في أمتعتهم. وهكذا كانت تتم عملية انتقال مرض الطاعون الدبلي من الشرق الاقصى إلى مصب نهر النيل. ويعتبر ظهور المرض دليلا اضافيا على أن البحر كان طريقا لتجارة الهند في القرن السادس. ولا شك أن مسار الاوبئة وأثرها على تاريخ البشرية السياسي والاقتصادي أقوى كثيرا من ويلات الحروب والتوسع الاستعماري، وانه لمن المؤسف ان يكون هناك امور كثيرة في هذا الحقل الواعد لم يتم التغلب عليها بعد(×١).

(×١) زمن نشر الكتاب ١٩٢٧م.

ملاحظات الفصل السادس

أ ـ عصر جستنيان

١ ـ «البنية» (أو الطبوغرافية) المسيحية «نشر في المجلد ٨٨ من عمل «مجني» التعاليم والإنجازات اليونانية؛ وكذلك في إي أو. ونستدت، أما كتاب «الطبوغرافية المسيحية فهو مطبوع في كمبردج ١٩٠٩.

٢ ـ أول طبعة من «بروكو بيوس» قام بها هويشيليوس في أوكزبرج سنة (١٦٠٧) وتلتها ترجمة انجليزية سنة (١٦٨٧) وتوالت الطبعات بعد ذلك، أحسنها طبعة دندورف في جماعة الكتاب المقدس، تاريخ بيزنطة ـ بون ١٨٣٣ ـ ١٨٣٨. وهناك طبعة مع ترجمة انجليزية لمكتبة لويب الكلاسيكية (٦ مجلدات صدر منها ٣ مجلدات حتى ١٩٢٧).

٣ ـ إيفاجريوس «التاريخ الديني» طبع لأول مرة ستيفانوس سنة (١٥٤٤) وأحسن من ذلك طبعة «فاليسيوس (١٦٧٣). وهي متيسرة الآن ضمن منشورات ببديز وبارمنتييه للكتاب بيوري «النصوص البيزنطية» لندن ١٨٩٨.

٤ ـ أول طبعة لاجاثياس كانت في لندن سنة ١٥٩٤، وأحسن طبعة كانت لنيسبور مع جماعة الكتاب (المقدس) «تاريخ بيزنطة».

ب ـ تجارة الحرير

١ ـ هيرودوتس: ٨٤،٣، ١١٦،٧، بروكوبيوس «الحرب الفارسية» ٢٠،١.

٢ ـ سترابو: ٢٠،١،١٥.

٣ ـ أرسطو طاليس: «تاريخ الحيوان ١٩،٥، بليني: ت. ط ٢٧،٢٦،١١.

٤ ـ ر. سي. رولي «صناعة الحرير وتجارته» لندن ١٩١٩.

٥ ـ يروكوبيوس: «الحرب الفارسية» ٩،٢٠،١ ـ ١٠.

٦ ـ تابروباني (سيلان) كوزماس طباعة ونستدت ص١١٩.

٧ ـ بروكوبيوس «الحرب القوطية» ١٧،٤؛ زوناراس: ٦٩،١٤،٢.

ج ـ الاحباش والبحر الأحمر:

١ ـ بليني: ت. ط ٢،٣٢،٦.

٢ ـ أدوليس (بليني) أدولي (بروكوبيوس، ننوسوس) الحرب الفارسية ١٩،١، أدولح

(كتاب الطواف) وبطلميوس (٨,٧,٤) وأدروليتان بالكامل (بليني) ت. ط. ٣٤,٢٩,٦

٣ - بويخ مجموعة النقوش اليونانية. ٥١٥:٣ وما بعدها.
٤ - المجلة الألمانية ZDMG ٣٥٦,٧.
٥ - كتاب الطواف ٥.
٦ - أكسوميش (كوزماس) و(ستيفانوس)، أو كسوميس (بروكروبيوس)، أكسومي، (بطلميوس)، أوكسومىء (ملالاس)، وفي كتاب الطواف (استعمال قديم) أو أمكسوميتاي.
٧ - قابل الفاريز: رحلة صوب الحبشة راموسيو الأول البندقية ١٥٥٩. ب. بي جريفيث، النصوص النوبية خلال الفترة النصرانية ١٩١٣ جي رويدر في مجلة التاريخ الكنسي ٣٦٤:٣٣ الخ.
٨ - قبل ل. فروبينيوس: صوت افريقيا، لندن ١٩١٣.
٩ - راجع النقوش اليونانية رقم ٣ أعلاه.
١٠- روفينوس «التاريخ الديني» وأخذ عنه سقراط، وسوزمون، وثيودوريت، حسب الترتيب التالي: ٢٢,١/٢٤,٢/١٥,١/٩,١.
١١- أ. موبرج: «كتاب الحميريين» لند (١٩٢٠ - ١) ونفسه مع مقدمة وترجمة انجليزية - لند - ١٩٢٤.
١٢- السمعان: «المراجع الشرقية» ٣٦٤,١؛ لاند: «الحكايات السريانية» ٣٥٥,٣.
١٣- بواسونار: «الحكايات اليونانية» ١,٥.
١٤- نيكيفوروس كاليستوس لي ميجني «التعاليم اليونانية» ١٤٧: ٣٠١-٤.
١٥- د. هـ مولر النقوش الضريحية الحبشية فيينا (١٨٩٤) ٣٨,٣٧.
١٦- كوزماس: ونستدت ٧٠ (= ٩٩ في الطبعة الألمانية) وقد سيطروا على تجارة البحر وبلاد الهند وفارس.
١٧- فرانكل: غريب الآرامية ٢١٤,٢١١,٢١٠.
١٨- ابن هشام ٩,٧٨٣-١٠.
١٩- ابن هشام ٤٦١، الأزرقي ٩٧,٣ - ٨؛ الواقدي (كريمر) ٨,١٠٦، الطبري «تاريخ الرسل والملوك» الثاني.

د - وباء الطاعون

١ - بروكوبيوس: «الحرب الفارسية» ٢٢,٢ - ٣؛ إيفاجريوس ٢٩,٤.

٢ ـ بروكوبيوس: «الحرب الفارسية» ٦،٢٢،٢ وعلى الجانب الطيني «البلوزيوم» لمصب نهر النيل في البلاد المصرية.

الفصل السابع
«النصرانية والعرب»

أ ـ العنصر اليوناني في النصرانية:

لعبت النصرانية دورا مؤكدا في نشر الثقافة الهلينية بين العرب، وهيأت الأرض للاسلام. وهي واحدة من الديانات الشرقية التي كانت منتشرة في الامبراطورية الرومانية في عهد الولايات الأولى. وكان لها ما يماثلها في أول انتشارها من مثل عبادة ايزيس، ومثراس، وعبادة النجوم الكلدانية، وأهمها العبادة الأولى حيث نجد تنظيما لديانة هلينية خالصة منقولة عن العقيدة المصرية. ولو أن هؤلاء الاتباع الجديدين لم يلاقوا تقديرا، كشركاء في المعتقد، من المصريين أول عبدة ايزيس. وقد تطورت هذه العبادة الهلينية المبنية على أساس من التوحيد والأخلاق المتناسبة مع الهلينية الجديدة، وبشكل خاص مع الفلسفة الاسكندرية المتفرعة من منبعها الشرقي كليا، ولدرجة لا يكاد يميزها أتباعها الشرقيون الاصليون. وقد تطورت بشكل مواز للنصرانية التي هي من أصل شرقي أيضا ونواتها قصة شرقية، وان تكن تطورت على أسس جديدة يونانية أبعدتها عن اليهودية التي كانت أساسا لها. فقد اتصلت منذ البداية بالجناح الايسر من اليهودية الهلينية التي كانت ترمي الى التخلي عن شريعة اللاويين، وقد تشبعت بروح الانسانية التي اشتقتها من الفلسفة اليونانية السائدة وبخاصة الرواقية(× ١) (Stoicism).

يبدو التطوير الهليني للنصرانية جليا في أعمال الرسل، والرسائل في العهد الجديد. حيث نجد وصفا لتزايد التنافر بين اليهود الملتزمين بشريعة اللاويين، وبين النصارى الذين يقودهم القديس بولص(× ٢) والذين تقدموا بشجاعة غير مكترثين بطقوس الشعائر التقليدية ولوازمها أو المحتجين أو المتشككين في المجتمع النصراني الذين كانوا ينظرون إلى السياسة البولصية نظرة قلق وانزعاج. وفي ذلك الحين كانت اليهودية الفلسطينية رجعية

(× ١) الرواقية (Stoicism) ـ فلسفة العالم زينون التي تقوم على التحرر من الانفعالات المفرحة أو المحزنة، والخضوع لحكم الضرورة القاهرة.

(× ٢) خلف المسيح تلاميذه (الحواريون) ومنهم كتّاب بعض الرسائل ومنهم الأربعة الكبار الذين كتبوا الاناجيل الأربعة (يوحنا، ومرقص، ومتى، وبرنابا). ومنهم الرسل الذين كتبوا الأعمال مثل بولص، وله ١٤ رسالة ـ قطع رأسه في روما سنة ٦٧م في عهد نيرون.

وتتجه إلى الابتعاد عن الحياة الهلينية بساحل البحر الأبيض إلى جو عِبْريّ قومي. وكان هناك في العهد الجديد انفصال ظاهر ومحدد. ثم جاء الانفصال التام مع تخريب الهيكل سنة ٧٠ ميلادية. إذ كان للهيكل قبل ذلك كيان ظاهر يضمن ولاء اليهود والنصارى. ولما زال الهيكل انفصمت آخر الروابط بينهما. ولا ينكر وجود بقايا من النصرانية المتهودة بعد ذلك التاريخ خصوصاً في سوريا وبلاد ما بين النهرين. فقد لاحظ القديس يوحنا كرايسوستوم مثل هذه البقايا في أنطاكيا حوالي نهاية القرن الرابع. وكان ذلك نتيجة للنفوذ اليهودي الذي بدا في وقت متأخر والذي لا يدل البتة على أنه من بقايا الأوضاع الأولية القديمة[١].

[نمت النصرانية وتطورت في عالم البحر الابيض المتوسط اليوناني الروماني وتنفست في جو يوناني صرف، وارتوت من معين الثقافة اليونانية الصافي. ولما انتشرت بالتدريج من الساحل الى الداخل فإنها بدأت تستعمل اللهجات المحلية المختلفة في تدوين العهد الجديد مع العلم أن اللهجة السائدة بين النصارى كانت مملوءة بالكلمات اليونانية الدخيلة أو المستعارة. كما كانت الآداب مملوءة بالأساليب التعبيرية المشبعة بالتأثير اليوناني: حتى الكنيسة الرومانية الأولى كانت اليونانية لغة لها. ويقدم لنا كتاب القرن الثاني من النصارى نصرانية هلينية خالصة، حتى كتب العهد القديم لم يكن يتداول منها إلا الترجمات اليونانية]

طورت الكنيسة الكاثوليكية تنظيماتها وتعاليمها الدينية في هذا الوسط الهليني وضمن حدود الامبراطورية الرومانية على أسس يونانية رومانية. فاقتبست تنظيماتها من الادارة المدنية السائدة في الامبراطورية. وبنت تعاليمها الدينية على الفلسفة اليونانية المعروفة في العالم اليوناني آنذاك. وكان هناك، وهو صحيح، مجتمعات نصرانية خارج الامبراطورية، كان بعضها يتمتع بحرية أوسع مما هو تحت حكم الامبراطورية. وقد طور هذا البعض سياسة مركزية قوية، ازدهرت قبل الأوان. ولما توسعت الامبراطورية الرومانية نحو الشرق وأدمجت فيها مملكة (الرها Edessa) سنة ٢١٦م وجدت الكنيسة النصرانية هناك مزدهرة بكل معنى الكلمة. ولما تخلى الفرس(×١) (Parthians ـ الفرتيون) عن خمس ولايات سنة ٢٩٧م وجد الرومان كنيسة وأسقفا في نصيبين (Nisibis) في المقاطعة المتنازل عنها. وكانت النصرانية قد انتشرت في بلاد ما بين النهرين في القرن الثالث. ويبدو أن هذه الكنيسة، كما تبين مواعظ (أفراتيس Aphrates) (٣٣٧ـ٣٤٥) كانت ذات تعاليم بدائية فجة[٢].

(×١) كان الحكم سنة ٢٩٧م للساسانيين ـــ بدأ حكمهم سنة ٢٢٧م بعد الفرتيين.

وكذلك كانت تعاليم مجمع سلوقية (٤١٠م) دون مستوى تلك التي طورتها الكنيسة الكاثوليكية. وكان مثل هذه التعاليم في بدائيتها وسطحيتها مثل الكنيسة (الكلتية Keltic) الأولى وبشكل خاص في كنيسة هيرماس[٣]. والظاهر أن الكنيسة الكاثوليكية نمت وترعرعت في مدن الامبراطورية الكبيرة ومن هناك انتشرت في كل الجهات إلى أن تمكنت بشيء من الصعوبة من امتصاص البقايا القائمة من حياة الكنيسة في تلك الحقبة ويتناسب هذا مع رأي البروفيسور سترزيجوفسكي حول هندسة عمارة الكنائس[٤]. ففي بلاد ما بين النهرين تطور بناء الكنائس التي كانت تتمتع بالحرية في العهد الفارسي الى نوع من البناية ذات القباب الصغيرة نظراً لندرة الخشب هناك. ولما تحقق التسامح الديني بالنسبة للكنيسة زمن الامبراطورية الرومانية، فضلت الكنيسة الرومانية بناء السقف على نمط البازليقا(×١) ذات السقف الخشبي المستطيل كما هو معروف في بنايات المحاكم، وفرضت هذا الطراز، بعد أن أدخلت عليه بعض التحسينات، على كنائس بلاد ما بين النهرين ضاربة بفن عمارتها الاصلي عرض الحائط. ويمكن تصور انتشار الكنيسة كالماء يرمي فيه بالحجر، تتباعد فيه الموجات عن المركز وكلما بعدت الموجة زادت «يوننة» عن سابقتها، حيث يطغى ما تحمله من رواسب جديدة على الخصائص الاصلية ولو بغطاء ظاهري أو سطحي.

تأسست المدارس التبشيرية على أسس مستوحاة من الهيئات الفلسفية. وكان ذلك نوعا من الظواهر التي تأثرت بها الكنيسة الشرقية بالهلينية. وكان أقدم هذه المدارس وأبرزها المدرسة الشفوية(×٢) «Catechetical» التي كانت موجودة في الاسكندرية منذ القرن الثالث. ولما نفي «أوريجن Origen» سنة ٢٣١م من الاسكندرية قام بتأسيس مدرسة في قيصرية. ودشن «مالشيون Malchion» مدرسة مثلها في انطاكية سنة ٢٧٠م. ولما انتزعت نصيبين من أيدي الفرس سنة ٢٩٧م تأسست فيها مدرسة تبشيرية أيضاً، ولكن باسلوب مختلف لأن لغة تلك المنطقة كانت السريانية. فكرست المدرسة نفسها لتعليم اللاهوت والفلسفة اليونانيين لاولئك الذين اعتادوا على التعامل باللغة السريانية. وتم ذلك باحدى وسيلتين: بتعليم اليونانية من جهة، أو بترجمة المراجع اليونانية الى اللغة السريانية من جهة أخرى. واللغة السريانية بحد ذاتها شكل من أشكال الآرامية لغة الآداب النصرانية. وكانت الارامية منتشرة في آسيا بشكل عام، غربي نهر دجلة. بينما كانت اليونانية

(×١) طراز البازليقا Basilica سقف على شكل مثلث من الامام والخلف بينهما سطحان مستطيلان وتحت الضلع «القاعدة» شبابيك للانارة كما يشاهد في سقف المسجد الاقصى والحرم الابراهيمي وكثير من الكنائس وبيوت القرميد.

(×٢) المدرسة الشفوية أي التعليم الديني بطريقة السؤال والجواب.

محصورة في أنطاكيا والولايات اليونانية والساحل. وكانت السريانية التي يستعملها الكتاب النصارى تحوي عدداً من الكلمات المستعارة من اليونانية. وكان كثير من الأدوات اللغوية يونانية (وان كانت في معظمها زيادات) وإلى حد ما تقليد للأساليب الأدبية اليونانية. وكثير منها محسنات لفظية زالت مع الزمن ولم تترك أثرها في اللهجات السريانية التي لا تزال سارية في شمال بلاد ما بين النهرين ومواقع أخرى كثيرة في جبال لبنان الشرقية(×١). كانت الرها المركز القديم لكنيسة ما بين النهرين ومنها انتشرت الى نصيبين وسلوقيا وأماكن أخرى. أما اختيار نصيبين كمركز حدودي لتأسيس مدرسة فيها فقد كان وراءه دافع تبشيري.

تم منح التسامح الديني للكنيسة رسميا سنة ٣١١م من قبل الامبراطور قسطنطين. وكانت الكنيسة الكاثوليكية آنذاك منطقة منظمة على أساس مقتبس من الادارة المدنية للامبراطورية ثم استكمل هذا التنظيم بعد قليل بتشكيل أبرشيات قطرية وتحديد المراكز الدينية مثل مرتبة الأب الأكبر (البطريرك) ثم رئيس الأساقفة والأسقف إلى آخر السلسلة. وتطور علم اللاهوت، وأظهر تبني التعاليم النصرانية الأفلاطونية الجديدة والارسطو طاليسية الجديدة اللتين كانتا سائدتين في المجتمع الفلسفي الانتقائي(×٢) - وكان المعلقون المتأخرون يعتقدون أن بالامكان تسوية خلافات أفلاطون وأرسطو في فلسفتيهما - فانتقلت القيادة الى مدرسة الاسكندرية. ولم يسلم الوضع من أن تظهر فيه ميول معاكسة خفيفة في أنطاكيا. ولكن الخلافات تلك لم تنشط بشكل ظاهر.

ب - الكنيسة السريانية:

لم يكن التسامح الديني واعتراف الدولة - الذي لم يقترن بالموافقة الرسمية قبل سنة ٣٧٥م - بالخير الخالص للمسيحية عموما. كذلك لم يكن اعلان قسطنطين الحرب على فارس ومناداته بأنه بطل النصرانية تأكيدا لاحترام الكنيسة. فقد كان التسامح الديني موجودا في بلاد فارس، وجاءت هذه التصرفات اثارة لشكوك الفرس في النصارى واعتبارهم، على الاقل، حلفاء لاعدائهم الرومان. «إنهم يعيشون في بلدنا» كما قال ملك الفرس، «ولكنهم يشاركون عدونا قيصر أفكاره». ومن هنا بدأ الاضطهاد خصوصا في

(×١) جبال Anti-lebanon هي جبال السلسلة الشرقية من جبال سوريا ولبنان والتي هي استمرار لجبال الأردن الواقعة الى الشرق من الغور جنوبا وإلى الشرق من البقاع والسهول الشمالية في سوريا.

(×٢) الانتقائي: من لا يتبع نظاما واحدا في الفلسفة الخ. بل ينتقي كل ما يعتبره الافضل في جميع الانظمة. «Eclectic».

المناطق القريبة من الجيش وفي البلاط وفي المناطق الحدودية المجاروة للامبراطورية الرومانية. ولم يكن الاضطهاد موجها للنصارى حول معتقداتهم، بقدر ما كان موجها للذين كانوا يعتبرون موالين للعدو. ولم يعش قسطنطين حتى ينفذ هذه الحملة المزمعة كذلك كان موته من سخريات التاريخ، فحين تقرر تنفيذ الحملة فيما بعد كان قائدها الامبراطور «جوليان» عدو النصرانية اللدود(×١).

لا نرى ضرورة لمتابعة تفاصيل تلك الحملة المشؤومة ونكتفي أن نذكر أن جوليان مات فخلفه «جوفيان» الذي كان محظوظا حين حصل من الفرس على صلح مشين للروهان وعاد ببقية الجيش سنة ٣٦٣م وقد تنازل عن مناطق هامة لفارس، كانت مدينة نصيبين ضمنها، ولم تقبل مدرسة الدعوة التي فيها ان تبقى تحت الاحتلال فهاجرت الى الرها (Edessa). تخلصا من حكم ملك عرف عنه كره النصرانية.

ولما جاء الامبراطور «فالينس Valens» خلفا لجوفيان، خطط لحملة جديدة لبلاد فارس وأوقع بالفرس سنة ٣٧٣م هزيمة منكرة وبعد ست سنوات مات شاهبور الثاني* الذي حكم بلاد الفرس من ٣٠٩ـ٣٧٩م في عصر معاد للروم اعتبر عصر الاضطهاد الديني وجاء بعده أخوه أردشير الثاني (٣٧٩ـ٣٨٣م). وتابع عمليات الاضطهاد. ثم جاء بعده ملكان دخلا في تحالف مع الامبراطور البيزنطي، وعاملا النصارى بكل محبة. هذان الملكان هما شاهبور الثالث (٣٨٣ـ٣٨٨) وبهرام الرابع (٣٨٨ـ٣٩٩م). أما يزدجرد الأول الذي تسلم العرش سنة ٣٩٩م. فكان اكثر توددا للنصارى والبيزنطيين واستقبل سفارتهم التي كان مرافقا لها الأسقف «ماروثا» كمترجم ومستشار. وبعد أن أنهى ماروثا المراسم الرسمية للضيافة في البلاط الفارسي، توجه إلى الأسقف اسحق في سلوقيا وأقنعه سنة ٤١٠ أن يدعو الى اجتماع مجمع الكنائس تحت رعاية الملك يزدجرد حيث تمت الموافقة على اقرار النظام الذي طورته الكنيسة الكاثوليكية ليطبق على النصارى المقيمين في حدود الامبراطورية الفارسية، وأن يقطع الاساقفة أبرشيات معينة تحت امرة أسقف سلوقيا الذي لقب بالكاثوليكوس أي رئيس الأساقفة (البطريرك) وصار يمارس حقوقه البطريركية. وكان ذلك كله تمشيا مع القوانين التي نشرت في الشرق حتى «نيقيا Nicene» والمعروفة حاليا باسم «قوانين نيقيا العربية» كما هي موجودة بالعربية حتى الآن(×٢) وهي لا تعتبر عملا

(×١) تكمن سخرية التاريخ في أن قسطنطين كان ينوي الحرب انتصاراً للنصرانية بينما قام بها قائد معاد للنصرانية.

(×٢) واسمها العربي ـ نيقيا وهي جنوب آسيا الصغرى وفيها اجتمع أول مجمع مسكوني للمسيحيين ـ مسكوني = ممثل من كل كنائس «المسكونة» ـ العالم أو الأرض ـ اسمه قانون الايمان. المنجد.

* شاهبور الثاني تاسع ملوك الأسرة الساسانية، عدو النصرانية الأكبر يسميه المؤرخون العرب «سابور ذو الأكتاف» لاتساع دولته... (التنبيه والاشراف) ـ المسعودي ص٨٨.

أصليا لوقائع مجمع نيسين[٢]. وقد تم تمثيل الملك الفارسي رسمياً في مجمع سلوقيا، وقام بتصديق القرارات، ومنح الكنيسة النصرانية حق الحكم الذاتي كهيئة ذات ارتباط بالحاكم عن طريق رئيسها بموجب نظام اقطاعي مماثل للمنوح فعلاً ليهود بلاد ما بين النهرين السفلى(×١).

كان اتباع الكنيسة المتكلمون بالسريانية قسمين: الأول في بلاد فارس والآخر ضمن حدود الامبراطورية الرومانية حيث كان مركزه الرئيسي «اديسا»(×٢). وكان حاجز اللغة عقبة في سبيل التجانس التام مع الكنيسة اليونانية فقد كان للنصارى السريان عادات خاصة ونصوص متميزة للكتاب المقدس «Scriptyre» ولهم كتبتهم المحليون وعلماؤهم في اللاهوت مما لم يسهل اندماجهم بحياة الكنيسة اليونانية التي قويت مركزيتها، وكانت اخر محاولة لتحقيق يونانية الكنيسة السريانية في عهد ربولا «Rabbula» أسقف الرها (٤١٢-٤٣٥م) الذي نجح في استمالة تلك الكنيسة السريانية الى التعايش ضمن الكنيسة التي تتكلم اليونانية، ولكن الوقت لم يكن مناسبا لأن الجدل العنيف كان يخنق الأخيرة ويسيطر عليها لدرجة أدت في النهاية الى الانشقاق والتفرقة.

جـ - الكنيسة النسطورية:

ظهرت خلافات في الكنيسة النصرانية في القرن الخامس الميلادي أدت الى انشقاقات خطيرة لا تزال آثارها قائمة حتى اليوم. تدور هذه الخلافات حول أمور فلسفية أو بشكل أدق حول أمور سيكولوجية تتعلق بطبيعة السيد المسيح الشخصية. وكان من نتيجة ذلك قيام الصراع بين تلك الجدليات والخلافات بشكل عنيف أدى إلى اشاعة المعرفة في المسائل الفلسفية المطروحة، وجعل من كل مبشر معلما للارسطوطاليسية الجديدة التي كانت محور هذه الجدليات التي بدونها لا يسهل السير في ذلك التيار. وقد كان صدى هذه الخلافات خافتا في الغرب، ربما لأن اللاتينية والمتكلمين بها لم يتجاوبوا مع الاساليب الرقيقة التي كان يستعملها الكتاب اليونانيون في الامور الفلسفية، كذلك حافظت الكنسية الرومانية على استقامة عقيدتها الارثوذكسية لأنها لم تستطع متابعة المناظرات الشرقية: انتصرت (الكنيسة الاثوذكسية) مرتين معتمدة على سواعد المدنيين من غير رجال الدين،

(×١) تلك المنطقة كانت بلاداً عربية فيها دولة تتمتع بالحكم الذاتي هي دولة المناذرة في الحيرة.

(×٢) اديسا هي الرّها العربية، - أورهاي الارامية (مدينة هاي) تأسست سنة ١٣٢ق.م أسسها الفرتيون. فتحها العرب سنة ٦٢٩م. (الأمم السامية - مصادرها وتاريخها وحضارتها) د. عوني عبدالرؤوف. القاهرة، ١٩٨١.

ونجحت في طرد كل الذين لا يريدون قبول مبادئها. وكان الفريق المطرود في كل مرة حانقاً من الطريقة التي فهموه بها، والمعاملة التي لاقاها. فلجأ كل مرة إلى ما وراء الحدود البيزنطية واستمر ينافح عن قضيته في جو سرياني، مبيناً لجمهور المتكلمين بالسريانية كل المسائل ذات العلاقة، وفي نفس الوقت ودون قصد منه، يقوم بالدعاية للفلسفة الهلينية.

من السهل أن يسخر المراقب الحديث (في زماننا) من المناظرات الحامية حول تفاصيل التعريفات الفلسفية. ولكنه يكتشف أن الأساس الحقيقي للمسألة يكمن في امكانية التعايش بين الدين والعلم على مستوى واحد مطلق. يرى قادة الكنيسة أن هذا شيء ممكن ويجب أن يتم: فإذا كان كل من العلم آنذاك، والدين صحيحاً فلا بد أن يتفقا من جميع الوجوه، وأن تجسد المسيح شيء يسهل تفسيره من وجهة علمية. وكان آنذاك فوق الشبهات وأنه ليس بحاجة للتعديل وأنه حيادي ومستمر في التقدم.

كان علم النفس الارسطوطاليسي الجديد السائد ينادي بأن الانسان مكون من ثلاثة أجزاء: الجسم والنفس وعنصر ثالث غير محدد. أما النفس (بسيكي اليونانية) فيمكن فهمها من عمل الأعصاب وغيرها من أعضاء الجسم، ونشاطها القائم على الاحساس والادراك الجسديين، والمقدرة على التذكر. وقد أضاف ارسطوطاليس أن هناك عنصراً ما على شكل جوهر مطلق، لم تستطع العقلية الرهبانية معرفته بالحس فلا بد أن يكون مبعثه من مصدر آخر[1]. ولما درس المعلق الوثني «الكسندر» من أفروديسياس هذه العبارة قال بصراحة «لا بد أن يكون «الله» هو المصدر». فنادت الكنيسة تقودها مدرسة الاسكندرية بأن الانسان مركب من جسد ونفس وروح. وهكذا فالمسيح انسان كامل، واله أيضاً. فقال الاسقف «أبو ليناريس». من «لوديقيا»(×١) لا يعقل أن يكون المسيح جسداً ونفساً وروحاً إلهية وإلها جاءت منه تلك الروح. والافضل أن تكون الذات الالهية بديلاً للروح نفسها. أي ان المسيح يختلف عن أي انسان آخر بأن الانسان فيه شيء من الله وهو الروح الإلهية. أما المسيح ففيه الكل(×٢). ولم تقبل الكنيسة السورية ولا كنيسة الاسكندرية هذا الرأي وقاومته بشدة، وايدها أتباعها في ذلك قائلين على لسان أحد قادة المقاومة «ثيودور من

(×١) لاوديكيا هي مدينة اللاذقية في شمال سوريا نسبة الى والدة سلوقوس الأول ـ نيكاتور ـ القاموس الكلاسيكي الصغير.

(×٢) الملكية «Malakite» دين الدولة (المذهب الملكي) وعقيدته في المسيح «أنه جسد ونفس واله فقط ـ دون روح. أي ما نادى به «أبوليناريس».

مويسياستيا » ٣٩٣ـ٤٢٨م. أن المسيح بهذا يفقد صفته الانسانية (البشرية) ويصبح مالكا لجسد بشري ونفس بشرية فقط دون الروح.. وقالوا ان الصفة الالهية دخلت جسما انسانيا كاملاً، ونسي بعض علماء اللاهوت أنفسهم في غمرة الجدل وأكدوا على أن المسيح ولد وجاء إلى هذا العالم بصفته انساناً عادياً قبل أن تدخل جسده الالوهية وأن العذراء المباركة كانت أما لانسان مجرد ولم تكن أما لاله. ولا نشك في أن هذا القول قد قيل. ولكن ذلك لم يكن من تعاليم ثيودور أو تلميذه ثيودوريت، على الرغم من أن الكتاب الغربيين ينسبون مثل هذه المبادىء في العادة لهما.

من هؤلاء الذين يرون أن المسيح ولد انسانا كاملا ثم دخلت فيه الروح الالهية فيما بعد كان نسطورس أحد رهبان أنطاكيا الذي تربى على فقه ثيودور، وكان قد تعين رئيسا لأسقفية بيزنطة سنة ٤٢٨م. وقام أحد تلاميذه بالوعظ ضد أبوليناريس بالشكل المتطرف الذي ذكرناه. وهنا قام سيريل الاسكندري بمهاجمة نسطورس نفسه. وتم سنة ٤٣١م(١×) عقد مجمع كنسي في افسوس حيث تم فيه الحكم رسميا على نسطورس وأتباعه وطردوا من الكنيسة، ولا يزال هؤلاء النساطرة حتى اليوم يعتبرون أنفسهم هم الكنيسة الكاثوليكية، ويتبرأون من الذين قبلوا بأحكام مجمع افسوس الذين على شريعة أبوليناريس. وقد شايعهم في ذلك الاسقف ربولا أسقف الرها في أول الأمر. ولكن أسقفية الاسكندرية استمالته وجعلته يفرض أحكام افسوس على الرها حتى نهاية حياته سنة ٤٣٦م. وكانت الاستمالة عن يد «سيريل» على الرغم من بعد ربولا عن المحاسبة هو وغالبية رهبانه والمدرسة الموجودة في كاتدرائيته التي كانت الجامعة الكبيرة للناطقين بالسريانية. والمكان الذي قبلت فيه كتابات ثيودور الارثوذكسية وتمت ترجمتها إلى السريانية. وبعد موته عين (اباس) اسقفا Ibas (٤٣٦ـ٤٥٧) وكان معلما في مدرسة الرها وشارك في اعداد نص ثيودور وكانت ولايته رد فعل نسطوري واضح في الرها «Edessa» وصارت المدرسة هناك المقر الرئيسي للنسطورية(٢×) وتعرض «اباس» مرتين للوم والتقريع ولكنه كان يخرج كل مرة مكرما مبجلا لدرجة أنه سمح له بمزاولة عمله دون التخلي عن آرائه. ثم تغير ذلك كله عند وفاته سنة ٤٥٧م وعين مكانه الاسقف ننوس. بتأثير بيزنطي مع تعليمات مشددة بأن يطهر اديسا (الرها) من حالة التمرد، وذلك ما بدأ القيام به بيد من حديد.

(١×) بالنسطورية ٤٣١م بدأ الانقسام في الكنيسة إلى ملكيين ونساطرة.

(٢×) تختلف النسطورية عن الملكية التي تؤله المسيح أصلاً بأنها تجعله بشراً رسولا مكونا كأي مخلوق من جسد ونفس وروح ـ ثم حلت فيه النفحة الالهية أو تجسدت فيه كما يقال.

وكان من نتيجة هذه السياسية قيام عدد من المعلمين بقيادة معلم اسمه «برسومه Barsauma» بالهجرة عبر الحدود الفارسية، ورحب بهم رئيس أساقفة سلوقيا الذي كان يشاطرهم اراءهم وقدم «برسومة» إلى البلاط الفارسي وأعلم الملك بأن النساطرة أعداء للامبراطور الروماني، وأنهم عوملوا معاملة سيئة في الرها. فوعدهم الملك الفارسي بالحماية والعطف واعترف بالنساطرة على أنهم النصارى الوحيدون الجديرون بالاعتراف بأنهم هم وحدهم وليس غيرهم أصحاب الكنيسة والأديرة وبقية أملاك الكنيسة أينما وجدت ضمن حدود المملكة، وأن جميع الامكانات مسخرة لهم في سبيل طرد أي من أتباع افسوس حيثما وجدوا. وهكذا عادت للجماعة النصرانية أمجادهم كرعايا مميزين تحت رعاية رئيس أساقفة سلوقية، وأن الذين اعتنقوا مبادىء الكاثوليكوس هم وحدهم الذين لهم حق الانتماء إلى عضوية هذه الجماعة. وبذلك يكون النساطرة قد انتظموا في كنيسة قائمة خارج حدود الامبراطورية البيزنطية، ولم يعد لاساقفة سوريا اليونان سلطة عليهم، واعترفوا بالسلطة لرئيس أساقفة سلوقيا فحسب. وأعادت مدرسة «الرها» المنفية تشكيل نفسها في «نصيبين» موطنها الاصلي، وفتحوا لها فرعا في سلوقيا. وعين برسومة سنة ٤٥٧ أسقفا لمدينة نصيبين ومفتشا رسميا للأعمال الدفاعية الحدودية. وعين (ماغنا Magna) أحد زملاء التعليم السابقين، رئيسا لأساقفة نصيبين. واختير بعد ذلك سفيراً لدى بلاط الامبراطور «زينو» اذ كان الفرس يرحبون بهؤلاء اليونان المتعلمين علوماً عالية ويستغلونهم لأغراض الدولة. أما «نرسيس Narsis» زميلهم السابق في مدرسة «الرها» فقد عين رئيسا لمدرسة نصيبين. قام هؤلاء النساطرة الثلاثة: برسومة وماغنا ونرسيس بالوعظ وتركيز مبدئهم في كل ناحية وسمحوا للأساقفة باتخاذ الخليلات زوجات كما قال بارهيبرايوس / سفر العدد (Chrox Eccl.ii,58)8. يعني أن الكنيسة النسطورية قد اعادت تنظيم نفسها على نظام مغاير للنظام اليوناني في سنة ٤٨٤ حين سمحوا للأساقفة والقساوسة بالتزوج على الرغم من أن الكنيسة الشرقية كانت تمنع الرهبان من الزواج بعد سيامتهم، ومحاولة تفضيل سيامة الرهبان الجدد من غير المتزوجين. أو من المتزوجين أصلاً وقد عمد النساطرة الأوائل مدفوعين بروح الكره للكنيسة الرومانية، وحباً في استمالة الفرس، إلى السماح لرجال الدين بالزواج بعد السيامة، وعدلوا أنظمتهم على أسس شرقية، وطلبوا من جميع الرهبان أن يعيشوا في أديرة خارج حدود أية مدينة. واستمر ذلك الى أن جاء البطريرك (مارابا Maraba) ٥٤٠-٥٥٢م. فألغى معظم الاستثناءات الممنوحة سنة ٤٨٤م ضمن اصلاحات شاملة أخرى.

وقد استعمل النساطرة اللغة السريانية مفضلين اياها على اليونانية وأظهروا استعدادهم لموالاة الملك الفارسي، ومعاداة بيزنطة وجاءوا بنص شرقي للمعتقدات

النصرانية، وتبعا لذلك قدموا نصا شرقيا للفلسفة الهلينية، وترك ذلك أثرا واضحا في المجتمع الذي يتكلم الآرامية (السريانية) في بلاد ما بين النهرين حيث زاد الاهتمام بتعلم الفلسفة والعلوم وعلم النفس وكلها ذات صلة وثيقة بالمناظرات الجدلية التي فصلت النساطرة عن الكنيسة البيزنطية. ولقد كان النساطرة من كبار المثقفين، ولدينا معلومات مفصلة عن منهجهم[٢] فقد كانوا معلمين نشيطين للفلسفة الارسطوطاليسية الجديدة ومترجمين للأعمال اللاهوتية والفلسفية، وكانوا بطبيعة الحال قادة الفكر في العلوم الطبيعية وبخاصة في البحوث الطبية. ولم يمض وقت طويل حتى اشتهر الرهبان النساطرة كأطباء وبشكل خاص لدى البلاط الفارسي، وترقى اكثر من بطريرك الى هذا المنصب بتوصية ملكية بفضل مهارته كجراح أو تفوقه في علم الطب.

لم يكن النساطرة كنيسة قائمة بذاتها مثل كنيسة الدولة في الامبراطورية البيزنطية بل كانوا أشبه بجماعة اقطاعية لها نفس حقوق ولاية كبيرة يعين واليها من قبل الملك ويكون مسؤولا تجاهه. ولم يكن مسموحا لهم بقبول أتباع زرادشت في الدين الجديد. ولو أن ذلك لم يطبق كليا، إذ قبل بعض المرتدين الذين وصل بعضهم مثل المصلح «مارابا» إلى أعلى المناصب الكنسية، وكانت أيديهم مطلقة في مقدرات عناصر المجتمع الأخرى. وقد انطلقوا من نصيبين وسلوقيا شمالا وجنوبا في بلاد ما بين النهرين باستثناء أعالي دجلة حيث كان هناك مجتمع نصراني قوي معاد للنسطورية، ومن لون آخر. لم يتحرشوا بهم بل انطلقوا الى جزيرة العرب جنوبا وإلى الهند والصين شرقا، وكان النساطرة أقوياء في جنوب العراق حول الحيرة، التي وجدها الاسلام عند وصوله اليها في الفتوحات في القرن السابع دولة نصرانية نسطورية. ولم يكن لديهم أية نصوص دينية أو أية طقوس مكتوبة أو معتمدة للصلاة بالعربية لأن العربية لم تكن قد وصلت آنذاك الى مركز فكري مقبول كلغة أدبية، بل كانت آرامية الكنائس المعروفة بالسريانية هي المستعملة للأغراض السماوية. مثلها في ذلك مثل استعمال عرب البتراء الآرامية في نقوشهم وهم من الناطقين بالعربية. ونتيجة لذلك فقد كان عرب الحيرة أصحاب لغتين، مما أتاح لهم عن طريق السريانية أن يصلوا إلى معرفة الكثير من الهلينية في العلوم والفلسفة واللاهوت. وعندما صارت الحيرة ذكرى من الذكريات، تولت المدينتان الحديثتان الكوفة والبصرة هذه المهمة ولكن في جو إسلامي. وظهر أول العلماء المسلمين في هاتين المدينتين وأول ما تعاملوا معه ما وجدوه من الترجمات السريانية التي كان يحويها المنهج المدرسي لدى المدارس النسطورية[٣]. وبذلك كان النساطرة واسطة الاتصال بين الهلينية والاسلام(×١).

(×١) الكوفة والبصرة عندما نشأتا كانت لهما مدارس اسلامية بتعاليم اسلامية ولم يبق هناك مدارس نسطورية لانها لم تكن موجودة أصلاً بل أديرة لم تكن تعطي أي توجيه للعرب والمسلمين بشكل خاص.

وإذا سلمنا بأن عرب الحيرة كانوا عنصراً ذا كيان في المجتمع العربي وليسوا مجرد فرع شارد من الشجرة الأم، بل قادة ذوو اعتبار وعرفنا أنهم وصلوا في القرن السادس الى الملكية وحكموا كل بلاد العرب. فإنه يسهل رؤية التأثير النسطوري منسحباً على العرب عموماً. وقد اخترقت الارساليات النسطورية شبه الجزيرة نفسها عبر طريق تجارية تربط الحيرة بنجران. وقد ذكر ابن هشام في سيرته أن النصرانية وصلت نجران عن طريق شخص سوري اسمه فيميون، مما يشجع على الاعتقاد بأن ذلك الشخص كان ضمن ارسالية نسطورية جاءت عبر تلك الطريق التجارية. ولما لم يكن لدى العربية مفردات دينية وفلسفية للقرآن(×١) كان وهو يحاول استعمال الكلمات المناسبة يلجأ إل استخدام الكلمات المعارة من الآرامية. ويمكن أن نفترض أن مثل هذه الكلمات دخلت العربية بوساطة الحيرة والمعلمين النساطرة.

د ـ الكنيسة المونوفيزية(×٢):

قامت جدلية جديدة خلال العشرين سنة التي تلت عام الانشقاق النسطوري سنة ٤٣١م. فقد مات سيريل أسقف الاسكندرية وبطل مجمع افسوس سنة ٤٣١م. فخلفه ديوسكورس الذي تتبع أتباع نسطورس أينما ثقفهم. وجاء أوطيخا Eutyches وكان رئيس دير في بيزنطة وصديقا سابقا لاسقف الاسكندرية القديم سيريل بفكرة جديدة حول الذات الالهية في السيد المسيح فقال: "المسيح الانسان من جسم ونفس وروح، وعندما تجسدت فيه الذات الالهية زالت الروح من جسمه البشري وعادت الى مصدرها الذي جاءت منه". ويبدو هذا منطقيا، ولكنه من ناحية عملية لا يعدو ما جاء به أبوليناريس. فاحتدمت المناظرات حول ذلك بضع سنين وعقدت ثلاثة مجامع كنسية واحد سنة ٤٤٨ واثنان سنة ٤٤٩ ولم تزد على ابقاء الخصام مشتعلاً.

(×١) [أما القرآن ففيه كلمات ارامية وفارسية، لم يستعملها القرآن اضطراراً بل كانت موجودة في الاستعمال قديماً وقبل نزول القرآن..]

(×٢) المونوفيزية أو المونوفيسية: مكونة من كلمتين (مونو = واحدة و (فيزي = طبيعة) لأنهم نادوا باتحاد اللاهوت والناسوت أي الاله والانسان في المسيح. ومن زعمائها أوطيخا القسطنطيني وديوستوروس الاسكندري. والناسوت هو الانسان بالجسم والنفس والروح. ويسمون أيضاً باسم «اليعاقبة» نسبة الى الاسقف يعقوب البرادعي أو السروجي لأنه كان متخفياً بهذا الزي. أما اللاهوت فهو حلول النفحة الإلهية في الانسان بدل الروح.

وفي النهاية وفي سنة ٤٥١ وبأمر امبراطوري عقد مجمع جديد في «خلقيدون Chalcedon» حيث حكم على رأي «أوطيخا». وكانت النتيجة حدوث انشقاق آخر حكم فيه على الذين نادوا «بالاندماج» بين الروح البشرية في المسيح وبين الذات الالهية فيه، (وهو تلطيف لعبارة رأي أوطيخا) بالحرمان من كنيسة الدولة. ولكن هؤلاء المنشقين أصحاب مبدأ الطبيعة الواحدة كما سماهم الذين وافقوا على قرارات مجمع خلقيدون، لم يهاجروا كما هاجر النسطوريون من الامبراطورية بل بقوا كجماعة من الخارجين، سببت قلقا وازعاجا غير محدودين لكنيسة الدولة والبلاط الامبراطوري. فقد كان جميع نصارى مصر، والقسم الاكبر من نصارى سوريا مونوفيزيين، وكان منهم أيضا بعض الكتاب، ولم يمض وقت طويل حتى أخذوا ينافسون النساطرة في أعمال التبشير التي كانت مهملة من قبل كنيسة الدولة. وبقي هؤلاء في حالة من الهرب والمطاردة تسعين سنة أخرى، توقفت فيها مطاردة النساطرة الذين عبروا الحدود الى بلاد فارس، فصارت المطاردات للمونوفيزيين في مواقعهم خصوصا في مصر وفلسطين وسجن خلالها بطريرك الاسكندرية وتوقفت سيامة الاساقفة وكادت تزول مرتبة الاساقفة في هذه الكنيسة المونوفيزية ذات مبدأ الطبيعة الواحدة الى أن جاءت الامبراطورة «ثيودورا» التي أعادت لهم شيئا من اعتبارهم خوفا من لجوئهم الى اجراءات يائسة جراء القسوة اللامتناهية. فعينت منهم اسقفا لبصرى الشام وعينت كذلك الاسقف يعقوب لكرسي الرها تلبية لطلب أمير غسان وكان فيها أسقف تابع لكنيسة الدولة، وأضافت للاسقف يعقوب القيام بالتجول في كل تجمعات وحدة الطبيعة التي لا يوجد فيها أساقفة. ولم يباشر هذا الأسقف عمله الأسقفي خلال الثلاثين سنة من وظيفته التي انتهت بوفاته سنة ٥٧٨م، بل قضى وقته في تنظيم الكنائس المونوفيزية متخفيا في لباس برادعي غلب على اسمه فصار اسمه يعقوب البرادعي أو السروجي. وتعرض في حياته لمواجهة الاخطار في أحيان كثيرة. وكان له الفضل في تأسيس الكنيسة المونوفيزية ذات الطبيعة الواحدة. واليه صارت تنسب هذه الكنيسة هي وأتباعها وصار أصحاب مبدأ الطبيعة الواحدة يسمون إلى اليوم «باليعاقبة».

وكانت مصر أقوى مراكزهم حيث بقيت الكنيسة بشكل اجمالي مونوفيزية على الرغم من اجراءات الدولة القاسية: وكان لهم أتباع في سوريا والاناضول، وتبعهم كل عرب المنطقة حتى الذين يجاورونهم على الحدود السورية. ولم يمض الا وقت قليل حتى انتشروا من خلال الحدود في المنطقة الفارسية وكانت «تكريت» في شمال بلاد ما بين النهرين مونوفيزية بمعنى الكلمة. وأقاموا إلى الشمال منها ديرا اسمه «مارمتي» فوق التلال وراء «الموصل» وصار مركزا لاقامة مطرانهم أسقف «تكريت» والذي عرف فيما بعد باسم «مفريان». وانطلق المبشرون من تكريت ومارمتي في كل اتجاه وقد سهل مهمتهم أن الكنيسة

النسطورية كانت تعاني من فترة تدهور من ٤٩٧ـ٥٤٠م مزقتها الأحزاب والشيع التي كانت تساعد مختلف أدعياء كرسي سلوقيا الذي ظل موضع نزاع حتى سويت مشكلته عند قيام المصلح «مارابا» ٥٤٠ـ٥٥٢م وبعد أن كان اليعاقبة قد تغلغلوا في البلاد بحيث لا يمكن حرمانهم من موطىء القدم الذي وصلوا اليه. وحاول النساطرة اثارة ملك فارس حتى صار هناك نزاع غير لائق في البلاط الفارسي حيث حاولت الطائفتان النصرانيتان كسب المؤيدين لدعم ادعاءاتهما. وقد كان مركز النساطرة أقوى من ناحية نظرية بسبب الامتيازات الممنوحة لهم رسميا، ولكن العدل النظري في جو المؤامرات في البلاد لا يصمد كثيرا في مواجهة «دهاة» القوم البارزين من ذوى الجاه وهو ما حققه اليعاقبة في جبرائيل الشجاري الذي كان طبيبا للبلاط زمن كسرى (خسرو الثاني) ٥٩٦ـ٦٢٨م ويبدو أنه كان يتمتع بنفوذ فوق العادة لدى الملك وكبار وزرائه. تقع «شجار»(١×) بلد الطبيب جبرائيل الى الجنوب من «نصيبين». وعرفت «شجار» بأنها منطقة مونوفيزية مثل «تكريت» وأشتهرت بانها مركز علوم خصوصا الطب. وزادت شهرتها منذ عهد جبرائيل ولدينا مجموعات من العلماء اليعاقبة والفيزيائيين الذين كانوا منافسين بجدارة للعلماء النساطرة.

واشتهر طبيب يعقوبي اخر اسمه «سرجيون» وهو رئيس أطباء «راشينا» الواقعة إلى الجنوب الغربي من «نصيبين» وكان قسيسا في الوقت نفسه (توفي سنة ٥٣٦م) وقد درس في الاسكندرية واشتهر بأنه ترجم «منطق» أرسطوطاليس إلى السريانية، وكذلك الاساغوجيا لبورفيري وغير ذلك من الابحاث. ويلاحظ أن دراسة رجال الدين النابغين من النساطرة واليعاقبة كانت في أي من بيزنطة والاسكندرية وأنطاكيا وأن ذلك لم يكن شيئا مستهجنا. وأنه كان هناك احتكاك مستمر بين الناطقين بالسريانية من نصارى بلاد ما بين النهرين، وبين العلماء من العالم اليوناني. وكان اليعاقبة ألمع الفريقين المنشقين، وانتجوا خلال القرنين السادس والسابع أكبر الانتاج وأكثره قيمة ووزنا. وأنهم تسلموا زمام المبادرة في الترجمة وفي التعليق على شارحي الفلسفة الارسطوطاليسية من اليونان.

وكما قام النساطرة بتطعيم عرب الحدود الفارسية بالثقافة الهلينية، كذلك قام اليعاقبة بنشر اثر الهلينية بين عرب الحدود السورية بكل الوسائل التي ذكرناها لدى النساطرة في نشر ذلك. والفرق الوحيد بينهما أن النساطرة كانوا في منطقة النفوذ الفارسي

(١×) شجار وراشينا: اسمان لبلدتين في حوض الفرات الأعلى فيهما تصحيف وتحريف فهما «سنجار» وراس العين. والأولى اسم لمدينة ومنطقة جبال الى الغرب من بلدة الموصل. أما «راشينا» فهي راس العين مدينة سورية على خابور الفرات اسمها الحالي (الحسكة) فتحها عياض بن غنم سنة ٦٤٠م. وبالقرب منها تل خلف (مدينة الحثيين). القاموس المنجد.

في الشرق، في حين كان الآخرون في منطقة النفوذ الهليني في الغرب. أما زمن الاسلام فكان اثر اليعاقبة على الفكر العربي أكثر وضوحا، خصوصا في العصور المتأخرة.

هـ ـ انتشار النصرانية في بلاد العرب:

كان المجتمع العربي على اتصال بالنظم النصرانية الثلاثة التي كانت سائدة في آسيا. فكان النساطرة أقوياء في الحيرة، ومر مبشروهم الى الصحراء حتى وصلوا للقبائل البوذية ثم استمروا نحو الجنوب حتى المملكة الجنوبية. وورد في الاخبار أن النبي مر وهو غلام على ناسك نصراني يدعى بحيرة[١] فعرف فيه الناسك علامات النبوة وكان العرب يسمونه أحيانا «نسطورا[٢]» اشارة لاسمه أو لمذهبه. وكان ذلك أثناء رحلة الى سوريا. كذلك كان الغساسنة من أتباع المذهب المونوفيزي ومنهم اسقف في بصرى، لهم ولعرب الحدود السورية الذين كانوا يسيطرون على الطرق المؤدية إلى شمال الحجاز، كذلك كان الاحباش الذين غزوا جنوب الجزيرة يعاقبة. وكانت فكرة الغزو تقف عقبة في طريق انتشار النصرانية، فالعرب بطبعهم يكرهون الاحتلال أو اعتناق مذهب الغزاة. أما النظام الثالث وهو كنيسة الدولة التي تمثل الامبراطورية البيزنطية والتي نسميها عادة الكنيسة اليونانية فكانت معاقلهم في شبه جزيرة سينا التي تحوي الكثير من الأديرة والصوامع اليونانية التي فيها نساطرة أو يعاقبة، وهي كذلك إلى اليوم. وتتصل سيناء بشمالي الحجاز وتمر الطريق التجارية عبرها الى مصر. وهكذا نرى أن الطوائف الرئيسية الثلاث الخاصة بالمجتمع النصراني النساطرة واليعاقبة والملكيون (أو كنيسة الدولة) كانوا على اتصال بالعرب. وكان للنساطرة واليعاقبة اتباع كثيرون من العرب. ويظهر الراهب النصراني في الشعر العربي شخصية معروفة[٣]. وكذلك في القرآن (×١).

كان هناك صوامع في وادي القرى الواقعة الى الداخل في الشرق من الحجاز[٥]. وكان من عادة الرهبان أن يحضروا أسواق العرب ويتحدثوا عن الدين الى كل من لمسوا فيه ميلا للاستماع[٦]. وكان من عادة العرب التقليدية اكرام الضيف الوافد، وأن يتلقوا مثل هذا الاكرام من الغير فقلدهم الرهبان وصاروا يكرمون من يمر بهم من العرب. وربما كان هذا احتياطا ضروريا لتفادي العنف مثلما حدث لنيلس في سيناء[٧](×٢).

(×١) يجب أن لا ننسى أن غالبية الذين آمنوا بهذه المذاهب الثلاثة كانوا عربا من حدود الأناضول حتى جانبي البحر الأحمر ومصر نفسها.

(×٢) نيلس: (ت حوالي ٤٣٠م) تلميذ القديس يوحنا. كان رئيس دير بالقرب من أنقرة. ترك مؤلفات في الحياة النسكية. المنجد في الأعلام.

يقول فيلوستورغوس «دخلت المسيحية جزيرة العرب زمن الامبراطور قسطنطين الثاني (٣٣٤ـ٣٦١م)» وربما كان يعني بدء استقرار النساك في الصحراء السورية: فليس من السهل تصديق وجود مهتدين في ذلك الزمن القديم، ولعله كان يشير إلى معلم نصراني ذهب الى جزيرة العرب وباءت جهوده بالفشل. وتشير كتب العرب إلى أن النصرانية وصلت جنوب الجزيرة على يد عابد سوري اسمه «فيميون» وكان مركز دعوته «نجران»[٨]. وهناك قصة عن ملك حميري نصراني اسمه «عبدكلال»[٩] لا تسهل معرفته خصوصا والقصة حديثة الوضع نسبيا.

كانت «نجران» مركز النصرانية، وكانت تقع في أرض خصبة وكانت متقدمة في الصناعة والتجارة، وكان أهلها عند ظهور الاسلام أغنى سكان الجزيرة. فقد كانت وسط سهول خصبة اشتهرت بصناعة المنسوجات، ومنها الحريرية، والصناعات الجلدية والاسلحة، والبرد اليمانية التي يتحدث بجودتها الشعراء، وكان موقعها الخصيب هذا على حافة الصحراء، وفي نهاية الطريق الممتدة اليها من الحيرة. ويمكن اعتبار وصول النصرانية من خلال نجران التي يمكن اعتبارها مستوطنة بعيدة للكنيسة السورية.

وكانت نجران تتميز من بين مدن جزيرة العرب بما في ذلك مدينتي مكة والمدينة بمركزها السياسي المرموق. وكان يحكمها مجلس ثلاثي مكون من «السيد والعاقب والاسقف». فالسيد بمقام الرئيس وهو المسؤول عن الحروب والمعاهدات والضيافة وغير ذلك. والعاقب هو المسؤول عن الامور الداخلية كالأشياء التي تمثل أعمال البلدية والأمن العام. أما الاسقف فيقوم بالاشراف على الاكليروس (رجال الدين) الذين كانوا يشكلون نسبة لا بأس بها من المجتمع. وكانت السلطة العليا بيد هؤلاء الثلاثة مجتمعين(×١). تحدثنا عن غنى أهل نجران ولن ننسى أصالتهم ومركزهم المرموق في الشرف والنبل، ومقدار ما كان يكنه لهم العرب من تقدير في هذه الناحية[١٠] مما لم يحصل عليه غيرهم من العرب سوى قريش بعد ظهور الاسلام نظرا لقرابتهم للنبي(×٢).

(×١) أنظر سيرة ابن هشام جزء ٢، ص١٥٨ فيها رأي مخالف: فهو يقول «العاقب هو أمير القوم وذو رأيهم الخ ثم السيد وهو ممن يرجعون إليه، صاحب رحلهم ومجتمعهم والاسقف: الحبر والامام وصاحب المدارس وكان أسقف وفد نجران على رسول الله أبو حارثة من بني بكر بن وائل وكان المتكلم عن الوفد».

(×٢) بالنسبة لشرف قريش فإنه مشهود لهم به قبل البعثة وقد زادهم قرب النبي ﷺ شرفاً على شرف وقد بعث النبي ﷺ في اشرف بيت في اشرف قبيلة من العرب هي قريش قال ﷺ اختار الله من الناس العرب واختار من العرب قريشا واختار من قريش بني هاشم واختارني من بني هاشم فانا خيار من خيار من خيار.

كان لنجران معبد كبير أشبه بالكعبة في مكة، كان يتعبد الناس فيه واليه يحجون قبل العصر النصراني. وصار المعبد في آخر عصور الجاهلية (قبل ظهور الاسلام) يدل على الكنيسة الكبيرة لتلك المنطقة أي كاتيدرائية الاسقف(×١) ووصفت بأنها عمارة فخمة مزخرفة بالرخام والفسيفساء المقدمين من الامبراطور البيزنطي[١١]. وهو شيء معقول، اذ كانت الدولة البيزنطية تواقة جدا لأن تخلق لنفسها «منطقة نفوذ» في غربي بلاد العرب. والمعروف أن الفسيفساء كانت ضمن الهدايا التي تستعمل لكسب الاصدقاء للامبراطورية البيزنطية. وقد اعتمدت سيرة ابن هشام على هذا عندما كانت تقول عن نجران «انها على دين الملك» أي الامبراطور البيزنطي[١٢]. وليس من شك في أن نجران كانت على المذهب اليعقوبي، كما لا شك في أن الارثوذكسية البيزنطية لم تطبق في هذا المقام، حيث كانت العملية تتعلق بمركز تتوق الدولة الى تحقيقه ليكون مركز ثقل في مواجهة النفوذ الفارسي في بلاد العرب. وكان أسقف ذلك الزمان «أبو حارثة البكري» يعقوبيا في مذهبه*. أما أشهر القساوسة العرب فهو أخرهم «قس بن ساعدة (الايادي)» الذي جاء قبل ظهور الاسلام وكان على علاقة بمدينة نجران، وان كان (لامينس) قد أوضح بشكل قطعي أن هذا غير صحيح ولا يستند إلى قاعدة، وأن «الثقات» السابقين كانوا يجهلون كليا أية علاقة بينه وبين تلك المدينة[١٣]. وكان يلتف حول الاسقف عدد من القسيسين والرهبان ليعرفوا العرب على المؤسسات والنظم النصرانية. ولما كانت نجران مركزا لإقامة سوق سنوي استثنائي هام فقد كان لدى هؤلاء الاتباع من رجال الدين فرصة لاستغلال هذه السوق للالتقاء بالوثنيين العرب.

استمرت نجران مدينة نصرانية في فجر الاسلام إلى أن جاء الخليفة عمر وطرد أهلها منها. فتوجه معظم المبعدين إلى العراق وهناك أسسوا مستوطنة أسموها «نجران»(×٢). وقد تضاءلت أهمية نجران بعد عملية الطرد هذه وانتقلت تجارتها إلى صعدة.

(×١) الكاتيدرائية ـ الكنيسة التي فيها عرش الاسقف.

(×٢) نجران العراق ـ أسسها النصارى الذين لم يسلموا في نجران اليمن في القرن السابع الميلادي في جنوبي غربي العراق وكانوا من المونوفيزية (اليعاقبة) وموقعها على يومين من الكوفة بينها وبين واسط ـ المنجد ـ وهي المسماة نهر أبان قرية بقضاء الكوفة»

* ابو حارثة بن علقمة البكري كان السيد الذي اجتمع مع النبي عليه السلام وتكلم نيابة عن وفد نصارى نجران وكان أبو حارثة مونوفيسياً.

[وكان لليهود أيضاً مستوطنة في نجران[١٤]. والظاهر أن أهلها كانوا يتمتعون بالتسامح الديني في عهد الحكم الثلاثي. ولكن الأخبار تقول أن ذلك لم يكن دائماً كذلك. تعتبر قصة الاخدود أشهر حادثة تتعلق بتاريخ نجران، وهي قصة استشهاد تاريخية صحيحة قتل فيها الحارث (Arethas) ورفاقه[١٥]. وهي مرتبطة أخبارياً بقائد عربي اسمه «ذونواس» يقال انه كان قد اعتنق اليهودية حديثا، ثم قام بتعذيب النصارى، وهاجم نجران لأنها كانت مركزا للنصارى. أما الحارث فكان ولا ريب «السيد» في المجلس الثلاثي لنجران آنذاك وكان على ما يبدو عميلاً للدولة الحبشية، أو حليفاً لها ـ وكانت الحبشة آنذاك قد نصبت من نفسها حامياً للنصرانية. ويصفه المؤرخون المتأخرون صراحة بأنه حاكم حبشي. وكان الاحباش قد بدأوا يتوغلون في جنوب الجزيرة، مما جعل عملية «ذونواس» تبدو حركة وطنية وثورة ضد نفوذ الاحباش، على الرغم من أنها وطدت حكم الاحباش في النهاية. ويقال أن «ذونواس» بعد استيلائه على نجران خيَّر أهلها بين الارتداد عن دينهم وبين الموت، وحفر أخدوداً أضرم فيه النار وأحرق كل من استقام من أهل نجران على دينه. وقد وصفت آيات القرآن (سورة ٨٥ الآيات ٤ـ٨) بأنها تتعلق بهذه الحادثة «قتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود* اذ هم عليها قعود* وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود* وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد*». ولكن بعض المفسرين (البغوى مثلا) يرون أن هذه الآيات وصف لقصة الأطفال الذين حرقوا في أتون كما ورد في العهد القديم (سفر دانيال)(×١).]

(×١)[قصة الاخدود والتوراة: أن نبوخذ نصر الذي سبى يهود القدس صنع لنفسه تمثالاً من ذهب وأمر كل من يسمع القرن والناي والعود والسنطير (سنتور) أن يسجد له. فسجد أهل بابل الا ثلاثة من اليهود حنينا، وميشائيل. وعزريا الذين غيروا أسماءهم الى كلدانية شدرخ ومشيخ، وعبد ننو: فأمر برميهم في أتون مشتعل فمات الجنود الذين رموهم من شدة وهج النار ولكن المؤمنين الثلاثة كانوا يسيرون بحراسة أحد الملائكة وخرجوا من الاتون سالمين سفر دانيال ـ اصحاح ٣ آيات ١٦ـ٢٢ هذا وصف لنجاة المؤمنين من النار، كما نجى الله ابراهيم (ع) كما ورد في القرآن الكريم (الانبياء آية ٦٩) ولم يكونوا اطفالاً بل كانوا رجالاً في خدمة بلاط نبوخذ نصر مع دانيال.

وأصحاب الاخدود ماتوا مع رئيسهم الحارث. وعنه كتب كتاب استشهاد، وبسبب نار الاخدود جاء الاحباش لينتقموا من «ذى نواس».

أما بالنسبة الى ما نسب الى البغوي فإليك ما جاء على لسان البغوي:ـ

جاء في معالم التنزيل للبغوي (ت٥١٠هـ) كانت «الاخدود» ثلاثة واحدة في نجران (ذونواس) والأخرى بالشام (ابطاموس الرومي) وأخرى بفارس (بختنصر) ولم ينزل الله بالتي بالشام وفارس قرانا وانزل في التي كانت بنجران. أهـ. فتفسير البغوي لا يشير الى أخدود حرق فيه أطفال وانما قال ان الآيات نزلت في اخدود نجران فحسب.]

غزا الأحباش بلاد العرب سنة ٥٢٢م. وفسر هذا الغزو كالعادة على أنه حملة انتقامية من «ذو نواس» ولوضع حد لتعذيب النصارى. ولكن كان هناك دوافع أخرى تعمل عملها(١×).

تلاقى الاحباش مع «ذو نواس» وهزموه فلجأ الى الجبال. وبعد أن عززوا قواتهم هاجموه ثانية سنة ٥٢٥ فهزموه وقتلوه. وأسسوا لهم مستعمرة على الشاطيء وحكموا «تهامة» أي مملكة الحميريين. وكان قيام الحكم الحبشي رادعا لاطماع الفرس ودام حتى سنة ٥٧٥ ميلادية حين طغى الفرس على جنوب بلاد العرب. واستمر الصراع طيلة القرن السادس بين القوتين البيزنطية والفارسية وكان ميدانه جزيرة العرب. وكان الاحباش ممثلين لبيزنطة.

كان أول حاكم حبشي بعد غزو ٥٢٢ يدعى «سميفع(٢×) أو سيمفايوس»[١٦]، وقد استبدل به قائد طموح اسمه الأشرم ولقبه أبرهة[١٧](٣×). وقد حاول أن يستقل بحكم بلاد اليمن وفشل، ولكنه حصل على موافقة ملك الحبشة على أن يكون نائب الملك الحبشي. وقد أوفدت كنيسة الاسكندرية اسقفا زمن الحكام الاحباش الأوائل اسمه جريجنتيوس لتسلم كرسي أنشيء في «ظفار Taphar»[١٨] وقد اشتهر كمؤلف لكتابين: (١) «شريعة الحميريين» وهو موجود في كتاب «مايجني Migne» المسمى «الباترولوجي اليونانية» (٨٦: ٥٦٨) والتي يعتقد أنها جمعت بناء على طلب أبرهة. (٢) كتاب «خلاف مع اليهودي هيربانوس» (موجود في «مايجني» ٨٦: ٦٢١) حيث ينتصر على خصمه بعد أن ظهر له المسيح في المنام وعمد خمسة ملايين يهودي(٤×). أما ابرهة فيظهر أسمه على نقش في سد مأرب موصوفا بلقب نائب الملك الذي أعاد بناء السد بعد أن تهدم بسبب الفيضان. ويحوي النقش أيضا توسلات الى الذات الالهية بعبارات نصرانية واضحة. لا جدال في صحة المعلومات التاريخية عن شخصيتي ابرهة، والأسقف جريجنتيوس، ولكنه كان هناك على ما يظهر عدة غزوات أو محاولات غزو حبشية بين آخر القرن الرابع وسنة ٥٢٥ ولكن الأخبار اللاحقة شوشت تلك المعلومات وطورت تاريخا (زمنيا) غير قابل للتصديق بالمرة.

(١×) نهاية الفقرة جـ من الفصل السادس.

(٢×) اسمه أرياط في سيرة ابن هشام والكتب العربية واسمه (Aretha) في ثيوفانيوس وهي قريبة من أرياط - وهذا هو الاسم اليوناني لحارثة أو الحارث.

(٣×) الصحيح هو أبرهة واللقب هو الاشرم كما لا يخفى على العرب من التمييز بين الاسم والصفة.

(٤×) رقم الخمسة ملايين مبالغ فيه لا ريب.

يروى في الأخبار أن ابرهة ارسل جيشا إلى مكة وكان قائد مقدمة الجيش يعتلي ظهر فيل فاعتبرت تلك السنة في الاخبار «عام الفيل». وبشأنها نزلت سورة الفيل في القرآن (الكريم) «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل* ألم يجعل كيدهم في تضليل* وأرسل عليهم طيرا أبابيل* ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول*».[وحول هذا نسجت قصة هجوم جماعات من الطيور على معسكرات ابرهة المضروبة أمام مكة، وأنها أخذت ترمي جنوده بالحجارة وتسببت في قتل معظمهم[٢٠]. ولكن هذه الاسطورة ليست من القران، بل هي من حدس المفسرين الذين حاولوا أن يجيئوا بالمعنى الحرفي للنص. اذ يظن الواقدي أن المرض هو الذي أهلك الجيش، وأن «الطير» هي الأجساد الميتة (الجثث)(×١)] وهنا تواجهنا عبارة كانت واضحة دون شك لصحابة محمد(×٢)، ولكننا في متاهة، لأن التفاسير التي بين أيدينا مبنية بكل وضوح على نص القران، ولا تقدم لنا أية معلومات سوى ما حدس به من تعاملوا مع النص. وليس في الحديث أية ايضاحات جديدة. ويرى بيير لامنس أن القصة كلها ربما نشأت من خطأ وضع كلمة «الفيل» في موضع كلمة «الفيلاس» وهو اسم قائد الاسطول(؟) البيزنطي للحملة على بلاد اليمن: فقد تم نقل الجنود الاحباش كما علمنا في سفن يونانية. وكان كوزماس انديكو بليستيس هناك في أدوليس عندما كانوا يجهزون الاسطول ورأى تلك الاستعدادات[٢١](×٣).

(×١)[المغازى للواقدي جزء (١) فيه ذكر كتاب «أمر الحبشة والفيل» وقد ذكره ابن سعد في طبقاته نقلا عن الواقدي بصفته استاذه. الجزء الأول ص٩٢. والحجارة كانت من تصيبه ينفط ويصاب بالمرض كالجدري والحصبة التي ظهرت منذ ذلك الحين.]

(×٢) وكذلك كان واضحا لصحابة محمد خصوصا من كانوا أكبر منه سنا ولو بعشر سنوات.

أن القصة صحيحة لأنهم رأوها وعاشوها سنة ٥٧٠ (عام الفيل التي ولد فيها محمد (ﷺ)) فأين المتاهة؟

(×٣) ١. رأي لامينس لا أساس له ـ وهو محاولة فهم العبارة من لفظها وهو أيضا صاحب تفسير كلمة الأحابيش بأنهم الجنود الاحباش المرتزقة وعنه نقل أو ليرى بينما هي اسم القبائل العربية من غير قريش والذين كانوا يسكنون عند جبل حبشي في مكة المكرمة.

٢. لا يمكن الخطأ في عام الفيل وهو العام الذي ولد فيه الرسول (ﷺ) ونزل القرآن وكثير من الذين شهدوا عام الفيل كانوا عند البعثة أحياء ولو لم تكن هذه القصة صحيحة (قبل ٤٠ سنة من البعثة) لكذبه المنافقون واليهود الذين حضر كثيرون منهم هذه الحادثة ولما آمنوا به، حتى الاقربون من أهله وأعمامه.

علمنا أن أبرهة كان ظالما، وأن خليفتيه كانا مثله، فلجأ اليمنيون الى ملك فارس عملا بنصيحة ملك الحيرة، فأغرى ذلك الفرس على فتح جنوبي جزيرة العرب. ولا ينكر على ابرهة أن شدته في الحكم أدت إلى استتباب الأمن وسيطرة رجاله على الطرق وحمايتها، ووضع حد لابتزاز المسافرين أو فرض الاتاوات عليهم من قبل العرب الذين كانت التجارة تمر ضمن ممتلكاتهم. وهذا تدخل سافر في الحقوق المتوارثة لهؤلاء البدو الذين لا يقبلون الحد من سلطتهم مهما كانت الاسباب كما يظهر في التاريخ المدون وحتى الوقت الحاضر (الحكم التركي الحديث) وأنهم يرفضون الرضوخ لكل قوة تحاول السيطرة على باديتهم العربية: في حين كان المتحضرون من العرب يرحبون من كل قلوبهم بكل حاكم ناجح ولو كان غريبا عنهم. وكان عرب مكة زمن محمد (ع) إذا رأوا بدويا اعتبروه شيطانا متنكرا. وكانت الجماعات المستقرة تكره بدو الصحراء من كل قلبها. ولكن العرب كانوا أذكياء يعرفون أن الحاكم الاجنبي (الروم والفرس) يتقاتلون من أجل السيطرة على جزيرة العرب، وكانوا على استعداد لتصعيد ذلك الصراع كلما سنحت لهم فرصة. كان الفرس أسياد الجهة الشرقية من جزيرة العرب حتى الزاوية الجنوبية الشرقية الهامة التي تعرف الان باسم «عمان» يحاولون باستمرار الاحتكاك وجس النبض في المناطق الجنوبية: وفوق هذه المنافسات كانت هناك الرغبة في السيطرة على تجارة «الهند». وفي الجانب الفارسي بشكل خاص كان همهم القضاء على أعمال التهريب العربية عبر الحدود. ان وضع العرب هذا لا يتفق مع الفكرة التقليدية المأخوذة عن العرب بأنهم أشباه متوحشين، يعيشون حياة بدائية ظلوا معزولين عن العالم الى أن أخرجهم الاسلام من كل ذلك. لقد كانت جزيرة العرب أبعد شيء عن أن تكون معزولة، بل كانت هي الساحة التي كانت تتصارع فوقها القوى العالمية. والعرب يتفرجون بل ويشتركون في لعبة المناورات أو المؤامرات السياسية، ولا ننسى أن عرب الحيرة الذين وصلوا في يوم من الأيام إلى السيطرة على بلاد العرب كلها كانوا موالين للفرس وظلوا كذلك إلى فترة قريبة من ظهور الاسلام.

أما الأحباش فكانوا نصارى مونوفيزيين (يعاقبة) تابعين لكنيسة الاسكندرية. كذلك كانت النصرانية في نجران، مع أن مجيئها من الحيرة أصلا يجعلها غير خالية من العنصر النسطوري(×١). ومعنى ذلك أن الخلافات الفلسفية بين هاتين الطائفتين لا بد وأن

(×١) لم يبين المؤلف أسباب تقريره أن النصرانية اليمنية جاءت من الحيرة أصلا، على الرغم من أنه يقول أن الذي أدخلها شخص اسمه فيميون من أهل سوريا (المونوفيزيين) وليس نسطوريا من الحيرة. ويمكن أن تكون جاءت عن طريق الاحباش الذين غزوا اليمن عدة مرات قبل سنة ٥٢٥ كما يقول في هذا الفصل. وهم منوفيسيون.

تكون وصلت هناك ولو بشكل سطحي. وعلى كل حال فإن جنوب جزيرة العرب كان قد اندمج في الحياة العامة للكنيسة اليعقوبية والنصرانية معاً، وكانت النصرانية المعلم النشيط لعلوم الفلسفة الهلينية التي انتشرت في بلاد العرب في عدة اتجاهات مؤكدة بأنها ليست بأي حال من من الأحوال بلاداً معزولة كما كانت الفكرة القائمة عنها(×١). وفوق هذه كان هناك حركة تبشيرية ممتدة من جزيرة العرب الى سقطرة حيث دامت النصرانية فترة طويلة هناك، وربما تشاهد آثارها حتى اليوم ولو على نطاق ضعيف[٢٢]. ولا يغيبن عن البال أن كلمة «هندي» في أدب الكنيسة تستعمل في أغلب الأحيان مرادفة لكلمة «عربي» (Arabian).

(×١) ان النسطورية بدأت بعد٤٣١م. والمونوفيزية بدأت ٤٥١م. وان أهل الحيرة لم يعتنقوا المسيحية بشكل واضح دون قيود ومع تسامح ديني كامل إلا في حكم النعمان بن المنذر الذي عزله الفرس سنة ٦٠٥ ميلادية قبل البعثة ببضع سنوات.

وأن النصرانية دخلت إما عن طريق الأحباش في آخر القرن الخامس أو عن طريق فيميون السوري في منتصف القرن الخامس المذكور ولا علاقة للحيرة بذلك غالباً. أما اليهودية فقد أدخلها التبابعة قبل ذلك بكثير عن طريق أحبار المدينة (يثرب). ابن هشام الجزء الأول.

ملاحظات الفصل السابع

«النصرانية والعرب»

أ ـ العنصر الهليني في النصرانية:

١ ـ كارنك: «تاريخ العقيدة» الكتاب الأول: يبين بشمول أن النصرانية يونانية بالدرجة الأولى. أما النصرانية اليهودية فكان يمكن أن تقوم، ولكنها اضمحلت من البداية أما رأي شهرزيكوسكي «أصل الفن الكنسي المسيحي» يميل إلى القول بأنه على الرغم من أصلها الشرقي، فإنها تحولت تماما إلى هلينية، ثم اتجهت نحو الشرق على انها دعوة للهلينية.

٢ ـ لابورت: «النصرانية في الامبراطورية الفارسية» ٣١ وما بعدها.

٣ ـ كونيبير: طبيعة الهرطقة في الأيام الأوائل للكنيسة الانجليزية «في ترجمة مجتمع سيمندر (١٨٩٩) ٨٤ وما بعدها.

٤ ـ سترزيكوسكي: أصل الفن الكنسي المسيحي ١٩٢٠. ترجمة دالتون وبراونهولتز «أصول الفن في الكنيسة النصرانية» اكسفورد ١٩٢٣.

ب ـ الكنيسة السريانية:

١ ـ رسالة شاهبور ـ اقتباس بيدجان «استراحة ضريح الشهيد» ليبزغ (١٨٩٠) ٢:١٣٦.

٢ ـ هذه القوانين العربية موجودة في المتحف البريطاني: أدد ـ ١٤٥٢٦، ١٤٥٢٨ نشر شابوت المجمع الكنسي الشرقي (١٩٠٢) ٢٥٤ وما بعدها.

ج ـ الكنيسة النسطورية:

١ ـ أرسطو طاليس «الحيوان» (٣:خصوصا ٩إلخ) قابل ر. دي. هيكس «الحيوان لارسطو» ٧٩ وما بعدها.

٢ ـ لابورت السابق الفصل ١٠، جي. ر. شابوت «مدرسة نصيبين» في مجلة الجمعية الاسيوية» ١٨٩٨:٨، ٤٣ وما بعدها.

٣ ـ ابن هشام ٥.

هـ ـ النصرانية في بلاد العرب:

١ ـ ابن هشام ١١٥، الطبري: تاريخ الرسل والملوك تأليف دي خوجي ١ : ١١٢٤، قابل

هيرشفيلد، «البحوث الجديدة» ٢٢. شكل آخر من رواية بحيرا في جي عامر: «المجتمع الشرقي» (١٧٧ ـ ١٨١).

٢ ـ المسعودي: مروج ١ : ١٤٦، يدعو الراهب «سرجيوس».

٣ ـ امرؤ القيس (المعلقة) ٧١ ـ ٧٢.

أصاح ترى برقا أريك وميضه كلمح اليدين في حَبيٍ مكلل
يضيء سناه أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبال المفتل

٤ ـ سورة (٥) آية ٨٢ «ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا.

٥ ـ لامينس «الحدود القديمة» ٨٠، مكة ٢٥٧.

٦ ـ لإمينس: «الطائف» ٨٦، مكة ٢٥٧ ـ ٢٥٨، ديوان امرىء القيس يشير إلى رهبان يرتدون القفاطين ذات الحواشي «في الاحتفال».

٧ ـ النيل في ميجني «التعاليم والإنجازات اليونانية» ٧٩: ٥١٢ـ٦٩٣.

٨ ـ ابن هشام: ٥، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١: ٩٢٣ ـ ٩٢٩.

٩ ـ أبو الفداء: ١٠, (حمزة (تحرير جوتوالدت) ٣٤.

١٠ـ الأغاني: ١٤٥,١٠، ١٠٥,١٧ الخ.

١١ـ الوصف في معجم البكري ٧٥٦، الهدايا الامبراطورية البيزنطية المذكورة في ابن هشام ٤٠١.

١٢ـ الملك كما في ابن هشام ٤٠٣.

١٣ـ لامينس «الخليفة يزيد الأول» ـ بيروت (١٩٢١) ٣٣٢ ملاحظة ٤.

١٤ـ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٧٢٩,١، ٧.

١٥ـ قابل أعلاه ص١١٩ (الانجليزي) حول ذي نواس.

١٦ـ بروكوبيوس في «الحرب الفارسية» ١ ـ ١٠.

١٧ـ الطبري: نفسه ١: ٩٢٥ ـ ٩٢٧، جون مالالاس «التسلسل الزمني» ١٩٤,٢. يدعو «أوغانيس». وفي ثيوفانيوس «التاريخ الديني» ٢٠٧ اسمه «حارثة».

١٨ـ ظفار في بروكوبيوس «الحرب الفارسية» ٢٠,١، قابل ابن هشام ٢٨ـ٤١ والطبري نفسه ٩٣٠,١ ـ ٩٤٥ والأغاني ٧٢,١٦.

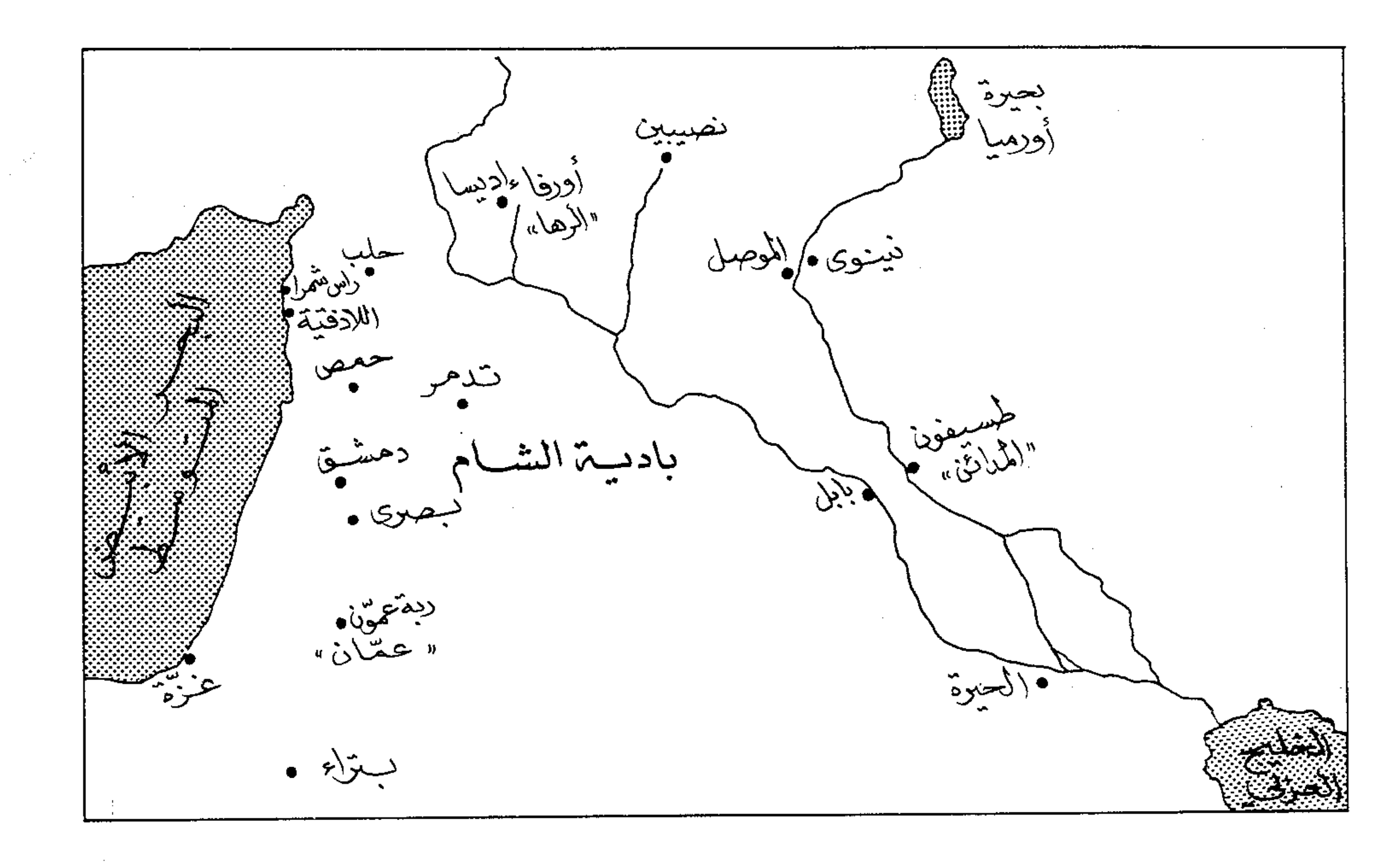
١٩ـ جلاسر: «نقشان» في ميتوخ نشرات جمعية الشرق الأدنى (آسيا الدنيا) (١٨٩٧) ٣٦٠ ـ ٤٨٨.

٢٠ـ الطبري نفسه ٩٣٤,١ ـ ٩٣٦ رمت الطيور الحجارة وكل من أصابته ظهر على جسده طفح وبثور. وجميع من أصابتهم الحجارة حملوا هذا المرض الذي انتشر فوق جميع الجسد» قابل: إدخال الأحباش لمرض الجدري ص: ١٢١ (ملاحظة ١٩ قبل وباء

الطاعون).

٢١ـ كوزماس انديكوبلويستيس في ميجني «التعاليم والإنجازات اليونانية» ٨٨.

٢٢ـ نفسه: عمود ١٦٩.


البحر الأبيض المتوسط
حلب
راس شمرا
اللاذقية
حمص
تدمر
دمشق
بصرى
بادية الشام
ربة عمون
«عمان»
غزة
بتراء
أورفا اديسا
«الرها»
نصيبين
بحيرة
أورميا
الموصل
نينوى
طسيفون
«المدائن»
بابل
الحيرة
الخليج العربي

الفصل الثامن

«عرب الدول الحدودية»

أ ـ الظروف المواتية لقيام الدول الحدودية:

علينا الآن أن نوجه اهتمامنا إلى أولئك الذين كان لهم أثر هام في توجيه حياة المجتمع العربي الفكرية نحو الهلينية★. وهم العرب الذين استقروا في الحدود الفارسية والسورية، والذين كانوا جزءاً لا يتجزأ من المجتمع القبلي العربي، على الرغم من أنهم كانوا في الوقت نفسه مواطنين وموظفين وأمراء في فارس وبيزنطة.

نشاهد على الخارطة (×١) أن بلاد العرب تضيق في الشمال حتى تصير على شكل لسان طويل يسمى «بادية الشام» أو صحراء سورية. وكأن هذا الموقع يشكل اسفيناً في الدولتين القديمتين فارس وروما. وهنا يصدق كلام «بيفان» تماماً: فقد يفرض التوزيع السياسي اطلاق اسم سوريا على هذه المنطقة، ولكن الصحيح هو بلاد العرب كل العرب وليست صحراء سوريا لأن حدودها ليست الحدود المتفق عليها بين الدول وإنما هي حدود العمران الزراعي المستقر الذي يعتبر ما بعده صحراء غير مأهولة. فكم من مرة حاولت الدول المجاورة أن توسع سيطرتها على هذه المناطق الصحراوية فتكلفت المال والأرواح في سبيل تحقيق ذلك. فقد تخلى عنها هدريان لأن روما لم ترض أن تكون مسؤولة عن «مصدر توتر Costant Strain» (وحديثا انسحبت انجلترا لنفس السبب) فقد كانت السياسة الحكيمة أن تضمن تعاون بعض قبائل الحدود، وتجعل منهم متراساً أمام جماعات الصحراء البدوية الجائعة. ومثل هذا كانت سياسة الامبراطورية العثمانية في أيامها الأخيرة، ومثلها بريطانيا وفرنسا اليوم وكذلك كانت سياسة روما وفارس في القرون الأولى من عصر النصرانية.

(×١) الخارطة كلمة مأخوذة من الأجنبية (Chart) الانجليزية أو (Carte) الفرنسية والأصل العربي هو الرسم. أو الترسيم أو الصورة (د. حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام ١٩٨٧).

★ حضارة بلاد اليونان «الهلينية» نشأت خارج بلاد اليونان نفسها بتأثير من الفكر اليوناني. والتي امتدت باتجاه الشرق خلال القرن الرابع قبل الميلاد أثر فتح الاسكندر المقدوني لسوريا ومصر وأجزاء من آسيا. وبعد وفاة الاسكندر ازدهرت هذه الحضارة التي اشتملت على عناصر كثيرة غير اغريقية وبخاصة في مدينة الاسكندرية وقد اقتبس الرومان ميراث الهلينية الثقافي ونشروه في ارجاء امبراطوريتهم. موسوعة المورد جزء ٥ ص٨٩.

يلاحظ من خلال التاريخ كله، أن القبائل العربية القريبة من العمران تميل إلى تشكيل مجمعات شبه مستقرة على أطراف العمران الذي بقربها. فإن حرمها ذلك الاستقرار من فرص السلب والنهب فإنها تقوم بعمل اتفاقات مع الجيران يكون من شروطها أن تقوم هذه القبائل المهادنة بحماية المزارعين المستقرين من جماعاتهم المتصيدين اللصوص. هكذا كانت دولة الانباط، تقوم مقام «دولة حاجزة Buffer State» أي حاجز دولي في هذه المنطقة. ولما دالت دولة الانباط ولم تعد روما قادرة على فرض سيطرتها على الصحراء السورية صارت تلك الصحراء أرض منازعات وميدان غارات بين بيزنطة وبلاد فارس دون نظام أو ضبط وربط مما ساعد القبائل العربية هناك على التفوق مستغلين تميزهم في سرعة الحركة على أي من جارتيهم.

ب ـ عرب الحيرة:

بدأت المستوطنات العربية بالتشكل على حدود دولة الفرتيين (الفرس) في أواخر أيام السلالة الارساكية، عندما أخذت مملكة الفرتيين في الزوال وأصبحت عاجزة عن حماية حدودها جيداً فتسرب إليها العرب فدخلوا الأراضي الخصيبة التي صارت تعرف فيما بعد «بالاسود»(×١) وقد حاول النبط(×٢) الفلاحون أو المزارعون المتكلمون باللغات (السامية) أن يقاوموا ولكن ملك فرتيا لم يستطع أن يمدهم بالمساعدة فاستقر القادمون الجدد في البلاد، وتركوا أهلها فيها يزرعونها ويدفعون لهم جزءاً من الدخل على شكل جزية أو ابتزاز في حين عمدوا إلى ما خلقوا له (على رأيهم) من الحياة التي لا تستحق أن نحياها لولا الحروب والصيد والرياضة.

ولما قامت السلالة الساسانية بعد سقوط الفرتين حاولت الحكومة المركزية طرد هؤلاء العرب ولكنهم كانوا مستقرين لدرجة أقوى من أن يطردوا فلجأت الحكومة الجديدة إلى دمج العرب الحاكمين بالمزارعين، وتشكيل وحدة قوية بينهم بدلاً من اتحاد مجموعات القبائل الذي كان سابقاً. مثلما حصل عند قدوم العدوان الفلسطيني الذي أجبر الاسرائيليين على أن يتحدوا ويشكلوا مملكة مركزية[1]. فقد قام أول ملوك الدولة الساسانية

(×١) الكلمة العربية هي «السواد» والسواد يمثل كل المنطقة الجنوبية بين النهرين من شط العرب حتى بغداد.

(×٢) النبط أو الانباط: هم الذين يقومون بانباط المياه الخفية للزراعة بشكل خاص. وهناك دولة للأنباط كانت تحكم من شمال المدينة المنورة حتى شمال دمشق «من العلا إلى جنوب حمص وجنوب تدمر وشبه جزيرة سيناء وكل الأردن باستثناء الساحل الفلسطيني وكان يتبعها غور الاردن على الضفتين من ٦٠٠ق. م ـ ١٠٦م» د. سوسة: نقش أشوربانيبال.

أردشير الملك بمحاصرة مدينة الحضر[٢] العربية (×١) (Hathra) التي تمكن ابنه سابور (الأول Shapur I) من التغلب عليها. ولم يتمكن من طرد أهلها نهائيا[٣] وتم الاتفاق على إقامة وحدة مع القادمين الجدد يكون الكل تابعين لملك فارس في حكومة يرأسها «عمرو بن عدي» الذي جعل عاصمة ملكه في «الحيرة» بدلاً من الحضر. وكان ذلك حوالي سنة ٢٤٠ ميلادية. وكلمة «حيرتا بالسريانية Herta» تعني المعسكر واعتبر الملك عدي حاكما على جميع المناطق التي يسكنها العرب وفي نفس الوقت أميراً في الامبراطورية الفارسية ضمن الامتيازات التالية: أن تكون رتبته أو رتبة من يخلفه بانعام ملكي وبراءة من الملك العظيم ضمانا لطاعته، وأن يقوم أهل الدولة الجديدة على حماية حدود الامبراطورية المتاخمة لهم أمام كل متطفل، ومقابل ذلك يعفون من الضرائب أو الجزية التي تستوفيها الامبراطورية عادة[٤]. كانت الامبراطورية الفارسية تسير أصلاً على نظام إقطاعي، حيث يكون حاكم كل ولاية مستقلا بجميع الأمور الداخلية لولايته: وواجبه نحو الحكومة المركزية محصور تماما في تأمين رسوم مفروضة متفق عليها، وليس لرعيته مخاطبة السلطان مباشرة دون توسط هذا الأمير. ويكون تعيين الملك مدى الحياة ولأهل الإقطاعية أن يختاروا خلفه شريطة أن يقترن ذلك الاختيار بالموافقة الملكية، وإلا فيعين الملك شخصا آخر يكون أعلى من الشخص الذي اختاره شعب المملكة. أما بقايا السبي، من يهود جنوب بلاد ما بين النهرين فكان لهم رئيس للحكم الذاتي مكون من المقدمين من أهل السبي، وعند موته يقدم للملك العظيم اسم شخص جديد لأخذ موافقته عليه، فإن لم يقبل هذا المرشح قام يهود السبي(×٢) بترشيح شخص آخر يكون من نسل داوود إذ لا يجوز تعيين أي واحد غير معروف. كذلك حصل مع الكنيسة عندما حصلت في وقت متأخر على الاعتراف بها فإنها مارست حكماً ذاتياً مماثلاً(×٣) تحت قيادة كاثوليكوس سلوقيا. كان الحكم في الدولة الفارسية حكماً مطلقاً في الظاهر، ولكنهم كانوا يحترمون إرادة الرعايا احتراما زائدا، ومنحتهم الدولة درجة هامة من الحكم الذاتي تتضاءل أمامها تسهيلات

(×١) الحضر دولة عربية بدأت ٨٥م وانتهت ٢٤٠م وكانت عاصمة دولة عربية واسم لمدينة «عربايا» موقع الدولة كل منطقة الجزيرة بين دجلة والفرات شمالي بغداد حتى شمال الموصل وجبل سنجار.

(×٢) لم يكن لليهود من بقايا السبي دولة أو كيان بل جماعة قومية دينية، وكذلك الكنيسة. ولم يكن ذلك حكماً ذاتياً بل إدارة شؤون مؤسستهم الخاصة.

(×٣) لم تكن حرية التصرف في شؤون الرابطة اليهودية أو الرعية الكنيسية حكماً ذاتياً كما كان لعرب الحيرة بل كان عبارة عن حل مشاكل أبناء الرابطة أو المؤسسة ولم تكونا دولتين بل جماعتين ضمن دولة فارس.

الحكم المركزي السائد في النظام البيزنطي. فعرب الحيرة كانوا يعتبرون حكومة تابعة، لها حكمها الذاتي ولها ملكها الخاص الذي عليه التزامات خاصة نحو الملك العظيم بموجب نصوص المعاهدة. وإن كان الملك العظيم ينعم بالملكية على أي فرد من أسرة الملك اللخمي الأول للحيرة دون مراعاة الخلافات التي تنشأ حول أيهم أولى بالمنصب من أبناء العائلة (القبيلة).

نعرف أن العرب غزوا بلاد فارس لغرض السلب والنهب، وكان ذلك في نهاية السلالة الأرساكية حين كان ملوكها ضعافا لا يستطيعون حماية أرضهم وأصبح هؤلاء العرب دولة ثابتة ومعروفة رسميا كجزء من الامبراطورية الفارسية. وفوق ذلك صاروا أصحاب سيادة على ولاية غنية لم يحلموا بمثلها أيام كانوا جوابين وراء مغنم يسرقونه، وصاروا محسودين من كل أبناء جلدتهم الذين كانوا يعتبرونهم من الذوات والنبلاء. أما الذين استقروا وصاروا زراعا فقد خسروا شيئا من وجاهتهم في نظر أقربائهم من أبناء الصحراء الذين يكرمون السادة الذين عملهم الصيد والحرب: ولا يقيمون وزنا لمن يستقر ويعمل في الزراعة. لذلك وعلى الرغم من تبعيتهم للسلطة الفارسية، فإن هؤلاء العرب لم يتخلوا عن مركزهم في العشيرة وظلوا يرسلون من يمثلهم في أسواق العرب، وكان لقيادتهم وزنها الثقيل بين بقية العرب. ومن خلالهم استطاعت الحكومة الفارسية التي تمارس اشرافها الكامل على قبائل الصحراء، أن تعرف كل ما يلزمها عن تحركاتهم. ومن خلالهم أيضا تسرب كثير من الفكر الهليني إلى جزيرة العرب. فهم وإن كانوا رعايا فارسيين إلا أنهم لم يشاركوا في الحياة الفكرية الفارسية، لكنهم ساهموا في الواجهة الأرامية للهلينية والتي انتشرت في كل بلاد مابين النهرين.

أخذت الحكومة الفارسية في عهد الملك الثالث من الاسرة الساسانية، الملك هرمز الأول، أو (بهرام الأول) ٢٧٢ ـ ٢٧٣م. تنشيء معسكرات اعتقال لأسرى الحرب من الروم، وذلك بعد أن اكتشف الفرس أن الروم يتفوقون عليهم في كثير من الفنون والصنائع خاصة الهندسة والمعمار والطب، وصدرت الأوامر لمحاولة اعتقال الأسرى من الرجال ممن يملكون مثل هذه المهارات.

وقد منحت هذه المعتقلات صفة المدن ذات الحكم، لها بلدياتها حسب الطريقة اليونانية واعترف بها كمحافظات إقطاعية تمتعت بقدر عال من العطف الملكي. هذا إلى أن بعض هؤلاء الأسرى كانوا يوضعون في مواقع أعلى من بعض النبلاء في المقاطعات، إعلاء لقيمة أسرى الحرب. وكان قسم منهم من حصة ملوك العرب في الحيرة. ومن المحتمل أن تكون النصرانية قد دخلت الحيرة عن طريق هؤلاء الأسرى، إذ لم تكن النصرانية في ذلك

الحين تتمتع بأية حرية في الامبراطورية الرومانية. أما في فارس فلم يكن هناك تدخل في شؤون رعايا الكيان الذي له حكم ذاتي في الشؤون الدينية والداخلية فكان النصارى هنا، وفي أرمينيا يعيشون في مجمعات كنسية علنية، بينما كانت الكنيسة في روما وانطاكيا والاسكندرية محاطة بجدران من الحذر والشك والسرية. إلا أنه لم يكن مسموحاً للنصارى في بلاد فارس أن يقبلوا مرتدين عن ديانة «زرادشت» ومن خالف تعرض هو ومن اهتدى معه إلى العقوبات الشديدة ولحسن الحظ لم يكن في المنطقة الحدودية - لبلاد ما بين النهرين - إلا القليل من أتباع الزرادشتية دين الدولةوهم عدد محدود من الوطنيين. أما بقية الوطنيين فكانوا وثنيين لا يشملهم الجزاء إذا اعتنقوا المسيحية، فنشط المبشرون من اليونان وغيرهم من النصارى في دعوتهم للدين، ولم يمض طويل وقت حتى تحولت نسبة معتبرة منهم إلى النصرانية وبقي قسم منهم على وثنيتهم يحافظون بعناد على معتقداتهم الدينية هم ويهود المستوطنة الجنوبية الغنية القوية. وكانت النصرانية أسرع هذه المعتقدات تقدما وتوسعا، ولم تتدخل السلطات الفارسية في صد هذا التقدم، فأصبح جميع السكان الزراعيين حول الحيرة نصارى. وكان ذلك قبل مجيء الإسلام بعدة قرون، وتبعهم مهتدون كثيرون، باستثناء الأسرة الحاكمة من اللخميين، إذ بقيت على وثنيتها حتى وقت متأخر، وكانت أول اشارة إلى بدء تحول اللخميين إلى النصرانية حين بنت الأميرة هند ديرا في الحيرة(×١)[٦].

قام كسرى يزدجرد الأول (حكم ٣٩٩ - ٤٢٠م) في زمن النعمان الأول في أوائل القرن الخامس الميلادي بارسال ابنه الأكبر «بهرام» ليتربى بين عرب الحيرة ويستمتع بالهواء الطلق ولذة الصيد في بادية الشام التي ملاها النعمان الأول بالقلاع والحصون، مستعينا بمهندس يوناني[٧]. ولما مات يزدجرد سنة ٤٢٠ نجحت مؤامرات البلاط في تنصيب أحد أبنائه الأصغر خسرو على العرش، وذلك لأن كثيرا من النبلاء كانوا غير ميالين لأن يتولي إمرة البلاد بهرام القوي، الذي كان لا يزال نزيلا عند العرب - فقرر أن يسترد حقه في العرش وساعده العرب في ذلك وكان ملك الحيرة آنذاك «المنذر الأول» وقد نجح ذلك المحارب الشجاع في استرداد تاج الملك الذي بقي على رأسه حتى سنة ٤٣٨م. كان العرب خلال فترة حكمه موضع الإجلال والتقدير من البلاط الملكي. وربما كان ملك الحيرة (الامونداروس Alamunder) المنذر الذي ذكر المؤرخ سقراط أن الرومان هزموه زمن بهرام الذي حكم بعد موت يزدجرد[٨].

(×١) وكان ولا يزال يسمى دير هند.

قامت قبيلة بكر(×١) سنة ٥٠٢ بتهديد الحدود السورية فهاجمهم الامبراطور البيزنطي أناستاسيوس وأبرم معهم اتفاقية امتصت عداءهم. فحولوا اهتمامهم إلى الحدود الفارسية وإلى عرب الحيرة القريبين منهم وكان ملكهم آنذاك النعمان الثالث، ولم يتمكن أهل الحيرة من كبح جماح هذا الغزو والوقوف في وجهه. فكان ذلك مثار لوم الملك الفارسي «قباذ» الذي لجأ في النهاية إلى معالجة الغزاة واعترف بهم كجزء من المجتمع العربي في الحيرة. وكان أكثر الناس تضررا بهذا الغزو وهذه المصالحة هم المزارعون الذين صار عليهم أن يرضوا عددا أكبر من السادة. أما الفرس فقد استفادوا حيث كان ذلك زيادة لقوتهم وتعزيزا لحماية حدودهم بقبيلة بكر التي لم تكن تحب أن تكون في يوم من الأيام تابعة للفرس.

ورد في المصادر اليونانية واللاتينية أن الامبراطور «جستين Justin» قد أرسل سنة ٥٢٤م موفدين هما «سمعان، وابراهيم» إلى الحيرة سعيا وراء فك أسر القائدين (الجنرالين) تيموستراتيس وحنا الذين كانا أسيري حرب لدى المنذر الثالث ملك الحيرة[٩].

نحن الان في القرن السادس الميلادي الذي بدأت تتداعى فيه قوة الحميريين في الوقت الذي تم فيه الاعتراف بملك الحيرة سيدا على عرب جنوب الجزيرة وعلى معظم القبائل المتمركزة في وسط الجزيرة، وقد رافق هذا ازدياد القوة الفارسية. فمن المعروف أن شابور الثاني فتح الساحل الشرقي لبلاد العرب من القطيف (جرها Gerrha) إلى عمان خلال القرن الرابع[١٠]، والان في سنة ٥٧٣م هب النعمان ملك الحيرة مدافعا عن عرب اليمن الذين كانت بلادهم تحت حكم الاحباش[١١]، فاستجاب له الملك العظيم وأرسل حملة عززت قوة فارس في اتجاه جنوب الجزيرة وكان وهرز أول نائب ملك فارسي في اليمن سنة ٥٩٧م. وكان هذا امتدادا حقيقيا لمنطقة النفوذ الفارسي في بلاد العرب. وساعد على توسيعها ضعف شعبية البيزنطيين حلفاء الأحباش. وقد تغيرت هذه النظرة زمن النبي عندما صار عرب الحجاز على الأقل متشيعين دون شك لليونان(×٢).

(×١) كانت مساكن قبيلة بكر أنذاك ولا تزال إلى اليوم في المنطقة الواقعة بجنوب الخليج الفارسي وصحراء النفوذ أي ما يعرف في وقتنا الحالي بالبحرين والمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية ـ التي فيها الاحساء والدمام والقطيف الخ.

(×٢) [اليونان هنا هم الذين سماهم القرآن الكريم «الروم» ـ بقوله: ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾. الروم الشرقيون أو البيزنطيون.]

يبدو أن الحيرة بلغت أوج استقلالها تحت حكم المنذر الثالث الذي كان معاصرا للامبراطور جستنيان البيزنطي. وقد ظهر ذلك في عقد الصلح بين بيزنطة وكسرى أنو شروان(×١) سنة ٥٣٢م فقد تمت الدفعات (الرومانية) إلى الملكين: ملك الفرس والملك المنذر[١٢] وعلى الرغم من الصلح المشار إليه. فقد استمر عرب الحيرة في مناوشاتهم مع عرب الحدود السورية[١٣] وكان ذلك أما عجزا من ملك فارس عن كبح جماحهم أو تغاضيا منه حتى يبقى السوريين في حالة قلق دائم. وقد حاول جستنيان أن يشتري المنذر الثالث من وراء ظهر الفرس[١٤]. ولكن المنذر لم يكن يرغب في التحالف مع بني غسان أعدائه التقليديين، ومات وهو يحاربهم، وقد ذكره ثيوفانيوس سنة ٥٦٢[١٥] - اي في السنة. التي عقّد فيها الصلح بين روما وفارس، مما يوحي بأن وفاته كانت بعد ذلك التاريخ.

ثم مضت بضع سنين دون حرب بين بيزنطة وفارس، خيل إلى المنذر خلالها أن فارس آخذة في الاضمحلال، فبدأ يتفاوض مع بيزنطة وأصبح حليفا بيزنطيا. لكن فارس استعادت هيبتها فأخذت محالفة المنذر الجديدة تتأرجح وتتزعزع، وصارت موضع شك لدى البيزنطيين فسجنوه، ثم نفاه الامبراطور «موريس» إلى صقلية سنة ٥٨٠م[١٦].

جاء إلى الحكم الملك النعمان الخامس الذي أنشأت زوجته «هند» أول دير في الحيرة، ولا يزال حتى اليوم يحمل اسم «دير هند» (الطبري جزء ٢ ص٥٧).

تعتبر سنة ٦٠٥م نهاية لحكم ملوك الحيرة حين توترت العلاقات بين النعمان والملك العظيم، ورأى النعمان أن يلجأ إلى قبائل الصحراء، هو وأسرته(×٢). ثم جازف بالعودة ليدافع عن قضيته أمام كسرى، ولكنه قتله[١٧]. وكان ذلك حوالي سنة ٦٢٠م[١٨]. وكان ملك فارس قد عين أياس (بن قبيصة) الطائي مكانه. فساء ذلك قبيلة «بكر» الذين تحركوا جميعا من مواطنهم وهاجروا إلى البحرين . حيث عاشوا هناك في ثورة مكشوفة ضد فارس تمكنوا خلالها من قطع طرق المواصلات بين فارس وشرق الجزيرة العربية وجنوبها. وكان هذا الخروج الأخير بداية انحسار التوسع الفارسي في جزيرة العرب. وظل بنو بكر في ثورتهم سبعين سنة أخرى حتى الفتح الاسلامي(×٣).

(×١) كسرى انوشروان (٥٣١ - ٥٧٩)م وكان يسمى العادل أنوشروان: أنو - الجديد، شير = الأسد - وان = شبيه، أي شبيه الاسد الحديث (الشبل). القاموس الفارسي.

(×٢) أياس الطائي أو إياس بن قبيصة حكم من ٦٠٥ - ٦١٤م ورد في مروج الذهب للمسعودي جزء ٢ صفحة ١٠٤ أن رسول الله كان زمن اياس - بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط٤ - ١٩٦٤.

(×٣) الفتح الإسلامي لبلاد الفرس في أول الخلافة الإسلامية - أبو بكر وعمر (٦٣٢ فصاعداً). وما قبلها بسبعين عاما (٥٦٢) السنة التي غلب فيها الفرس وعقدوا صلحاً مع جستنيان (ت ٥٦٥م).

وأصبحت الحيرة بعد موت اياس سنة ٦١٤ مشكلة تقض مضاجع الفرس إذ نزلت مرتبتها إلى مجرد كورة صغيرة وعين لها «مرزبان» فارسي اسمه «زاديه Zadiya» (١٩) فأغضب ذلك عرب الحيرة بشكل لا يمكن تصوره، وجعلهم ميالين للانضمام إلى حلف القبائل العربية الذي شكله النبي أثناء إقامته في المدينة(×١). ولكنهم عندما جد الجد وتقدم المسلمون نحوها زمن أبي بكر قاوموا بعض الوقت، ثم أبدى عرب الحيرة استعدادهم الكبير للانضمام إلى بني جنسهم تنفيساً لأضغانهم ضد الملك الفارسي. ولكن الموقف كان مغايراً لذلك عندما دعوا إلى الخضوع للقبائل المسلمة، وقبولها حكاماً عليهم(×٢).

جـ - عرب الحدود السورية:

يغفل التاريخ الروماني ذكر القبائل العربية بعد سقوط تدمر إلى أيام جوليان حين تبدأ الاشارة إلى شعوب عربية مستقرة في الأراضي الواقعة إلى الشرق من الحدود السورية، وأنها كانت هامة جدا لدرجة أن يطلب الجيش الروماني مساعدتها له. ويبدو أن هذه المواطن الزراعية أنشئت بين حكمي أورليان وجوليان(×٣). وليس لهذه الفترة أي تاريخ سوى الاخبار المنقولة عن الكتاب المسلمين الذين جاءوا بعد فترة متأخرة. ومثل هذه المصادر يجب التعامل معها بمنتهى الحذر. أما في الجانب الفارسي من الحدود فكان للحيرة تاريخ ربما حفظ في قيود فارس التي لا نجد منها اليوم شيئا ولكنها قد تكون استعملت من قبل المؤرخين العرب: فالمعروف أن القيود الفارسية كانت تحت تصرف المؤرخين العرب واستعملت بكل صدق من قبلهم. أما في الجانب السوري فقد دون التاريخ من قبل اليونان. وليس هناك ما يفيد أن الكتاب العرب قد اطلعوا على ما دونه اليونان وهم يكتبون التاريخ. ومع ذلك فإن معظم المادة اليونانية ما تزال موجودة وتحت تصرفنا ويجب أن نعتمد عليها كمصدر أساسي. أما ما كتبه المؤرخون العرب فقد كان بعد زوال هذه الدول الحدودية بزمن طويل، وتناولوا تاريخها من منظور اسلامي. فهم يتحدثون عن ملوك وأمراء عرب كانوا يتعاملون على قدم المساواة مع القيصر الامبراطور في حين أننا

(×١) لم يشكل النبي (ﷺ) أحلافا للقبائل وإنما كانت دولة إسلامية ينضم إليها كل من يدخل الإسلام دونما حاجة إلى ميل أو أحلاف وكان تعيين زادويه قبل الهجرة بثماني سنوات.

(×٢) لم يكن هناك دعوة للخضوع ولا قبول لحكم القبائل المسلمة بل كانت دعوة للإسلام وقبولا بحكم الإسلام في دولة إسلامية.

(×٣) أورليان امبراطور روماني سقطت على يديه تدمر سنة ٢٧٢م وجوليان امبراطور ولد في القسطنطينية سنة ٣٣١م وحكم من ٣٦١ - ٣٦٣م وهذه الفترة مشهورة بأن طولها ٩٠ سنة - القاموس الكلاسيكي الصغير. وكان التعامل خلال نصفها الأول أو يزيد مع روما وليس بيزنطة .

نعرف أن أولئك الملوك لم يكونوا أكثر من شيوخ قبائل لايتعدى تعاملهم موظفي الدرجة الثانية على الحدود.

يقول حمزة الأصفهاني[1] المؤرخ العربي: أن أول قبيلة عربية استقرت وأقامت على الحدود السورية بموجب معاهدة مع الرومان هي قبيلة «تنوخ» التي كانت ضمن الذين أقاموا في الحدود الفارسية. ولكنهم نزحوا عندما حاول ملوك الساسانيين الأوائل إخضاع قبائل الحدود. وقد يكون هذا مقبولا شكلا، ونقبل أيضا أن يكون تخفيض درجة القبائل الحدودية الفارسية(×١) حافزا لغير الراغبين في الخضوع أن يتحركوا غربا حوالي سنة ٢٣٠م وعلى وجه الاحتمال قبل سقوط تدمر، ومن المحتمل أن يكون هؤلاء العرب الحاقدين الذين انخرطوا في خدمة أورليان عندما توجه نحو تدمر، وأثابهم على مساعدتهم، فاعترف بهم حماة للحدود السورية. أما المسعودي فيقول أن قبيلة عربية استقرت في الحدود السورية هي قبيلة قضاعة التي منها التنوخيون. فهو يقول: «تحالفوا مع ملوك رومة. وبعد أن اعتنقوا دين النصرانية أسند اليهم حكم كل العرب الذين كانوا مستقرين في سوريا»[2] ولم يكن ذلك أكثر من غرور انتاب المؤرخين المتأخرين حين تصوروا هذه القبائل تتحالف مع ملك الرومان(×٢) مع أن المفاوضات كانت تتم مع أمراء المحافظات الحدودية★★★. أما الإشارة إلى اعتناقهم النصرانية، وأنها مهدت للاعتراف بهم فهو خروج عن التاريخ لأن الامبراطورية الرومانية نفسها لم تكن قد دخلت النصرانية حتى ذلك الحين(×٣) ولكن هذه الهفوات لم تكن لتؤثر على حقيقة أن فرع «تنوخ» من قضاعة

(×١) التخفيض كان بعد زوال دولة الحضر ٢٤٠م وإدماج أهلها تحت امرة عمرو بن عدي الذي نقل عاصمته غربي الفرات وسماها الحيرة. وهو الاحتمال الصحيح مع ملاحظة تعديل التاريخ. أما قصة الذين خدموا مع أورليان فغير واردة لأن أورليان حكم خمس سنين فقط بين ٢٧٠ ـ ٢٧٥م وكان تحركهم نحو تدمر سنة ٢٧١ وسقوطها ٢٧٢م وهذا تاريخ متأخر بالنسبة لقيام الدول الحدودية الأقدم كثيرا.

(×٢) استغراب المؤلف لأن المؤرخين العرب يصفون اتفاق العرب مع الروم بأنه تحالف ليس له مكان لأن العرب كانوا ملوكا في بلادهم مثل ملك الروم قدرا وقد يكونون أكثر فخرا. وما قام به المؤرخون ليس غرورا بل تقرير واقع تم.

★★★ صحيح أن المفاوضات كانت تتم عن طريق أمراء المحافظات الحدودية ولكن العرب كانوا يعتبرونهم ممثلين لملك الرومان.

(×٣) المسعودي لم يخطىء عندما قال «تنصروا فيما بعد» أي بعد أن تنصرت الامبراطورية على يد قسطنطين الكبير الذي تنصر سنة ٣١٢م أي قبل الامبراطور جوليان بخمسين عاما. ولا أدري لماذا هذا الموقف المتجني أو الساخر أحيانا من المؤرخين الذين أرخوا لهذه الفترة (٩٠ عاما) فهم لم يسودوا على بقية عرب سوريا (الذين كانوا قبلهم أو معهم) إلا بعد التنصر. ولماذا ينتظر أن تستورد النصرانية من بلاد اليونان؟ أليست عربية أصلا؟ وأليست القدس وبيت لحم أقرب؟

هم أول من استقر من العرب في الحدود ويستطرد المسعودي ويقول ان قبيلة «سليج Salij»(١×) دخلت فيما بعد وتغلبت على قضاعة واعتبرت هي القبيلة الحاكمة. ثم جاء الغساسنة وتغلبوا على العرب المقيمين في سوريا، فاعتمدهم الرومان حكاما على العرب[٣].

عندما بدأت حملة جوليان سنة ٣٦٣م كانت النصرانية تتمتع بالحرية والسماح لها بالاعلان عن نفسها منذ سنة ٣٣٠م. وقبل ذلك بقليل كانت الصحراء تشاهد قيام الأديرة والصوامع، وكان العرب في القرن الرابع يعرفون الرهبان والنساك وبدأوا يتعلمون شيئا عن الدين النصراني. يقول المؤرخ الكنسي «سوزومون[٤] Sozomon» إن أكثر العرب في هذا الوقت تنصروا وان من المعقول أن يكون الذين استقروا في الحدود من هؤلاء المهتدين.

سارت حملة جوليان إلى فارس في نيسان ٣٦٣ وتمكن خلال مسيرته أن يجمع كثيرا من العرب «Saracens» المتطوعين[٥] في حملته. وربما كان منهم الغساسنة وبعض قبائل الحدود الذين كانوا يعتبرون حلفاء. ولما فشلت الحملة، وتعرض الناجون للمصاعب في شق طريق العودة كان العرب أكثر اعدائهم إزعاجا لهم[٦]، ولا ندري هل كان هؤلاء من حلفائهم السوريين، وهو شيء غير مستبعد، أم كانوا من عرب الحيرة المنافسين الموالين لفارس؟

لم يكن لدينا منذ ٣٦٣ حتى ٥٢٩ سوى بعض المصادر غير العربية، وكانت المصادر العربية أخبارا غير موثوقة. يقول المؤرخ الكنسي سقراط: «حالما ترك الامبراطور فالينز Valens» انطاكيا ثار العرب الذين كانوا موالين للرومان تحت قيادة ملكتهم «ماوية» التي خلفت زوجها بعد وفاته. وتعرضت كل الأراضي الشرقية إلى عبث العرب. ولكن العناية الإلهية حدت من وحشيتهم كما سأذكر لكم. كان هناك شخص عربي المولد اسمه «موسى» اشتهر بتنسكه وكان يحيا حياة الرهبان في الصحراء. فطلبت الملكة «ماوية»(٢×) من الامبراطور أن يعين «موسى» اسقفا لقومها مقابل أن تنهي الحرب. فأعجب القادة الرومان بهذا الطلب واعتبروه مشروعا صالحا جدا بالنسبة لهم، فأعطو الأوامر للبحث عن «موسى» وتم إلقاء القبض عليه وأرسل إلى الاسكندرية لتصير سيامته قسيسا. ولما جاءوا به إلى رئيس كنائس الاسكندرية لوقا ـ رفض موسى أن يكرسه لوقا... فأخذه

(١×) هي «سليح» بالحاء وهذا تصحيف وقع فيه المؤلف. وسليح من قضاعة وهم أهل تدمر شمال سوريا وقوم الزباء، وليسوا أعداء قضاعة.

(٢×) الملكة ماوية Mavia زوجة الحارث الثاني الغساني. (المسعودي). والامبراطور فالينز Valens امبراطور الشرق وخليفة جوليان ٣٦٤ ـ ٣٧٨م. انهزم في معركة مع القوط في ٣٧٨/٨/٩. ولم يعثر له على أثر بعد المعركة. (القاموس الكلاسيكي الصغير).

أصدقاؤه إلى الجبال حيث كان يعيش الأسقف المنفي ليتولى سيامته، وهكذا انتهت حرب العرب[٧]»، وكان ذلك حوالي سنة ٣٧٦ وفي تلك الفترة كانت النصرانية قد انتشرت في الحدود السورية. وماوية هذه هي التي يصفها مؤرخو العرب بأنها زوجة الحارث الثاني. وربما خلطوا بينها وبين امرأة أخرى هي «مارية» زوجة الحارث أبو شمر (الحارث الرابع) وكانت أميرة نصرانية من قبيلة كندة(×١).

كان لماوية خمسة أبناء من زوجها الحارث اشتهروا بتشييد القلاع والأديرة، ولا يعرف إن كانوا تولوا الحكم ولاء* أو كان كل واحد منهم يحكم جزءا من الدولة. وهي مشكلة ظلت تجابهنا إلى عصر جستنيان وإليها يعزي اختلاف تقديرات المؤرخين العرب لعدد ملوك هذه الدولة.

أما الحارث الرابع فهو على الأغلب الملك الذي يسميه المؤرخون اليونان «أريثاس Arethas» والذي اعترف به جستنيان سنة ٥٢٩ رئيسا للقبيلة وأنعم عليه بلقب «شريف[٨] Patricius» واعتبارا من هذا الملك يعتبر تاريخ بني غسان متصلا وصحيحا. وقد حصل على هذا الشرف بعد أن هزم المنذر ملك الحيرة، وساعد الرومان في إخماد ثورة السمرة. وكان رئيس العرب في فلسطين آنذاك الأمير أبو كرب، وكان مواليا (أبو كرب) للامبراطور جستنيان. وقد كافأه من الغنائم، وكانت ٢٠,٠٠٠ أسير باعهم للفرس والاحباش[٩]. وقد انتهى عهد المشيخات حوالي سنة ٥٢٩ وأصبح عرب سوريا تابعين لسيطرة الأمراء الغساسنة.

كان أبناء القبائل السورية جميعها نصارى يعاقبه. فطلب لهم الحارث هذا أسقفا يشرف عليهم[١٠] وذلك عندما كان في بيزنطة. وقد اشترك العرب سنة ٥٤١ مع بليساريوس في حربه في بلاد ما بين النهرين. ولما عادوا دون تحقيق اي نصر على الفرس سار الغساسنة في طريق خاصة بهم، فصار اخلاص الحارث موضع شك، وظنوا أنه ربما اتصل بالعدو[١١]. وعاود الحارث الحرب مع المنذر أمير الحيرة سنة ٥٤٤م ووقع ابنه أسيرا وقد قرأنا أن الأسير قدم قربانا للإله العزى[١٢] وذلك يؤكد ان حكام الحيرة لم يكونوا قد تخلوا بعد عن وثنيتهم على الرغم من دخول كثير من عرب الحيرة في النصرانية. وبعد عشر سنوات تمكن الحارث من المنذر فغلبه وقتله. وتوجه سنة ٥٦٣ قبل وفاة جستنيان إلى

(×١) لا يمكن أن تكون ماوية زوجة الحارث الرابع ٥٢٩ بل هي ماوية التي نصرت الغساسنة سنة ٣٧٦م وفي عهد فالينز المتوفي سنة ٣٧٨م. وكانت أرملة الحارث الثاني. لأن ذلك متأخر جدا بالنسبة للتنصر.

* ولاء = تباعا، متوالين.

بيزنطة حيث أجرى بعض المداولات مع الامبراطور. وتوفي الحارث سنة ٥٦٩ أو٥٧٠م.

أما الحاكم الغساني الثاني فكان يدعى المنذر وهو الذي صد غزوملك الحيرة «قابوس» للحدود السورية. ولعل هذا هو النصر الذي خلده الشعراء العرب باسم «يوم عين أباغ»(×١) وقد جاء الامبراطور جستين الثاني خلفا للامبراطور جستنيان الذي توفي سنة ٥٦٥م . ولم يكن جستين ميالا للعرب. بل كان يعتبرهم غدارين ولا يركن إلى إخلاصهم. وحاول أن يغتال المنذر، ولكن العملية باءت بالفشل، وأدت إلى ثورة الغساسنة ورفضهم التعاون مع البيزنطيين مدة ثلاث سنوات. وفي نهاية تلك الفترة عاود الفرس اعتداءاتهم على الحدود، فاضطر الرومان إلى تبديل موقفهم ومفاوضة العرب مع إظهار حسن نواياهم تجاههم. ومات جستين الثاني سنة ٥٧٨ وتلاه الامبراطور طيباريوس الذي أظهر الود للعرب في أول الأمر، وزاره المنذر وولداه سنة ٥٨٠م في بيزنطة، فأكرم وفادتهم، وألبس المنذر تاج الملك، وأعلنه ملكا على كل العرب. ولما عاد المنذر قام بمهاجمة الحيرة دون أن يهاجم الأراضي الفارسية نفسها، فلم يعجب البيزنطيين ذلك، واشتبهوا في أن يكون المنذر قد باع نفسه لفارس واعتبروا أن عمل المنذر ينطوي على الغدر. فقد كانوا يشكون في اخلاص المنذر. ولا ننسى أن الروم والفرس كان لديهم أجهزة استخبارات متطورة تعتمد عليها في أعمال التجسس[١٣]. وليس لدينا طبعا قيود تبين إن كانت المعلومات صحيحة أو خطأ وتبعا لذلك فلا يسهل الحكم على عدالة ما جاء به العيون او عكس ذلك بالنسبة للشكوك التي أثاروها. وليس من السهل انتزاع رئيس قبيلة عربية من بين عشيرته وأهله، وقد ثبت قصر نظر «جستين» عندما حاول الاغتيال. لهذا عمد طيباريوس إلى أخذ المنذر بالمكر والدهاء والخديعة. وأوكل ذلك للقائد السوري «ماغنوس» الذي دعا المنذر إلى حفلة تدشين الكنيسة الجديدة في حوارين(×٢). وهناك ألقى القبض عليه واقتاده إلى بيزنطة سنة ٥٨١م، وتوقفت الاكراميات أو الإعانات التي كانت تدفع إلى عرب الحدود منذ ذلك الوقت. فثار أبناء المنذر بقيادة كبيرهم «النعمان» فأرسل إليهم الامبراطور قائده ماغنوس الذي أسر أكبرهم النعمان، وأرسله إلى بيزنطة، فعمت الفوضى

(×١) يوم عين اباغ بين المنذر بن ماء السماء وبين الحارث الأعرج بن أبي شمر الغساني. وبعدها أيضا «يوم حليمة» بين المنذر بن المنذر الملقب بالأسود وبين الحارث بن أبي شمر وتم قتل المنذر وانتصر الحارث الأعرج أيضا «أي يوم عين أباغ ويوم حليمة يومان انتصر فيهما الحارث الأعرج على أهل الحيرة وقتل ملكهم المنذر بن ماء السماء وابنه المنذر الاسود. أما ما يشير إليه المؤلف فلم يكن الحارث طرفا فيه لأنه كان متوفيا. «سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب» للبغدادي السويدي ص٢١٣ ـ ٢١٤.

(×٢) حوارين: بلدة قرب حمص كان فيها يزيد بن معاوية يوم طلب لتولي الخلافة مكان أبيه.

بين عرب سوريا، حتى أنهم غابوا عن الميدان عندما غزا الفرس بلاد الروم ٦١٣ - ٦١٤(×١) ومع ذلك احتفظوا بمركزهم المميز بين بقية العرب، حتى في زمن الإسلام كان ينظر إليهم نظرة أعزاز واكبار.

من خلال هذه الدويلات الحدودية كان يتقاتل البيزنطيون والفرس ويتعاملون مباشرة مع عرب الجزيرة، ويفرضون مناطق نفوذهم. ونشأ الإسلام في منطقة نفوذ البيزنطيين في الجانب الغربي من جزيرة العرب. وهذا ما يفسر السيطرة الواضحة للنفوذ الهليني في الإسلام منذ ظهوره وكان أهم ما يتعلق بعرب الحدود في الجانبين الشرقي والغربي هو أنهم كانوا حلقة اتصال بين المجتمع العربي، وهم جزء منه، وبين الروم والفرس وحضارتيهما. ودام هذا الإتصال أكثر من أربعة قرون.

(×١) هذه هي المعركة التي يشير إليها القرآن الكريم في سورة الروم «﴿غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين...﴾ الآية.
وعدم اشتراك الغساسنة (العرب) فيها ربما كان من أسباب هزيمة الروم إن لم يكن هو السبب الرئيسي لأن الفرس يقاتلون ومعهم العرب من منطقتهم - الحيرة - ولما تقابل الرومان والفرس وحدهم سنة ٦٢٨ انتصر الروم ودمروا للفرس مدينتهم ديستجرد الواقعة على نهر ديالي على بعد ٩١ كيلو مترا من بغداد واسمها الحالي اسكي بغداد. المنجد.
دست تعني اليد يجرد تعني الدائرة، والمعنى العام «اليد المحيطة» بمعنى المركز المشرف أو العاصمة.

ملاحظات الفصل الثامن

ب ـ عرب الحيرة

١ ـ الأغاني ١٦٢،٣.

٢ ـ الحضر القديمة وهنا جرح تراجان سنة ١١٦، وفي سنة ١٦٥م في عهد ماركوس أوريليوس عادت الحضر إلى الحكم الروماني.

٣ ـ المسعودي ـ مروج ٢ : ١٧٥ ـ ١٧٧ و١٨٥.

٤ ـ الأغاني ٣: ١٣٣.

٥ ـ الحوادث، دي سيرت في باترول الشرق (٤ : ١٩٠٨) ٢٢٢.

٦ ـ دير هند في الحيرة.

٧ ـ الأغاني: ٩٢،١.

٨ ـ سقراط: التاريخ الديني.

٩ ـ بروكوبيوس: الحرب الفارسية ١٧،١ .

١٠ـ قابل سبرنجر: الجغرافيا العربية القديمة» بيرن ١٨٧٥، ١١٦؛ ١٣٠ ـ ١٣٧.

١١ـ الأغاني ٤ و٢٩، الطبري «تاريخ الرسل والملوك» ١: ٩١٢ ـ ٩١٣.

١٢ـ بروكوبيوس: «الحرب الفارسية» ١٧،٢٢،٢ ـ ١٨ «السلم الأبدي الذي تنازل الرومان بموجبه عن فرنجية وبولم وتعهدوا أن يدفعوا للفرس من أجل حماية ممرات القفقاس. بينما تنازل الفرس عن حصون «لازيقا».

١٣ـ بروكوبيوس ـ الحرب الفارسية ٢٨،٢.

١٤ـ بروكوبيوس ـ الحرب الفارسية ١٦،٢.

١٥ـ ثيوفانيوس ٢٠٣.

١٦ـ إيفاجريوس: التاريخ المقدس ٥ ،٢٠، ٢،٦ تيكيفورس كاليستوس ١٨ و١٠.

١٧ـ المسعودي: مروج ٣: ٢٠٧ و٢٠٨.

١٨ـ الأغاني: ٤ : ٣٥١.

١٩ـ حمزة: تأليف جوتوالدت ١١٢، أبو الفدا: تاريخ الجاهلية ١٢٦، يدعوه حمزة «زادويه».

ج ـ عرب الحدود السورية.

١ ـ حمزة: نفسه ٤ و٦ و٢٨.

٢ ـ المسعودي: مروج ٣ : ٢١٤ و٢١٥.

٣ ـ المسعودي: مروج ٣: ٢١٧.

٤ ـ سوزومون: «التاريخ المقدس» ٦ و٣٨.

٥ ـ آمون. مارسيل ٢٣ و٥ و١.

٦ ـ نفسه ٢٥ و٦.

٧ ـ سقراط. التاريخ المقدس ٤ و٣٦، قابل سوزومون ٦ و٣٨، وثيودوريت (نفسه) ٤ و٢١.

٨ ـ يعترف به كشيخ، بروكوبيوس «الحرب الفارسية» ١ و١٧ جعله «بطريقا» تيوفانيوس ٢٠٣.

٩ ـ جون مالالاس ٢ و١٨١ ـ ١٨٢.

١٠ـ لاند: «الحكايات السريانية» ٢: ٢٥٤.

١١ـ بروكوبيوس ـ الحرب الفارسية ١: ١٨.

١٢ـ بروكوبيوس الحرب الفارسية ٢، ٢٨ و١٣. ملك الحيرة يقدم ابن الحارث قربانا لافروديت.

١٣ـ الجاسوس السياسي مذكور في الأغاني ١: ١٧٧ ـ ١٧٨، ٢ : ٢٧ و٨ وما بعدها هكذا كان الطبيب ثيوفيلوس عينا للبيزنطيين في الحيرة، قابل لامينس «مكة» ٣٤٥.



الفصل التاسع

ـ دخول اليهود إلى جزيرة العرب ـ

أ ـ عناصر هلينية في اليهودية :

انجرفت اليهودية كليا في مجرى الحياة الهلينية لأسباب : منها أنها عايشت حكم السلوقيين وبقيت تحت الحكم اليوناني عدة قرون. كذلك انتشرت حتى بلغت الاسكندرية وطافت حول شواطيء البحر الأبيض المتوسط. وهبت خلال ذلك روح عدائية لليونان، تمثل عداء شرقيا للهلينية[1] نجم عنه ثورةالمكابيين(×١) ضد السلوقيين وفي سبيل حشد القوى اشتد أوار الثورة وتحولت إلى نضال وطني أدى إلى ثورة خطيرة جدا كان من نتاجها أولا تدمير القدس، ثم طرد اليهود من جبال اليهودية(×٢) على يد «هدريان». ولم تكن ثورة المكابيين لتضعف انعطاف اليهود نحو الهلينية خصوصا أولئك الذين يقيمون في الاسكندرية. ولدينا دليل على ذلك من الفيلسوف اليهودي الارسطوطاليس، «أرسطو بولس»، و«فيلو» الافلاطوني. من خلال تصنيف الأسفار المشكوك في صحتها(×٣) بأسلوب تظهر فيه الفلسفة الرواقية بوضوح مثل كتاب الحكمة، والمكابية الرابعة الخ. كذلك كانت الترجمة اليونانية للعهد القديم. خصوصا ما يتعلق بالجزء الكنسي الذي لم يترجم إلا في العصر النصراني[2] وإن كان الباقي مترجما من السابق.

جهز اليهود في القرن الأول الميلادي ترجمة قياسية «ونصا مجازا» لنصوص التوراة

(×١): المكابيون سلالة يهوذا المكابي. وقد لقب بهذا الاسم لكثرة انتصاراته المجيدة (من الكلمة العبرية «مكب» والتي تعني المطرقة) وهم المسمون أيضا «الهاشموناي» نسبة إلى جد يهوذا وهم الذين حرروا بلادهم من الحكم السوري. وأصبحوا حكام يهودا ـ القاموس الكلاسيكي الصغير ص٣١٨ و٢٩٠.

(×٢) اليهودية: مقاطعة جغرافية فيها جبال القدس والخليل والمسماة بالعبرية ـ «يهودا» وليس لها علاقة بالدين اليهودي لأن قوم موسى (ع) سكنوها وصار دين المقيمين هناك يسمى دين يهودا (المقاطعة) فصار يقال للقاطن هناك دينه يهودي أو دين سكان يهودا. ودعي الاتباع باليهود مجازا.

(×٣) الاسفار المشكوك فيها عددها ١٤ سفرا والمسماة «الابوكريفا **Apocrypha**» التي تلحق أحيانا بالعهد القديم من الكتاب المقدس. ولكن البروتستانت لا يعترفون بصحتها وهي ليست مشمولة في «النص المجاز» للعهد للقديم ـ قاموس المورد وقاموس **Cassels**».

وتلاشت الترجمة اليونانية تدريجيا، ومنعت الصلاة باليونانية في المعابد والبيع[٣]. ولم ينته القرن الثاني الميلادي إلا واليهودية قد عادت إلى شكل خالص من العبرية والارامية. وانسحبت من الحياة الفكرية اليونانية/ الرومانية إلى أن أعاد استعمالها المرشدون المسلمون فيما بعد. وخلال ذلك فإن الجناح المتقدم في الهلينية أو ما يمكن أن نسميه الجناح اليساري قد تحول إلى النصرانية: يمكن القول حقا أن النصرانية هي التطور الطبيعي للمتقدمين من الهلينيين الذين تخلوا عن الشريعة اللاوية وطوروا من اليهودية توحيدا عاديا يتفق مع النزعة السائدة للأفكار الهلينية. وقد يحلو لنا أن نفسر الحركة الرجعية ليهودية الأحبار بأنها مجرد تحول عن النصرانية، وإن كان الأصح أن نعتبر ذلك جزءا من رد فعل وطني شرقي ضد الهلينية، كما حدث للدين الزرادشتي وإعادة تنظيمه على أسس قوية، كانت ذروتها حركة دينية تختفي تحت شعار الثورة الساسانية. وقد حاولت الفكرة النصرانية، دون شك أن تحدد معالم اليهودية الجديدة (يهودية الاحبار) ولكن ذلك لم يكن أهم الأمور: لأن القوة المحركة الفعلية كانت تعمل قبل ظهور النصرانية وكانت جزءا من الحركة المعادية للهلينية التي تقدمت بخطوات ثابتة عبر اسيا مظهرة طبيعتها المعادية للامبراطورية الرومانية في صور عقائد شرقية.

وقد أدى سقوط القدس إلى تقوية الاتجاهات الشرقية لليهودية بشكل واضح. ونجم عن دمار الهيكل وزوال الكهانة الرسمية أن تمركزت الحياة الفكرية في البيع (الكنس، (Synagogues) تحت قيادة الأحبار الذين كانوا دون جدال معادين للهلينية. ولا يوجد في القانون القديم أو الشعائر المتعارف عليها، كما وضحتها المشناه والجيمارا(×١) سوى الابتعاد عن الأثر اليوناني. ويبدو ان المؤسسات الأكاديمية الثلاث كانت خالية كليا من أي نفوذ هليني، وهي: نهارديا(×٢) القرن ٢ ـ ٣) و سورا(×٣) القرن ٣ ـ ٨ و بمباديثا (×٤) من القرن ٣ ـ ٦ . وقد فضل الكثير من اليهود بعد الاجراءات القمعية

(×١) المشناه والجيمارا: قسمان من التلمود: والتلمود هو الكتاب الثاني بعد الكتاب المقدس عند اليهود: القسم الأول منه وهو المشناه أي مجموعة التقاليد (الشريعة الشفهية المتداول بها بين الربانيين وعلماء الناموس إلى أواخر القرن الثاني) والجيمارا تفسير المشناه (المنجد).

(×٢) نهارديا هي «نهر دعة» في منطقة الفرات الأوسط.

(×٣) سورا في منطقة بابل وهذه المدارس الثلاث في العراق ولهم مدرسة هي تاحوزا على نهر دجلة وكان أهمها مدينة (نهر دعة) التي دمرها أذينة الثاني ملك تدمر بعد انتصاره على الملك شابور الأول سنة ٢٦٢م وشمل الهدم مدرستها الدينية اليهودية. (د. أحمد سوسة ـ العرب واليهود في التاريخ).

(×٤) بمباديثا هي «فومبديته» في جوار مدينة الأنبار. المصدر السابق.

التي اتخذها هدريان بعد عصيان (باركوكب(×١)) أن ينعموا بالحرية المطلقة السائدة على الجانب الشرقي للفرات فلجأوا إلى الفرتيين. وقد حفزهم لذلك أن الرومان كانوا لا يزالون يطالبونهم بدفع ضريبة الهيكل التي تذهب للخزينة الامبراطورية، في حين كان اليهود في فرتيا (فارس) معفيين من مثل هذه الدفعات، وقد ساء وضع اليهود أثناء الانقلاب الساساني فيما بعد نظرا لولاء اليهود المعروف للسلالة الأرساكية، ولكن الحاخام صموئيل صلح الأمور وضمن لليهود بقاء امتيازاتهم التي كانوا يتمتعون بها في عهد الأرساكيين الفرتيين.

وعلى الرغم من الحركة المعادية للهلينية، فلم تخل الأعراف اليهودية من وجود عناصر معينة من الاغريقية/ الرومانية فيها بعض مواد القانون الروماني التي تسربت عن طريق وساطة يهودية إلى الاسلام، مما يدل على أن اليهودية كانت تساعد في نشر الثقافة الهلينية[٤].

ب - اليهود والادوميون:

[كان هناك انتشار لليهودية في جزيرة العرب في القرون التي سبقت ظهور الاسلام، وانشئت المستوطنات اليهودية حيث سادت فيها العادات اليهودية والثقافة المشوبة ببعض المؤثرات الهلينية وكانت أكبرها مستوطنة يثرب التي عرفت فيما بعد باسم المدينة حيث اقام النبي (ﷺ) مدة العشر سنوات الأخيرة من حياته، وحيث أخذ المجتمع الإسلامي خلالها شكله الحقيقي ووضعت أسس التشريع. وهناك أيضا، ولنبدأ من هنا، أقر النبي القانون السائد بعد أن حذف منه وأضاف إليه، ولكن القانون العام ليثرب كان هو نقطة الانطلاق، وهو أيضا القانون اليهودي(×٢) لهذه المستوطنة، لذلك وعند النظر إلى التشريع الاسلامي يجب أن نقر بوجود هذا الأساس اليهودي]

(×١) باركوخبا - الذي ثار على الرومان ١٣٢ - ١٣٥م بعد خراب الهيكل على يد تيطس ولكن هدريان تغلب عليه وجعل القدس مستعمرة رومانية سماها «ايليا كابتولينا» وكان اسمه الأول - «ايليا» وحرم على اليهود سكناها. د. سوسة نفس المصدر
باركو خبا: بار كوكب أي ابن الكوكب.

(×٢) (المستوطنات) تحافظ على عاداتها الخاصة وقوانينها، تتعامل بموجبها. ولم يكن لليهود في المدينة أكثر من ربعها. أما القانون الذي عالجه الرسول فهو القانون والنظام الخاصين بالعرب أهل المدينة الفعليين الأوس والخزرج ومن معهم بتقاليدهم التي لم يعدل ويبدل الرسول الأعظم شيئا فيها بل طبق النظام والشرع الإسلاميين بموجب كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ). سيرة بن هشام الجزء الثاني.

يهمنا أن نتساءل: من هم هؤلاء المستوطنون اليهود في جزيرة العرب؟ هل هم يهود أصليون، وإن صح ذلك فهل هم من فلسطين أم من بلاد «الدياسبورا Diaspora»(×١) أم أنهم اعتنقوا الدين حديثا واحتفظوا بحياتهم الثقافية الخاصة. وهؤلاء كثيرون ويزيدون في العدد على اليهود الأصليين.

ففي شمال جزيرة العرب توجد بلاد أدوم التي سارت منها القبائل الاسرائيلية المتحالفة لفتح بلاد كنعان، ولربما أمكن اعتبارها مهد اليهودية. وكان اسرائيليو كنعان حريصين على حسن العلاقة مع الأدوميين. ونجد في النسخة السبعينية تحذيرا يقول «لن تكره الأدومي لأنه أخ لك[1]»(×٢).

كانت بلاد الأدوميين في عهد السلوقيين على حدود مملكة انطاكيا. وقد قاد «أنتيجونس Antigonus» سنة ٣١٢ق. م حملة لإخضاعهم ولكنها لم تأت بنتائج طويلة الأمد. ويبدو أن تأثرهم بالهلينية جاء نتيجة تحالفهم مع اليهود(×٣). ولما قامت ثورة المكابيين كانوا يشكون في امكانية انتعاش اسرائيل أو أن تقوم لها قائمة، حتى أن يهودا المكابي قاد حملة ضدهم[2]: وبعد بضعة سنين غلبهم هيركانوس وفرض عليهم الختان: حيث صاروا بعد هذا الختان مثل اليهود تماما[3]. ولما بدأ الرومان يعتنون بسياسة الشرق الأدنى ناصرهم «أنتباتن Antipaten» الأدومي★ . فحفظ لهم الرومان ذلك وحكموا تلك الاسرة التي ينتمي إليها «هيرود Herod» على فلسطين وظلوا يحكمونها حتى موت هيرود أجريبا

(×١) الدياسبورا: كلمة يونانية معناها «تشتت أو تفرق» أو نثر البذار. كانت تطلق على اليهود المنتشرين خارج فلسطين بعد الأسر، كما كانت تطلق على اليهود المتنصرين خارج فلسطين. ثم صارت تطلق على اليهود خارج فلسطين عبر التاريخ (سفر التثنية) إصحاح ٢٨ آية ٢٥ وسفر دانيال: ١٢:٣) ود. سوسة. ملحق ٤.

(×٢) كيف نفترض أن الأدوميين أخوة لقوم موسى. حسب النسخة السبعينية. وهم الذين صدوهم أول مرة وردوهم إلى صحراء التيه ٤٠ سنة.

(×٣) أي هلينية هذه التي تأثروا بها عن طريق تحالفهم مع اليهود ومتى كان ذلك؟ ونحن نعرف أن الأدومويين والأنباط ورثوا مملكة يهودا الشرقية بعد السبي. وكذلك ساعد الأدوميون الرومان في القضاء على المكابيين سنة ٣٦ق.م وكافأوهم بحكم فلسطين كلها. فأين التحالف؟ قامت الهلينية في القرن الرابع ق. م كذلك ولم تعتن بالشرق إلا بعد القرن الرابع للميلاد (في العهد النصراني) ولم يكن لليهود كيان يؤثرون منه في غيرهم. كانوا جماعات منعزلة يحكمها الأحبار.

(★)١ـ Antipaten المذكور اسمه في المعاجم الكلاسيكية Antipater وأنه والد هيرود حاكم فلسطين كلها. وأنه أدومي. ص ٢٧٨ المعجم الكلاسيكي وص٤٩.

٢ ـ هيركانوس: حكم ١٣٥ ـ ١٠٦ق. م ولم يكن ملكا بل كاهنا حكم اليهود وهو الذي فرض الختان على الادوميين وخلال فترة سلطته (٢٩ سنة).

الثاني سنة ١٠٠ ميلادية. وعاش هؤلاء الأدوميون(١×) بالعادات العربية السابقة على الرغم من اعتناقهم الديانة اليهودية على يد «هيركانوس» وكانوا دون ريب واسطة لخلق احتكاك القبائل العربية بالعالم الهليني الذي انتشرت فيه اليهودية.

ولم نعد نسمع بالأدوميين منذ قيام النصرانية تقريبا، لأن كل القبائل القاطنة جنوب فلسطين وجنوبها الشرقي صارت جزءا من مملكة الأنباط، ولذلك قال سترابو:- «الادوميون» أنباط[٤]. وفي الحقيقة فإن الأنباط شعب قديم جدا سيطر على دول شمالي جزيرة العرب وممالكها، وأسس دولة عاصمتها «بترا» تقع أراضيها حول الطريق التجارية بين مصر وبلاد ما بين النهرين.

جـ ـ المستوطنات اليهودية في بلاد العرب:

علمنا من أخبار القرون الأولى من عهد النصرانية أن اليهود أنشأوا مستوطنات لهم في الجزيرة العربية وعلينا أن نضع في حسباننا أن هؤلاء قد يكونون أدوميين أو من عرب الشمال الذين اعتنقوا الديانة اليهودية. وقد أسسوا مستوطناتهم في تيماء وفدك وخيبر وفي وادي القرى، ثم أكبرها وأهمها في يثرب ـ وهي مستوطنة مصرية تقع على طريق التجارة الحجازية أو قريبا منها وعلى بعد ٢٥٠ ميلا إلى الشمال من مكة. وتشير «المشناه» (القرن الثاني) إلى يهود بلاد العرب بطريقة توحي بأنهم كانوا معروفين ومعترف بهم في ذلك الحين. ورد في (شاب Shab ٦:٦) ذكر لنساء عربيات سمح لهن بالخروج بأغطيتهن الواسعة كما تخرج نساء «مدين» بشالاتهن وفي كلا الحالين فإن الإشارة هي إلى نساء يهوديات. وفي (Oholoth ١٨ :١٠) عند ذكر التعليمات المتعلقة ببيوت السكن فإنها تعدد بعض الأماكن التي قد يسكنها الناس: «وهي عشرة أنواع لا تشملها التعليمات: بيوت الشعر التي للعرب، والسقائف، والأكواخ، والمظلات، والمعرشات، والمرابع المكشوفة، والحمامات، وميادين الرماية والمعسكرات».

كان في المدينة ثلاث مجموعات للمستوطنين اليهود في ثلاث قبائل هي:- بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة بأسمائها العربية، وكانت الأخيرتان تنتحلان اسم الكهنة. وربما انتسبوا تبعا لذلك إلى بيت هارون بقول ياقوت: يهود يثرب عرب اعتنقوا

(١×) الأدوميون: ينسبون إلى «أدوم» وهو عيسو بن اسحاق وأخو يعقوب: وكانت دولتهم قسمين تمتد من البحر الميت حتى العقبة. وعاصمة القسم الشمالي بصرة أو باصرة (بصيرة اليوم) قرب الطفيلة في الأردن. وعاصمة القسم الجنوبي «العقبة» د. سوسة «وهول» تاريخ الشرق الادنى القديم والمعاجم.

اليهودية[1](×١) ويمكن الحدس بأن بني قينقاع قبيلة ادومية أو ما شابهها من عرب الشمال. وأن القبيلتين الآخريين من بلاد يهوذا جاءتا إلى بلاد العرب بعد تدمير الهيكل سنة ٧٠م. أو بعد أن قام هدريان بطرد اليهود من جبال اليهودية سنة ١٣٢ ميلادية[2]. ولعل ما تشير إليه الأساطير عن توطن الأموريين (الآراميين) في بلاد العرب قبل مجيء اليهود يحمل في طياته ذكريات عن هجرة الأدوميين أو القبائل العربية الشمالية قبل وصول اليهود الفلسطينيين(×٢).

وقد شكل اليهود في كل مستوطناتهم في الجزيرة العربية جماعات زراعية مستقرة لأن اليهود كانوا شعبا زراعيا حتى أيام الأكاديميات البابلية. وتنبئنا «الجمارا» وهي الجزء الثاني من التلمود الذي يحوي تفسيرا للمشناه ـ وما جد بعدها من منشورات بأن الزراعة لم تعد مألوفة لديهم،، وكان ذلك تغيرا اقتصاديا غريبا(×٣) سيطر على الشعب اليهودي خلال القرن الرابع والقرون التي تلته. فقد كانت المستوطنات في البلاد العربية واسعة من أولها ولا ضرر لو تحول جزء منها على الأقل إلى أراض زراعية. وكانوا يمارسون في يثرب أعمال الحدادة والصياغة وصنع الأسلحة. وكان العرب يرحبون بهم كصناع، ولكنهم كانوا غير مقبولين كزراع، لأن الزراعة كانت تستلزم التجاوز والتخطي على مراعي البدو من العرب. وكان يسكن قرب(×٤) يثرب قبيلتا الأوس والخزرج اللتان تنتسبان إلى أب واحد. وتقول الأخبار أنهما من عرب اليمن الذين جاءوا إليها حوالي سنة(×٥) ٣٠٠م عندما كان

(×١) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان الجزء الرابع ص ٣٨٥ و٤٦٠ يقول أن يهود بني قريظة وبني النضير هم من القبائل العربية في الجزيرة اعتنقوا اليهودية وكان لهم ملوك حتى أخرجهم الأوس والخزرج من المدينة. ويقول اليعقوبي في تاريخه طبعة ١٩٦٤ أن القبائل اليهودية في المدينة (بني قريظة، وبني النضير) من العرب من قبيلة جذام (سكان الساحل الشمالي للبحر الأحمر شمالي الوجه إلى جنوب العقبة)مع عرب بلي. أي أنهم جميعاً مع ما قاله يا قوت عرب.

(×٢) يقول اسرائيل ولفنسون وهو يهودي «تاريخ اليهود في بلاد العرب» نقلاً عن غراتز: هناك شهادات من يهود مدينة دمشق وحلب من القرن الثالث بعد الميلاد ينكرون فيها وجود يهود في الجزيرة العربية (من يهود فلسطين) ـ ص: «١٣» أي لم يدخل هذه المستوطنات يهود من فلسطين.

(×٣) قد يكون عزوفهم عن الزراعة تأكيداً لأنهم عرب تهودوا كما سبقت مناقشته وأنهم عادوا لأصلهم وعاداتهم في الرعي. وغير ذلك دون الزراعة.

(×٤) عبارة «قرب» نوع من لحن القول، والمؤلف نفسه بعد أسطر وقبل نهاية هذه الفقرة يؤكد مرتين أن العرب ـ الأوس والخزرج ـ كانوا سكان المدينة عندما ذكر عن تشيعهم لفارس، وعندما قال أن اليهود كانوا يسكنون الربعين الشمالي والشرقي من المدينة والعرب يسكنون الربعين الآخرين.

(×٥) تاريخ مجيء الأوس والخزرج من اليمن للمدينة كان في أول القرن الثاني الميلادي ولعله يؤكد أن عمرو بن عدي ملك الحضر والحيرة سنة ٢٤٠م. وأقول له سنة ٢٤١م بعد سقوط دولة الحضر في جزيرة العراق ولكنه خرج من الجزيرة إلى شاطيء الفرات الغربي وجعل له عاصمة جديدة اسمها =

اليهود متأصلين هناك، مع التسليم بالطريقة التي يدعون فيها الانتماء إلى الأصل اليمني: وربما لا يعني ذلك أكثر من أن أهل «المدينة» منافسون لأهل «مكة» وكان المكيون. موالين لليونان، لذلك فأهل المدينة موالين للفرس - فهم تبعا لهذا الولاء من الجانب اليمني. وقد ساد في القرن السابع شعور عداء بين البدو والمستوطنين اليهود لأن الأخيرين طمعا في توسيع أراضيهم كانوا يتجاوزون على الأراضي التي كان البدو يعتبرونها مراعي لانعامهم. وقد تمكن البدو تدريجيا وبما امتازوا به من روح عسكرية غير متوفرة للمستوطنين، تمكنوا من وضع يدهم على المدينة، وصار المستوطنون يعيشون شبه مستعبدين يتمتعون بالجوار (حمايتهم كجيران) تحت الحكم العربي. وكانت القبائل اليهودية قبيل الهجرة مباشرة في حالة من الضيق ظاهرة على الرغم من كثرة عددهم ووفرة اموالهم: وكانوا يحتلون الربعين الشمالي والشرقي من البلدة، كل قبيلة تعيش في حارتها بنفس الأوضاع الاجتماعية التي يعيشها جيرانهم العرب. وكانت هذه الأحياء تمثل قرى تحكم نفسها ذاتيا، ولكل منها حصونها التي تأوى إليها وتؤمن فيها ثرواتها المنقولة في أوقات الاضطرابات. فكانت مدينتهم نوعا من الإئتلاف من عدة قبائل لها حكمها الذاتي. وكلها تشكل وحدة للدفاع ضد العدو، وللضيافة ولتنظيم الأسواق التي يؤمها العرب من المناطق الأخرى، والاشراف عليها. وذلك يعني وجود نوعين من القانون: القانون العشائري أي الأعراف البدوية السائدة، وقانون السوق العام وهذا الأخير ليس عربيا في اصله، بل أقامه المستوطنون اليهود، ويشمل عددا من الأنظمة من القانون الروماني الذي تسرب إليهم من الأكاديمية الحبرية في الجليل، وبابل، وكان ارثا من الأيام التي كان فيها الجماعة التقدميون(×١) من اليهودية يستلهمون من وحي الهلينية.

= الحيرة في زمن سابور الأول. فالأوس والخزرج أبناء من آل نصر بن ربيعة خرجوا معا من اليمن ولكنهم بقوا في يثرب وذهب بنو غسان إلى الشمال الغربي وذهب اللخميون إلى الشمال الشرقي وقامت دولتهم سنة ٢٤١م. تحت امرة عمرو بن عدي، مع أن خاله جذيمة الأبرش حكم تلك المناطق قبل محاولة أخذ «الحضر» بحوالي ١٠٠عام وفي زمنه تمت هجرة الأوس أي قبل اليهود الذي يفترض المؤلف أنهم خرجوا من فلسطين سواء بأرواحهم كجماعات أو كافراد للتبشير بعد أن غلب باركخبا على يد هدريان ١٣٢م. راجع الهامش السابق حول رأي اسرائيل ولفنسون عن مذكرات يهود دمشق وحلب في القرن الثالث الميلادي.

(×١) قانون السوق - وهو يرمي هنا بوصف اليهود أنهم يستوحون الإلهام من الهلينية. وقبل قليل كان يثبت أن أهل المدينة موالون للفرس بصفة اليمن شيعة فارسية، والمدينة ضد مكة وهي شيعة بيزنطة. فكيف يمكن التوفيق بين هذا وذاك - فاليهود من المدينة والفرس ساعدوا اليمن انتصارا لليهود ضد الحملة الحبشية النصرانية.

لم يقتصر وجود المستوطنات على الحجاز فحسب، بل كان هناك حركات تبشيرية نشطة في الجنوب وكانت قبائل بكاملها تتحول إلى اليهودية. وكان أعظم المهتدين «ذو نواس» الذي يعزى إليه تعذيب نصارى نجران. وهو من العائلة اليمنية المالكة وكان يسمى «زرعة» ويلقب «بذي نواس» ـ (ذي الشعر الجعدي) ـ والمعلوم أنه بعد هجرة أبناء الملك(×١) ربيعة إلى الحيرة، لم يتبق من العائلة المالكة سوى بضعة شباب يمثلونها، فاستولى على السلطة ملك طاغية هو «حسان»(×٢) ثار عليه ذو نواس وجعل من نفسه ملكا على اليمن وحمير، وأعلن اعتناقه الديانة اليهودية وسمى نفسه «يوسف». وكانت نجران آنذاك مدينة نصرانية وكان على كل من يدخلها أن يعتنق النصرانية، غير أن يهوديا يمنيا ومعه ابناه وصلوا إليها، فطلب إليهم أن يتنصروا فرفض الولدان فقتلا، وتظاهر أبوهما بالموافقة إلى أن تمكن من الهرب إلى ذي نواس وأعلمه بالخبر فهاج ذو نواس غضبا لهذا الإعتداء على اليهودية، وجمع جيشا هاجم به نجران وقتل أسقفها وكل من رفض الدخول في اليهودية من أهلها، وتمكن أحدهم من الوصول إلى قيصر وشكا إليه أعمال ذي نواس. وكانت ظروفه لا تسمح بارسال جيش إلى بلاد العرب البعيدة فطلب إلى حليفه ملك الحبشة أن يتولى ذلك، فسير حملة للانتقام من اليهود الذين اعتدوا على «نجران» وقد ذكره الطبري وحمزة وأبي الفداء وغيرهم من المؤرخين العرب[٣]. أما حنا الآسيوي الذي يسمي «ذا نواس» دي ميون ملك الحميريين Dimyun فيعزو سبب الحملة إلى أن «ذو نواس» كان يتعرض للتجار الرومان الذين يأتون للتجارة في بلاد العرب: ثم قال «يضطهد النصارى اليهود المقيمين في البلاد الرومانية»، وكثيراً ما ذبحوهم لذلك فإني أعتبر هؤلاء الناس حربيين بالقتل[٤]. وبموجب هذا فإن الدافع الأساسي كان علمانياً، أي لتدخل «دي ميون» بالتجار النصارى (الرومان). أما الدافع الديني للرد على سوء معاملة اليهود في الامبراطورية الرومانية فلم يكن سوى تبرير للحملة. وما رسالة «سمعان البيت أرشامي» إلا جزء من الأساس المحتمل للأخبار العربية. وقد ورد فيها أن الملك اليمني أنفذ إلى نجران من قتل الأسقف «بولص»(×٣) وأحرق الكنيسة والرهبان وأجبر السكان عموما على التخلي عن النصرانية واعتناق اليهودية(×٤)[٥] وتدور الأخبار العربية جزئيا على هذه

(×١) ربيعة بن نصر آخر ملوك حمير قبل التبابعة.

(×٢) المعلومات عن ذي نواس منقولة من الكتب العربية سيرة ابن هشام. فالشخص الذي وثب على ملك حمير شخص ليس من العائلة المالكة واسمه «الخنيعة» وكان فاسداً فاسقاً، قتله ذو نواس وهو غلام بعد أن انفرد به بسكين كان يخفيه في نعله.

(×٣) الاسقف بولص هو المسمى: عبدلله الثامر في سيرة ابن هشام.

(×٤) قيام ذي نواس بهذا يؤكد أن العملية كانت يهودية.

المعلومة، أما الجزء الأخير فيدور على محاولة تفسير ما جاء في سورة البروج عن أصحاب الاخدود التي قد تتعلق أو لا تتعلق بحوادث نجران. أما ترنيمة «حنا بسالتيس» اليونانية عن الخوري «بيت أفثونيوس» الذي يصف استشهاد «الحارث Arethas» ورفاقه، فانه يرد فيها ذكر التعذيب في نجران، ودون أية إشارة لليهود (×١). ومن المهم في هذا الخصوص سكوت «كوزماس أنديكوبليوستيس» الذي كان موجوداً في أدوليس (×٢) وهم يجهزون أسطول الغزو الحبشي لبلاد العرب، ولا يذكر نجران من قريب أو بعيد أو الحملة، على الرغم من أن ميوله كانت مع الكنيسة النصرانية دون جدال. ولا يعقل أن نكذب الأخبار ونعتبرها دون أساس مطلقاً. فقد كانت بلاد العرب حلبة تتصارع فيها القوتان العظيمتان آنذاك: بيزنطة والفرس، فكان النصارى شيعة لبيزنطة وكان لابد أن يكون اليهود شيعة للفرس. فكان الفرس حماتهم وأصدقاءهم بقدر ما كان يضطهدهم اليونان، وليس من السهل تقدير مدى النفوذ الحبشي في نجران، ولكن ذلك لا يمنع القول بأن أهل نجران كانوا حلفاء للأحباش. وإذا كانت معركة «ذو نواس» ثورة وطنية ضد توغل الأحباش، وربما يغذيها الذهب الفارسي، فإنه يمكننا أن نعتبر أن الحرب بين ذو نواس ونجران أفضت إلى اعطاء وزن للصراع بين اليهود والنصارى في تلك الحرب على الرغم من أن العامل الديني كان عرضياً، وأن الصراع كان نتيجة حتمية للخلافات السياسية القائمة (×٣). وأنه لمن الصعب أن نساير «جلاسر Glaser» (Shizze ٥٣٤) الذي يرى أن قصة ذي نواس مجرد قصة خيالية لأنه من غير المعقول أن يُجبر اليهود الذين يزورون نجران على التنصر في الوقت الذي توجد فيه جالية يهودية معروفة في نجران. وقد عثر جلاسر على نقوش يهودية في جنوب الجزيرة. وانتشار اليهودية هناك يؤيد افتراضنا بأن اليهود بوجه عام كانوا تحت حماية الفرس وأنهم تبعاً لذلك كانوا سياسياً شيعة فارسية.

(×١) لا ضرورة للإشارة إلى اليهود أو الاستعداد في أودلس للحملة النصرانية على اليمن. لأن ذلك حدث ما بين سنة ٥١٥ ـ ٥٢٢م وكانت العملية دينية. ولم يكن في البلاد سوى النصرانية واليهودية والوثنية من ديانات. وكان الصراع بين الديانتين السماويتين فحسب. ولا حاجة للإشارة إلى اليهود أو الملك المؤمن باليهودية عند ذكر تعذيب النصارى ما دام التعذيب واستشهاد عبدالله الثامر في الترنيمة لأن المنطق يستدعي إذا ظلم أحد اثنين أن يكون الآخر هو الظالم.

(×٢) ادوليس: زيلع قرب مدخل البحر الأحمر الجنوبي.

(×٣) الحرب قد تكون قطرية بين الأحباش واليمنيين (الحميريين) أي حربا سياسية. ظاهرها ديني لحماية النصرانية وتبعاً لذلك ظهرت جماعة هامة خصوصاً الفئة الحاكمة تقاوم النصرانية ومن يساعدها على أساس قومي وليس على أساس ديني وعلى رأسهم «ذو نواس» وعليه فقد كان البيزنطيون شيعة للنصارى وكان الفرس شيعة لليهود. وكلا الطرفين لم يكن دافعهم دينيا، بل كانوا يتبادلون المصالح الروم مع النصارى، والفرس مع العرب الوثنيين أو اليهود في اليمن. ولم يكن الدين أكثر من ذريعة لتدخل الغرباء.



ملاحظات الفصل التاسع

أ ـ العناصر الهلينية في اليهودية :ـ

١ ـ يحوي الدين الزرادشتي ظواهر مماثلة جدا ، فمن الواضح أنه قد تمت إصلاحات دينية في أول الفترة النصرانية ، وانتهت بالاعتراف بمذهب زرواستر أو مازدا من قبل أردشير (حوالي ٢٢٦م) وإحداث قانون «للزند أفستا» «قابل دارميستيتر» مقدمة لزند أفستا في كتب الشرق المقدسة. الجزء الأول (١٨٨٠) ص. ٣٠ وما بعدها. وترتبط هذه العملية بزحف العقائد الشرقية غربا في الامبراطورية الرومانية. وكل هذا يوضح ردود الفعل الشرقية على زحف الهلينية شرقا بقيادة الأسكندر مع مارافقها من توابع في تاريخ الفن والمعمار كما يرى سترزيكويسكي. ولعل الزحف الشرقي كان مدفوعا من قبل البوذية في المقام الأول.

٢ ـ تشمل النسخة السبعينية للتوراة أعمالا مختلفة الأزمان، وربما كان أقدمها «الأسفار الخمسة» الأولى من العهد القديم التي تخلو من النسق الأدبي، ومعظمها من عصر البطالمة، ولكن الإلهيات والأناشيد يظهر فيها آثار الصنعة الأدبية، كما هو متميز في نسخة «أكيلا» المتأخرة، والتي تشير إلى تأثيرات لم تكن موجودة عندما تمت الترجمات السابقة، مثلا استعمال «سون» اليونانية بديلا لـ أت (أيا مع المفعول به) العبرية، قابل هـ . ب. سويت «مقدمة يونانية للعهد القديم» ١٩٠٢. (خصوصا الجزء ١، الفصول ١ ـ ٤).

٣ ـ «طقوس الصوامع اليونانية» راجع فرانكل دراسات أولية ٥٦ الخ كوينج المقدمة ١٠٥ وما بعدها.

٤ ـ «الدراسات اليهودية المقدسة» ٢٨ ,و٧٨، ٤:٤٣، ميتوخ حول تاريخ ظهور الصلاة والشعائر الإسلامية برلين ١٩١٣.

ب ـ اليهود والأدوميون :

١ ـ ديوت. ٧:٢٣.

٢ ـ يوسيفوس «الآثار القديمة» ١٢, ٨ و١.

٣ ـ يوسيفوس «الآثار القديمة» ١٣ و٩ و١

٤ ـ سترابو ١٦ و٣٤. الادوميون والأنباط شيء واحد.

ج ـ المستوطنات اليهودية في بلاد العرب:

١ ـ ياقوت.
٢ ـ الأغاني ١٩ و٢٤.
٣ ـ الطبري نفسه ١ : ٩٤٦، ٢ : ٣٤ ـ ٣٥، حمزة ٣٨، أبو الفداء ١٠ وما بعدها.
٤ ـ السمعاني: المراجع الشرقية ١ و٣٦١.
٥ ـ السمعاني: المراجع الشرقية ١ و٣٦٤ ـ ٣٧٩ خصوصا ٣٦٧ و٣٦٨ و٣٧٠.

الفصل العاشر

ـ المركز التجاري لمكة ـ

أ ـ طريق الحجاز التجارية :ـ

إذا عدنا إلى الأيام الأولى للتاريخ المدون نجد أن العرب كانوا مجرد رجال يعيشون على الطبيعة ميالين إلى القيام بغارات غايتها النهب والسلب من الأراضي التي تقطنها الجماعات المستقرة. وكان واجب امبراطوريات آسية الغربية القديمة أن تكبح جماح هذا المد المخيف. فشقوا الطرق في الصحراء للمواصلات وفرضوا السيطرة وهو شيء يخالف الطبيعة العربية، إذ كان مثلَ العرب الأعلى حتى اليوم هو غزوات السلب والنهب. ولكنهم يمتازون من غيرهم من الشعوب البدائية بقدرتهم على التكيف حسب الأحوال المتغيرة، إذ كان لديهم الاستعداد لقبول التعويضات مقابل التوقف عن السلب بمثل ما يقبلون السلب نفسه. وهم صادقون، أوفياء في تنفيذ اتفاقاتهم مع الذين يدفعون لهم بانتظام. وليس ذلك بامتناعهم عن النهب فحسب، بل بردع السلابين الآخرين، وفي حالات كثيرة يعيدون لحلفائهم الأموال التي أخذوها منهم إذا لم يتمكنوا لأي سبب من الوفاء لهم بحمايتهم. ومثل هذا كان سائداً في طرق القوافل الصحراوية. والعربي ذو حساسية تتحدى الموت في سبيل عزته وكرامته. فلا يتوقع أن يعبر أي مسافر فوق أرض القبيلة دون اذن رسمي تصحبه الهدايا أو الدفعات المباشرة. وعندما يتم ذلك تبدأ مسؤوليته في تنفيذ الجزء الخاص به من تلك الاتفاقية، بمنتهى الإخلاص وصفاء الضمير. وهذه الأوضاع تبين أول خطوات العرب نحو تكييف أنفسهم حسب الظروف الجديدة باحداث شروط تعامل مقبولة مع جيرانهم المتحضرين مقابل تقاضيهم منهم عائدات مجزية. وقد تميزوا كذلك بتطويرهم صنعتهم القديمة جدا وهي تولي نقل بضائع التجار بكل عناية وأمانة من بلد إلى آخر. وكانت هذه سجية هيأتهم طبيعتهم للقيام بها وحسن أدائها: فقد كانوا يجوبون تلك المفاوز طولا وعرضا، ويعرفون الطرق الصحراوية والآبار وأخطار تلك الفلوات. وكانوا سعداء لقيامهم بهذا العمل والحصول على المال والمتاع عن طريق نقل التجارة خصوصاً حيث لا يتيسر لهم الغزو والغارات ذات العائد الأكبر. يقول سترابو في وصف العربي جيداً «انه تاجر بطبيعته، وأنه لص في غالب الأحيان[1]» وجاء وصف العرب في سفر التكوين حين يوصف جدهم اسماعيل «أنه يكون إنسانا وحشا يده على كل واحد ويد كل واحد عليه(×١)»، وفي مكان آخر من السفر يأتي القول «وإذا قافلة اسماعيليين مقبلة من جلعاد

(×١) تكوين ١٦:١٢.

وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ومرا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر(×١)[٢]. وكانت هذه القافلة «السيّارة» من أبناء اسماعيل الذين اشتروا الغلام «يوسف» وأخذوه بعيداً لبيعه في أسواق الرقيق[٣](×٢).

يوصف العربي عادة بالجشع، ويمكن أن نقول أنه لم يتعلم كيف يكبت عواطفه البدائية الأصيلة، ويخفيها تحت الاستار التي يستعملها غيره من أبناء الجماعات الأكثر تقدما. ولا مراء في أنه يحب المال حبا جما، وأنه على استعداد للحصول عليه بالقوة إذا تيسر له الأمر، وإلا فإنه يقبل الحصول عليه سلماً. كذلك تميزت الجماعات المتحضرة بقدرتها الصناعية منذ القدم، خصوصا صناعة الأسلحة التي تفوق السلاح الذي يصنعه العربي ابن الصحراء.. وكان عليه أن يقوم في سبيل الحصول على هذا السلاح بمبادلته مع الصناع أو سلبه(×٣) من أصحابه. ولهذا السبب كان يحوم دائما حول القرى المستقرة حيث أخذ في التعرف على أنواع المتعة ووسائل الترف التي لا يتيسر وجودها إلا في مثل هذه الأماكن التي يرتفع مستواها الحضاري عما عنده.

كان الإتجار في معظمه يأتي من بلاد اليمن ويمر عن طريق الحجاز إلى بلاد الشام ومصر، وكان ذلك بوساطة عرب اليمن وسبأ الذين كانوا يجمعون منتوجات حضرموت ومستوردات الهند في صنعاء[٤] ثم ينقلونها شمالا إلى تيماء.. ولكن الانباط سيطروا على التجارة بعد قيام مملكتهم. وصارت البضائع كلها بما فيها الذاهبة إلى مصر تمر بهم، ولم يعد اليمنيون يتجاوزون مدينة العلا أو الحجر(×٤) على حدود الأنباط الجنوبية. وكانت أخبار التجارة العربية القديمة تعتبر السبئيين هم نقلة البضائع[٥]. ثم ظهرت أوضاع جديدة

(×١) تكوين ٢٧: ٧٥.

(×٢) القافلة لم تشتر الغلام، بل التقطوه من الجب وأخذوه معهم وباعوه في مصر، شرى = باع واشترى فهي من الاضداد ـ الفيروز آبادي.

ويلاحظ أ ـ من نوع البضاعة: أنها من اليمن من بلاد البخور واللبان والبلسان وأن هؤلاء الناس كانوا معروفين من زمن سيدنا يوسف ويعقوب سنة ١٨٥٠ ـ ١٨٠٠ق.م (قبل الهجوم الأشوري على تيماء بأكثر من ألف سنة) ب ـ من ذكر «جلعاد» أن طريقهم لمصر كانت برية من بلاد الأردن (بجانب السلط في الأردن ـ غرب عمان) إلى فلسطين دون المرور من العقبة إلى غزة مباشرة، وليس عن طريق البحر الأحمر غالباً، هكذا في التوراة.

(×٣) السلب هنا ليس السرقة وإنما ما يغنمه المقاتل من عدوه وغالباً المستقر وليس البدوي مثله الذي لا يحمل سلاحاً ثميناً.

(×٤) الحجر: هي مدا ين صالح إلى الشمال الشرقي من العُلا.

بعد أن أخضع الرومان مملكة الانباط سنة ١٠٦ ميلادية. وكان ذلك في أعقاب اكتشاف هبالوس منافع الرياح الموسمية، وإنشائه طريقا مباشرة مع الهند. وربما واكب ذلك بدء سقوط ممالك جنوب الجزيرة.

وكان الحجازيون يغبطون التجار اليمنيين الاغنياء وهم ينقلون البضائع خلال بلادهم على الرغم من دفعهم ضريبة المرور لأصحاب الأراضي التي يمرون عبرها. ولما زالت قوة الحميريين اغتنم الحجازيون الفرصة، وسيطروا على تجارة النقل. ومن المحتمل أن هذه التغييرات قد تطورت تدريجيا بحيث لم يأت القرن السابع حتى كانت طريق التجارة الحجازية في أيدي العرب الذين يسكنون تلك البلاد وكان مركزهم في مكة، يتسلمون البضائع من اليمنيين وينقلونها شمالا إلى سوريا ومصر وربما إلى بلاد فارس أيضا، علما بأن قسما من تجارة فارس كانت تمر في الجزء الشرقي من بلاد العرب عن طريق ميناء القطيف التي أصبحت سنة ٣٢٠ ميلادية من ممتلكات فارس[٦]. كانت تجارة المكيين هي نقل البضائع شمالا بعد أن يجلبها عرب اليمن والأحباش وغيرهم(×١) إلى مكة، مع تسليمنا بأن تجار مكة كانوا يذهبون جنوبا نحو اليمن[٧] ولكن ذهابهم للشمال كان أكثر وأوسع لأن الطريق الشمالية كانت تحت سيطرة تجار مكة، وكل تجارة تمر بهذه الطريق تمر من تحت أيديهم. وكانت مغانمهم المتوقعة من وراء تلك التجارة لا تقل عن قيمة البضائع المنقولة ذاتها أي ١٠٠٪ ولم يكن ذلك نسبة عالية أو ابتزازا، فالأجر العالي كان يلازم البضاعة الثقيلة قيمة، ومسؤولية حماية. أصبحت مكة في هذه الأوقات مركزا مصرفيا، يسر توصيل الأموال عن طريق هذا المركز المالي إلى بلاد العالم البعيدة. وصارت مركز تخليص للتجارة الدولية. فأصبحت تجارة النقل تشمل تسهيلات تجارية كثيرة، وتشمل عمليات التأمين للبضائع على الطرق الطويلة المعرضة للأخطار. ولم يكن ينافس هذه الطريق سوى ممر البحر الأحمر بين أيلة (العقبة) وأدوليس (زيلع)، ولكن الملاحة البيزنطية. كانت آخذة في الاضمحلال، وكذلك لم يجاوز الأحباش تجارتهم نحو الشمال، بل كانوا يشحنون بضائعهم إلى اليمن منذ القرن السابع ومن هناك كانت ترسل إلى مكة التي صارت تتركز فيها تجارة أفريقيا الشرقية وبلاد العرب الجنوبية وإلى حد ما. جزء من

(×١) صارت مكة مركزاً تجارياً سنة ٥٧٥م عندما تم طرد الأحباش من بلاد اليمن نهائياً بمساعدة الفرس لسيف بن ذي يزن، والأحباش زاروا مكة سنة ٥٧٠م لهدم بيت الله الحرام. ولكن الله هزمهم ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾ صدق الله العظيم وخلفوا وراءهم عداء أهل مكة وأخذوا معهم عهودهم بأن لا يعودوا إليها. وكذلك ما يقوله المؤلف أن الأحباش كقوة بحرية لم يكونوا يتعاملون مع الشمال أبداً بل مع اليمن فقط. في ضوء هذه الحقائق لا يعقل أن يقوموا بجلب البضائع إلى مكة.

تجارة الهند. وقد كانت الفترة التي سبقت الهجرة مباشرة عندما كان الصراع الدموي قائما بين الرومان والفرس (٦٠٤ـ ٦٢٨م)(×١) عصراً ذهبياً لمكة وعليها اعتمدت تجارة بيزنطة في الكماليات الفاخرة، لدرجة أن البضائع الهندية التي كانت تنزل على سواحل الخليج الفارسي كانت تجد طريقها غالبا إلى مكة، ومن هناك تتجه شمالاً لتغمر الاسواق اليونانية/ الرومانية. وكان ذلك يجري والحرب مستعرة، وفارس تعمل جاهدة لقطع تجارة البيزنطيين بالمرة.

ب ـ مدينة مكة:

لم تكن مكة عندما كانت التجارة بيد عرب اليمن وسبأ أكثر من محطة تجارية أو «استراحة» للتجارة على الطريق التي كانت تسلكها القوافل عبر الحجاز إلى الشمال، وهكذا ذكرها سترابو[١]. وبدأت أهميتها عندما تولى عرب الحجاز أنفسهم نقل التجارة متخذين من مكة مركزا لأعمالهم. وكانت تلك الشهرة تجارية محضة، فلم تصبح مدينة ذات منزلة أو احترام إلا بعد أن جاء الإسلام(×٢). وبتأثير من هذا الوازع الديني افترضت الأجيال المتأخرة (المؤرخون) أن هذه المدينة كانت تتمتع في الماضي بالاحترام الذي لابد أن يرافقه أيضا شرف رفيع. وكان أساس أهميتها في الحقيقة يعود إلى كونها محطة الاستراحة القائمة على الطريق التجارية التي اختارها تجار النقل العرب مركزا لأعمالهم لسبب هام وليس لاي سبب آخر لأن فيها بئرا تسمى «بئر زمزم» ذات مياه متوسطة الكمية في طعمها ملوحة ظاهرة، نشأت حولها مدينة تم اختيارها مركزاً نظرا لأن الطرق الذاهبة إلى اليمن وسوريا والشمال وعبر الصحراء إلى القطيف تلتقي جميعا عندها، وفيها.

كانت أهم قبيلة أو اتحاد قبائل (؟) في مكة هي قبيلة قريش التي ينتسب إليها النبي نفسه. ودعيت بهذا الإسم «من التجارة وجني الأرباح»[٢]. وتدعى قريش الأم بقريش البطاح أو الأباطح «الارباض أو الضواحي» وتشمل عشرة بطون هي هاشم، وأمية، ونوفل، وزهرة، وأسد، وتيم، وعدي، ومخزوم، وجمح، وسهم[٣]. وكانوا جميعا يسكنون

(×١) الهجرة بدأت في ١٦/١٥ تموز ٦٢٢م.

(×٢) منزلة مكة المنزلة التجارية فحسب. أما المكانة والاحترام. فمكة فيها بيت الله الحرام الذي بناه جدنا ابراهيم واسماعيل، وهو بيت الله الذي جاء أبرهة وجيشه ـ أو الذي أرسله ابرهة ـ ليهدم هذا البيت ويمنع العرب من الحج إليه بعد أن بنى لهم الهيكل الكبير في نجران كما وصف ذلك في الفصل السابع. وكما سيجيء في الفصلين القادمين عند الكلام على ديانة العرب وآلهتهم وأسمائها، وأين كانت تقام النصب أليس في مكة بشكل خاص وإليها يحج جميع العرب، فأي مركز أكرم من هذا الا ما كرمها الله بنبيه والمسجد الحرام وحج الناس إليه.

حول بئر زمزم. أما الآخرون من عرب وأجانب فكانوا يسكنون بطاح مكة المنتشرة بعد هذه النواة، وهم غالباً السكان الذين جاءوها بعد قريش. وقد احتفظت كل قبيلة بعاداتها وقوانينها، وكان لها حكمها الذاتي شأنها في ذلك شأن كل قبيلة صحراوية أخرى. بحيث صارت مكة أشبه بمجموعات من المضارب القبلية منها بالمدينة بالمعنى المقصود، ولكن الجميع كان يشارك في اتحاد نقل التجارة مع التسليم بتشريف الشخص أو الأشخاص الذين ينفقون على إكرام الضيوف. وكان لكل مواطن حصة في عائدات التجارة المنقولة، حتى النساء.

يصف المؤرخون المتأخرون مكة «كجماعة» أو جمهورية[٤] ولا يزيد ذلك على أن نفهم أن لاتحاد القبائل هذا «ملأ» أو جمعية عامة حيث يخطط للعمليات التجارية. ولا شك أن هذا كان على غرار «المجلس» أو لجنة القبيلة المتعارف عليها بين قبائل الصحراء.

يبدو أنه كان في مكة عملاء لبيزنطة[٥]. ولكنهم كانوا تجاراً وليسوا سياسيين. ولكن كونهم في خدمة بيزنطة يحمل على أن يكونوا عيوناً لها أيضاً. أما هيرشفيلد فقد استعمل عبارات ربما كان فيها قليل من المبالغة (حين صرح بأن لغة القرآن ليست عربية كليا: ويعني أن لغة القرآن العربية تحوى كلمات كثيرة من الآرامية التي كانت تستعمل عندما يقصر الفكر العربي المحدود عن التعبير عن الآراء التي تحتاج إلى توضيح. وقد لاقت هذه الفكرة اهتماما واسعاً من فرانكل[٦]. وعلى كل حال فان استعمال الآرامية دون قيود يعتبر دليلا قوياً على النفوذ السوري الذي تحدر جنوباً عبر الطريق التجارية) ويظهر منه ومن وجود العملاء البيزنطيين في مكة أن هذه البلدة لم تكن بعيدة أو معزولة كما يظن أحيانا. وكان فيها من كانوا قد اهتدوا إلى النصرانية في عهد النبي من أقربائه مثل ورقة (بن نوفل) وبعض الرجال مثل زيد بن حارثة الذين كانوا أسرى نصارى عند جلبهم لمكة[٧](×١).

(×١) هذه الملاحظة وما بعدها اقتبسها المؤلف من الأب لامينس المستشرق الكبير الذي ألف مئات المقالات والكتب عن العرب والإسلام وعاش فترة طويلة في بيروت، ورقة بن نوفل تنصر قبل الإسلام وكان أولا من الأحناف الذين لا يقربون الوثنية بل على دين ابراهيم عليه السلام. أما زيد بن حارثة فلم يكن نصرانياً أو غير ذلك لأنه كما ورد في سيرة ابن هشام (كان طفلاً عمره ٨ سنوات عندما ضاع والتقطه جماعة من العرب وباعوه في الشام فجاء به مع رقيق آخرين حكيم بن حزام بن خويلد وباعه لعمته خديجة بنت خويلد وهي يومئذ عند رسول الله (ﷺ). ورآه رسول الله (ﷺ) فاستوهبه منها، فوهبته فأعتقه وتبناه. وذلك قبل أن يوحى إليه. السيرة: جزء ١ ص٢٣٠. تعليق عبد الرؤوف سعد الناشر دار الجليل - بيروت ط جديدة.

وفي رأي آخر انه لم يخرج من الحجاز وبيع في سوق عكاظ: القيان والغناء في العصر الجاهلي، د. ناصر الدين الأسد

وليس غريبا أن نجد مستوطنة للأحباش(×١) في مكة[٨]، على الرغم من أن الغزو الحبشي لم يتوغل إلى هذه الأراضي الداخلية. ولكن تجار مكة الذين كرسوا أنفسهم كليا للتجارة المربحة وتهيئة القوافل، لم يكن لديهم الرغبة الكافية للقيام بأعمال الشرطة أو الإنجازات العسكرية. لذا نجدهم قد احتفظوا بقوة من المرتزقة عرفت باسم «الاحابيش» أي الأحباش، جماعة من الافارقة الأشداء كانوا يقومون بحراستهم. وأن أسوأ ما يمكن أن نتخيله خروجا على الصورة المألوفة للحياة العربية بأن يفقد سكان هذه المدينة التجارية الغنية رغبتهم في القتال وأن يكتفوا باستخدام مقاتلين مأجورين، ليتفرغوا لحالهم ويجعلوا من مدينتهم مركز تخليص وقاعدة مصرفية لتجارة آسية الغربية. وصارت هذه المدينة مهدا للإسلام بعد أن أوغلت في الشهرة العالمية (وما رافقها من إقامة الأجانب) تفسر إلى حد كبير هذا المزيج من الكلمات في القرآن الكريم، ويبدو واضحا أن وصف الإسلام بأنه نشأ في عرب صحراويين سذج وصف غير صحيح، كذلك لا يمكن اعتبار اللغة الفصيحة كما وردت في القرآن هي اللغة الام الأصلية التي اشتقت منها اللهجات العربية بالتحريف او المزج مع عناصر أجنبية بل لابد أن يكون هناك احتمال وجود تأثير أجنبي عليها خصوصا في بلد مثل مكة في العصر السابق للإسلام.

جـ - القوافل التجارية:

يعد العمل في القوافل من المشاريع الهامة. والتي كانت تنفذ عادة على نطاق واسع. وقد رأى سترابو قافلة في البتراء وشبهها بجيش كامل. وجاء في الطبري أن قافلة كانت تضم ٢٥٠٠ جمل[١].

(×١) الأحابيش - تفسيرها سخيف وتعليق أسخف من الأب لامينس. «لأن المعاجم تقول: الأحابيش، ج. أحبوش وأحبوشة الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة (المنجد) ويقول الفيروزابادي في القاموس المحيط: وحُبشي جبل بأسفل مكة ومنه أحابيش قريش لأنهم تحالفوا بالله أنهم يد على غيرهم، ما سجا ليل أو وضح نهار وما رسا حبشي، وجاء في ابن الأثير الكامل في التاريخ جزء٢ ص١١: أن حُليلاً بن حبشية سادن مكة هو الذي عقد الحلف بين قريش والاحابيش (بنو الحارث بن عبد مناف بن كنانة وبنو المصطلق بن خزاعة، وبنو الهون بن خزيمة. وكان ذلك حوالي سنة ٣٤٣م؟ ومكة ظهرت تجاريا بعد سنة ٥٧٥م حسبما يقول. وهذا وحده كاف لتأييد جهل الحقائق التاريخية. ومن المؤلم أن نجد بعض مؤرخينا من الأدباء - أدباء جيل أوليري من مثل الأستاذ أحمد أمين في كتاب فجر الإسلام ينقل هذا الخطأ دون تحقيق معتمداً أوليري مستشهداً به - باعتزاز وبين حين وآخر يقول - وعلى ما يستظهر أوليرى (Apparently) سامحه الله. وليس عذرا له أن لا يتأكد من الكتب العربية التي يفترض أن يكون راجع أحدها على الأقل وهو مؤلف تلك الكتب التي تقتبس من مروج الذهب وأوليري.

ولم تكن تلك القافلة لتسير إلا بعد استعدادات دقيقة. وكان حجمها الكبير يتطلب حماية كافية ضد الغارات. فترسل وحدات الكشافة لاستطلاع الأخبار ونقل المعلومات. وقد وصف ابن هشام في السيرة جماعة من هؤلاء الطلائع يتوجهون نحو مكة، عندما هدد النبي واتباعه «عير أبي سفيان» يبغون النجدة لحماية تلك القافلة. وهذه النجدة هي التي تسببت في معركة «بدر»[٢]. وكان لكل قافلة فريق من الأدلاء. وكان عمل الدليل تجهيز البهائم والأمتعة الاخرى للمشاركين في تلك القافلة. ولا تسير رحلة في الصحراء دون دليل حتى النبي بعد هروبه(×١) من مكة وجد الدليل في انتظاره ليرافقه ويقوده إلى المدينة[٣]. وفوق هذا كله، كان لكل قافلة حراسة أو خفارة ممثلة في أحد السادة أو صغار الأمراء من ذوي المراكز المرموقة، يقوم بحماية القافلة بوساطة رجاله. وكان هذا المنصب مصدرا للثراء يتنافس عليه زعماء القبائل. وهو بمثابة تأمين ايضا حيث يتعهد صاحب الخفارة بالتعويض عن كل خسارة قد تنتج عن غارات قبائل الصحراء. وكانت تقام التماثيل في «تدمر» تكريما للذين يقومون بتلك الحماية تطوعا ودون مقابل وكان هذا الكرم(×٢) الذي ينعكس على الرأي العام أضمن الطرق للوصول إلى الأهمية والشهرة السياسية. وكان عرب الحيرة يحتكرون مرافقة القوافل الفارسية إلى بلاد العرب. وقد أصبحت كلفة المرافقة عالية لدرجة أن الفرس رفضوا دفعها لعرب الحيرة، فكانت نتيجة ذلك قيام العرب بمهاجمة الحرس الفارسي والتسبب في هزيمة الفرس في معركة ذي قار(×٣) الشهيرة التي

(×١) كانت العملية ـ خروج ـ النبي ﷺ متستراً ليلاً مع صاحبه أبي بكر (رضي الله عنه) بأمر الله وكان دليلهما عبد الله بن أرقط ـ وكان مشركاً. مسند أحمد بن حنبل.

(×٢) لعل هذه الأوصاف الخاصة بالكرم العربي الذي تصل مكافاته إلى إقامة التماثيل لأصحابه رد كاف على وصف العربي بالجشع في أول هذا الفصل.

(×٣) معركة ذي قار لم تكن لتحصيل أجور الخفارة لقوافل الفرس أبداً وهذا اعتداء على الحقيقة والتاريخ فقد كانت في أول الهجرة النبوية وفيها قال الرسول ﷺ «هذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم وقد نصروا بي». وكان سببها أن النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة من العرب سجنه كسرى وقتله سنة ٦٢٠م وكان قد حفظ أدرعه وسلاحه (ل ٤٠٠ مقاتل ويقال ٨٠٠ مقاتل) عند هانيء بن مسعود الشيباني ـ فلما سجن وعين مكانه إياس بن قبيصة الشيباني، طالب كسرى بهذه الأدرع فرفض هاني بن مسعود خيانة الأمانة ـ فأنذره الفرس بالحرب ـ فحاربتهم بنو طيء ومعهم بنو بكر واستعملوا الأدرع وغلبوا الفرس شر غلبة ـ ويقال كان ذلك في أول البعثة قبل موت اياس ابن قبيصة سنة ٦١٤م وذلك لا يغير من نتيجة المعركة وأسبابها. وكان عزل النعمان سنة ٦٠٥م. انظر: سبائك الذهب ص (١١٠)، والطبري: جزء ٢، ص١٩٣ ـ ٢١٢ والأغاني: ٢٠: ١٣٧ ـ ١٤٠. والكامل، لابن الأثير: جزء ٢.

ذو قار: في الشمال الشرقي من بادية الشام على حدود الحضارة والعمران غرب بغداد وجنوب الأنبار وشمال الكوفة، أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس خريطة ٦٢.

أحب الشعراء أن يتغنوا بنصرهم فيها على الفرس[٤]. وقد كان هناك رحلتان زمن النبي تتجهان نحو سوريا[٥]. وسبب ارتفاع كلفة القوافل ناتج عن التجهيزات الكثيرة وأجور الأدلاء، ورعاة الابل والاكراميات التي تدفع للقبائل التي تمر القافلة فوق أرضها، عدا عن المبالغ العالية التي تدفع لصاحب الخفارة لتغريه على أن يضمن تعويض أية خسارة قد تنشأ أثناء الرحلة. كان أهل مكة ينظرون إلى لصوص الصحراء من البدو نظرة عدائية. وعندما يتحدث ابن هشام في السيرة أن ابليس كما كان يظن جاء إلى مكة ليخبر أهلها بهروب محمد تنكر بزي أعرابي من الصحراء(×١)[٦]. وكان البدوي يبدو لتجار مكة وكأنه لا ريب أحد الشياطين. وفي أماكن أخرى يشبه المواطنون البدوي بوحش البراري[٧]. حتى القرآن لم يخل من آثار ذلك الكره للأعراب غير المتجاوبين للدعوة إلى الدين[٨]. ولم يكن هناك شيء يربط المجتمع التجاري الذي نشأ فيه الإسلام مع بدو الصحراء.

كان على القوافل المتجهة إلى سوريا شمالا أن تستعمل الأسواق التي أعدتها الحكومة البيزنطية.. وكما كان النظام الفرنسي القديم يعتبر الدولة أبا للجميع بحيث تتدخل في شؤون الحياة الخاصة لرعاياها، وتضيق صدرا بأي نوع من النشاط المتحرر أو أي مبادرة تأتي من غير الموظفين المفوضين. فكانت التجارة الخارجية تمر على الموظفين المسؤولين لاستكمال اجراءات الإشراف الرسمي، فمن جهة كان ذلك يضمن تحصيل الرسوم المفروضة على الواردات وتنفيذ الاحتكارات التي تميز بها النظام الاقتصادي البيزنطي الاصطناعي. ومن جهة أخرى كانت الحكومة تضمن مراقبة القادمين والمغادرين من الأجانب التي كانت تعتبر أن أي واحد منهم قد يكون في جنبيه شخص مشتبه به؛ ولهذا الاشتباه أساس يقوم عليه، فقد كان لبيزنطة جهاز استخبارات متطور في بلاد فارس.

دخلت طريق الحجاز في أملاك بيزنطة، عند أيلة ـ أيلات العهد القديم والعقبة حاليا، عندما ضمت إلى روما سنة ١٠٥م★ واعتبرت من محطات الجيش العاشر، وكانت انذاك مدينة ذات أهمية بارزة، لدرجة أن أسقفها كان أحد الذين وقعوا «قوانين نيسين العربية» ولكنها تضاءلت الآن إلى مجرد قرية. تقع أيلة على رأس خليج العقبة في أول الطريق التي سلكها «تراجان» من البحر الأحمر إلى فلسطين. ومنها كانت تتجه القافلة إلى

(×١) هذا وصف خطأ لأن السيرة تقول فاعترضهم ابليس في هيئة شيخ جليل عليه بتلة أي كساء غليظ «فقالوا له من الشيخ، قال شيخ من نجد جاء ليسمع منكم... ولعل أن لا يعدمكم منه رأيا ونصحا» فهو ليس بأعرابي وإنما شيخ جليل، وهو لم يحضر ليخبرهم عن هروب محمد، بل جاء ليشترك في التخطيط للقضاء على الدعوة الإسلامية. ابن هشام. جزء٢ صفحة ٩١ ـ ٩٢.

★ سقوط الأنباط على يد الامبراطور تراجان كان سنة ١٠٦م نفس الفصل وليس ١٠٥.

غزة حيث تلتقي بضائعها مع تجارة البحر الأبيض المتوسط. في حين تتجه البضائع المخصصة لسوريا عبر الصحراء السورية إلى بصرى. وقد ورد في الاخبار الأسطورية عن «الرحلة الليلية(×١)» للنبي، حيث حمل بمعجزة في الهواء من مكة إلى القدس. وذكر أنه مر فوق غزة حيث رأى القوافل التجارية وهي تحتشد على الطريق. أما بصرى التي جعلها «ديوكليتيان» عاصمة الكورة العربية فلم تكن تتمتع بحكم ذاتي مثل الحيرة بل كانت سوقا كبيرا تحت اشراف موظف امبراطوري في منطقة الحدود السورية. وهناك كان يتم تبادل البضائع بين القوافل بعضها بعضا للمشترين المعينين من قبل الدولة. ولم يقف كل ذلك في وجه عمليات التهريب خصوصا في تجارة الأسلحة المحظور بيعها للعرب.

وقد ورد في السيرة أن النبي اشترك في هذه الرحلات أكثر من مرة: احداها تتحدث عن زيارته لبصرى وهو ابن اثنتي عشرة سنة[9]. وأخرى تتحدث عن زيارته لبصرى وهو في سن الخامسة والعشرين برفقة جماعة من قريش[10]. وهذه القصص تدور حول أسطورة «بحيرة» وهي من أصعب الأخبار المعروفة عن حياة النبي الاولى. وليس غريبا أن يذهب لسوريا، إذ لا نعدو الحقيقة إذا قلنا أنه لم يكن هناك في مكة القرن السابع شاب لم يقم بزيارة بصرى أو الحيرة ولو مرة واحدة. ولا نحتاج للتدليل على ذلك بوجود الكلمات الارامية في القرآن، لأنه كما رأينا لا يستغرب وجود الكلمات الدخيلة في بلدة عالمية مثل مكة(×٢).

(×١) ليلة الإسراء والمعراج: المعلومات المقدمة مغلوطة: ١ ـ لم تكن هناك رواية أو أسطورة. ولم تكن هناك معجزة بل قدرة الله تعالى، ٢ ـ تم الاسراء بالروح دون الجسد، وكانت الرحلة من مكة إلى القدس رؤيا من عند الله صادقة، قال تعالى ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾. نزلت فيمن ارتد عن اسلامه. ٣ ـ لم يرد في السيرة أن الروح مرت فوق غزة ورأت القوافل، بل سرت إلى القدس ورأت العيس وهي راجعة في طريقها إلى مكة: ابن هشام: جزء ٢ ص٣٤. جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد الجزء الأول ص ٢٢٤ عن دار صادر ببيروت.. ما يفيد أن الاسراء كان بالروح والجسد وهو رأي المؤرخين والفقهاء اعتماداً على حديث رسول الله (ﷺ) في وصف العملية.

(×٢) الكلمات الارامية كانت مستعملة قديماً عند العرب قبل شهرة مكة ومنذ زمن بعيد خصوصاً في جنوب الجزيرة حيث وجدت نقوش كثيرة باللغة الحميرية بكتابات آرامية. وعلى كل فالأرامية والعربية أختان من أصل واحد وطريقة بناء واحدة. وإن كانت العربية أوسع. أما أثر زيارة بصرى والحيرة فغير وارد لأن كليهما كانت عربية الموطن والمواطن وكانت بصرى عاصمة الشمال للأنباط في يوم ما ـ راجع نقش النمارة ـ.

ملاحظات الفصل العاشر

أ ـ طريق الحجاز التجارية

١ ـ سترابو ١٦ و٤ و٢٣.
٢ ـ سفر التكوين: إصحاح ١٦ اية ١٢.
٣ ـ سفر التكوين ٣٧ اية ٢٥ و٢٧ـ٢٨.
٤ ـ بليني ت. ط: ١٢، ٣٢ وهكذا كانت الجمال تتجمع في شبوة لتقوم بنقل البخور ولا يمكن ذلك إلا من بلاد الحابا نيتاس وعليه فقد كانت تفرض عليها الضرائب للحاكم. وتبعد مدينتهم الرئيسية (تمنع) عن غزة التي على ساحلنا في يهودا ٤٤٣٦ ميلا رومانيا.
٥ ـ المزامير: ٧٢: ١٠ و١٥، سفر أيوب ١ : ٥، ٦ : ١٩ الخ.
٦ ـ الهمذاني: تآليف مولر ٤٧ و١٣٦ و١٦٨، ابن حوقل «صورة الأرض» ٢ و٢١.
٧ ـ المسعودي: مروج ٣: ١٢٢.

ب ـ مدينة مكة

١ ـ سترابو ١٦ و٤ و٤ و١٨.
٢ ـ من «تقريش» الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) (المتحف البريطاني ش ٣١٨٨، ٢٦٧).
٣ ـ المسعودي مروج ٣ : ١١٩ ـ ١٢٠.
٤ ـ الواقدي ٥٩ و٣.
٥ ـ الواقدي: الصحابة ٥٨ ـ ٥٩ لامينس «مكة» ٢٥٧.
٦ ـ هيرشفيلد: الأبحاث الجديدة ٦، فرانكل «غريب الآرامية».
٧ ـ لامينس: النصارى في مكة «مشتتون».
٨ ـ لامنس النصارى في مكة «مشتتون» ٢٢٩.
٩ ـ لامنس «مكة» الفصول ٨ و٩ و١٠ حول النظام المالي في مكة.

ج ـ القوافل التجارية:

١ ـ سترابو ١٦ و٤ و٣٣، الطبري تاريخ الرسل والملوك ١ و١٢٧١.
٢ ـ ابن هشام، ٤٣٢ ـ ٤٤٠.
٣ ـ ابن حنبل ـ المسند ٤ و٧٤.

٤ ـ الأغاني ٢٠ و١٣٧ ـ ١٤٠.
٥ ـ القران: سورة ١٠٦ اية ١.
٦ ـ ابن هشام ٣٣٠.
٧ ـ الأغاني: ١ ; ٣٠٢ ـ ٣٠٣.
٨ ـ القران: ٤٨: ١١ـ١٣، ٤٩: ١٤.
٩ ـ ابن هشام ١١٥.
١٠ـ ابن هشام: ١١٩.

الفصل الحادي عشر

- بينات من الديانات التي سبقت الإسلام -

أ - بينات من الأحوال الإجتماعية :-

يتحدث التاريخ عن طروء المصريين والآكديين على جزيرة العرب في الأزمنة القديمة البعيدة وقد ازداد هذا الإحتكاك الأبدي مع تقدم الزمن، عن طريق الاستعمار أحيانا، وبالدرجة الأولى من خلال تطوير الطرق التجارية التي كانت تستقطب البضائع من جنوب جزيرة العرب، والبضائع الواردة من الهند وافريقيا الشرقية، ليتم نقلها إلى العالم الغربي أو على الأصح إلى الامبراطورية البيزنطية. وقد مر بنا إشارات متفرقة إلى بيزنطيين وغيرهم ممن نزلوا إلى جزيرة العرب على شكل مبشرين أو مستوطنين أو وكلاء تجاريين. وكل ذلك يوحي بوجود علاقات مع جزيرة العرب. ويمكن تأكيد ذلك وتوثيقه بأساليب غير مباشرة لو كان بإمكاننا استخلاص معلومات كافية عن الحياة الإجتماعية والهيئات المنظمة وغيرها مما كان في جزيرة العرب قبل الإسلام. ولكن لسوء الحظ فإن المادة التي لدينا ليست كافية من جهة، وليست موضع ثقة من جهة ثانية، وظهر عدم الثقة في أعمال المؤرخين المسلمين المتأخرين الذين كان من الصعب عليهم وهم يعيشون في زمن الرخاء والتطور العلمي والثقافي أن يكوّنوا فكرة حقيقية عن أهل الجاهلية من منظور المجتمع الذي يعيشون فيه في زمنهم المتأخر الذي يختلف في كل شيء عن المجتمع السابق.

نجد هنا بعض الإشارات التي لو أتيح لنا تمحيصها وتطبيق الأسلوب العلمي لعلم الإجتماع المقارن عليها لأمكن الحصول على أدلة أكثر. مثلاً إذا عدنا إلى و. روبرتسن سميث في كتابه «القرابة والزواج في بلاد العرب القديمة» (نسخة منقحة ١٩٠٧) فهو يقول أن الزواج «البعلي» أي الزواج الذي يكون فيه الرجل «سيداً» على الزوجة يعتبر نظاما قائما إلى حد ما أيام النبي. أما قبل ذلك فكانت الزوجة تبقى في أهلها وتحتفظ بأبنائها كجزء من أبناء عشيرتها، يشكلون اتحاداً مؤقتاً تستطيع الأم أن تفصم عراه متى شاءت. وقد زال هذا الأسلوب بما له وما عليه من سوء السمعة: «إذ أصبحت مثل هذه الإتحادات مبتذلة، وأصبحت لا تجد مثل هذه النسوة إلا في الطبقات الوضيعة أو القبائل غير ذات الاعتبار».... أما المرأة المكية فكانت تتفاخر بأصلها الرفيع وعفتها: «وأصبحت القيود التي كانت تفرض على السبايا نوعا من دواعي الشرف لدى الزوجة نفسها» (و. روبرتسن

سميث ص ١٦٧٠ نفس المصدر) وتطور الزواج كما نفهمه الآن تطورا شاملا، في المجتمعات المستقرة في الحجاز، واعتبرت النساء اللواتي يباشرن الزواج بالاسلوب القديم بنات هوى أو مومسات. ويشير هذا إلى نظام اجتماعي كامل التطور بعيد كل البعد عن الأوضاع البدائية. وقد يبدو تعدد الزوجات تحت سيد واحد عملا همجيا، ولكنه يمثل في الحقيقة أول خطوات استقرار الزوجية بعد تلك الحالات الجماعية للعلاقات الجنسية القديمة. وأن هذا التغيير الكبير قد حدث. وأنه تغيير حديث في عهد النبي، يتمثل كل ما قلناه عن عدم عزلة مكة والمدينة. ولا يعتبر توافق الأحوال الإجتماعية مع ما هو سائد في الامبراطوريات المتحضرة دليلا فعليا على التخالط بل بإضافة ذلك الى البينات الأخرى التي تواكب هذا الإتجاه فإن ذلك سيؤدي إلى تطويره واتباعه بعد التصديق عليه وتحويله لجهات أخرى.

ب ـ أدلة محتملة من الدين:

إذا أجلنا النظر في اتجاهات أخرى نجد أدلة أكثر تحديدا وإن كانت لا تزال جزئية، وقد نجد بعضا من هذا مما قد نتعلمه عن الديانات العربية قبل الإسلام، خصوصا وأن النقوش القديمة، وإحالات الكتاب اليونان واللاتين تدور حول ذلك غالبا، وبعض الملاحظات قائمة لدى الكتاب العرب، بينما تساعدنا دراسة الدين المقارن على تلمس اثار هذه الإشارات واستخراجها مع شيء من التفصيل من بين تلك المخلفات القائمة. أما بينات النقوش فهي جزئية إلى حد كبير. وما تقدمه لنا لا يتجاوز كثيرا أسماء الالهة خصوصا الهة جنوب الجزيرة. وكذلك فان الإحالات والإشارة اليونانية والرومانية جزئية أيضا وتقلل من اهمية النقوش. أما ما يرد في كتابات العرب من ملاحظات فإنها ليست ملاحظات حديثة نسبيا فحسب بعد أن مضى عهد الوثنية. بل نالها كثير من المراجعة والتهذيب حتى تطابق ما ورد في القرآن. وليس في أيام الجاهلية، من منظور اسلامي، ما يستحق الاهتمام أو الاحتفاظ به كتراث. ولما بدأ علماء الحديث بجمع البيانات التي تساعد في توضيح بعض الإشارات القرآنية كان عملهم ناقصا، ولم يجمعوا إلا ما كان لازما لتفسير القران، أو ما وجدوه أكثر ملاءمة لخدمة هذا الغرض على الوجه الأحسن. وهكذا بقينا في ليل دامس حول ديانات مكة القديمة(×١) على الرغم من أن المعلومات الصحيحة تساعدنا كثيرا في

(×١) ديانات العرب قبل الاسلام مبحوثة جيدا وعلى أساس اجتماعي وثقافي وليس لاهوتيا وبشكل واضح ومفصل في كتب التاريخ العربي خصوصا في الجزء الثاني من المسعودي في فصل طويل بهذا العنوان ـ لم يترك شيئا إلا تعرض له واستشهد بالشعراء والحكماء. وبحث التفاصيل وغاص في أمور فلسفية بحثها اليونان وفلاسفتهم قبله من مثل النفس والروح وغير ذلك. ص١٢٦ ـ ١٩٣ في الطبعة الرابعة دار السعادة القاهرة ١٩٦٤.

فهم الجزء الأول من فترة البعثة النبوية. وإلى هنا لا نرى الآثار القائمة قد نالت عناية كافية. على أن بعض الملاحظات التي أوردها «ولهاوزن» حول شعائر الحج أظهرت مدى ما تقدمه أمثال هذه الدراسة.

إن معالجة هذه الشواهد الجزئية المبعثرة بحاجة إلى الاستعانة بعلم للأديان مبني على دراسات مقارنة، وعلى أن لا تعامل كموضوع لاهوتي. بل كفرع من علم الإنسان الثقافي المقارن مع غيره من فروع ذلك العلم الأخرى، ويحكم عليه بموجبها. وقد شهدت الأربعون سنة الأخيرة (١٨٨٥ ـ ١٩٢٥) بداية لهذا العلم، ولكن نتائجه لا تزال تجريبية يتم التعامل معها بحذر شديد: لذلك فإن الثقة والدقة التي يعتمد عليها علماء الدين المقارن في ضوء المبادىء العامة ليست كافية لتجعلنا نؤمن بأن هذه المبادىء قد يتم التأكد من صحتها بأي حال من الأحوال ـ فلو عدنا ثلاثين سنة إلى الوراء لنفس هذا الموضوع لوجدنا أن ما كان يقبل كحقيقة بدهية مسلم بها، أصبح الآن مرفوضا كليا على أساس أنه كان حدسا متسرعا فيه. إن علم الأديان شيء ضروري كجزء من علم الإنسان الثقافي ـ وإذا عولج ضمن خطوط علمية (أنثروبولوجية) فلا بد أن يؤدي ذلك إلى نتائج، قد ظهر منها شيء، يعتبر استنتاجات محتملة ولكن لم يبرهن عليها بعد.

ويبدو لنا من خلال هذه الملاحظات، دون تحيز، أن آلهة الديانات البدائية ليس لها (عادة؟) صفات بشرية: إذ تقام الطقوس كنوع من السحر لتسخير قوى الطبيعة، مما يجعل الديانات البدائية مجرد عملية طقوس وشعائر أكثر منها أنظمة أو أخلاقا قائمة. ولا يزال مواطنو «تشوتا ناجبور» في الهند في هذه المرحلة حتى الآن[1]. ويبدو أن هذا الوضع سيطر على الديانة الرومانية، واستمر كذلك إلى فترة قريبة نسبيا[2]. ويبدو أيضا أن البحث عن الخالق، الذي أدى إلى تأليه الاجرام السماوية جاء في فترة متأخرة من التطور الفكري. وليس غريبا أن تتوالى هذه الفترات أو الأطوار في أية ديانة، بحيث تتعايش الآراء المتباينة جنبا إلى جنب، لأن الديانات بطبعها شديدة المحافظة وتكره التغيير. فكل فكر سابق لا يزول بل يبقى قائما مع أي فكر يليه أو يأتي بعده. أما بالنسبة لجزيرة العرب فيبدو أن كل مرحلة سابقة معروفة عاشت مع غيرها في وقت واحد. فنرى تعايشا بين الثقافة البابلية القديمة والفكر الهليني المطعم بالآراء العلمية الخطيرة مع بقايا متخلفة من العصر الحجري كلها ممزوجة بالدين(×١) وبكل ما في نواحي الحياة الثقافية في بلاد العرب قبل الإسلام.

(×١) كان البحث عن الخالق لدى كل الأمم، وأول الأمم التي آمنت بالوحدانية هم العرب على يد سيدنا ابراهيم الخليل (خل ايل) صديق الله وكان حنيفا مسلماً. ولما جاء الاسلام بعد ٢٦٠٠ سنة تقريبا =

جـ ـ الهة بلاد العرب:

يمكن أن تعزى عبادة الأجرام السماوية إلى تأثير بابلي في أغلب الاحتمالات: فعبادة النجوم كما يبدو من بلاد ما بين النهرين، على الرغم من أن ما لدينا من معلومات لا تكفي لأن نجزم بأن كل خرافة شمسية أو نجمية لها أصل قديم في وادي دجلة والفرات. علما بأن سكان تلك البلاد يعتمدون على حركة تلك الكواكب وغيرها من الأجرام السماوية في حسبان مواقيت الفيضان الذي تعتمد عليه زراعتهم ثم توسعوا إلى أن جعلوا تلك الاجرام سببا للفيضان وأنها هي التي تهب لهم المحصول. وتعود بنا هذه المعلومات إلى الوراء إلى الإلهة الأم. مصدر الخصب التي تتميز عبادتها بأنها ارتفعت عن مستوى عبادة القبائل البدوية إلى مستوى عبادة المجتمعات الزراعية المتحضرة المستقرة. وكان للالهة «العزى» مركز خاص لدى العرب، وهي التي تمثل الكوكب «فينوس **Venus**» ـ الزهرة ـ[١] وقد ذكر نيلوس أنه شاهد عرب سينا يقدمون جملا قربانا لها[٢]. وكانت العزى احدى ثلاث أخوات يعبدن في مكة زمن النبي[٣]. وكانت هناك «الثريا **Pleiades**» واهبة المطر(×١) ولعل «الشمس» كانت تعبد أيضا. وهناك شواهد مثل «عبد شمس» ربما كانت «اللات»(×٢) تمثل الشمس، فقد كانت أبرز آلهة العرب وهي التي ذكرها هيرودتس باسم «اللته» وهو الاسم الذي أطلقه العرب على «أورانيا» ويقول أن «اللته» و«أوروتال» هما المعبودان الوحيدان لدى العرب، ويعتبر ثانيهما قبيل «باخوس»[٤] ويتكرر اسم «اللات» في النقوش النبطية مثلا. «هذا معبد السيدة ايلات[٥]» و«كاهن ايلات[٦]» و«البيت الذي بني للات[٧]». ويوجد تمييز بين الشمس واللات**Allath**» في أحد نقوش تدمر[٨]. واللات واحدة من ثلاثة أصنام كانت في الكعبة ـ القرآن سورة ٥٣ آية ١٩، ٢٠ ـ وكانت هي القوة

= أكد القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى في ثمانية مواضع عن ملة ابراهيم منها سورة الحج آية ٧٨ ﴿ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل﴾ وابراهيم (ع) عربي من أور وعاش في حران شمالي سوريا عند منابع الفرات وهو الذي بنى بيت الله الحرام في مكة مع ابنه اسماعيل (ع) جد العرب. والله عرفنا بأنه أبونا. أما الأصنام فلم تكن معروفة عند العرب كآلهة بل هي نزوة أدخلها عمرو بن لحي لمكة في أوائل القرن الأول الميلادي وجلبها من بلاد الأنباط وكانوا يقولون نحن لا نعبدهم إلا للتوسط عند الله ﴿مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ الزمر آية ٣.

(×١) الثريا مجموعة معروفة تسمى أحيانا الدراري السبع، وهن ست نجوم ساطعة وأخرى باهتة.

(×٢) اللات بتشديد التاء هو الذي يلت السويق بالسمن للحجاج، أما اسم الالهة فهو بتخفيف التاء. وهي صخرة عبدها الناس في مكة. وقد يكون اسمها مؤنث الإله «ال» أو «ايل» أي «الله» وهو إله الأكديين والآراميين والعرب زمن ابراهيم (ع) وكثيرا ما اقترنت أسماء الملوك به ـ سيرة ابن هشام الجزء الأول + د. سوسة ديانات العرب في «العرب واليهود في التاريخ».

الإلهية (الروح) الأولى عند أهل الطائف القريبة من مكة. ومن هذه وغيرها من آلهة النجوم تبين لنا تطور فكري أوسع عن الديانة العربية التي كانت سائدة قبل الإسلام. ويمكن جمع بيانات أخرى عنها مما أشار إليه الكتاب اليونانيون والرومان ومن النقوش أيضا: وهنا نجابه اعتراضا، وهو أن هذه الأدلة لا تنطبق إلا على العرب الذين لهم اتصال بالعالم الخارجي كعرب الطرق التجارية، وعرب الدويلات الحدودية. وبذلك نكون عرفنا مرحلة واحدة فقط من مراحل الديانات العربية القديمة هي المرحلة التي تأثرت بالنفوذ الخارجي.

كانت توجد وراء هذه الآلهة المجسمة أرواح محلية مثل «ذو الشرى» الذي كان يعبد في بترا[٩]. والحيوانات(×١) مثل النسر المذكور في القرآن، وجاء ذكره في «تلمود» بابل[١٠] باسم «نشره Neshra». ومنها ما ليس لها شكل ولا روح مثل «منية» أو «مناة» ـ «الموت» التي كان لها مقام(×٢) في هذيل وكان اسمها في مكة مؤنثا «مناة»[١١] وهو الاسم الذي يظهر أيضا في نقش «الحجر»[١٢]. ومثل ذلك اسم «الجد» أي «الحظ الحسن»[١٣] الذي يظهر في نقش «عبد الجد» اليمني ومن الواضح أن هذه الآلهة تعود إلى أرواح أقدم من تلك التي مثلوها بالإنسان «الأصنام» التي تطورت تحت التأثير الأجنبي. وإضافة «لنسر» فقد ذكر القران أيضا «ودا، وسواعا، ويغوث، ويعوق[١٤]» والود من الود ـ الصداقة، ويغوث من الغوث ـ المساعدة، ويعوق بمعنى الحافظ. وهذه الأسماء الطيبة مثيلة الآلهة المجيدة اليونانية المحببة التي تطلق استعطافا واسترضاء للآلهة المخيفة ذات الأسماء العنيفة، لأن العادة أن تسترضي الآلهة بالرقي والتعاويذ تفاديا لنقمتها، أكثر مما هو توسل إليها أو عبادة لها بالمعنى المعروف. مثل كلمة «التقى» العربية التي تعني «الخشية» تدل على ان يكون الواحد يقظا أمام المفاجآت(×٣) وغيرها.

(×١) نسر: ليس اسم حيوان بل هو والأسماء الأخرى «ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، أسماء صحابة النبي نوح عليه السلام وكانوا صالحين. وكان كلما مات منهم واحد يصنعون له تمثالا ولما بعد العهد نسي الناس قصة التماثيل فعبدوها.

(×٢) المقام أو الحرم (Sanctuary). كان العرب يسمونها الطواغيت وهي بيوت تعظمها بعد الكعبة، لها سدنة وحجاب، ويهدى إليها كما يهدى إلى الكعبة ويطاف بها كما يطاف بالكعبة، وينحر عندها والعرب تعرف فضل الكعبة عليها. سيرة ابن هشام جزء ١ ـ ص٧٨.

(×٣) التقية = التخفي ـ الاحتفاء، ونقول اتقى الله ـ أي خاف أو خشي الله. وتعني أيضا احذر الخطر أو التعرض للضرر، وتعني الستر وتقول العامة أتق راسك من المطر أو أي شيء متحرك بمعنى الوقاية.

كان لدى الساميين القدامى عبادة الشجر والحجر على اعتبار أنها مساكن للأرواح التي لم تكن لها صفات البشر. فالشجرة كمخلوق مقدس كانت مميزة لدى الديانات السامية وبقي تقديسها قائما حتى مجيء الإسلام. مثل الشجرة التي كانت بنخلة، ولعلها من شجر السنط أو الأكاسيا وفيها الصمغ العربي وكانت مرتبطة «بالعزى» ولا يستبعد أن تكون «ذات الأنواط» أي الشجرة التي يعلق عليها أو تربط فيها الخيول والتي كان يزورها أهل مكة كل سنة. ولعل مثلها شجرة الحديبية المذكورة في القرآن (سورة ٤٨ اية ١٨) التي كان يزورها الحجاج، إلى ان أمر الخليفة عمر بقطعها[١٥]. وما كان تجسيد روح الشجرة في صنم شخصي مثل العزى سوى نوع من التفاهم بين مرحلتين مختلفتين من الأفكار الدينية.

كانت عبادة الأنصاب(×١) (مفردها نصب) التي تعتبر مساكن الأرواح أوسع أشكال الديانة السامية. ولها نموذج إيضاحي في واجهة «بيت أيل» بيتين(×٢) التي يذكرها العهد القديم ويقول أن النبي يعقوب مسحها بالزيت وسماها «بيت الله(×٣)» وكان هذا الحجر المنتصب بفتحاته الكأسية[١٦] نموذجا قديما «للمذبح». وعلينا أن لا ننسى أن كهنة سفر التكوين لم يكونوا أناسا بدائيين ولكنهم كانوا على اتصال قديم بالأفكار المتطورة في كل من مصر وبلاد ما بين النهرين[١٧]. وجعلهم هذا يصلون إلى مرحلة متقدمة قرونا عديدة عن عرب وسط الجزيرة العربية الذين عاصروا محمدا. ولا بد أنه كانت توجد وراء مذبح النصب الهة النصب أو الروح المعبودة التي تسكن ذلك الحجر. وهذا ما جعل «كليمنت السكندري» يشير إلى أن العرب كانوا يعبدون الحجارة[١٨].

وتميز اللغة كذلك «الوثن» الذي تسكنه الآلهة، من «الصنم» وهو التمثال المنحوت. ومن النوع الأول الحجر المسمى «باللات» في الطائف، تشبيها «للمكارت» صور أو «عشتار» أو «ذوالشرى Dusares » في بترا[١٩]. ويمكن الإشارة إلى الوصية الثانية من الوصايا العشر التي تمنع عبادة الحجارة أو نحتها على شكل تمثال منقوش، إذ كان يعتبر ذلك بدعة عند الاسرائيليين والعرب على السواء.

(×١) النصب (ج أنصاب) هي الحجارة التي كانت حول الكعبة يهل لها ويذبح عليها لغير الله.

(×٢) بيتين ـ بلدة شمالي رام الله في فلسطين.

(×٣) أيل أو ال= الله: الاسم القديم لله منذ ابراهيم الخليل (ع).

(×٤) أما يعقوب وأبناؤه فكنعانيون عرب عاشوا واندمجوا مع الهكسوس ولم يبق لهم أية صفة خاصة، ومن خرج مع موسى كانوا من بقايا الهكسوس وبقايا بني اسرائيل ويعقوب وأن موسى النبي جاء بعد «٥٥٠ سنة» من النبي يعقوب الذي لم يكن يهوديا بالطبع.

يقول ابن هشام(×١) أن عبادة الأصنام أدخلت إلى مكة على يد عمرو بن لحي، جلبها من سوريا قبل محمد بفترة قصيرة[٢٠]. ثم يشير إلى خبر أخر وهو أن الذي أحدث عبادة الأصنام هو «هذيل بن مدركة» ويقول ابن هشام مرة ثانية أنها جاءت من سوريا بوقت ليس ببعيد عن محمد[٢١]. وكلا الخبرين يؤكد عبادة «الأصنام» أي ما له تمثال منحوت أو محفور، وليس مجرد عبادة «النصب» وأنها أدخلت حديثا لجزيرة العرب وأنها من أصل سوري. يؤيد ذلك أن كلمة «صنم» من أصل أرامي من كلمة «سلم Selem». لذلك يبدو أننا لا نكون مخطئين إذا اعتبرنا أن عبادة الأصنام مثال على ثقافة سورية(×٢) هلينية تحدرت عن طريق التجارة وأنها كانت ادخالا جديدا لمكة في عهد النبي وأنها ربما لم تكن معروفة لدى بقية المجتمعات العربية البعيدة.

تلقي الطقوس والشعائر عادة ضوءا أقوى على الآراء الدينية القديمة أكثر مما تعطيه المبادىء المقررة والتي تستعمل غالبا لمحاولة شرح هذه الشعائر من وجهة دينية في زمن متاخر ومن الصفوة القليلة الواعية. وإذا عالجنا طقوس مكة فمن المهم أن نلاحظ أن الإسلام قد أبقى على جزء منها بعد أن أصابها التعديل من محمد أو خلفائه الأولين(×٣). وربما شمل هذا التعديل بعض الميزات التي كان يمكن أن تفيدنا في تفسير معنى تلك الشعائر.

تتركز شعائر ديانة مكة حول الكعبة أو «بيت الله» وما يتبع ذلك في البقعة المقدسة التي تسمى «الحرم» والتي تظهر الآن مميزة قائمة حول الكعبة و «بئر زمزم». وربما كان «بئر زمزم» هو النواة الأصلية، وإلا لما استحق هذا الوادي المجدب كل هذه القدسية. ويمكن أن نقول: كان هناك بقعة مقدسة كان فيها حرم. لا يمثل بناء أو فناء مسيجا، بل

(×١) عمرو بن لحي: جلب «هبل» من بلاد مؤاب وليس من سوريا بل البلقاء وهي أو سوريا من بلاد العرب ورقيهم من رقي أهل وسط الجزيرة. وعمرو بن لحي في القرن الأول الميلادي و٦٠٠ سنة لا تسمى «بوقت ليس ببعيد عن محمد» أما هذيل فكان لهم صنم اسمه «سواع» في ينبع وكان لكل قبيلة صنم وليس «مكة وحدها» سيرة ابن هشام ـ الأول.

(×٢) ليست اللغة الآرامية دليلاً على أنها من سوريا لأن لغة سوريا لم تكن الآرامية وأن كانت فالآرامية لغة عربية بلهجة أخرى ـ أما الهلينية التي جاءت عن طريق التجارة فغير صحيحة لأن ثقافة أهل وسط الجزيرة متوارثة على الأقل من ناحية دينية عن أنبياء الله العرب الأقدم جدا من الهلينية التي بدأت على الاكثر في القرن الرابع، ق. م وأنبياء العرب منذ القرن العشرين قوم ابراهيم ولوط وصالح وهود وشعيب وأخرون قبل موسى عليه السلام.

(×٣) المصلح-أي مصلح- لا يلغي كل عادات المجتمع أو مؤسساته بل يعدل معظمها ويحتفظ ببعضها ويلغي ما يجب اصلاحه وهكذا الاسلام.

مجرد ساحة مقدسة محددة بحجارة تميزها، تتوسطها بئر بقربها خزنة أو ما يسمى «كعبة» والمعروف أنه قد أعيد بناؤها زمن محمد، وسقفت لأول مرة فأخذت شكلها المكعب فسميت «الكعبة»(×١). أما البيت القائم حاليا فهو حديث التجديد يعود بناؤه إلى قبل القرن السابع عشر الميلادي.

كانت هذه الخزنة «الكعبة» تضم «الإلهات» الثلاث: العزى واللات ومناة على شكل أصنام أخذت فكرتها من بدعة سورية قريبة العهد. وقد ذكرها القرآن في سورة (١٩:٥٣) وقال.. ألكم الذكر وله الأنثى» وكان يوجد في مكة «إله ذكر» غير هذه الآلهة الثلاث يعتبر أبا لهن (سورة ٥٢ آية ٢٩ وسورة ١٦ آية ٥٩) وهذا الإله الأب المجيد هو «الله» الذي يشير إليه محمد في القران (٦٥:٢٩ و٣١: ٣١) حين يقول أن العرب يسألونه، ويحلفون به (١٠٩:٦، ٦١:٢) وهو الخالق أيضا(×٢). وأشار ابن هشام إلى أن عمرو بن لحي هو الذي جلب صنم هبل من سوريا(×٣) ونصبه في مكه. ولم يكن معروفا لدى غيرها من الأماكن في بلاد العرب. ولكنه مذكور في نقش نبطي[٢٢]. وهذا «الهبل» كان جديدا، ولكن تمثاله كان يعتبر الإله المعبود «Alliah» «الله» الإله الذكر الأعلى في الكعبة. وعلينا أن نعتبر أن تمثيله «بالبشر» هو تطور متأخر للروح الموجودة في الطواغيت المنزهة عن الشكل والجنس.

د ـ الحج:

تشير شعائر الحج إلى أن المبادىء الدينية التي بنيت عليها عبادة هبل(×٤) والأصنام

(×١) الكعبة: اسم قديم جدا، ليس من الشكل المكعب بل من الارتفاع والنتوء.

(×٢) الآيات المباركات: الأولى لومهم (قريش) لانهم يعتبرون الأصنام الثلاث بنات الله. والثانية لم يفهمها المؤلف بل ظنها تدل على الذكر ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن...﴾ والثالثة: ﴿يتوارى من القوم من سوء ما بشر به﴾ أي عن الأنثى لدى قريش المتأخرين. بقية الآيات: تشتمل على دعاء الله، والقسم به ـ وهذا لا يدل على أن الله الذي في القرآن الكريم هو «هبل»، الإله الذكر المعبود الوارد في نقش نبطي ـ وما في النقش النبطي هو كما يفهم في ملاحظاته رقم (٢٢) بالعبرية هي (حبلون) وقد يكون هنا: خطأ مطبعي فنقبله (هبل) فأين «الليه» بمعنى الله.

(×٣) عمرو بن لحي وخطأه في موقع جلب هبل علق عليه في فقرات سابقة ولا أدري ايعتبر هذا التخبط «انزلاقا» كما يحلو لبعض أهل الذوق أن يلقوا اللوم والعذل والعتاب لبعض المستشرقين المتخبطين أو عليهم.

(×٤) عبادة هبل وغيره ليس لها مبادىء بل هي طقوس لا علاقة لها بالدين بل كانوا يهدون إليها وعليها أو عندها يذبحون، ويطوفون حولها.

المنحوتة لم تزل قائمة. ويمكن ملاحظة ذلك في منسكين من مناسك الحج: هما العمرة أو الحج الأصغر، ثم الحج الأكبر(×١) وأولهما يرتبط بعبادة مكة القديمة. أما الحج الأكبر فقد بين « ولهاوزن » بأنه لا يمت لمكة بأي صلة(×٢) على الرغم بأنه يجري في جوار مكة.

فالعمرة هي زيارة الكعبة ورابيتَّي الصفا والمروة. ولقد وصف ذلك أ. ج. ب ويفل « A.J.B.Wavell » في حجته سنة ١٩٠٨م. فهو يبدأ وصفه: لجأنا إلى أحد المطوفين ليقودنا في المناسك الضرورية، وكان أولها الطواف سبع مرات حول الكعبة مبتدئين من طرف المربع إلى حافة الرصيف المنخفض(×٣) فمسكنا بعضنا بعضا بيد المطوف وبدأت الطواف مع الجماعات حول الكعبة وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر في حمارة الصيف في أشد ساعات النهار حرارة وكانت ساحة المسجد الحرام شبه خالية، ومع ذلك لم يكن الطائفون أقل من الف حاج. فالمعروف أن الطواف لا يتوقف ليلا أو نهارا طول السنة. ولم يصدف أن وجد مهجورا، والمعروف أن الطواف (كما هو اسم هذه العملية) يجلب البركات والسعادة لمن رزقه الله أن يؤدي هذه الشعيرة منفردا.

كنا نهرول أحيانا ونمشي أحيانا حتى أكملنا سبع دورات ونحن نردد أدعية وصلوات معينة خلف دليلنا. وفي اخرها كان علينا أن نقبل «الحجر الأسود» المشهور. وهو حجر

(×١) فمن حج البيت أو اعتمر «توضح أن الحج هو أداء فريضة الحج كلها عند البيت وخارج الحرم في عرفات ومزدلفة ومنى والطواف والسعي والتقصير وإذا حدث أن كان الوقوف بعرفة يوم جمعة يسمى الحج حجا أكبر» وأما القيام بمناسك الطواف والسعي والتقصير فحسب (داخل منطقة الحرم) فهو العمرة ويسميها الناس تبركا ـ نصف حجة أو «حجا أصغر» والجزاء بعد القبول من الله.

(×٢) (رأى ولهاوزن) خطأ لأن العمرة وحدها أو الحاج الكامل لا تتم إلا في مكة في المراحل الأولى إذ يمكن أن يقوم المسلم بالعمرة وحدها. ولا يقوم بالمبيت في عرفة أو المزدلفة أو منى أو الذبح وحدها. ويسمى ذلك حجا، فهناك حج كامل يشمل العمرة، أو عمرة وحدها. ولا شيء غير ذلك وإنما يعتبر ذلك من قبيل الزيارة أو التبرك فحسب.

(×٣) لا يوجد بلاط منخفض اليوم ولا حرارة، فالساحات على أحسن طراز والتبريد موجود بعدة وسائل.

مبني على زاوية على ارتفاع أربعة أقدام عن الأرض. في مكان مجوف من الجدار الأسود وقد لاحظت أن الفجوة محاطة بإطار سميك من الفضة، وما ظهر منها متآكل من كثرة تقبيل الاتقياء..

«ثم صلينا ركعتين» وغادرنا الحرم لنقوم بشعيرة «السعي» بين الصفا والمروة وهما تلتان صغيرتان تبتعدان عن بعضهما البعض مسافة ٣٠٠ ياردة تقريبا. ويكاد يكون المسعى موازيا للجانب الشرقي من الحرم، والطريق بينهما تخترق الشارع المجاور. وقطعنا الطريق ذهابا وإيابا مشيا، مع الهرولة في جزء منها، حسب التعليمات، ونحن نردد دعاءً خاصا طول مدة الأشواط. وهي ثلاثة أدعية من أجلها يطلب الدليل لأنه يحفظها غيبا، موفرا على الحاج قراءتها من كتاب، أو محاولة استظهارها وهو شيء فوق طاقته[1].

مما تقدم يلاحظ أن الشعائر كانت تتركز حول الحجر الذي في الكعبة أو التلتين (حجارة؟) ـ الصفا والمروة ـ وربما كانت من الأنصاب التي يتقرب إليها في مكة(١×). وبهذه المناسبة لا بد من ملاحظة (اية ٣ سورة ١٠٦) التي تنص ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ وأن المقصود هم قريش(٢×) وقد غير محمد(٣×) في الطواف كما نعرف فمنع الطواف دون لباس، وأن ذلك كما يبدو كان يقوم به «العرب قبل الإسلام» عرب الجاهلية وهم يصفقون ويزعقون ويغنون، ولعل ذلك ما توحي إليه اشارة الاحتقار لكفار قريش «وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» ويذكرنا ذلك بتساؤل ـ (طالوت) الذي كان يتنبأ وهو عار (١: صموئيل ١٩:٢٤) أما داوود فكان «يرقص ويغني أمام الرب» وكذلك أمام تابوت العهد عندما جيء به إلى القدس (١ :صمـو: ٦:١٦) وكان للكعبة خدم من عشيرة الحمس»(٤×) يسمونهم «السدنة» أي الحرس والحجاب «وهم ليسوا من الكهنة كما يتبادر إلى الذهن [وقد سمى محمد منطقة الحرم المقدسة باسم «المسجد» وهذا تحويل واضح للكلمة الارامية «مسجدا» التي تعني ضمنا مكان العبادة»(٥×)].

(١×) لم أجد ما يدل على أنهما كانتا من النصب مثل أساف ونائل وغيرها.

(٢×) الدعوة إلى عبادة رب هذا البيت في سورة قريش ـ ليست خاصة بقريش بل لكل الناس لأن المعنى القراني يؤخذ على اطلاقه ولو كان مخصصا بشيء معين عند نزول الايات أصلا. فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(٣×) محمد ﷺ: لم يغير أو يعدل.

(٤×) الحمس: ليسو عشيرة بل هم أهل الحرم من قريش خاصة وكانوا لا يعظمون إلا المسجد الحرام ولا يقومون باعمال كثيرة ما داموا في الأشهر الحرم. وقد انتهى هذا النظام بأمر الرسول ﷺ.

(٥×) «مسجد» العربية هي نفس «مسجدا» الارامية ـ وكانت الكلمات تكتب دون حروف علة أو حركات =

يتميز الحج من العمرة بأنه غير مرتبط مباشرة بالكعبة أو مكة(×١) على الرغم من أن المرحلة الأولى منه هي «العمرة» ويتم «الحج» عادة في اليومين التاسع والعاشر من ذي الحجة مرة في السنة. حيث يقضي الحاج اليوم الأول بعيدا عن «الحرم» بالوقوف بعرفة وانارة الأضواء في «الحل» وكلها أماكن خارج الحرم (×٢). وليس لقريش أو الحمس آية امتيازات خاصة، بل هم مثل سائر الحجاج (يفيضون من حيث أفاض الناس) وهناك دعاء خاص بعرفات لم يكن قبل الإسلام غالبا. ويثير الحجاج ضجة وهم يصرخون «لبيك» ويكررونها. وهي كلمة حيرت علماء اللغة، ويبدو أن معناها «في طاعتك» ثم يسيرون إلى «مزدلفة» التي تعتبر ضمن منطقة الحرم، وهنا يشاركهم من لم يحج من قريش والحمس وهناك ينام الحجاج ويتحركون إلى منى قبل شروق الشمس. ويتم خلال ذلك «رمي الجمار» على أكوام معينة من الحجارة في الطريق، وفي منى تقدم الاضاحي. وبهذه العملية ينتهي الحج(×٣). ويتحلل الحجاج من ملابس الإحرام ويقصرون شعرهم.

الحج أحد أركان الإسلام الخمسة ولا ينقضي بزيارة مكة والكعبة. ولا يتم إلا في يومي التاسع والعاشر من ذي الحجة من كل سنة(×٤)، ولا شك في أن هذه المناسك هي التي اشار اليها... إبيفانيوس[٢] بقوله «حجة البيت» ولو أن هذه التسمية ليست(×٥) دقيقة تماما لأن زيارة «بيت الله» ليست جزءا من مناسك الحج التي تتركز في عرفات ومنى ومزدلفة. يأتي ذو الحجة متعاقبا في كل الفصول لأنه شهر قمري. وقد صدف أنه جاء في الأيام الأولى لبعثة محمد في فصل الخريف في وقت عيد (أو حج) الاسرائيليين والذي كان

= ويمكن لفظها حسبما يتطلب المعنى والمقام. فمسجدا: تعني مكان السجود ولا غرابة في ذلك فاللغتان من أم واحدة هي العربية غالبا وإن كانت الآرامية مستعملة بشكل خاص مع العربية في الهلال الخصيب حتى مجيء الاسلام.

(×١) الحج يخرج في مجموعه من الكعبة ومكة إلى غير الحرم بعكس العمرة التي تنتهي في مكة.

(×٢) الحرم: منطقة البيت وما حوله في مكة.
والحل: خارج الحرم وفيه بقية المناسك من عرفة ومزدلفة ومنى الخ.

(×٣) لا ينتهي الحج بالذبح بل هناك طواف الإفاضة والمبيت بمنى يومين أو ثلاثة ثم طواف الوداع.

(×٤) نكرر ملاحظتنا السابقة بأن أداء هذه المناسك عرفات ومزدلفة ومنى لا يعمل حجا دون المرحلة الأولى وهي العمرة التي تتكون من الطواف والسعي ـ ولذلك فإن على الحاج الذي حج مفردا أن يأتي بالسعي قبل طواف الإفاضة أو الوداع أو بعدهما المهم أن يكمل مناسك العمرة وأعمالها ضمن فترةحجه من نفس العام.

(×٥) لم يكن ابيفانيوس مخطئا عندما سمى العملية كلها «حجة البيت» لأن من أركان الإسلام الخمس حج البيت من استطاع إليه سبيلا. راجع ما سبق.

يقام في فصل الخريف عادة باسم «عيد العرش» « Feast Tabernacles » وهو عيد تحتفل به المجتمعات السامية الأخرى في الخريف أيضا. وقد تجنب محمد وهو ينظم أوقات الصلاة بكل عناية، أن لا يجعل لطلوع الشمس وغروبها علاقة بأوقات الصلاة فلا توجد صلاة للغروب أو صلاة للشروق بل قبلها أو بعدها حتى لا يتجه اتباعه نحو عبادة الشمس، أو حتى لا يقال أنهم يعبدون الشمس. ومثل ذلك ربما كان الحافز في النفرة من عرفات إلى مزدلفة بعد غروب الشمس بقليل والسير نحو منى قبل شروق الشمس بقليل فلعل هذه التحركات كانت قبل الاسلام مع غروب الشمس ومع شروقها. وإن كان الحج شمسيا(×١) في أساسه. وأن الاحتفاظ بهذه العبادة، مع بعض التعديلات احتفالا به في الاسلام ليست أكثر غرابة من مراعاة عيد الربيع الذي كان قبل الإسرائيليين وإبقائه قائما في الشريعة الموسوية باسم عيد الفطير أو عيد الفصح لدى الكنيسة النصرانية(×٢). أما رمي الجمار فهو طقس يدل على التطهر من الذنوب والتحلل من الشرور والآثام فله ما يقابله في كثير من احتفالات البدائيين: وقد فسره المسلمون في الحديث بأنه رجم للشيطان ومنه الاشارة المتكررة «الشيطان الرجيم».

هـ ـ وأد البنات:

كان وأد البنات عادة من عادات الوثنية في الجاهلية. وقد استأثرت هذه العادة باهتمام كبير في أخبار العرب، وكانت تعني قتل الطفلة الأنثى بدفنها حية. ونحن مدفوعون لنصدق أن هذه العادة التي تعافها النفس قد سادت إلى أن قضى عليها محمد. وقد أشار القران في ثلاثة مواضع إلى قتل الأولاد بسبب الفقر. ﴿قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم﴾ (سورة ٦ ـ ١٤٠) ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ﴾ (١٧-٣١) و﴿ولا تقتلوا أولادكم من املاق، نحن نرزقكم واياهم﴾ (١٦ ـ ١٥١). واية أخرى تؤنب العربي بشدة لموقفه العدائي لولادة الأنثى ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على

(×١) لا يكون الحج شمسيا إذا راعينا شمس يوم الحج. وإنما يكون شمسيا لو حافظنا على موقعه الثابت من فصول السنة الشمسية.

(×٢) عيد الفطير أو عيد الفصح ـ النصراني ـ ليسا عيدين لما قبل الدين الموسوي، بل هما من بقايا الأعياد المصرية ـ لأن عيد الربيع عند المصريين ـ في أول نيسان هو المسمى: عيد شم النسيم أو عيد (الفسيخ) الذي لا يزال المصريون كلهم يحتفلون به كعيد شعبي دون النظر إلى خلفيته الدينية. ولا ننسى أن موسى عليه السلام كان ضابطا مصريا في أول حياته خرج بأتباعه ليحتل لهم مكانا في أرض كنعان الخ القصة ـ واحتفظ بأعياد بلده السابقة القومية.

هون أم يدسه في التراب، ألا ساء ما يحكمون﴾ (سورة ١٦، آية ٥٨، ٥٩).

قد يبدو مقبولاً احتمال وأد البنات في قبائل الصحراء الذين لا يكادون يحصلون في أحسن الحالات على ما يقيم أودهم في وسط لا ينعم به بالحياة إلا الشديد الصناع: ولكن هذه الآيات لا تعطينا مبرراً لأن نعتبر وأد البنات شعيرة دينية عادية. وهناك آيتان أخريان في القرآن توحيان بشيء عظيم: ﴿وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت...﴾ جاء هذا التعبير وسط ﴿وإذا الوحوش حشرت، وإذا البحار سجرت.... وإذا الصحف نشرت وإذا السماء كشطت﴾... ويبقى السؤال قائماً. هل نأخذ المعنى الحرفي للجملة في وسط عبارة مصوغة بأسلوب شعري رفيع(×١). وقد قرر المفسرون أن وأد البنات كان من الشعائر القائمة في العصر الجاهلي، ومن المعروف أن «عمر» بكى وهو يئد طفلة. وأن صعصعة أنقذ[1] ١٨٠ بنتاً من الوأد وأن محمدا أقنع نساء مكة بأن يعدنه بالتوقف عن تلك العادة[2]. وانها كانت في فترة ما، جماعية[3]. وقد هاجم الأصفهاني هذه المعلومات المذكورة المؤكدة. وقد هاجمها بكل قوة وقال أن الذي ابتدع وأد البنات هو قيس بن عاصم «أحد السادة»(×٢) وكان معاصراً لمحمد وأن هذه العادة لم تكن منتشرة عند العرب وأنها بدعة جديدة.

وهكذا وكما تروي المصادر العربية(×٣) فإننا لم نصل إلا للقليل من المعلومات ذات القيمة حول الديانة العربية قبل الإسلام فكان لديهم القرآن كما هو لدينا، فقاموا بالحدس في فهم معانيه دون مساعدة من الحديث سوى الأفكار التخمينية لما جاء في القرآن. ولما بدأ جمع الحديث كانت أيام الجاهلية في زوايا النسيان وغير مألوفة.

كانت المعلومات التي توصلنا إليها عن ديانة العرب في الجاهلية مختصرة وغير مؤكدة ولكنها كافية لتقودنا إلى الحدس بأن التأثير الأجنبي(×٤) كان ملموسا خصوصا في

(×١) الأسلوب الذي يشير إليه هو إعجاز القرآن الذي تحدى بلاغة العرب وهو كلام الله سبحانه وتعالى لأن محمدا كان كما وصفه الله: «وما علمناه الشعر وما ينبغي له» و«ماهو بقول شاعر».

(×٢) قيس بن عاصم أول من وأد البنات أسلم سنة ٩هـ وتوفي سنة ٢٠هـ. وهو سيد بني تميم.

(×٣) ما ذكرته المصادر العربية تأييدا لما جاء في القرآن فيه الكثير عن ديانة الجاهلية.

(×٤) العرب أهل حكم وادارة وسياسة قبل أن يعرف التاريخ شيئاً اسمه هلينية أو رومانية. فروما لم تظهر قبل منتصف القرن الثامن قبل الميلاد وكذلك كانت الوحدة اليونانية في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ثم ظهرت الهلينية في القرن (٤)ق. م مع الاسكندر. هوميروس اليوناني ولد (٨٥٠ق.م) ويشير القرآن إلى بينيلوب زوجة يوليسيز أو أوديسوس بطل قصيدة هوميروس (الأوديسا) في قوله تعالى ﴿كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا﴾. أما العرب فكان لهم حضارة عمرانية وزراعية وسدود وتنظيم الفيضانات في العراق وجنوب الجزيرة العربية وسوريا ومصر، =

تجسيد الأشياء المعبودة وإدخال التماثيل المحفورة (الاصنام) قبل محمد بأيام طويلة(١×). وهذا يوحي بشكل قوي أن الاتصالات الأجنبية التي تعرضنا إليها في الفصول الاولى لم تكن اتصالات عن طريق التجارة والغزو فحسب، بل كانت ذات أثر مباشر على حياة العرب وفكرهم تؤكد أنهم لم يكونوا معزولين أو لم تصل إليهم اليد كما كان يظن دائما.

= وتعدين في سيناء، وملاحة في البحر الأحمر وخليج فارس والمحيط الهندي يؤكد ذلك النقوش الأكدية والسومرية والاشورية قبل ٢٥٠٠ قبل الميلاد في القطر البحري (لاجاش) وبلقيس وارثة حضارة سبأ واليمن قبل داود وسليمان. وأهل عمون (عمان) ومؤاب، وأدوم. والعرب هم الذين احتلوا الحبشة في القرون الأولى وأعطوها لغتهم وأسماء مدنهم مثل سبأ. وأن العرب هم الذين غزوا مصر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد وحكموها بأسمائهم العربية وبتوحيدهم قبل موسى بخمسماية عام، وأن التوراة التي تعتبر الآن كتاب تاريخ أكثر منها كتاب عبادة بعد أن كثرت النقوش التي تتوالى اكتشافاتها، تشير إلى أنبياء الله الصالحين أمثال ابراهيم ولوط وصالح وهود وشعيب وأيوب واسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف وكل هؤلاء عرب حتى نوح عربي وسفينته في العراق. انظر **Hall. Ancient History of The Middle East**.

(١×) هنا تناقض عن زمن الأصنام في هذا الفصل (١١) يقول بوقت قريب من محمد. ثم يقول في نهاية الفصل نفسه أن الأصنام دخلت الجزيرة قبل محمد بأيام طويلة.

ملاحظات الفصل الحادي عشر

ب ـ أدلة محتملة من الدين:

١ ـ رزلي: «إحصاء الهند (١٩٠١) ١ و١ و٣٥٢ وما بعدها كلكتا ١٩٠٣.
٢ ـ وردي فاولر «الخبرة الدينية للشعب الروماني (١٩١١) ١٥٧ ـ ١٦٤. في دوما سزفسكي دراسات في الديانة الرومانية ١٥٥ وما بعدها.

ج ـ الهة بلاد العرب:

١ ـ العزى (= العزيز؟)
٢ ـ عشتار العرب أي العزى التي كان يعبدها العرب ويقدمون لها القرابين، نيلوس: في «التعاليم والإنجازات اليونانية» ٧٩ و٦١٢.
٣ ـ القران سورة ٥٣: اية ١٩ ـ ٢٠.
٤ ـ هيرودوتس ١ و١٣١، ٣ و٨.
٥ ـ نقوش القرن الأول في سردينيا: مجموعة النقوش السامية: ١ و١٤٩، كوك: النقوش السامية الشمالية: ٠ ص١٥٨.
٦ ـ نقش ٤٧م في بضطرا ١٥٨، الان في متحف اللوفر المجموعة السامية ٢ و١٧٠، كوك ٩٨.
٧ ـ نقش ٦٥م في صلخد المجموعة السامية ٢ و١٨٢، كوك، النقوش السامية الشمالية ٩٩.
٨ ـ كوك ـ النقوش السامية الشمالية، ١١٧ سطر٦.
٩ ـ هيسيكيــوس: كان الانباط يعبدون «ذو الشرى» مثل ديورينسيوس.
١٠ـ ت. ب: د. عبودا زرعه ١١ب.
١١ـ القران سورة ٥٣ اية ١٩ ـ ٢٠.
١٢ـ منوتن كوك: النقوش السامية الشمالية ٧٩ سطر (٥).
١٣ـ قابل أشعيا ٦٥ و١١.
١٤ـ القران سورة ٧١ آية ٢٢ـ٢٣.
١٥ـ ياقوت ٣ و٢٦١.
١٦ـ لوصف الحجر راجع: فنسنت: كنعان ٩٦ وما بعدها، ١٠٢ وما بعدها.
١٧ـ تك: ١١: ٢٨ الخ، ١٢ : ١٤ وما بعدها.
١٨ـ كليمنت الكسندر: بروتربب ٤ و٤٦.

١٩ـ اللات: ياقوت ٤: ٢٣٥. القزويني ٢ و٦٥، ملكارث (ملك الآرمن) في هيرودوتس ٣ و٤٤. عشتارت في تاسيتس «التاريخ» ٢ و٢.
٢٠ـ ابن هشام: ٢٧ ط. مصر.
٢١ـ نفسه ٢٨.
٢٢ـ قابل كوك ٨٠، المجموعة السادسة ٢ و١٩٨، نقش السنة الأولى ق. م أو بعد الميلاد في الحجر سطر ٨ هـ ب ل ن (هبلن). «هبلن».

د ـ الحج:

١ ـ ويفل: حاج عصري في مكة. ١٣٢ـ١٣٣
٢ ـ ابيفانيوس: الوارثون ٥١ و٢٤.

هـ ـ وأد البنات:

١ ـ الكامل ص: ٦٧٩.
٢ ـ ابن الأثير ١١ : ١٠٥ طبعة بولاق.
٣ ـ الميداني في فريتاج مجمع الأمثال ٢ : ١٦.

الفصل الثاني عشر

ـ بداية البعثة النبوية ـ

أ ـ الوضع السياسي لآسيا الغربية عشية قيام البعثة النبوية:

كان العامل الأساس في سياسة ما نسميه الآن بالشرق الأدنى ولعدة قرون قبل ظهور الاسلام هو الحرب الدائمة بين امبراطوريتي فارس وبيزنطة التي جرت أحداثها فوق أرض جزيرة العرب . فقد كانت منتوجات الهند وما وراءها من البلاد الآسيوية، وحتى منتوجات بلاد العرب نفسها شيئاً هاماً لبيزنطة. فاستغلت فارس هذا السلاح سلاح الضغط الإقتصادي، وحاولت أن تسيطر بقوة على بلاد العرب وبخاصة على جنوب الجزيرة التي كانت تشكل نقطة الضعف الظاهرة في الطوق الإقتصادي المضروب لقطع المنتوجات الشرقية عن أسواق بيزنطة.

حاول كسرى أنوشروان (٥٣١ ـ ٥٧٩م) أن يغزو بيزنطة سنة ٥٤٠م، ولكن جستنيان تصالح معه. ولم يكن عقد الصلح، كما كان يحدث غالباً، مقبولاً لعرب الحدود، فقد عدا الملك خالد الغساني على دولة المنذر في الحيرة فتقدم كسرى باحتجاج رسمي لامبراطور بيزنطة، ولم يتلق جوابا عليه. فقام بغزو الامبراطورية البيزنطية ونهب حمص وحلب وغيرهما من المدن، وهدد بالتوغل في سوريا، فطلب البيزنطيون الصلح، فتم ذلك على شرط أن يحتفظ كسرى بالمدن التي وقعت في قبضته. ونتيجة لهذه الحملة فقد أسر الفرس عددا كبيرا من اليونان، كان بينهم الكثير من المهندسين والصناع المهرة ممن كانت فارس تسعى إلى الحصول عليهم ـ فقد كان كسرى، على الرغم من محاربته لبيزنطة، من المعجبين المتحمسين للحضارة اليونانية. وعمل أقصى ما في وسعه لإدخال العلوم والفنون اليونانية إلى بلاد فارس. وقد ذكر «لاند Land» في كتابه «حكايات سريانية» (جزء٤ ص١ ـ ٣٠) وهو ترجمة لمنطق أرسطوطاليس قام بها بولص البصري بطريرك «نصيبين» وأهداه إلى كسرى اعترافا باهتمام ملك الملوك بالفلسفة اليونانية وقد أظهر كسرى إضافة لتشيعه اليوناني عطفا ظاهرا على النصارى، مرده بالدرجة الأولى، إلى قيام القساوسة النصارى بأعمال المداواة في البلاط، وما تبع ذلك من أثر في أوساط الحريم هناك. ولكن ذلك توقف سنة ٥٥١م عندما اعتنق الأمير «أنوش أزاد» ابن الملك النصرانية، فنفاه الملك إلى «بيت لايان» حيث استغل بعده عن العاصمة ليقوم بثورة استهدفت اجزاء كثيرة وسببت قلقا شديدا لكسرى الذي عزم على إخمادها بالقوة، ولكنه بناء على النصائح المبذولة، عهد بالمسألة إلى الأسقف (مارابا Maraba) الذي تمكن من اقناع الثوار بالتي هي أحسن لإلقاء

السلاح. ولعل ثورة «أنوش آزاد» كانت على الأغلب تظاهرة نصرانية، كشفت عن قوة النصرانية الجبارة في الدولة، وأنها تميل في مظهرها السياسي نحو البيزنطيين. وإلى هنا كانت الكنيسة النسطورية هي المسيطرة. ولكن المؤامرات التي كانت تحاك في البلاط من قبل القساوسة (المونوفيزيين) رفعت هؤلاء إلى المرتبة الأولى بين نصارى فارس[1] وعلى الرغم من الاعتقاد بأنهم ضد البلاط البيزنطي، فقد كانوا أكثر ارتباطا باليونانية في طبائعهم وميولهم من النساطرة المستشرقين. فكانت بلاد فارس زمن كسرى متفوقة على بيزنطة سياسيا، ولكن الغزو السلمي للثقافة اليونانية قوض الحضارة الفارسية من أركانها.

لم تستطع أية هدنة رسمية أن تقضي ولو مؤقتا على المنافسة، وبشكل خاص المنافسة الإقتصادية بين فارس وبيزنطة في جنوب الجزيرة حيث كانت الحبشة متحالفة مع بيزنطة. وقد غزت الحبشة بلاد اليمن واستعمرتها سنة ٥٢٢ دون أن تحاول التوغل أكثر من ذلك نحو الداخل. وقابلها العرب بالكره والنقمة، وكانوا دائما وكلما كان لهم مصلحة، يضربون الفرس بالأحباش. وقام كسرى حوالي سنة ٥٧٠(١×) ميلادية بارسال حملة إلى اليمن تلبية لدعوة من زعماء اليمن حيث طردوا الأحباش وسيطروا على اليمن[2]. وتبدو القصة كما وصفتها الاخبار محتملة من جميع الوجوه.

ولما مات كسرى سنة ٥٧٩ تولى مكانه ابنه هرمز (٥٧٩ ـ ٥٩٠) وسار على سياسة والده. وقد قام قائده بهرام بثورة ونادى بكسرى أبرويز (ولي العهد) ملكا على فارس، وخلع هرمز سنة (٥٩٠م). ولم يمض طويل وقت حتى اكتشف بهرام أنه كان على خطأ: فقد استغله أبرويز حتى وطد ملكه، ثم مال على بهرام بسبب الثورة التي قادها، واتهمه بالخيانة. ولكن بهرام كان مدعوما من الجيش، فهرب كسرى أبرويز ولجأ إلى سوريا والتمس النجدة من الامبراطور «موريس» في بيزنطة، ولم يتوان الأخير عن ارسال قوة بيزنطية مع «أبرويز» قضت على الثورة وثبتت كسرى على عرش فارس. وهكذا صارت فارس مدينة لبيزنطة فترة ما، وأصبح «ملك الأملاك»(٢×) يعتمد على المساعدة البيزنطية.

(١×) التاريخ هو ٥٧٥م ـ متفق عليه. لأن ملوك الحبش في اليمن كانوا أبرهة وقد مات متأثرا بما أصابه من أمراض بعد عام الفيل سنة ٥٧٠م ثم ابنه يكسوم وبعده أخوه مسروق وفي زمنه زالت مملكة الأحباش من اليمن لصالح سيف بن ذي يزن وكان ذلك كما ذكر سنة ٥٧٥ قبل موت كسرى سنة ٥٧٩م.

(٢×) هكذا سماه الخليفة عمر (رضي الله عنه) عندما وصله تاج آخر كسرى بعد سقوط بلاد الفرس. وكان اسمه يزدجرد وجعل التاج على رأس سراقة بن مالك المدلجي وقال له قل «الحمد لله الذي

ولم تدم هذه العلاقة نتجية لظروف طارئة. فقد قام الجيش البيزنطي سنة ٦٠٢م بانقلاب على الامبراطور موريس فخلعه من الحكم وعين «فوكاس» امبراطورا. فقرر كسرى أبرويز أن ينتقم لحليفه موريس وأعلن الحرب رسميا على بيزنطة سنة ٦٠٤م وتمكن من فتح حصن ايديسا الحصين سنة ٦٠٩م. واستمر الغزو دون توقف مدة عشر سنين أخرى، إذ لم يستطع الامبراطور «هرقل» الذي جاء بعد «فوكاس» سنة ٦١٠ من اظهار أية مقاومة تذكر، فتقدم الفرس سنة ٦١١ نحو سوريا ووصلوا دمشق سنة ٦١٣. وفي سنة ٦١٤ أخضعوا فلسطين واستولوا على بقايا الصليب الأصلي الذي كان محفوظا في الباسيليقا هناك وفي سنة ٦١٦م غزوا مصرا وآسيا الصغرى، وتمكن هرقل بعد جهد من تجميع قوة كافية سيطر بها على الميدان سنة ٦٢١م وتمكن في السنة التالية ـ سنة الهجرة المحمدية من مكة إلى المدينة ـ من تحرير آسيا الصغرى وقاد حملة سنة ٦٢٣ استمرت ثلاث سنوات عبر فيها بلاد أرمينيا ليغزو فارس من الخلف، وأجبر كسرى أبرويز على سحب قواته. وتمكن البيزنطيون من الاستيلاء على المدينة الملكية «دستجرد Dastgerd»(×١). وقد لاقى الفرس كثيرا من المصاعب في سبيل تحرير تلك المنطقة. كان العرب يتابعون هذه الحرب باهتمام شديد، وكان محمد واضح التشيع لليونان، وهو في هذا يعكس نقمة مكة، ويظهر سروره لانتصار هرقل على الفرس.[٢]

كانت عواقب (٦٢٣ ـ ٦٢٥) سيئة جدا على كسرى أبرويز الذي صب جام غضبه على النصارى الذين اعتبرهم، ولعله كان على حق، ميالين بشكل ودي إلى اعدائه. ومن الذين نالهم أذاه «يزدين Yazdin» الغني الكبير ملتزم الايرادات ـ فالنصارى الذين تعلموا في اليونان لم يكتفوا بالمراكز العلمية في الطب والهندسة بل تجاوزوا ذلك إلى الحلول في المناصب العالية في الخدمة المدنية. ولعل الملك كان يرنو إلى الثروة الهائلة التي جمعها «يزدين» بطرق وأساليب تثير الشك. ومهما يكن الهدف فقد أعدم «يزدين» وصودرت ثروته. فثار ابناه ونصبا الامير شيروبه ملكا، وتم عزل كسرى أبرويز وإعدامه وصار شيروبه أو قباذ الثاني ملكا سنة ٦٢٨م. ولا بد أن هناك دوافع أقوى ادت إلى هذه الثورة: منها

نزع تاج كسرى ملك الأملاك من رأسه ووضعه في رأس أعرابي من بني مدلج، وذلك بعز الإسلام وبركته لا بقوتنا..» وأملاك جمع ملك مثل ملوك وهي الترجمة العربية لكلمة «شاهنشاه»، سيرة بن هشام:جـ:١ هامش ص٥٥، والفيروز آبادي.وهو يزدجرد الثاني قتل بمرو من بلاد خراسان سنة ٣٢هـ في خلافة عثمان بن عفان ـ التنبيه والإشراف ص(٩٠) المسعودي.

(×١) دستجرد مدينة على نهر ديالي وعلى بعد ٩١كم عن بغداد، خربها هرقل في حملته على الفرس. وأجهز عليها العرب الفاتحون. وآثارها معروفة باسم «اسكي بغداد»: المنجد في الادب والعلوم.

حملات أبرويز الظافرة، المليئة بالأمجاد فعلا والتي سببت زيادة في أعباء الدولة، ودفعت بالشعب إلى الانقلاب عليه عندما تحولت الانتصارات إلى هزيمة وتعاسة. أما النصرانية فكانت في ذلك الوقت أكثر من جماعة قوية في بلاد فارس، بل كان النصارى متحالفين فعلا مع قوة الإسلام الصاعدة من معقلهم الفعلي في الحيرة[٤].

واحتفل شيرويه بتوليه العرش بأن قطع اليد اليمنى لكل من ابني «يزدين» ورماهما في السجن، ولكنه مرض بعد ثمانية أشهر من توليه الحكم ومات. فتبعه أردشير وكان غلاما فعزل فورا لعدم كفاءته، وجاء بعده «شهربراز» حفيد كسرى ابرويز ولكنه لم يكن في التسلسل الملكي الصريح فلم يوافق عليه بالإجماع لأن القيمة الفعلية للملك الفارسي تأتي بشكل رئيسي من تسلسله الشرعي حتي يمكن للروح الملكية أن تتقمص فيه.

استغل الفرصة أحد النبلاء الفرس وكان في خدمة الجيش في بيزنطة واسمه «فروخان Farrukhan» وتجهز بقوة بيزنطية ضاربة دخلت فارس واحتلت سلوقيا، وأعدم ابني «يزدين» اللذين كانا مسجونين هناك. واتخذ التاج بصفته طالب ثأر لاغتيال كسرى أبرويز. ووعد أن يكافيء المساعدة البيزنطية باعادة الصليب الأصلي. ولكنه قتل بعد أربعين يوما، ورماه حرسه للجماهير التي قطعته إربا إربا، لأنه خالف التقاليد الفارسية مرتين فهو مغتصب للعرش، وليس فيه دم ملكي.

انتقل التاج بعد موت «فروخان» سنة ٦٣٠ إلى بوران أو باراندوخت شقيقة شهريار التي صالحت البيزنطيين واشتهرت باعادة الصليب إليهم، لأن فروخان مات قبل أن يعيده.

ماتت بوران سنة ٦٣١م وخلفها ما لايقل عن ستة سلاطين في فترة وجيزة، يرفعهم الحرس إلى عرش الملك ثم يخلعهم بعد قليل بعد أن يجد فيهم عدم الصلاحية، وأصبحت البلاد في شبه فوضى، وكان ذلك نذيرا بزوال الأسرة الملكية الساسانية الحاكمة، وتعليلا لسقوطها المفاجيء أمام هجمات المسلمين. وكان من هؤلاء الحكام الذين لم تطل فترة حكمهم: «خوشنساد» حكم شهرا ثم تبعته «أزرنودوخت» شقيقة «بوران» التي تبعها بعد قليل كسرى الذي تم اعدامه، وجاء بعده «كسرى خورزاد» شقيق شهريار الذي عزل ثم اعدم: وجاء فيروز الذي تم عزله أثناء مراسم التتويج لأنه تفوه بكلام اعتبر فالا سيئا ومشؤوما. وقد مضت فترة من المصاعب لايجاد أمير من السلالة الملكية حتى جاء يزدجرد الثاني من نسل كسرى أنوشروان، وكان يبدو أنه رجل لديه سمات القوة، ولكن ذلك لم يكن لينفعه إذ كان الساسانيون آخذون في الزوال بعد أن لم يتمكنوا من الخروج من

المصائب التي خلفها لهم كسرى أبرويز. بل كان حظ يزدجرد أن يكون هو الذي عليه أن يقاوم المد الإسلامي وأن يقاسي الهزيمة على يد العرب، وأن يعيش بقية عمره في مقاطعة خراسان البعيدة النائية. وهكذا ينتهي الصراع الفارسي البيزنطي بسقوط دولة الفرس أمام قوة ثالثة هي الخلافة الإسلامية الحديثة.

ب ـ مصادر عن حياة النبي:

يعتبر من الأهمية بمكان تقييم المعلومات التاريخية المتيسرة عن حياة «محمد» والتي كنا نشير إليها في أحيان كثيرة، وكنا نتوقع أن نكون من خلالها فكرة عن بلاد العرب كما وجدها «محمد» قائمة عند بعثته.

تعتبر «السيرة النبوية» التي ألفها أبو عبد الله محمد بن اسحق أهم مصادر المعلومات عن حياة النبي محمد. وقد توفي ابن اسحق ١٥٠ ـ ١٥١هـ أو ١٥٢هـ =٧٦٧م وهو حفيد يسار الذي أسر سنة ١٢هـ. في كنيسة «عين التمر» (٦٣٣م) في العراق وأصبح من موالي قبيلة عبد الله بن قيس(×١). وقد ولد وتعلم في المدينة، حيث عاصر القاضي مالك بن أنس أول من جمع الحديث، ومؤسس مدرسة فقهية (مذهب).وكان ابن اسحق من جامعي الحديث وكرس نفسه لتلك الأحاديث التي تصف حياة الرسول الخاصة، أي ان اهتمامه كان منصبا على موضوع كان موضع عناية العلماء في ذلك الزمان والمكان وإن لم تكن دراسة الحديث قد تطورت بعد بالشكل والمنهج اللذين وصلت إليهما بعد جيلين من الزمان وكان إمام مدرسة نقد الحديث الإمام مالك بن أنس الذي لم يتفق مع ابن اسحق واتهمه بأنه شيعي، أي «مهرطق»(×٢) وأنه يختلق الاساطير. ونتيجة لهذا الاختلاف، ترك ابن اسحق المدينة إلى مصر، ومنها إلى العراق. حيث كان أحد العلماء الذين دعاهم الخليفة المنصور (١٣٧ ـ ١٥٩هـ = ٧٥٤ ـ ٧٧٥م) إلى بغداد. وهناك ألف كتابا عن حياة النبي تحت اشراف العباسيين الذين كانوا قد ظهروا للحكم حديثا. وكانت سوريا تحت الاسرة المعزولة، الأمويين. وكان الخلفاء الجدد يخشون افراد الأسرة المعزولة المتسترين، فكانوا يقضون على كل من يقبضون عليه من الأسرة: ويسهل علينا أن نفهم أن هذه الظروف وفي مثل هذا الجو، وتحت حماية البلاط، تجعل الكاتب يقلل من قيمة الأمويين بحق أو بغير حق، ويمجد العباسيين كلما سنحت الفرصة.

(×١) عبدالله بن قيس المطلبي القرشي. وعين التمر قرب الأنبار في العراق.

(×٢) الهرطقة: تهمة خطيرة. ولا يعرف عنه إلا الورع والتقوى وله أخوان عمر وأبو بكر، من رواة الحديث.

وكانت «السيرة» تنبه إلى وجود خلاف متأصل بين أبناء الأسرة الواحدة قريش، بين بطني هاشم، وأمية في مكة زمن النبي الذي هو من بني هاشم الذين كانوا يحبونه ويتعاطفون مع دعوته خلافا لبني أمية الذين كانوا يعارضونه. فكان العباسيون من بني هاشم، وكان الأمويون من الفريق المخالف. لذلك كان هناك دافع سياسي قوي لتشويه سمعة الأمويين ما أمكن ذلك، وتمجيد منافسيهم، وعلينا ان نطرح من اعتبارنا هذا الحافز السياسي الذي يبرز في أكثر من مناسبة.

جمعت سيرة النبي في عملين أو أكثر(×١) هي: ١ ـ كتاب المبتدأ (الفهرست ٩٢) وقد ذكره عدي باسم «مبتدأ الخلق» لابن هشام. تحقيق وستنفيلد ٢:٨ سطر ٢٣ وذكره الحلبي باسم «كتاب المبتدأ وقصص الأنبياء» (الحلبي: السيرة ٢:٢٣٥). ٢ ـ كتاب المغازي ويقال انه موجود في مدرسة «كوبريلي» باستنبول (دفتر رقم ١١٤٠) ولكن تبين أنه نسخة ابن هشام (را: هوروفيتز Mitt der Sem.f.or. Sprach.,X.Westas. Stud., 14) ٣ ـ كتاب «سيرة رسول الله» وقد يكون عملا خاصا، أو أنه يشمل الكتابين المذكورين سابقا. وليس لدينا عن وجود أي أثر من عمل ابن اسحق، وان كان الماوردي (ت ١٠٨٦م) ذكر أنه كان موجودا ويقتبس منه في ذلك الحين.

لقد حفظت «سيرة» ابن اسحق في كتاب منقح لأبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري البصري المشهور عادة بان هشام (ت ٢١٣ أو ٢١٨هـ = ٨٢٨ أو ٨٣٣م) ويعرف كتابه باسم «كتاب سيرة رسول الله» (نشرة وستنجفيلد ـ جوتنجن ١٨٥٨ ـ ١٨٦٠م). وأعيد طبعه في مطبعة بولاق(×٢) ١٢٩٥هـ = ١٨٧٨م. وتسمى عادة «الطبعة المصرية»... وقد ترجمها (ج. وايل شتوتجارت ١٨٦٤). وهي طبعة منقحة تساير الميول الدينية القائمة، فهي مثلا لاتشير إلى تردد الرسول إلى الأصنام كما أشار الطبري نقلا عن ابن اسحق.* ويمكن القول أن سيرة ابن هشام أخذت شكلها الحالي في القرن الرابع

(×١) الكتب المذكورة لابن اسحق حتى المغازي الذي ينسب للواقدي يقال أنه اقتبسه من ابن اسحق قبل أن تصل إليه يد ابن هشام، فقد توفي قبله بحوالي عشر سنوات: الواقدي ٢٠٧، ابن هشام ٢١٨ مقدمة سيرة ابن هشام ٢ص: هـ: تحقيق طه عبد الرؤوف سعد.

(×٢) لابد وأن تكون ترجمة Weil عن الطبعة الأولى وليس عن طبعة ١٢٩٥هـ. بل سنة ١٢٧٧هـ بخطأ مطبعي في الطبعة التي نقل عنها أوليري أو خطأ مطبعي في النسخة الانجليزية فتكون السنة هي ١٨٦٠م. وهو الأصح.

* الطبري: جزء ٢ ص٢٧٩ ط٤ دار المعارف ١٩٧٧، يقول الرسول «ما هممت بشيء كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك» أي لم يقم به وفسره بأنه محاولة الاشتراك في السمر وليس عبادة الأصنام.

الهجري ـ العاشر الميلادي ـ بعد أن راجعها الوزير المغربي. ومن الطبيعي أن تلطف الحوادث أو يحذف بعضها إذا كانت لا تليق بقدر الشخصية الدينية بعد أن تصبح تصرفاته مثلا أعلى بمرور الزمن وبالاحترام الزائد الذي يكنه له أتباعه. ومثل هذا يحدث، وقد حدث في ترجمة حياة القديس «فرانسيس الاسيزي»(×١) في رأي توماس جيلانو مرتين، مقارنة برأي بونافنتوري. ومثلها قصة القديس مارك وقصة القديس ماثيو في الانجيل، أو ما دون عن البابيين أولا وما استقر عليه الرأي في النهاية فما كتب أولاً زال من الذاكرة وأصابه النسيان، وصارت المعلومات في المرة الثالثة هي ما تقرره البابية حتى الأجانب اعتبروها ديانة جديدة.

أما المصدر الرئيسي الثاني عن حياة النبي فهو كتاب «المغازي» لأبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي، المعروف «بالواقدي» (٧٤٧ ـ ٨٢٣م) الذي تعلم في المدينة أيضا والذي دعاه يحيى بن خالد البرمكي إلى بغداد حيث كتب تحت تأثير العباسيين وقد نشره (أ.ث. كريمر) من نسخة ناقصة في كلكتا سنة ١٨٥٦م. ثم نشر «ولهاوزن» ترجمة ألمانية لنسخة أصلح (برلين ١٨٨٢). وتعتبر مزية الواقدي أنه اقتبس ابن اسحق كما هو قبل أن يراجعه ابن هشام بحيث يمكن الاستدلال على المواضيع التي عدلت في ابن هشام واهمال تلك التعديلات.

أما المصدر الثالث فهو «كتاب الطبقات الكبير» لأبي عبد الله محمد بن سعد بن مانع الزهري المشهور «بابن سعد» (ت ٢٣٠هـ = ٨٤٤م). وهو تلميذ الواقدي وكاتبه. يقع كتاب الطبقات في خمسة عشر مجلدا تشمل حياة محمد وصحابته الأولين وخلفائه كما كانوا حال حياته. وطبع أول مرة سنة ١٩٠٥ في تسع مجلدات: المجلد الأول ـ ثايل Theil ـ ميتوخ ١٩٠٥ طبعتان يو رساشو ١٩١١. (المجلد الثاني) ثايل ط١. هورفيتز ١٩٠٩ طبعة٢، شوالي ١٩١٢. ويشمل هذان المجلدان حياة النبي.

أما التاريخ العام لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ = ٩٢٢م). فيحتوي في الأقسام الأولى منه معلومات عن حياة النبي مأخوذة من النسخة الأصلية من ابن اسحق وموسعة بالإضافة المتأخرة. ولا تزال الأجزاء الأولى موجودة بترجمة فارسية لأبي

(×١) هذه الأمثلة التي يحاول اقحامها ليدافع بها عن وجهة نظره واتهاماته لسيد البشر عن حياته قبل البعثة التي تحدث بها عليه الصلاة والسلام بنفسه، ولا مجال لمقارنة، نبي مرسل، وراهب طيب أو شخص ملحد ومرتد عن الدين أمثال البابيين. والقديس فرانسيس هو الذي أسس رهبنة الفرنسيسكان (١١٨٢ ـ ١٢٢٦).

الفضل البلعمي. وقد اكتشف د. سبرنجر قسيمة من عشر صفحات في «لكناو» بالعربية. وقد أدخلت في طبعة ليدن باشراف «دي غوجي de Goeje»(×١) ١٨٧٩ ليدن. وقد أخذ الطبري ثلثي (٣/٢) معلوماته عن حياة النبي من ابن اسحق. أما الباقي فمن مصادر لا يبدو أنها ذات قيمة هامة.

وقد كتب أبو الفداء اسماعيل بن علي بن محمد (٦٧٢ ـ ٧٣٢هـ = ١٢٧٣ ـ ١٣٣١م) كتابا عن حياة النبي هو أحدث الكتب القديمة ومنقول عن المصادر السابقة وأقل حجية منها، ولكنه أول كتاب يصل إلى الغرب من كتب السيرة. وكان مرجع الأوروبيين الأساسي في معلوماتهم عن محمد. وكان يشار إلى أبي الفداء بأنه المرجع الرئيسي، كما ذكر (تي. رايت T.Wright) في كتابه «النصرانية في بلاد العرب» قال ذلك مرجوليوث (دي سي. مرجوليوث: محمد لندن ١٩٠٥ ص٣ ـ الهامش). ولكن هذا المرجع المتأخر يستعمل وكأنه المرجع الرئيسي التاريخي لدى سيرفيير: سيكولوجية المسلم ١٩٢٢. الفصل الرابع.

هناك كتب كثيرة متداولة عن حياة محمد، ولكنها كلها للتوجيه والتثقيف وليس بينها أي كتاب قيم. ولا تدخل حياة النبي في أي موضوع فقهي أو عقائدي إسلامي. وإنما تركت كلية لمن يكتبون لغرض زيادة الورع. وقد يقال أن الهدف من الاسلام هو رسالة محمد وليس حياته الخاصة. ولكن التخلي عن هذه الناحية لم يكن في مصلحة الإسلام حيث أن الإتجاهات المعاصرة ترمي إلى تفسير الدين بتتبع تطوره في التاريخ ونقده. أما في الإسلام فإن المادة المتاحة لمثل هذه المعالجات دون المستوى، ولا تكاد تصل إلى المستوى العالي الذي حققته الفلسفة والفكر الديني. ويجب أن يفهم في جميع الأحوال أن أي دراسة نقدية لحياة النبي لا تشكل جزءا من العقيدة الإسلامية، بل تنحصر في معرفة الظروف التي مرت بها تلك العقيدة.

لا يوجد بين من كتبوا السيرة من ابن هشام إلى الطبري وغيرهم من يعتمد عليه في أخبار ما قبل الهجرة. فحياة محمد بعد الهجرة معروفة وضمن التاريخ المعتمد، ويجب أن تعامل على هذا الأساس، ومثلها أيضا تعاليمه في السور المكية التي نزلت أثناء وجوده في مكة أسوة بالسور المدنية. أما ما عدا ذلك من المواد التي تعالج تاريخ بلاد العرب قبل سنة ٦٢٢م. فيجب أن يتعامل معها بمنتهى الحذر. فهي مثلا صادقة في معلوماتها عن تاريخ

(×١) يلفظ (دي خويخي) حيث يلفظ الحرفان في أول بصوت (خ) مثلا جنرال أو جورجي تلفظ خنرال أو خورخي.

مملكة حمير باستثناء عدم الدقة في التواريخ، وذلك يستدعي مقابلتها مع مصادر خارجية حيادية مثل إشارات الكتاب اليونان والرومان والإشارات التاريخية الواردة في القيود السريانية والحبشية، وقيود سير القديسين والمعابد والأضرحة والنقوش والعاديات والآثار الأخرى التي توجد في جنوب الجزيرة. أما بالنسبة لتاريخ ما قبل الحميريين فليس من السهل الاعتماد على المؤرخين العرب، وكل ما لدينا من معلومات مأخوذة من مواد مبعثرة في القيود المصرية والأكدية واليونانية واللاتينية وما لدينا من آثار مكتشفة قائمة. ومن هذه كلها نستقي المعلومات اللازمة لكتابة هذا التاريخ مرة ثانية. ومن المعروف أن الإسلام نشأ واشتهر عالميا في مرحلة متقدمة، ولكن لم يحتفظ أي من العرب بأية قيود أو أخبار عن العرب قبل الهجرة سواء المقيمين في سوريا أو العراق أو مصر أو بلاد فارس أو شمال أفريقيا أو الذين أمنوا من تلك البلاد. بينما كان عرب بلاد العرب نفسها لا يبالون بالتاريخ أصلا. فأخبار الاسلام وبطولات جنوب الجـزيـرة ودواويـن الشعـراء الجـاهليـين وضعت في أوائل العصر العباسي اعتمادا على الأخبار المتداولة. لكنها كانت متأثرة إلى حد كبير بالنزعات السياسية، والعنصرية والدينية، بحيث أن المعلومات القائمة في كل حالة تظهر تميزا واضحا يستحق التريث والحذف ويجعل اللجوء إلى التثبت من المصادر الأجنبية المحايدة أمرا هاما جدا. فالكتاب الأوروبيون الذين يؤرخون العصر الجاهلي من مصادر عربية، يتولد لديهم بأن لبلاد العرب تاريخا خاصا ببقعة معزولة منفصلة عن بقية العالم تماما، وأدى ذلك إلى تكوين صورة خطأ وإلى الوصول إلى استنتاجات مغلوطة. بينما تبين لنا من الرجوع إلى المصادر الاجنبية أن بلاد العرب قبل الإسلام لم تكن متقوقعة على نفسها او منعزلة. وربما كان انعزالها عائدا في الحقيقة إلى تأثير الإسلام في العصر العباسي والازمان التي تلته، وأن الاسلام نتيجة لذلك لم ينتشر بين القبائل البعيدة إلا بنسبة من اتصال، لا يكاد يبين، بالعالم الخارج عن دائرتهم، وضمن المد العام لحضارة آسيا الغربية. كذلك لم تبق العربية لهجة محافظة على نقائها وصفائها نتيجة بعد القبائل، بل تأثرت إلى حد لا بأس به بسبب الاتصالات العديدة، محافظة على بقايا حضارتها الاصلية المنتشرة من دجلة إلى شرقي افريقيا.

ملاحظات الفصل الثاني عشر

أ - الوضع السياسي في آسيا الغربية:

١ - بعد المداولة (المبينة في بار هبرايوس: الحوادث المقدسة ٢ : ٩١ - ٩٥) طلب الملك من رئيس الأساقفة النسطوري أن يتفق مع بقية النصارى ولما لم يوافق فقد طرد من سلوقيا وذهب إلى أذربيجان ودمرت الكنيسة النسطورية العظيمة المجاورة للقصر الملكي، وبنيت كنيسة جديدة للأرثوذكس (أي المونوفستية) بار هبرايوس ٢:٦٥.

٢ - الطبري الأول ٩٤٦ وما بعدها.

٣ - القران سورة ٣٠ ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون.. ولكن القران عاد في سورة ٤٨ يحث العرب على التوحد ضد الروم بعد أن انتصر هرقل على الفرس. ولكن العرب لم يتحمسوا لذلك سورة ٩: ٣٧ - ٣٨ وعملوا تظاهرة في تبوك، ثم عادوا إلى المدينة.

٤ - بارهبرايوس في «الحوادث المقدسة» ٢ : ١١٥ - ١١٧ «واشتهر في ذلك الوقت محمد نبي طيء (أي العرب). وكان هناك أمير من مؤمني نجران أهل الصحراء اسمه سعيد. وكان يتلقى الهبات والهدايا هو والاسقف يشوع. فذهبا وقدما الهدايا والهبات إلى محمد ووقعوا معه معاهدة خاصة بالنصارى بأن يقوم (أهل طي) بحمايتهم من كل أذى - ولا يجبرونهم على مشاركتهم في الحروب أو تغيير قوانينهم وعاداتهم.

الاحداث والتواريخ الهامة الواردة
في الكتاب والهوامش العربية حسب الفصول

الفصل الأول العرب وبلادهم

التاريخ	البيان
٥٠٠٠ـ٧٠٠٠ق.م	بدء حضارة الكنعانيين.
١٩٧٣م	بدء عمليات الاستكشاف الاثري لجامعة الرياض وكشف مدينة الفاو.
٢٧٥٠ق.م	ظهور الاكديين (الكلدانيين) العرب.
٤٠٠٠ق.م	بدء حضارة المصريين
١٧٨٥ق.م	ظهور الهكسوس في مصر
او ٢١٦٠ق.م	ظهور الهكسوس في مصر
٥٢٥م	زوال الدولة الحميرية بقتل ذي نواس
١١٥ق.م	قيام دولة حمير الاخيـــرة
١٩٢٠م	ثورة العراق ضد الانتداب الانجليزي
٦٣٤ـ٦٤٣م	خلافة عمر (رضي)
٧٥٠م	قيام دولة العباسيين

الفصل الثاني طروء المصريين على بلاد العرب

التاريخ	البيان
٢٩٠٠ق.م	عصر عاشر ملوك الاسرة الثالثة الملك سنيفيرو وفي زمنه بدأت الملاحـة البحرية في المتوسط
٣٠٠٠ق.م	نهاية الاسرتين الاولى والثانية في مصر
٢٧٤٣ق.م	الملك ساهور (ساحور) الاسرة الخامسة وتجهيز أول اسطول ملاحـة في البحـر الاحمر.
١٥٨٠ـ١٣٥٠ق.م	عهد الاسرة الثامنة عشرة التي طردت الهكسوس.
١٣٧٥ـ١٣٥٨ق.م	أخناتون الفرعون الموحد.
١٣١٣ـ١٢٩٢ق.م	الفرعون سيتي الاول ولعله فرعون موسى (ع) وهو من الاسرة التاسعة عشرة ولا تزال مومياه في المتحف.
١١٩٨ـ١١٦٧ق.م	رمسيس الثالث الذي طرد الفلسطينيين الى سواحل غزة.
٤٠٠٠ق.م	وما قبلها عصر ما قبل السلالات في مصر حيث كان العرب في سيناء.

٢٧٦٦ق.م	نقش (يذكر العرب جيدا) للملك سنيفيرو من الاسرة الرابعة رقم ١٠ آخرها.
٢٩٨٠ق.م	زار الملك زيسر مناجم النحاس في سيناء (الاسرة الثالثة)
٢٨٠٠ق.م	خوفو باني الهرم الاكبر من الاسرة الرابعة
قبل ٤٠٠٠ق.م	بنيت السدود اليمنية قديما بناها اسلاف الاسر المصريين كما قال السير هـ . هـ . جونسون في الجزء «أ» من هذا الفصل
٣٠٠٠ـ٢٧٥٠ق.م	الاسرتين الثالثة والرابعة حيث نشأ التحنيط واستعمال البخور اليمني الذي يدل على وجود الحميريين الاولين وقيام (سبأ ومعين).

الفصل الثالث

طروء سكان ما بين النهرين على بلاد العرب

٢٨٧٠ق.م	تأسيس امبراطورية سرجون الاكدي في العراق من جبال عيلام شرقا حتى البحر المتوسط غربا
٢٧٩٥ق.م	نارام سن حفيد سرجون الأول وأعماله مدونة على الصخور في سوسة
٢٦٠٠ق.م	اعتلى الملك جود ـ يا عرش لاجاش السومرية (الملوك الكهنة)
٧١٥ق.م	غزوة سرجون الاشوري لبلاد ثمود ونقلهم الى السامرة
٧٢١ق.م	أزال الاشوريون دولة اسرائيل من السامرة
٥٥٢ق.م	نبونيدس البابلي يقيم في تيماء
٥٤٠ـ٥٣٩ق.م	كوروش الفارسي يقضي على تيماء آخر معاقل البابليين.

الفصل الرابع

الطريق الى الهند

٦٩٤ق.م	قضى سنحاريب على قراصنة بحر فارس وبحر الهند
١٣٨٠ق.م	استنجد ملك القدس العربي عبد خيبا بأخناتون فرعون مصر ضد العبيرو أو الخبيرو (البدو)
١١٩١ق.م	وصل الفلسطينيون الى سواحل مصر الشمالية فطردهم رمسيس الثالث الى ساحل غزة

أواخر القرن الثاني عشر ق.م استعمر الفنيقيون اسبانيا في المتوسط، والاطلسي شرقا وغربا وأسماء مدنهم لا زالت حتى اليوم.

١٥٩٥ق.م سقوط بابل الثانية بابل حمورابي في أيدي الكاشيين
٦٠٦ق.م سقوط نينوى الاشورية نهائيا
١٢٧٦ق.م سقوط ميتاني بيد شلمناصر الأول الاشوري وضمها الى مملكته
١١٠٠ق.م تغلب بلاسر الأول على الميديين Medians
٧١٠ق.م ثورة مادي على الاشوريين
٥٥٨ـ٥٣٦ق.م حكم كورش الفارسي
٤٨٦ق.م نقشي رستم
٨٦٠ق.م مسلة شلمناصر الثالث
٣٣٣ق.م معركة سوس
٣٣١ق.م معركة أربيلا
تغلب فيهما الاسكندر على داريوس.

١٢٦ق.م ـ ٢٢٧ ميلادية دولة الفرتيين

٣١٢ـ٢٨٠ق.م سلوقس نيكاتور أحد قواد الاسكندر حكم الجزء الشرقي من امبراطورية الاسكندر وبنى اللاذقية (لادوكيا) باسم والدته.
٢٧٤ق.م تقريبا بطلميوس فيلادلفوس: باني مينائي برينيكا (القصير القديمة) وميوس ـ هرموس (الغردقة الحالية غالبا) في مصر

٢٠٠٠ق.م حوالي الاسرة الثانية عشرة ـ قناة ملكية من النيل الى السويس عبر البحيرات المرة. أنشأها: الملك سيز وستريس
٢٨٧ق.م عالم النبات ثيوفراستوس
١٩٦ق.م وفاة اراتوسثنيس قيم مكتبة الاسكندرية، جامع معلومات عن بلاد العرب والهند وبلاد الفرس عن طريق بتروكليس السوري
٦٤ق.م ـ ٨٧ عاما استرابو. المؤرخ اليوناني

٢٣ـ٧٩ ميلادية المؤرخ بليني الاكبر. روماني ٥٦ عاما
١٠٠ق.م (حوالي) المؤرخ ارتميدوروس الرحالة الجغرافي المحقق.

٣٠ق.م أصبحت مصر ولاية رومانية بزوال حكم البطالمة اليونان

(...) حوالي نهاية القرن الأول الميلادي ظهر كتاب الطواف أو الدليل البحري المسمى بالعربية «راهنامج» نقلا عن الفارسية

١٦٧ـ٣٦ق.م حكم المكابيين في اسرائيل «القدس»

١٧٥ـ١٦٤ق.م انطيوخوس الرابع السلوقي (ابيفانيس)

٦٦٩ـ٦٢٦ق.م أشور بانيبال الذي ذكر بلاد الانباط العربية المحالفة للاشوريين (القرن السابع قبل الميلاد)

١٠٦ ميلادية انتهت دولة الانباط على يد الامبراطور تراجان وصارت الكورة العربية

الفصل الخامس

الممالك العربية الجنوبية

٧٤٥ـ٧٢٧ق.م تغلات بلاسر الثالث الاشوري وفي حولياته ذكر دولة سبأ

٧١٥ق.م سرجون الاشوري دمر بلاد ثمود ونقل أهلها للسامرة المدمرة قبل ٧ سنوات.

٢٥٠٠ق.م «أرض النهر» ملك لاجاش (أمير الامراء) ذكر سبأ، وقتبان

٤٤٧ ميلادية تهدم السد (سد مأرب) لاخر مرة وعمره أبرهة الحبشي في أوائل القرن السادس بعد ٥٢٥

١٩م توفي جوبا الثاني الملك العالم ملك توميديا (الجزائر) ثم موريتانيا

١٠٦ق.م عرف الرومان موريتانيا (بهذا الاسم) اثناء حربهم مع الملك يوغرتا Yogurtha.

الفصل السادس

التجارة العربية أيام جستنيان

٥٢٧ـ٥٦٥م حكم الامبراطور جستنيان

٥٣٥ـ٥٤٧م نشاط كوزموس أنديكو بليو ستاس مؤلف الطبوغرافية المسيحية

٥٥٢ أو ٥٥٤ نقل راهبان بيوض دودة الحرير من الصين لأوروبا داخل أعواد

	من القصب (القصيب)
٧١٢ـ٦٦٣ق.م	الاسرة الخامسة والعشرون المصرية من أصل حبشي ٤٩سنة
٣٠٤ـ٢٣ق.م	عهد البطالمة حكام مصر من اليونانيين بعد الاسكندر
أو ٣١ق.م	وهو الأقرب للصحيح
٣٤٠م	الملك أيزاناس (ذا ناس) الحبشي الذي احتل اليمن في تلك السنة ولم يتجاوز الاحباش تهامة. وطردهم أهل اليمن سنة ٣٧٨.
٥١٩ـ٥٢٧م	الامبراطور جستين (محرض الحملة ضد ذي نواس ٥٢٢م).
١٦٦٥م	طاعون لندن
١٨٩٤م	طاعون هونج كونج الكبير

الفصل السابع

النصرانية والعرب

٦٧م	قطع رأس بولص الرسول في روما في عهد نيرون
٧٠م	تدمير الهيكل اليهودي في القدس زمن تيطس
٢١٦م	اندمجت الرها في الامبراطورية الرومانية
٢٩٧م	تخلى (الفرس) عن خمس ولايات منها نصيبين
٣٣٧ـ٣٤٥م	أفراتيس صاحب المواعظ الكنسية في نصيبين
٢٣١م	نفي الفيلسوف أوريجن Oregon من الاسكندرية. أسس مدرسة جديدة في قيصرية
٣٧٥	اقرار التسامح الديني رسميا في الامبراطورية البيزنطية.
٣٦٣م	صلح الامبراطور جوليان مع الفرس (الصلح المتين)
٣٧٣م	انتقم الامبراطور فالينز من الفرس
٣٠٩ـ٣٧٩	حكم شاهبور الثاني (ذي الاكتاف) تاسع ملوك الاسرة الساسانية وعدو النصرانية اللدود.
٣٧٩ـ٣٨٣م	أردشير الثاني شقيق ذي الاكتاف من أعداء النصرانية
٣٨٣ـ٣٨٨	شاهبور الثالث
٣٨٨ـ٣٩٩	بهرام الرابع حالفا الروم وعامل النصارى بكل محبة
٣٩٩ـ٤٢٠	يزدجرد الأول الذي عامل النصارى بتودد كبير وهو الذي بارك مجمع

نيقيا سنة ٤١٠ الذي اصدر قانون الايمان والذي كتب بالعربية لغة الاساقفة الذين اجتمعوا تحت رعاية الملك يزدجرد برئاسة اسقف سلوقيا اسحق. وهي محفوظة في لندن (المتحف) باسم قوانين نيقيا العربية.

١٣٢ق.م	تأسست مدينة الرها (ايديسا) على يد الفرتيين
٣٩٣-٤٢٨م	ثيودور الذي قاوم إدعاء الوهية المسيح.
٤٣١	انشقاق النسطورية عن الكنيسة الملكية
٤٥١	مجمع كنسي خلقيدون لمحاكمة رأي أوطيقي الذي قال باندماج الروح في الذات الالهية في المسيح. وسبب انقساما جديدا أدى الى قيام اليعاقبة (المونوفيزيين).
٤٩٧-٥٤٠	فترة تدهور الكنيسة النسطورية
٥٤٠-٥٥٢	الاسقف مارإبا النسطوري الذي حاول الحد من نفوذ اليعاقبة لدى دولة فارس.
٣٣٤-٣٦١	الامبراطور قسطنطين الثاني وفي زمنه دخلت المسيحية جزيرة العرب
٥٢٢م	غزو الاحباش لبلاد اليمن.

الفصل الثامن

عرب الدول الحدودية

٧٠٠-٦٠٠ق.م	كان ظهور دولة الانباط الذي ورد اسمهم في نقش اشور بانيبال
١٠٦م	انتهت دولة الانباط على يد الامبراطور تراجان
٢٤١م	انتهت دولة الحضر العربية فيما بين النهرين وقامت بدلها دولة الحيرة على يد عمر بن عدي من آل نصر بن ربيعة.
٣٩٩-٤٢٠	كسرى يزدجرد الاول والد الامير بهرام الذي تربى في البادية عند النعمان الأول.
٤٢٠-٤٣٨	الملك بهرام صديق العرب الذي كان ينظم الشعر العربي
٥٢٤م	التمس الامبراطور جستين فك أسر قائدين من قواده لدى المنذر الثالث ملك الحيرة
٥٨٠	نفي المنذر الغساني الى صقلية بأمر الامبراطور «موريس» الروماني.
٦٠٥-٦١٤	حكم اياس بن قبيصة الطائي على الحيرة.
٦٠٥م	نهاية حكم النعمان الخامس زوج هند التي بنت دير هند المسمى باسمها.

٦٢٠م	قتل النعمان الخامس في سجنه لدى الملك الفارسي
٣١٢م	تنصر الامبراطور قسطنطين الكبير
٢٧٢_٣٦١	فترة التسعين بين حكمي أورليان (تدمر) وجوليان
٣٦٤_٣٧٨م	الامبراطور «فالينز»
٥٢٩	الحارث الرابع الغساني يعترف به جستنيان شريفا ورئيسا لقبيلة غسان ملكا على العرب
٥٧٨	الامبراطور طيباريوس بعد جستين الثاني
٥٨١	قبض على المنذر الغساني غدرا وأرسل الى بيزنطة
٦٢٨م	انتصر الروم على الفرس ودمروا لهم مدينتهم دستجرد
٢٦٢م	تغلب أذينة بن السميدع (تدمر) الثاني على شابور الاول
١٣٢_١٣٥	ثورة باركوخبا اليهودي على الرومان في القدس فأدبه الامبراطور هدريان وطرد اليهود نهائياً من القدس وسماها باسمه «ايليا كابوتولينا»
١٣٥_١٠٦ق.م	ولاية هيركانوس الكاهن على اليهود وهو الذي ختن الادوميين

الفصل التاسع

دخول اليهودية الى جزيرة العرب

٣١٢ق.م	حملة اتيغونس القائد السلوقي على الادوميين (الانباط) التي باءت بالفشل.

الفصل العاشر

المركز التجاري لمكة

٦٢٢م	٦٢٢/٧/١٦ هجرة الرسول عليه السلام من مكة إلى المدينة.
٦١٢م	معركة ذي قار

الفصل الحادي عشر

بينات من الديانات التي سبقت الاسلام

١٩٠٨	حج أ. ج. ب. ويفل
٩هـ	اسلام قيس بن عاصم أول من وأد البنات
٢٠هـ	وفاة قيس بن عاصم سيد بني تميم

الفصل الثاني عشر

بداية البعثة النبوية

٥٣١ـ٥٧٩م	عهد كسرى أنو شروان
٥٥١م	اعتنق الامير أنوش آزاد ابن الملك، النصرانية
٥٧٥م	طرد الاحباش من اليمن زمن سيف بن ذي يزن بمساعدة الفرس
٥٧٩ـ٥٩٠م	حكم هرمز بن كسرى أنو شروان
٥٩٠ـ٦٢٨م	حكم كسرى أبرويز بن هرمز
٦٠٢	خلع فوكاس سلفه الامبراطورموريس
٦٠٤	أعلن كسرى ابرويز الحرب على البيزنطيين انتقاما لصديقه موريس
٦١٠	بعثة رسول الله (ﷺ) وجاء هرقل امبراطور الروم بعد فوكاس
٦٢١	بدأ هرقل يصمد للفرس.
٦١٤	دخل الفرس القدس وأخذوا بقايا الصليب الاصلي من الباسيليكا هناك
٦٢٨	نهاية الحروب بين الفرس والرومان بانتصار هرقل وتدمير عاصمة ابرويز «دستجرد»
٣٢هـ	قتل يزدجرد الثاني آخر ملوك الفرس بمرو في خلافة عثمان بن عفان
١٥١ـ١٥٢هـ = ٧٦٧م	وفاة بن اسحق أول من كتب سيرة النبي عليه السلام
١٣٧ـ١٥٩هـ	خلافة المنصور العباسي = (٧٥٤ـ٧٧٥م)
١٠٨٦م	وفاة الماوردي = ٤٧٨هـ
٢١٣هـ أو ٢١٨هـ	وفاة محمد بن عبدالملك بن هشام (٨٢٨ أو ٨٣٣م)
٢٠٧هـ	وفاة الواقدي صاحب المغازي وغيرها = ٨٢٣م
٦٧٢ـ٧٣٢هـ	أبو الفداء السلطان اسماعيل بن علي بن محمد (١٢٧٣ـ١٣٣١م) صاحب حماة.

فهرس الأماكن والأعلام في الهوامش حسب الفصول

الفصل الأول

الفاو: عاصمة دولة كندة منذ القرون الميلادية الأولى
البحرين: سبب تسميتها بهذا الاسم
استعارة المؤلف التمثيل بما جاء في التوراة
القيسية واليمنية:
قبيلة عاملة وجذام في فلسطين وجنوب لبنان والاردن
وكندة في جزيرة العرب كلها راجع ما جاء في نقش النمارة.

الفصل الثاني

الحضارات المصرية وهي عربية، وحضارة الاكديين (الالف الثالث) قبل الميلاد والسومريين والبابليين والاشوريين وحضارة اليمنيين من معينيين وسبأيين وحميريين وقتبانيين وأوسانيين وغيرهم. كلها عربية.
وكل هذه الحضارات بدأت زراعية ثم تطورت. أما الفينيقية فكانت تجارية بحرية وانتشرت في ساحل الخليج الفارسي ثم احتلت سواحل البحر المتوسط الشرقي (سوريا ولبنان وفلسطين وسيناء والساحل الجنوبي (شمال افريقيا كلها باستثناء مصر، والغربي (اسبانيا) وعلى المحيط الاطلسي - قبل القرن الخامس عشر ق.م. وآثارهم وأسماء مدنهم العربية موجودة ومعروفة حتى الآن.
الهكسوس - الملوك الرعاة كما سماهم الكاهن المصري مانيثو
عصر ما قبل السلالات أو الاسر (المصري) كان قبل سنة ٤٠٠٠ق.م
والساميون المشار اليهم هم عرب الساحل وغزة وسيناء من العمالقة والكنعانيين
النطرون: مادة كربونات الصوديوم الطبيعية ويسمى البوريق الأرمني ووادي النظرون بين مصر وليبيا (منخفض القطارة).

الفصل الثالث

مقابلة بين الاكديين والاسرائيليين
أور ايل بايا، وكيش
تعليق على مجان، وملوخا والنحاس والديورايت
القصب أو القش المصري والاكدي
لاجاش وجوديا والاله «يا» وملحمة جلجامش
مدينة الذهب

التعدية بالهاء والسين
معين وتوابعها
جوبا الثاني العالم ملك موريتانيا القرن الأول قبل الميلاد وبعد ت ١٩ ميلادية
اليهودية وغزة
اللارنديون ـ الريدنيون ـ الحضارمة
الانصاريون ـ بنو نصر بن ربيعة
جبال اليهودية ـ منطقة فلسطينية
آل نصر
ريدانيون
التنوين بالميم ـ حضر = بمعنى المزارعين، حضرم = حضرم ـ وت
كندة وعاصمتها قرية ـ الفاو
الدوعن ـ نهر في حضرموت
أحسن بلاد البخور في حوى وحسكي على المنحدرات للربع الخالي على مسيرة أربعة أيام من مرباط وصلالة
أوسان
يثرب
البيت العتيق وشهرة مكة الدينية

الفصل السادس افول الامبراطورية الرومانية وسقوطها بالانجليزية. Gibbon
ثاسيطس وليفي
بيوض دودة الحرير ونقلها لاوروبا
شرانق دودة الحرير منذ عهد ارسطو (القرن الرابع ق.م)
عروبة حكام الحبشة
الاسرة الخامسة والعشرون المصرية
بلاد كوش (التوراة) هي بلاد القش أي الاعشاب والبراري أو السهوب أو (البريري) وهي كلمة عربية (تدل على المناطق شبه المدارية «المراعي»)

الفصل السابع الرواقية
الاناجيل والاعمال للتلاميذ والرسل

أعلام الكتاب

أ

ب، ت، ث

ج ح خ د ذ ر ز

الفصل

س، ش

الفصل

الفصل

ل ، م

الفصل

الفصل

ن ، هـ ، و

	الفصل
نيقيا - (قانون الايمان)	٧
النيل	١، ٢
نيلوس	١١
هاشميون	١٢
هاقايوس	٤
هاليفي	٣، ٥
هانو (هانىء بن تيم)	٢
هبالوس	٤، ١٠
هدريان	٤، ٩
هرقل	١٢
هرمز I	١، ٧
هرمز IV	٥
هكسوس	٢، ٤
همدان ومذحج	١
الهند	٤، ٦، ٧
الهند/الحرير	٦
الهند/الطريق الى	٤
الهند/النقود	٤
هندكوش	٤
هوبت	٣
هومل	٣، ٥
هيرخون	١
هيرشفيلد	١٠
هيرش ليو	٥
هيرودتس	٦، ١١
هيرودوس/القدس	٩
وأد البنات	١١
الواقدي	١٢
وادي الحمامات	٢

ي

مراجع التحقيق

١ ـ الحضارة الفنيقية في اسبانيا (بالروسية). بول تسيركين، ترجمة د. يوسف أبو فاضل «جروس برس» طرابلس ـ لبنان ـ ط١٠ ـ ١٩٨٨.

٢ ـ عن الفنيقيين «Constance Iravin: «Fair Gods ansd Stone Faces
الترجمة الالمانية بعنوان صريح «أتيت متأخراً ألفي عام يا كولمبس» (بعد الفنيقيين).

Kolumbus Kam 2000 Jahre Zuspat. ISBN 3-8118-7-1989.

٣ ـ اسرائيل ولفنسون ـ أبو ذؤيب ـ تاريخ اللغات السامية ـ الطبعة الأولى ١٩٨٠ دار القلم ـ بيروت.

٤ ـ المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ ـ د. نجيب محمد البهبيتي ـ جزءان ـ دار الثقافة ـ الدار البيضاء ـ مطبعة النجاح الحديثة ط ١: ١٩٨١.

٥ ـ مواقع أثرية وصور من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية.
تأليف د. عبد الرحمن الطيب الأنصاري وزميليه ـ جامعة الرياض ١٩٨٤.

٦ ـ جريدة الدستور الأردنية/ العدد ٧٥٧٢ في ١٩٨٨/٩/١٩ عن يورانيوم سيناء.

٧ ـ القاموس المحيط للفيروزبادي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط١: ١٩٨٦.

٨ ـ المنجد وفوائد الأدب ـ الاباء اليسوعيون ـ بيروت.

٩ ـ LATIN DICTIONARY - By Lewis - Short 1879 - 1945

١٠ ـ Greek English Lexicon. By Liddell Scott 1846

١١ ـ Blakeney: A Smaller Classical Dictionary 1910 - 1913

١٢ ـ Cassel's English Dictionary 1937

١٣ ـ معجم البلدان: ياقوت الحموي. دار الكتاب العربي ـ ٥ أجزاء ـ بيروت.

١٤ ـ منير البعلبكي: قاموس المورد ١٩٨٦ دار العلم للملايين ـ بيروت.

١٥ ـ العرب قبل الإسلام ـ جرجي زيدان ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٧٩.

١٦ ـ أحمد أمين ـ فجر الإسلام ط١١ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٥.

١٧ ـ Gibbon: Decline & Fall of The Roman Empire By J.H.Fowler
Macmillan G. 1910 1926

١٨ـ أطلس تاريخ الإسلام ـ د. حسين مؤنس ـ القاهرة ـ ١٩٨٧.
١٩ـ الأطلس التاريخي للعالمين العربي والإسلامي ـ عدنان العطار ط١ : القاهرة ١٩٧٩.
٢٠ـ أطلس التاريخ العربي. شوقي أبو خليل . دار الفكر ـ دمشق ط١ : ١٩٨٤.
٢١ـ أطلس العالم ـ بالألمانية ١٩٦٦.
٢٢ـ Philip Modern School Atlas 1939
٢٣ـ الأطلس العربي ـ وزارة التربية والتعليم ـ الطبعة الخامسة ـ القاهرة ١٩٨٥.
٢٤ـ الكتاب المقدس ـ العهد القديم والعهد الجديد ـ دار الكتاب المقدس ـ بيروت ١٩٨٢.
٢٥ـ تفسير البيضاوي ـ القاهرة ١٩٢٥.
٢٦ـ معالم التنزيل في التفسير والتأويل للبغوي ـ دار الفكر ـ بيروت ١٩٨٥.
• **٢٧ـ الواقدي: المغازي ـ عالم الكتاب ـ بيروت ١٩٦٦.**
٢٨ـ الطبقات الكبرى لابن سعد ـ دار صادر ـ بيروت.
٢٩ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ـ المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ـ بيروت ط٢ : ١٩٧٨.
٣٠ـ موسوعة المورد ـ منير البعلبكي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ط١ : ١٩٨٠.
٣١ـ سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب : محمد أمين البغدادي الشهير بالسويدي. مكتبة المثنى : بغداد.
٣٢ـ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر ط٤ : المكتبة التجارية. القاهرة ١٩٦٤.
٣٣ـ المسعودي: التنبيه والاشراف: دار التراث ـ بيروت ١٩٦٨.
٣٤ـ الطبري: تاريخ الرسل والملوك. دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٩.
٣٥ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط٣ ـ ١٩٨٠.
٣٦ـ العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة: مكتبة الكلية الأزهرية ١٩٦٨.
٣٧ـ الهمذاني: صفة جزيرة العرب ـ اشراف حمد الجاسر وتحقيق الأكوع ـ دار اليمامة ـ الرياض ١٩٧٤.
٣٨ـ الهمذاني: الاكليل ـ الجزء الثاني ١٩٦٦.
٣٩ـ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ـ الندوة العالمية للشباب الإسلامي ـ الرياض ١٩٨٨.
٤٠ـ د. أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ ـ طبعة ٤، ٥، ٦/ ١٩٧٥، ١٩٨٠، ١٩٨٦.

٤١ـ أبو الفداء: تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية ـ طبعة باريس ١٨٤٠.
٤٢ـ الكتابة العربية والسامية ـ د. رمزي البعلبكي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ط ١ : ١٩٨١.
٤٣ـ **H.R HALL: The Ancient History of the Middle East. Mathuen Co. London 9th Edition 1936.**
٤٤ـ ملحمة كلكاميش: د. سامي سعيد الأحمد ـ دار الجيل ـ بيروت ١٩٨٤.
٤٥ـ سيرة ابن هشام: تحقيق طه عبدالرؤوف سعد ـ دار الجيل ـ بيروت.
٤٦ـ نقد النظرية السامية ـ الجزء الأول ـ دار دمشق للطباعة والنشر ط١ ١٩٨٢.
٤٧ـ د. عوني عبدالرؤوف وحامد عبدالقادر: الأمم السامية: مصادر تاريخها وحضارتها دار نهضة مصر للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٨١.
٤٨ـ نهاية الأرب في فنون الأدب: للنويري: الهيئة العامة المصرية للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٥.
٤٩ـ قصة الديانات: سليمان مظهر: الوطن العربي ـ بيروت/ القاهرة ط ١ : ١٩٨٤.
٥٠ـ مجمع الأمثال للميداني النيسابوري مطبعة السنة المحمدية ـ ١٩٥٥.
٥١ـ تاريخ اليعقوبي: دار الفكر ـ بيروت ١٩٥٥.
٥٢ـ مجلة الدارة ـ الرياض ـ العدد الثالث ـ السنة التاسعة ١٩٨٤.
٥٣ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ٢٦ مجلدا ١٩٦٣.
٥٤ ـ المفصل في التاريخ ـ د. جواد علي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت جـ ٢٠ : ١٩٧٨.
٥٥ـ معجم الحضارات السامية. تأليف هنري . س. عبودي. طرابلس ـ لبنان ١٩٨٨.
٥٦ـ منهج كتابة التاريخ الإسلامي لماذا؟ وكيف؟
د. جمال عبدالهادي محمد مسعود، د. وفاء محمد رفعت جمعة ط١ : ١٩٨٦.
دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة.
٥٧ـ الشيعة في التاريخ ـ الشيخ محمد حسين الزين ـ دار الآثار ـ بيروت ط٢ : ١٩٧٩.
٥٨ـ آثار البلاد وأخبار العباد: للعلامة زكريا بن محمد القزويني ـ دار صادر ـ

بيروت.
٥٩ـ The Muslem World Volume XV111. By.S.Zwemmer 1982.
٦٠ـ تاريخ دولة الأنباط ـ د. احسان عباس. دار الشروق ـ عمان ط١ : ١٩٨٧.
٦١ـ مجلة «الحرس الوطني» السعودية ـ عدد ٢٤ ص٣٢ : ١٩٨٤.
٦٢ـ «بنو عابر» قوم ابراهيم الخليل د. حامد عوض الله ـ دار مكتبة الهلال ١٩٨٣. بيروت.
٦٣ـ قاموس الفارسية ـ فارسي ـ عربي د. عبد النعيم محمد حسنين ـ دار الكتاب اللبناني ط١ : ١٩٨٢.





BIBLIOGRAPHY

YAQ'UBI (ninth cent.), *K. al Buldân*, ed. T. Houtsma, vol. vii, of *Bibl. Geogr. Arab.*, Leiden, 1892 (earlier portion gives pre-Islamic history).

YAQUT (d. 1229), *Mu'jamu l'Buldân*, ed. Wüstenfeld, Leipzig, 1866 and 1924.

Z. Aeg. Spr. = *Zeitschrift Aegyptisch. Sprache*, Leipzig.

ZDMG. = *Zeitschr. der deutschen morgenländischen Gesellschaft.*

ZEHME, A., *Arabien und die Araber seit 100 Jahre*, Halle, 1875.

ZUMOFFEN, G., *La Phénice avant les Phéniciens*, Beirut, 1900.

SCHUMACHER, G., *Across the Jordan*, 1886.
"Seért, Chronique de: Hist. Nestorienne," ed. Mgr. A. Scher, in *Patrologia Orientalis*, iv, Paris, 1908.
SETHE, K., *Urkunden des alten Reichs*, Leipzig, 1903–5.
—— *Die altägyptischen Pyramidentexte*, Leipzig, 1908–22.
—— "Hitherto unnoticed evidence regarding copper works of art of the oldest period of Egyptian history," in *JEA*., 1914, 233–6.
SEWELL, A., "Roman Coins found in India," in *JRAS*., 1903, 591, etc.
SIDDIQI, A., *Studien uber die persischen Fremdwörter in klass. Arab*., Gottingen, 1919.
SKOLD, H., "Zu den altindischen Gottesnamen in Mitannivertrag," in *OLZ*., 1926, 396–7.
SMITH, G. A., *Historical Geography of the Holy Land*, 13th ed., 1906.
SMITH, G. ELIOT, "Ships as evidence of the migration of early culture," in *J. Manchest. Eg. and Or. Soc*., 1915–16, 63.
SMITH, W. R., *Kinship and Marriage in Early Arabia*, Camb., 1885.
—— *Religion of the Semites*, Lond., 1894.
SMITH, SIDNEY, *Babylonian Historical Texts*, Lond., 1924.
—— *First Campaigns of Sennacherib*, 1921.
SMITH, V. A., *Early History of India*, 3rd ed., Oxf., 1914.
—— *Asoka*, 3rd ed. Oxford, 1920.
SNOUCK HURGRONJE, J., *Mekka*, De Haag, 1888.
SOCRATES, *Eccles. History*, Oxon., 1844.
SOZOMON, *Eccles. Hist*. in Migne PG., lxvii.
SPRENGER, A., *Das Leben und die Lehre des Mohammads*, Berlin, 1861–5.
STRABO, ed. A. Meineke, Leipzig, 1866–7.
STRASSMAIER, J. N., *Bab. Texte*, 1887–97.
STRZYGOWSKI, J., *Ursprung der crist. Kirchenkunst*, 1920.
TABARI (d. 922), *K. Akhbar ar-rusul wal-muluk*, ed. de Goeje, *Annales*, Leiden, 1879, trs. H. Zotenberg, Paris, 1867–74 (from Persian version). Cf. Nöldeke, Th.
THEOPHRASTUS, *Historia Plantarum*, ed. Hort. 1916.
THUREAU-DANGIN, F., *Die Sumerischen und Akkadien Koniginschriften*, Leipzig, 1907.
UNGNAD, A., *Das Wesen des Ursemitischen*, Leipzig, 1925.
VINCENT, W., *Periplus of the Erythrean Sea*, 1800–5.
AL-WÂQIDÎ (d. 823), V. Kremer, "History of Mohammad's campaigns by Aboo Abdullah Mohammad bin Omar al-Wakidy," in *Bibl. Indica*, Calcutta, 1856; J. Wellhausen, *Muham. in Medîna, das ist Vakidis K. al Maghazi*, Berlin, 1882.
WAVELL, O., "Studien zur südarab. Altertumskunde," in *Mitt. Vorderas Gesell*., 1901, i, 1–43, and ii.
WELLHAUSEN, J., *Reste Arabischen Heidentums*, 2nd ed., Berlin, 1897.
WEIGALL, A., *History of the Pharaohs*, Lond., 1925.
—— *Guide to the antiquities of Upper Egypt*, 2nd ed., 1913.
WEILL, R., *Recueil des inscr. égypt. du Sinai*, Paris, 1904.
WELLSTED, J. R., *Travels in Arabia*, 1838 (first accurate copy of Himyaritic inscr.).
WETZSTEIN, J. G., "Nordarabien und die syrische Wüste," in *Z. f. allg. Erdkunde*, xviii, 408.
WIEDEMANN, A., *Das alte Aegypten*, Heidelberg, 1920.
—— *Keilin. Bibl*., Berlin, 1896. Eng. trs. *Tel-el-Amarna Letters*, Berlin, 1896.
WINCKLER, H., *Die Keilschrifttexte Sargons*, Leipzig, 1889.
WUSTENFELD, *Die Chron. d. Stadt Mekka*, Leipzig, 1857.

BIBLIOGRAPHY

NÖLDEKE, Th., Article " Arabs (ancient) " in Hastings, *Dict. of Religion and Ethics*, i, 1908, 669–73.
NSI. = cf. Cooke, *North Semitic Inscr.*
OLZ. = *Orientalische Litteratur Zeitung*, Leipzig.
PARGITER, *Ancient Indian Historical Tradition*, 1922.
PATON, D., *Early Egyptian Records of travel* (typed reproduction), i, Oxford, 1915.
PEET, T. E., " Early Relations of Egypt and Asia," in *J. Manchester Eg. and Orient. Soc.*, 1914, 1915.
—— " Antiquity of Egyptian Civilization," in *JEA.*, 1922, 5–12.
PERCEVAL, C. DE, *Essai sur l'hist. des arabes avant l'Islamisme*, Paris, 1847–8, reprint 1902 (contains much of the material found in the Aghani and other Arabic authorities).
" Periplus of the Red Sea," in *Geogr. Graec., Min.*, ed. Müller (q.v.).
PETRIE, W. M. F., *History of Egypt*, ii, iii, 1899, 1905.
—— *Researches in Sinai*, Lond., 1906.
—— Koptos, 1896.
—— " Egypt and Mesopotamia," in *Anc. Egypt*, 1917, 26.
—— *Arts and Crafts in Anc. Egypt*, reprint, 1923.
PG. = *Patrologia Graeca* of the Abbe Migne.
PHILBY, H. ST. J., *Heart of Arabia*, London, 1922.
PILTER, W. T., " Index of S. Arabian proper names contained in *CIS.*," in *PSBA.*, 1917, 99–112, 115–32.
PLINY, *Natural History*, ed. Jan-Mayhoff (Teubner series), 1882–1909.
PROCOPIUS, ed. Dindorf in *Corp. Script. Hist. Byz.*, Bonn. 1833–8.
PSBA = *Proceedings of Society of Biblical Archaeology* (now merged in *JRAS*).
PTOLEMY, CLAUDIUS, ed. Müller, Paris, 1883; also Tauchnitz ed. 1843.
IBN QUTAIBA (d. 828), *K. al-Ma'ârif*, ed. Wüstenfeld, 1850 (pp. 28–56).
RAPSON, " Indian coins," in *Grund. d. indo-ar. Philologie*, 1898.
RAWLINSON, W., *Cuneiform Inscr. of Western Asia*, 1861–1909.
—— *Ancient intercourse between Europe and India*, *Records of the Past*, ed. S. Birch, 12 vols., 1873–81.
Recueil = *Rec. de travaux relat. à la philologie*, etc., Cairo.
RHODOKANAKIS, N., *Die Bodenwirtschaft im alten Südarabien*, Wien, 1916.
—— *Katabanische Texte zur Bodenwirtschaft*, Wien, 1922.
RICHTER, C. F., *Die Arsaciden- und Sassaniden-Dynastie*,
RIEU, C., *Suppl. Catalogue of Arabic MSS. in the Brit. Mus.*, London, 1894.
RITTER, E., *Comparative Geogr. of Palestine and the Sinaitic peninsula*, Eng. trs. Edinburgh, 1866.
ROSE, H. J., " Egypt and India," in *Man*, 1925, 15–16.
ROST, P., *Die Keilschrifttextes Tiglathpilesers III*, Leipzig, 1893.
ROTHSTEIN, G., *Die Dynastie der Lakhmiden in al-Ḥîra*, Berlin, 1899.
RUDOLPH, W., *Die Abhängigkeit des Qoran von Judentum und Christentum*, Stuttgart, 1922 (fanciful, tries to prove too much).
IBN SA'D (d. 844), ed. E. Mittwoch, " Biographien Muhammads," i (*Biogr. Muh. bis zu Flucht*), Leiden, 1905.
SALVATOR, Archduke LUDWIG, *Caravan Routes between Egypt and Syria*, London, 1881.
SCHRADER, E., *Keilinschriften und Geschichtsforschung*, Giessen, 1878.
—— L. ABEL, and other, *Sammlung von assys. u. bab. Texten*, Berlin, 1889–1915.
SCHROEDERER, O., *Keilschrifttexte aus Assur verschiedenen Inhalts*, Leipzig, 1920.

McCrindle, J. W., *Topography of Cosmas*, Hakluyt Soc., 1897.
Maltzan, H. de, *Notes de voyage sur les régions du sud de l'Arabie*, 1871.
—— " Beiträge zur Kenntniss der Geogr. u. Sprachl. Verhältnisse von Südarabien," in *ZDMG.*
—— *Reise nach Südarabien*, Brunswick, 1873.
Maqrizi (d. 1442), *de valle Hadramaut*, ed. Noskouryi, Bonn, 1866.
Margoliouth, D. S., " Origins of Arabic Poetry," in *JRAS.*, 1925, 417–49.
Martyrium S. Arethae, in Migne, *PG.*, cxv, 1249–90 (cf. Moberg).
Mas'udi (d. circ. 956), *Murûj adh-Dhahab*, ed. trad. C. Barbier de Meynard et P. de Courteille, *Maçoudi, Les Prairies d'or*, Paris, 1861–77.
—— " Kitâb at-Tanbîh w-al-Ishrâf," ed. de Goeje in *Bib. Geogr. Arab.*, viii, Leiden, 1894.
Meissner, B., *Babylonien und Assyrien*, 1920.
Mela, Pomponius, *Geographia* (esp. books 3, 8, 6), ed. Gronovius, Leiden, 1722.
Messerschmidt, L., und Schroeder, O., *Keilinschrifttexte aus Assur historischen Inhalts*, Leipzig, 1911–12.
Meyer, G., *Gesch. der Altertums*, i, 3rd ed., Stuttgart, 1913 ; iii, Stuttgart, 1901.
—— *Die Israeliten und ihre Nachbarstämme*, 1906.
Migeod, F. W. H., " Connexion of Egypt and India," in *Man*, 1924, 160.
Mitra, *Prehistoric crafts of India*, cf. *Anc. Eg.*, 1921, 59.
Moberg, A., *Book of the Himyarites*, Lund., 1920–1, 1924.
Mordtmann, J. H., *Beitrage zur minäischen Epigraphik*, Weimar, 1897.
—— *Himjarische Inschr. u. Alterthümer in der Königl. Museum zu Berlin*, 1893.
—— und Müller, D., *Sabäische Denkmäler*, Wien, 1883.
Morgan, J. de, *Rech. sur les origines de l'Égypte*, 1909.
—— *Les premières civilizations*, 1909.
—— *La préhistoire orientale* (esp. i–iii), Paris, 1925–6.
—— *De l'influence asiatique sur l'Afrique*, 1921.
Moulton, J. H., *Early Zoroastrianism*, London, 1913.
Mu'allaqât, ed. F. A. Arnold, Leipzig, 1850, and many other edit.
MVG. = *Mittheilungen der vorderasiatischen Gesellschaft.*
Müller, C., *Geographi Graeci Minores*, Paris, 1882.
Müller, D. B., " Über die . . . protoarabisch. Inschr." in *Transact. Internat. Congr. Orient.*, Lond., 1893, i, 86–95.
—— *Epigraphische Denkmäler v. Arabien*, Wien, 1889.
—— *Südarabische Studien*, Wien, 1877.
—— *Die Mehri- und Soqotri-Sprache*, Wien, 1902.
Müller, A., *Der Islam im Morgen- und Abend-Land.*, vol. i, Berlin, 1885 (early portion deals with pre-Islamic Arabia).
Müller, W. M., *Asien und Europa nach Altägyptischen Denkmälern*, 1893.
Muqaddasî (tenth cent.), ed. de Goeje, *Descriptio Imperii Moslemici*, Leiden, 1906, trs. G. S. Ranking and R. F Azov, in *Bibl. Ind.*, Calcutta, 1897–1900.
Musil, A., *Arabia Petraea*, Wien, 1908.
Muss-Arnolt, *Concise Dict. of Assyrian Language*, Berlin, 1905.
Naville, E., " L'age de cuivre en Égypte," in *Rev. Arch.*, 1924.
—— *Deir el Bahari*, Lond., 1898 (cf. Griffith, F. Ll., above).
Niebuhr, C., *Description de l'Arabie*, Copenhagen, 1773.
—— Voyage en Arabie, Amsterdam, 1774–80.
Nilus in Migne, *PG.*, lxxxviii.
Nolde, E., *Reise nach Innerarabien*, Brunswick, 1895.
Nöldeke, Th., *Gesch. der Perser und Araber zur Zeit der Sassaniden*, 1879.
—— *Die Ghassânischen Fürsten*, Berlin, 1887.
—— *Delectus*, 1890.

BIBLIOGRAPHY

J. Soc. Or. Res. = *Journal of Society of Oriental Research.*

IBN JUBAYR (pilg. to Mecca in A.D. 1183–1185), ed. W. Wright, *Travels of Ibn J.*, Leiden, 1852.

KAMMERER, C., *Essai sur l'hist. antique de l'Abyssinie*, Paris, 1925.

KEANE, J. E., *Six Months in the Heejaz*, 1887 (some artless pictures of Arab life and ways).

KENNEDY, J., "Early Commerce of India with Babylonia," in *JRAS.*, 1898, 241–88.

IBN KHALDUN (circ. 1406), *al-Muqaddama* (Prolegomena to history), Bulaq, A.H. 1274 (vol. i).

KING, L. W., *Letters and Inscr. of Hammurabi*, 1898–1900.

—— *Chronicles concerning early Babylonian kings*, 1907.

—— *History of Sumer and Akkad*, 1910.

—— *History of Babylon*, 1915.

—— "Some new examples of Egyptian influence at Nineveh," in *JEA.*, 1914, 107–9, 237–240.

—— *Cuneiform Texts from Babylonian Tablets*, 1914.

—— and HALL, H. R., *Egypt and Western Asia in the light of Recent Discoveries*, 1907.

—— and THOMPSON, R. C., *Sculptures and inscr. of Darius the Great on the rock of Behistun*, Lond., 1907.

KNUDTZON-WEBER-EBELING, *Die el-Amarna Tafeln*, 1915.

KREMER, A. v., *Die Himjarische Kasideh*, Leipzig, 1865.

—— *Die Südarabische Saga*, Leipzig, 1866.

KONOW, S., *The Aryan Gods of the Mitani people*, Christiania, 1921.

KOSTER, A., *Schiffahrt und Handelsverkehr des östlichen Mittelmeeres*, Leipzig, 1924.

LABOURT, H., *Le Christianisme dans l'empire perse*, 1904.

LAMMENS, H., *Le Berceau d'Islam*, Rome, 1914.

—— *La Mecque à la veille de l'Héjeire*, Beyrouth, 1924.

—— "Les chrétiens à la Mecque à la veille de l'Héjeire," in *Bull. de l'Inst.*, Cairo, 1918.

—— *La cité arabe de Ṭaif*, 1922.

—— "Qoran et Tradition," in *Rech. de sci. rélig.*, 1910, 1.

LAND, *Anecdota Syriaca*, 1862.

LANDBERG, GRAF VON, *Arabica*, iv, v, Leiden, 1898.

—— *Études*, Leiden, 1909.

—— *Die Südarabische Expedition*, Munich, 1890.

LANGDON, S., *Sumerian Liturgical Texts*.

—— "Early Chronology of Sumer and Egypt," in *JEA.*, 1921, 133–53.

LEGRAIN, L., *Le temps des rois d'Ur*, 1912.

LEGRANGE, M. J., *Études sur les religions sémitiques*, 3rd ed., 1905.

LEPSIUS, *Denkmäler aus Aegypten und Aethiopen*, 12 vols., 1849–59.

LIDZBARSKI, M., *Handbuch der nordsemit. Epigraphik*, Weimar, 1898.

—— *Ephemeris*, Giessen, 1902.

LITTMANN, E., *Zur Entzifferung der Ṣafâ Inschriften*, Leipzig, 1901.

LUCAS, A., "Use of natron by the Ancient Egyptians in mummification," in *JEA.*, 1914, 119–23.

—— "Use of bitumen," in *JEA.*, 1914, 241–5.

LUCKENBILL, D. D., *Amulets of Sennacherib*, Chicago, 1924.

LUDOLF, H., *Historia Aethiopica*, Frankfurt, 1681.

MACALISTER, R. A. S., *The Philistines*, Lond., 1921.

MCCRINDLE, J. W., *Invasion of India by Alexander*, Westminster, 1896.

—— *Ancient India as described in classical lit.*, Westminster, 1901.

HALL, H. R., "Relations of Aegean with Egyptian Art," in *JEA.*, 1914, 110-18, 197-206.
—— *Ancient History of the Near East*, 5th ed., 1920.
—— *Egypt and the external world in the time of Akhenaton*, in 1921, 39 seqq.
AL-HAMDANI, *Ṣifâ Juzirat al-'Arab*, ed. D. B. Müller; *al-Hamdani's Geogr. der Arab. Halbinsel*, Leiden, 1884, 1891 (descr. of Arabia in pre-Muslim times).
—— *al-Iklîl*, ed. (parts), D. B. Müller in *SBWA.*, Wien, 1879, 385 seqq., and 1881, 955 seqq. (history of pre-Islamic Arabia).
HAMZA AL-ISFAHANI (fourteenth century), *Hamzae Ispahanensis Annalium lib.*, ed. J. M. P. Gottwaldt, Leipzig, 1844–88.
Handbook of Arabia, see *Admiralty Handbook*, etc.
HARPER, R. F., *Assyrian and Babylonian Letters*, 1892–1914.
HARRIS, W. B., *Journey through Yemen*, Lond., 1893.
HAUPT., P., "Proleg to a comparative Assyrian Grammar," in *J. Amer. Or. Soc.*, 1899, cclix–cclxx.
IBN HAWKAL, "Viae et Regna," in *Bibl. Geogr. Arab.*, Leiden, 1873, and Gibbs' Memorial Series, v, 1907.
HERODOTUS, ed. Dietsch (Teubner series, Leipzig).
HILL, G. F., *Catalogue of Greek Coins of Arabia*, Lond., 1922.
HILPRECHT, *Explorations in Bible Lands*, Philad., 1903.
HIRSCH, L., *Reisen in Südarabien*, Leiden, 1897.
HIRSCHFELD, H., "Essai sur l'hist. des Juifs de Médine," in *Rev. d'études Juives*, vii, 167, etc.; x, 10, etc.
—— *New Researches in the Qoran*, Lond., 1902.
IBN HISHÂM (d. 834), *K. Sîrati Rasûli-llâh* (earliest and most authoritative life of Muhammad extant). Ed. F. Wustenfeld, *Das Leben Muhammad's*, Gottingen, 1858–60. Egyptian ed. Bulaq, A.H. 1295. Trans. by G. Weil, Stuttgart, 1864.
HOFFMANN, G., *Auszüge am syrischen Akten pers. Märtyrer*, Leipzig, 1886.
HOGARTH, D. G., *Penetration of Arabia*, 1904.
—— *Ancient East*, 1914.
HOMMEL, F., *Grundriss der Geogr. u. Gesch. des alten Orients*, i, 1904; ii, 1926 (pages numbered continuously; the best collection of material relating to pre-Islamic Araba, but much coloured by Glaser's views, cf. p. 94).
—— *Südarabische Chrestomathie*, Munich, 1893.
HROZNY, *Die Sprache der Hittiter*, 1917 (for prehistoric intercourse between India and Western Asia).
HUART, C., *Histoire des Arabes*, 1911–12 (chaps. i–v).
HULTZSCH, Dr., in *JRAS.*, 1904, 399, etc. (on Greek farce containing South Indian words, but compare Barnett above).
J. As. = *Journal Asiatique*, Paris.
J. Am. O. S. = *Journal of American Oriental Society.*
JAHN, A., *Die Mehri-Sprache in Südarabien*, Wien, 1902.
JAUSSEN, H., *Les Arabes au pays de Moab*, 1908 (excellent study of Arab life and conditions).
—— et SAVIGNAC, *Mission archeologique en Arabie*, 1909.
—— *El-'Ela d'Hégra à Teima*, 1920 (dated 1914).
EL-IDRISI (d. 1154), P. A. Jaubert, *Géogr. d'Edrisi*, Paris, 1836–40.
J.E.A. (*JEA*) = *Journal of Egyptian Archaeology*, London.
JEAN, C. F., *Sumer et Akkad*, 1923.
JOSEPHUS, esp. *Antiquities* and *c. Apionem*, ed. S. A. Naber, Leipzig, 1888.
JOSHUA THE STYLITE, *Chronicle of*, ed. Wright, Camb., 1882.
JRAS. = *Journal of Royal Asiatic Society.*

BIBLIOGRAPHY

DINAWARI (d. 895), *K. al-Akhbār at-Tiwal*, ed. Guirgas.
DIODORUS SICULUS, ed. Dindorf (Teubner's series, Leipzig).
DOUGHERTY, R. P., "Nabonidus in Arabia," in *J. Amer. Or. Soc.*, 42, 305–16.
DOUGHTY, C. M., *Arabia Deserta*, Camb., 1888, reprint 1921.
DUMICHEN, J., *Hist. Inschr. altaegyptischer Denkmäler*, 1867–9.
—— *Altägyptische Tempelinschriften*, 1867.
—— *Flotte ein. Aeg. Königen*, Leipzig, 1868.
DUSSAUD, R., *Les arabes en Syrie avant l'Islam*, 1907.
DUVAL, R., *Histoire d'Édesse*, Paris, 1892.
—— *La litterature syriaque*, Paris, 1899.
ERATOSTHENES, in Strabo, and H. BERGER, *Die Geogr. Fragments des Eratosthenes*, 1880.
ERMAN, A., "Die Geschichte des Schiffbrückigen," in *Z. Aeg. Spr.*, 1906.
EVAGRIUS, in Bury's *Byzant. Texts*, Lond., 1898.
EUTING, J., *Epigraphische Denkmäler aus Arabien*, Wien, 1889.
—— *Sinaitische Inschriften*, 1891 (677 inscr.).
—— *Tagbuch einer Reise in Inner-Arabien*, Leiden, 1896 (N.W. Arabia).
AL-FAKIHI, in *Die Chron. der Stadt Mekka*, ed. Wüstenfeld, ii, 1859, q.v.
ABU L-FARAJ, see Bar Hebraeus.
ABU L-FIDA (d. 1331), *Abulfedae hist. anteislamica*, ed. (Lat. trs.) H. O. Fleischer, Leipzig, 1831. *Abulfedae annales muslemici*, ed. trs. J. J. Reiske, 1754. *Abulfeda, Geographie*, ed. M. Reinaud et MacGuckin de Slane, 1840.
FIRDAWSI (d. after 1010), *Shāh Nāmeh*, ed. J. A. Vullers, Leiden, 1877–84, trs. A. G. and E. Warner, Lond., 1905–15.
DE LA FUYE, A., *Documents présargoniques*, 1908–20.
GARDINER, A. H., "Notes on the tale of the shipwrecked sailor," in *Z. Aeg. Spr.*, 1908.
—— *Notes on the story of Sinuhe*, Paris, 1916.
—— "Ancient military road between Egypt and Palestine," in *JEA.*, 1920, 99–116.
—— and PEET, T. E., *Inscriptions of Sinai*, 1917.
GAUTHIER, H. *Livre des rois*, Cairo, 1907.
GLASER, E., "Zwei Inschr. über d. Dammbruck von Marib," in *MVG.*, 1897.
—— *Punt und die südarabischen Reiche*, Berlin, 1879. (*MDVG.*)
—— *Gesch. Arabiens von den altester Zeiten bis zu Muhammad*, Munich, 1880.
—— "Meine Reise durch Ashab u. Haschid," in Petermann's *Geogr. Mitt.*, 1884, 170, etc.
—— *Skizze der Gesch. Arabiens*, i, Munich, 1889.
—— *Skizze der Gesch. und Geogr. Arabiens*, ii, Berlin, 1890.
—— *Die Abessiner in Arabien und Afrika*, Munich, 1895.
DE GOEJE, J., "Hadhramaut," in *Rev. Coloniale Internat.*, 1886, 101–24.
GRIFFITH, F. LL., and NAVILLE, E., *City of Onias and Mound of the Jew*, Lond., 1890.
GRIMME, H., *Althebräische Inschr. von Sinai*, Munster, 1923.
GRÖHMANN, A., *Göttersymbole und Symboltiere auf Südarab. Denkmälern*, Wien, 1914.
—— *Die altorientalische Agrarwirtschaft*, Wien, 1918.
GROSSMANN-UNGNAD-RANKE, *Altorientalische Texte*, 1909, etc.
GUIDI, I., *Tables alphabetiques du Kitab al-Agani*, Leiden, 1895–1900 (essential for Western students of the Aghani).
HALEVY, J., "Rapport sur une mission archéol. dans le Yemen," in *J. As.*, 1872, 5–98, 129–266, 489–547 (N. from San'a, N.W. from Marib).
—— *Nouvel Essai sur les inscr. proto-Arabes*, 1903.
HALL, H. R., *Egypt and W. Asia in the light of recent discoveries*, 1907.

ARABIA BEFORE MUHAMMAD

BERGER, P., *L'Arabie avant Mahomet*, Paris, 1885.
BEVAN, E. R., *House of Seleucus*, 2 vols., 1902. (Especially opening chaps.)
BLACKMAN, A. M., " Significance of Incense and Libations," in *Z. Aeg. Spr.*, 50 (1912).
BLAU, O., " Arabien im sechsten Jahrhundert," in *ZDMG.*, xxii, 559–60.
BOISSIER, A., " Inscr. de Narâm-Sin," in *Rev. Assyr.*, xvi, 157–64.
BORCHARDT, L., *Grabdenkmal des Königs Sahure*, Leipzig, 1910.
BOREUX, C., *Études de nautique égyptienne* (1st fasc. only), Cairo, 1924.
BOTTA, P. E., *Rélation d'un voyage dans l'Yemen*, Paris, 1841.
BREASTED, J. H., *Ancient Records of Egypt*, 1906–7.
—— *History of the Anc. Egyptians*, 1908–20.
—— " Earliest boats on the Nile," in *JEA.*, 1917, 174–6.
—— *History of Egypt*, 2nd ed., 1924.
BRÜNNOW, U. VON DOMASZEWSKI, *Die Provincia Arabiens*, Strasb., 1904.
BUDGE, W., *Hist. of Egypt*, 1901.
—— *Hist. of the Egyptian People*, 1914.
—— and KING, L. W., *Annals of the Kings of Assyria*, 1902.
BUNBURY, E. H., *Hist. of Anc. Geography*, 2nd ed., Lond., 1883.
BURCKHARDT, J., *Travels in Arabia*, Lond., 1829 (still of much value).
BURNEY, C. F., *Book of Judges*, Lond., 1918 (esp. introduction).
BURTON, R., *Pilgrimage to Mecca and Medinah*, 2nd ed., 1857.
CAETANI, L., *Annali dell' Islam*, vol. i, 1905.
—— *Studi di storia orientale*, vol. i, 1911.
Cambridge Ancient History, i, 1923 ; ii, 1924 ; iii, iv, 1926.
Cambridge Hist. of India, vol. i, 1922.
CAPART, J., *Origines de la civilization égyptienne*, Brux., 1914.
CHABOT, J. B., " L'école de Nisibe," in *J. Soc. Asiat.*, 1896.
—— " Synodicon Orientale," in *Notices et éxtr. des manuscr.*, xxxvii.
CHEIKHO, L., *Le christianisme et la litterature chrétienne en Arabie*, Beyrut, 1919 (in Arabic).
" Chronicle of Edessa," in *CSCO.*, Paris, 1903.
CLARKE, S., " El-Kab and the Great Wall," in *JEA.*, 1921, 54–79.
CLEDAT, in *Bull. Inst. Égypt.*, xvi, 189, 201 (on routes through Sinai).
CODRINGTON, H. W., *Ceylon Coins and Currency*, 1925 (notes Roman coins found in Ceylon).
CONTENAU, J., *La civilization assyro-babylonienne*, 1922.
COOKE, A. B., *Text Book of North Semitic Inscriptions*, Oxford, 1903.
CIS. = *Corpus Inscript. Semit.*, cf. p. 88 above.
COSMAS INDICOPLEUSTES, ed. E. O. Winstedt, Camb., 1909, and in Migne *PG.*, vol. lxxxviii, 51–462 (cf. note on p. 111).
COUYAB, O., et MONTET, P., *Inscr. du Ouadi Hammamat*, Cairo, 1912.
C.S.C.O. = *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium*, Paris.
Cuneiform Texts from Babylonian Tablets in the Brit. Mus., 1896, etc.
CUNNINGHAM, A., *Coins of Ancient India*, Lond., 1891.
CUST, R. N., *Modern Languages of Africa*, 1883.
DALMAN, G., *Petra und seine Felsheiligtümer*, 1908.
DARMESTETER, J., *Zend Avesta*, Eng. trs. (introductory pp.), 1880–3.
DAVIES, R., *Buddhist India*, Lond., 1903.
DEFLERS, A., *Voyage au Yemen*, Paris, 1889.
DERENBOURG, H., " Nouveaux textes yéménites inédits," in *Rev. Assyr.*, v, 117–28.
DEVAUD, E., " Le conte du naufragé," in *Rec. Trav.*, 1919, 188 seqq.
AD-DIMASHQI (d. 1327), *Cosmographie de . . . ed-Dimichqui*, ed. A. F. Mehren, St. Petersb., 1866 ; trs. *Manuel de la cosmogr.*, Copenhagen, 1874.

BIBLIOGRAPHY AND ABBREVIATIONS

(Not all authorities cited in the notes are included here; but some of the earlier travellers are mentioned as their descriptions are well deserving of attention.)

Admiralty Handbook for Arabia, vol. i (no other pub. No date, but after the war and obviously before Capt. Philby's *In the Heart of Arabia*).

Ægyptus, periodical, pub. Milan, 1919, etc.

AGATHIAS, ed. Niebuhr, in *C. SS. Hist. Byz.*

Aghani, of Abu l-Faraj 'Ali b. al-Husayn al-Isfahani (d. A.D. 967). A collection of poems containing material illustrating the pre-Islamic history of the Arabs. But cf. Margoliouth (below), Ed. Bulaq, 20 vols., A.H. 1285; Cairo, 21 vols., 1905–6. Cf. Guidi, *Tables* (below).

AMIAUD, A., et SCHEIL, V., *Les inscr. de Salmaneser II*, 1890.

AMMIANUS MARCELLINUS, ed. Gardthausen, Leipzig.

Annales du Service, period. Cairo, 1899, etc.

ARNAUD, " Rélation d'un voyage à Mareb," in *J. Asiat.*, 1845, 211 seqq., 309 seqq., and in *J. Asiat.*, 1874, 3 seqq.

ARRIAN, ed. C. Müller, Paris, 1846.

ASSEMAN, *Bibl. Orientalis Clementino-Vat.*, Rome, 1719–28. (Most important collection of Syriac material.)

IBN AL-ATHIR (d. A.D. 1234), *Kitâb al-kâmil fi-t-ta'rîkh*, ed. as *Ibn el-Athiri Chronicon*, C. J. Tornberg, Leiden, 1851–76. (Books vi–viii deal with history of border Arabs.)

AUTRAN, *Phéniciens, essai de contrib. à l'hist. ant. de la Méditer.*, 1920.

AL-AZRAKI (d. A.D. 858), History of Mecca, in vol. i of Wüstenfeld's *Die Chron. der Stadt Mekka* (q.v.).

BAEDEKER, C., *Syria and Palestine*, 5th ed., 1912.

AL-BAIRUNI (d. 1048), *Athär al-Bägiya. Chron. of Ancient Nations*, ed. Sachau, Lond., 1879.

BARHEBRAEUS, *Cron. Eccles.*, ed. J. B. Abbeloos et T. J. Lamy, Louvain, 1872–7. (Hist. of Syriac Church.) *Historia Orientalis auct. Gregorio Abul-Pharagio*, ed. E. Pococke, Oxon, 1663.

BARTON, G. A., *Sketch of Semitic Origins*, N.Y., 1902.

AL-BALADHURI (d. 892), *K. futûh al-buldân*; *Liber expugnationis regionum*, ed. M. J. de Goeje, Leiden, 1870.

BARNETT, L. D., in *JEA.* (1926), 13–15. (Notes weak points in Dr. Hultzsch's theory that the foreign language in Greek farce published in 1903 is Kanarese.)

IBN BATUTA (d. 1325), *T. tuhfat an-nuzzâr*, ed. trs. Defrémery et Sanguinetti, 4 vols. Paris, 1853–8 (2nd ed. 1869–79) (5 vols., 1893–1922). S. Lee, *The travels of Ibn Batuta*, trs. with notes, Lond., 1829.

BEDJAN, P., *Acta Martyrum et Sanctorum*, Leipzig, 1890–5. (Syriac acts and martyrdoms.)

BELL, R., *Origin of Islam*, Lond., 1926.

BENT, T., and Mrs., *South Arabia*, Lond., 1900. " Exped. to the Hadramaut," in *Proc. R. Geogr. Soc.* (1895), 316, etc.

BERGER, P., *Hist. de l'Écriture*, Paris, 1891.

concerned the Arabic writers hardly help us at all, and it is only from the scattered material in Egyptian, Akkadian, Greek, and Latin records, and extant antiquities, that we can derive any material for the reconstruction of such history. Islam became cosmopolitan at a very early stage and neither the Arabs settled in Syria, 'Iraq, Egypt, Persia, or North Africa, nor the native converts of those parts, retained any record or tradition of the days of ignorance before the Hijra, whilst the Arabs of Arabia itself seem to have been quite indifferent to history. The traditions of Islam, the South Arabian Saga, and the diwans of early poetry all took shape in the early 'Abbasid period, and though undoubtedly based on some traditional knowledge, were compiled by those who were influenced by very strongly marked political, racial, and religious prejudices, so that the extant material in each case shows a definite "tendency" for which allowance must be made and which renders the checks obtained from independent external authorities of extreme importance. As a rule European writers, dealing with pre-Islamic history, have been led by the Arabic authorities to suppose that early Arabia had its own history in a secluded area which was entirely segregated from the rest of the world, and this has led to an inaccurate picture and to mistaken conclusions. By utilizing external sources we discover that Arabia in pre-Islamic times was not so self-centred nor so self-contained, indeed to a great measure its later segregation seems largely due to the influence of Islam in 'Abbasid and subsequent times, and that consequently the religion of Islam was not evolved amongst remote tribes with only very slight contact with the outside world, but in the midst of the general tide of West Asiatic civilization. Nor was the Arabic language a dialect preserved in its pristine purity by the remoteness of the tribes which used it, but must have been to some considerable extent affected by numerous contacts, whilst preserving in its basis traces of an older culture-spread which extended from the Tigris to East Africa.

He ends his book with his opinion on the prophet's mission, confirming that Arabia was not secluded from the cultural influence and social life of its neighbours.

Many lives of Muhammad are in circulation amongst Muslims, but these are essentially works intended for edification and make no claim to any critical character. The life of the Prophet forms no part of Muslim theological study and is left entirely to those who wrote simply for the purpose of quickening devotion. It might be argued that this shows a true instinct as it lays emphasis upon the Prophet's message rather than upon his person. But Islam suffers from this neglect as the tendency is now to explain a religion by tracing and criticizing its historical evolution and in Islam the material available for this purpose is of somewhat inferior character and hardly worthy of the high standard attained by the work done in speculative theology and philosophy. In no sense can a critical survey of the records of the Prophet's life be regarded as an attack upon the religion of Islam as the biographical details do not form part of the Muslim creed but merely relate the circumstances in which that creed took form.

It is obvious that the *Sîra*, whether in the redaction of Ibn Hishâm or in the citations made by at-Tabari or other historians cannot be regarded as reliable for any of the events prior to the Hijra. The life of Muhammad subsequent to the migration to Medina is within the sphere of authentic history and must be so treated, and his teaching, as well in the earlier Mecca *Suras* as in the later Medina ones, must be accepted as an accurate presentation of what he actually did teach, but all Arabic material dealing with the history of Arabia before the year 622 must be accepted with great caution. In so far as it deals with the history of the kingdom of Himyar it seems to be correct in general outline, though inaccurate in chronology, and needs to be checked and corrected by independent external evidence, the references of Greek and Roman writers, the references in Syriac and Abyssinian historical and hagiographical records, and the monuments, inscriptions, and other antiquities found in South Arabia. So far as pre-Himyaritic history is

Dr. O'leary tries to show that culture was introduced to Arabia by three certain chief ways. He ends each chapter by concluding that this or that arranged the ground for Islam.

The chief ways in which culture percolated into Arabia were (i) by the formation of colonies or outposts to cultivate the soil or to exploit mines, (ii) by the opening up of regular trade routes across the desert and the formation of alliances with the Arabs through whose territory they passed and who, in return for subsidies or blackmail, abstained from interference with the caravans and kept off other Arab raiders, and (iii) by the formation of marts and settlements of Arabs along the frontier so that the culture learned there filtered back into the desert tribes. These were the chief means by which external influences were brought to bear upon the Arabs, and it will be our task in the following pages to set forth the evidence for such colonies, trade routes, and border settlements. The evidence is to be found partly in the historical records of those nations which invaded Arabia, partly in inscriptions and objects found in Arabia, partly in social and religious customs presumably derived from external sources, and partly in language. The evidence of physical anthropology is of little service in this connexion, though it shows us that the Arab community was not homogeneous: but racial types, a matter of natural history, does not necessarily assist us in tracing culture drift.

The theory of the segregation of Arabia can be admitted only in a very modified form; the elements there were common to it and the lands outside and differed mainly in their economic and social setting. Yet the segregation must be admitted as real within certain limits, not due to any geographical barrier but to the economic distinction between the nomad and the settled agriculturalist.

A comment on this good work appeared in "Muslem World" Volume 18, 1928. By the editor Rev. S. M. ZWEMER

Arabia Before Muhammad. By De Lacy O'Leary, D.D., Kegan Paul, Trübner & Co., London, 1927. pp. 234. 10/6 net.

We have had reviews of two earlier works by the same author in our Quarterly, and our readers will remember the criticisms then made of the character of his work. Dr. O'Leary is an Arabic scholar, and therefore one expects the best on a theme in which there was no convenient handbook in the English language. The sources available for a thorough treatment of the subject are many, and some of them recent. Archæology and philology together with increased knowledge of the geography of the Peninsula contribute to make the subject of special interest to the student of Islam and its origins. The excellent and very full bibliography indicates wide reading and discriminating judgment; over three hundred works are cited in the text. The twelve short chapters tell of the geography of Arabia, its early contacts with Egypt, Mesopotamia and India; of the kingdoms of South Arabia, Christian and Jewish penetration; of Mecca as a commercial centre and pre-Islamic religion among the Arabs of the Hejaz. There is a brief closing chapter on the sources for the life of Mohammed. These last two chapters, however, are the least satisfactory. The treatment is too brief and disconnected. The conclusion is sustained by the evidence given, and is thus expressed:

> "Arabia in pre-Islamic times was not so self-centered nor so self-contained, indeed to a great measure its later segregation seems largely due to the influence of Islam in Abbasid and subsequent times, and that consequently the religion of Islam was not evolved amongst remote tribes with only very slight contact with the outside world, but in the midst of the general tide of West Asiatic civilization. Nor was the Arabic language a dialect preserved in its pristine purity by the remoteness of the tribes which used it, but must have been to some considerable extent affected by numerous contacts, whilst preserving in its basis traces of an older culture-spread which extended from the Tigris to East Africa."

The three maps are a disappointment; the scant material might better have been given in the shape of one good map of *ancient* Arabia. There are some strange errors in the text, some of which we trust are to be laid to the printer: pp. 196 *Watham* for *Wathan;* p. 198, *Al-liah* "the one worshipped" (sic); p. 199 *"Saa"* the ceremony of running between Safa and Marawa; p. 201 that the stoning of the devil at Mecca is the origin of *Shaitan-ar-rajim.* On page 214 we read, "The life of the Prophet forms no part of Moslem theological study, and is left entirely to those who wrote simply for the purpose of quickening devotion. It might be argued that this shows a true instinct, as it lays emphasis upon the Prophet's message rather than upon his person." No one acquainted with the place and the power of *Sunnat-an-nabi,* as recorded in the Hadith, on Islam for thirteen centuries would express such a carelessly worded judgment. **Z.**

FOREWORD

THE main purpose of the following pages is to show that Arabia, before the coming of Islam, was not a country secluded from the cultural influences of Western Asia, nor was it entirely cut off from contact with the political and social life of its neighbours in the Near East. The result of the ancient penetration of Arabia and the intercourse of the Arabs with their neighbours was that the religion of Islam, so far from taking its rise amongst secluded desert tribes, was a natural stage of development in the religious life of West Asia; and the Arabic language, though spared some of the alien influences brought to bear upon certain other of the Semitic dialects, was very considerably affected by foreign intercourse, even in the earliest stage of which we have written records.

DE LACY O'LEARY.